اللهجات العربية في التراث

القسم الأول

في النظامين: الصوتي والصرفي

تأليف
الدكتور أحمد علم الدين الجندي

الدار العربية للكتاب

طبعة جديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

« ومنْ آياتِه خَلْقُ السّمٰوات والأَرضِ واختلافُ ألسِنَتِكُم »

القرآن الكريم

سورة الروم : من آية : ٢٢

* * *

« إنّ معجم العربية اللّغوي لا يُجَاريه معجم في ثرائه . إنه نهر تقوم على إرْفَادِه منابعُ اللّهجات التي تنطق بها القبائل العربية » .

كارل بروكلمان

ذكرى

إليـه ...

حين كنت أسمعه يتلو كتاب الله ، فملك عليّ روحي ووجداني

ـــ إلى والدي ـــ رحمه الله ...

ابنـــك

علم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الموضوع — أهدافه — دوافعه — منهج البحث فيه — مصادره

●

موضوع هذا البحث « اللهجات العربية في التراث » ودراسة اللهجات مبحث جديد من مباحث علم اللغة العام ، وهي الخطوة الأولى التي تسبق غيرها ، إذ إن دراسة لغة دراسة تاريخية لا يتم إلا بعد الانتهاء من بحث لهجاتها ، ومع هذا لم تحظ بعناية الدارسين ؛ لجفافها الذي يكد الذهن ، ويجهد العقل ، لما لها من صلة بالتراث العربي القديم — وحتى في هذا التراث العربي ، لم يكن الحديث فيه عن اللهجات مقصوداً لذاته ، وإنما كان وسيلة يلتمس لغيره من الغايات ، وكان مع شحوبه — يستخفي في هامش الدراسة لا في مركزها ؛ ولهذا كان من الأسباب التي دفعتني الى اختيار تلك المشكلة — أن أرضها لا زالت بكراً لم تجهد بعد، وروضها ما برح غفلا لم تشذبه تواليف العلماء ، وأقلام الدارسين ، مع أن جزءاً كبيراً من رصيدنا اللغوي ، وقدراً وافراً من ميراث أمتنا يكمن وراء دراسة لهجات القبائل العربية لما لها من إتصال وثيق بعلوم القرآن وقراءاته ، وبلهجاتنا الحديثة في جميع البلاد العربية . ومن الأسباب أيضاً ما كان من انصراف الباحثين الى الدراسات الأدبية والتاريخية والاجتماعية و « جهودهم مشكورة » — غير محتفلين بالدراسات اللهجية واللغوية لما تحتاجه من أعباء وجلد ، وجميع هذا أصاب المكتبة العربية في الصميم حيث خلت من أمثال تلك الدراسات أو كادت — على أن ما ظهر منها وما بطن لا يكفي في الكشف عن غوامضها أو يقنع في الإحاطة بها .

من أجل ذلك ، استجبت لصيحة — أشفقت على نفسي منها — صاح بها باحثان من علماء العربية المحدثين[1] ، وبعد مراودة مع النفس ، واستعانة بالأناة والصبر ، وعدة من القوة والجلد ، والمعاناة والنظر . سرت في الطريق لأضع لبنة في هذا الصرح الشامخ .

(١) أولهما : الاستاذ حفني ناصف : في بحث قدمه الى مؤتمر العلوم المشرقية بمدينة « فينا » في أوائل المحرم ١٣٠٤ هـ — ١٨٨٦ م . وسماه «مميزات لغات العرب» وهي دراسة تقليدية خالية من تحقيق النصوص ومقابلاتها =

= وتمحيصها، وموازنة الآراء والمذاهب والتحليل والنقد، كما أنه يستخف برد الروايات الى مصادرها ومظانها، فأهمل المصادر الأصلية إهمالاً تاماً في هامش الكتاب ، ومع صغر حجمه إلا أنه يعتبر أول باكورة أطلت على الحقل اللهجي. والمنهج الذي سار عليه حفني ناصف يشبه المنهج الذي سار عليه القراء لبيان أصول اختلاف القراءات (انظر وجوه اختلاف القراءات في : مقدمة كتاب المباني : ٢١٥ وما بعدها ، والنشر لابن الجزري : ٢٧/١ . وقارنه بما ورد في الكلمات الحسان : ٥٣) ولعل الذي دفع حفني ناصف الى ترسم خطا القراء في منهجهم في صدر كتيبه أن العلاقة وثيقة بين القراءات واللهجات من جهة ومن جهة أخرى ان حفنياً كان قارئاً ، يؤكد هذا أنه كان عضواً في اللجنة التي قامت برسم المصحف وضبطه ، ولهذا رأى منهج القراء في أصول اختلاف القراءات صالحاً لدرس لهجات القبائل على أساسه ونظامه . ولي آراء وتعليقات خالفت فيها المؤلف تظهر تباعاً في أثناء الدراسة .

وثانيهما : « في اللهجات العربية » للدكتور ابراهيم أنيس ، وهي دراسة منهجية مبنية على خطة نقدية محضة تمتاز بملاحظات هامة ، ومبادىء عامة أساسية قائمة على الدرس اللغوي الحديث ، في منهج خـــلاق ينتقل من وصف الحقائق الى فرض القواعد ، وتعتبر بحق من أنصع الدراسات اللهجية التي ظهرت ، كما انتفعت بآراء المؤلف واتجاهاته الحديثة . وقد اعتمد المؤلف في المادة اللهجية على كتاب حفني ناصف ومعجمي اللسان والمخصص بعد عرض ما فيهما عرضاً علمياً . (في اللهجات العربية : المقدمة) كما عالج المؤلف فيها لهجة القاهرة الحديثة (في اللهجات العربية : ٢٠٤ وما بعدها) .

هذا : ويعتبر كتيب حفني ناصف السابق أصلاً ، وجميع البحوث التي ظهرت بعده اقتفت أثره ومنها :

١ ــ (اللغات واللثغات) مقال كتبه الأب الكرملي في مجلة « المشرق » السنة ٦ عدد ١٢ - ١٣ سنة ١٩٠٢ وهو لا يتحدث عن لهجات القبائل ، وإنما يورد تعريفات لعدة مصطلحات لهجية كالتلتلة ... في قوالب تقليدية .

٢ ــ محاضرة في « علاقة التاريخ باللهجات العربية » وهي محاضرة تلاها بالفرنسية الأمير شكيب ارسلان في مؤتمر المستشرقين المنعقد في «ليدن» في أوائل سبتمبر ١٩٣١ م، ويتركز حديثها في تناول بعض اللهجات الحديثة .

٣ ــ (القراءات واللهجات) للاستاذ المرحوم عبد الوهاب حمودة ــ وهي دراسة ليست خالصة للهجات ، وإنمـــا جزؤها الأكبر يثير حديثاً عن القراء وتاريخهم ورواتهم . وحديثه عن اللهجات لا يخرج عن كونه روايات سردية تقليدية لا أثر فيها للموازنات أو الدرس اللغوي القائم على عمق الفهم والتقصي والتحليل .

٤ ــ هذا وقد عرض بعض المحدثين الى إشارات عن اللهجات أثناء تواليفهم في الأدب واللغة، ولكن هذه الإشارات لا تعدو أن تكون ترديداً لبعض النصوص التقليدية الشائعة في كتب العربية دون بحثها أو دراستها أو نقدها وأغلب هذه التآليف تشير الى تلك الروايات في الهامش مع التمثيل لها بأمثلة مصنوعة (الوسيط في الأدب العربي وتاريخه : ١٤ ط ٧) ، كما أن بعضها يجانبه الصواب في نقل هذه اللهجات ، وبعضها الآخر كان يتحاشى الخوض في هذه اللهجات العربية، فالدكتور جواد علي تحدث عن (العرب ولغاتهم) « تاريخ العرب: ٢١٣/١ جواد علي » ولم يتكلم عن هذه اللهجات . كما ذكر أيضاً انـــه قد خصص كتابه للغات الجاهليين قواعدها من صرف ونحو ، وفي تطور تلك اللغات وفروقها ومطابقاتها وبعدها أو قربها من لهجـــة القرآن الكريم (تاريخ العرب : جـ ٧ المقدمة) ، وكنت أظن أنه سيثير بحثاً حول هذه اللهجات ، ولكنه ذكر في نهاية كتابه أنه لا يستطيع أن يدرس لهجات القبائل « لأن هذه اللهجات لم تقدم إلينا نصاً مكتوباً » « تاريخ العرب : ٣٤٨/٧ » ولم يشر الى لهجات القبائل موضوع بحثنا إلا إشارة خافتة لا تعدو ستة أسطر عن لهجتي طيء وفزارة (تاريخ العرب: ٣٤٨/٧) ويبدو ان الذي جعله يتخلى عن دراسة لهجات القبائل العربية أنه =

وقد انتهجت في دراسة الموضوع منهجاً علمياً محدداً قام على جمع المادة اللهجية من مصادرها ومظانها – ثم تلته الملاحظة وتمحيص النصوص وتوثيقها وعرض المادة وتحليلها ثم استقراؤها ، مقارناً مسلك اللهجات بمسلك الفصحى لاسيما بيان ما تخالف منها ومـــا تشابه ، والإفاضة في الأسباب التاريخية والجغرافية والاجتماعية لهذا التشابه أو التخالف ، مع العناية بجمع المشكلات المتشابهة وإحاطتها بإطار من الوحدة والتنظيم ، أدى الى إماطة اللثام عن أسرار اللهجـــات وطرق سيرها في مدارها قمماً ووهاداً ، وتهائم وأنجاداً ، وهذا قادنا الى استنباط الخطوط العامة والتي آثرت السير فيها .

ومما يلاحظ في هذا البحث بصفة خاصة أن أركانه قـــد دعمت على كثرة من النصوص الأصيلة ، تكتنفه من بين يديه ومن خلفه ، وتهيمن عليه الى أن قادته الى نهايته ، في غير تسلط ولا تحكم ، فقد نبذت التعصب الذي يغلف القلوب فلا تعي ، ويصم الآذان فلا تسمع ، ويعمي البصائر ويعصب الأنظار .

= لا يعترف إلا بالرجوع الى الكتابات المدونة عن لهجات هذه القبائل ، ولم تكشف الأيام بعد عن هـــذه الكتابات ، ولهذا يدعو الى البحث في جبال الحجاز وكهوفها علّه يعثر على كتابات جاهلية أو كتابات تعود الى أيام الرسول (تاريخ العرب : ٧/١ ٣٤) ولعلنا إذا نقبنا في المصادر العربية ، والمخطوطات المكدسة في مكتبات العالم ودرسناها لاستخراج لهجات القبائل العربية – وجدنا هذه الدعوة وهذا المنهج أقرب من دعوة الدكتور جواد تلك التي يرى فيها جمع لهجات القبائل من الحفريات في الجزيرة العربية .

٥ – كما ظهرت بحوث للمستشرقين في هذا الميدان أذكر منهم : Landberg Noldeke, Kampffmeyer, Blau, Freytag, Rabin, Littmann, Vollers. والمستشرقون في حديثهم عن اللهجـــات مشكورون ، إلا ان دراسة بعضهم في اللهجات كانت دراسة تقليدية سردية لا أثر فيها للنقد والدرس ، ويمثل هؤلاء Freytag في كتابه : Einlciturg in Das Studium Der Arabischen Sprache. Bonn. 1861.

ونفر منهم أهمل في دراسته اللهجية الجانب الجغرافي ، فكانت لهجات القبائل عنده جامدة راكدة ، لأنه عزلها عن أوطانها التي فيها أقامت ، ومنها ظعنت ورائد هؤلاء (Koller) في بحوثه التي ظهرت سنة ١٩٤٠ .

كما ان بعضها كان يحمـــل خطلاً في الرأي ، وانحرافاً في التفكير ويمثـــل هؤلاء Vollers في كتابه : Volkssprache und Schriftsprache im Alten Arabien. « Strassburg 1906 » .

كما ان دراسة Rabin في كتابه : Ancient West Arabian. London: 1951. وإن كانت قيمة تنم عن صبر وروية إلا أنها لم تشمل ميدان القرآن وقراءاته بدليل تصريحه في كتابه السابق بأنه لم يعثر على كتاب البحر المحيط ليفحصه « في إضافات الكتاب : Rabin 211 » . وكتاب أبي حيان كما رأيناه معلمـــة كبرى في القراءات . وأرى ان لهجات القبائل يجب أن تبحث على أرض القرآن وقراءاته أولاً . وكانت السمة الغالبة لدراسة المستشرقين أنهم لم يتجهوا نحو الملاحظات الكلية والمبادىء الأساسية لظواهر اللهجات ، على أن مجهودهم الأكبر كان يتركز في الاهتمام باللهجات الحديثة .

واقتضى المنهج أن تكون الدراسة في خمسة أبواب يسبقها تمهيد وتتلوها خاتمة ، مع وجود فهرس ليكون بمثابة تلخيص أمين لمحتويات الرسالة ، وجريدة مفصلة بأسماء المصادر والمراجع التي أعانتني على هذا البحث .

ففي التمهيد تحدثت عن : جغرافية بلاد العرب ، وتنقلات القبائل العربية ومدى الاعتماد في دراسة اللهجات العربية على أماكن القبائل .

وأما الباب الأول فقد خصصته لجغرافية اللهجات ، ثم بحثت جوانبه في فصلين :

في الفصل الأول : درست رأي المستشرقين وعلماء العربية في تقسيم اللهجات الى الحجازيه والتميمية .

وفي الثاني : منهج وتطبيق ، ويشمل اقتراحين لدراسة اللهجات ، ثم تطبيق لدراسة لهجية تقارنية في ضوء هذا المنهج .

وبعد الباب الأول يجيء الباب الثاني ليعرض : مصادر اللهجات ، وينتظم هذا الباب ثلاثة فصول : الأول منها : القرآن الكريم وقراءاته ، والثاني : كلام العرب . والثالث : التراث اللهجي ، ويشمل : تصنيف هذا التراث ، ويعرض تسجيلاً أميناً لمن ألف في لغات القبائل في القرآن ، ومن ألف تحت اسم كتب اللغات ، وكتب نوادر اللغات ، ثم يتلو ذلك دراسات إحصائية تسجل عدد ورود لهجات القبائل في المصنفات العربية ، والتي تشمل كتب النحو ، واللغة ، والقراءات . وكتب الأدب العامة ، وشروح الأشعار . ثم تتلوها إحصائية تسجل أسماء الرواة الذين كانوا مصدراً لرواية اللهجات العربية المعزوة . ثم عقبت على ذلك بملاحظات ونقد شملت اللوحات الإحصائية السابقة .

كما شمل الفصل الثالث أيضاً نظرة علماء العربية الى اللهجات من خلال مؤلفاتهم ، وانتظم :

أولاً : نظرة البصريين والكوفيين الى اللهجات .

ثانياً : مدى ظهور لهجات القبائل في مؤلفات البغداديين .

ثالثاً : نظرة علماء العربية الى اللهجات في الغرب الإسلامي .

رابعاً : عصر النحاة المتأخرين .

مع دعم هذه الخطوات بلغة الأرقام والإحصاء .

ثم خصصت الأبواب الباقية لدراسة لهجات القبائل على المستويات الآتية :

الباب الثالث : وفيه درست المستوى الصوتي ، ثم بحثت جوانبه المتعددة في خمسة فصول :

في الفصل الأول : درست حركية الكلمة وتحولها الداخلي ، ثم ثنيت بدراسة عن المماثلة في الحركات ، وشمل الفصل الثاني : ظاهرة التقريب في الأصوات حيث درست في ضوئها ظاهرتي الامالة والادغام ، ثم جاء الفصل الثالث متناولاً ظاهرة الهمز ، وفي الفصل الرابع دراسة عن اتساع مدرج اللهجات العربية في إبدال الحروف ، ثم أنهيت ذلك بالفصل الخامس متناولاً ظاهرة الوقف .

ثم عقدت الباب الرابع للمستوى الصرفي: وفي الفصل الأول منه تناولت التصحيح والإعلال، وفي الفصل الثاني : المقصور والممدود ، وفي الفصل الثالث درست الأفعال متناولاً أنماطها وأنواعها . كما عقدت الفصل الرابع للحديث عن المشتقات، وبذلك كونت هذه الفصول الأربعة الباب الرابع من الرسالة .

وعرضت في الباب الخامس للظواهر العامة في لهجات القبائل .

وقد درست في الفصل الأول من هذا الباب ظاهرة فعل وأفعل ، وفي الثاني التذكير والتأنيث ، وفي الثالث : ظاهرة القلب ، وفي الرابع التخفيف والتشديد كما تناولت في الفصل الخامس : مطل الحركات والحروف وانتقاصها في لهجات القبائل ، وبذلك كونت هذه الفصول الخمسة الباب الخامس من الرسالة .

هذا ، وقد كان البحث أميناً في عرض الروايات المتخالفة ، كما كان إيجابياً حين ضعّف بعض هذه الروايات التي أثار حولها الشبه والانتقاص ، كما قوى بعضها الآخر اعتماداً على اختبارها للتحقق من صدقها وسلامتها .

وقد عالج البحث نصوص الظاهرة الواحدة على مستويات عدة ليستشف من ذلك القضايا الهامة ، مانحاً فضل بيان لمنهجها والأحكام التي صدرت عليها ، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر (قضية الانعزال الجغرافي وأثرها في ظاهرة التذكير والتأنيث) وقد كان نظام العمل على هذا الصعيد الواسع دراسة الواقع اللغوي كما هو – لا كما ينبغي أن يكون مع الاستعانة أحياناً بالمنهج التاريخي المقارن لنصل من ذلك الى توسيع قاعدة اللهجات وتوضيح أبعادها والفصل بين حدودها التي كانت محكّ عراك بين الضرورات واللهجات .

هذا ، ولما كانت دراسة لهجات القبائل تشمل آفاقاً واسعة ، ويحتاج كل أفق منها دراسة واسعة عميقة ، لم يكن في طاقة الفرد مهما أوتي من استعدادات أن يدرس اللهجات على جميع

المستويات ، لذا آثرت — كما ظهر في المنهـــج السابق — دراستها على المستويات : الصوتية ، والصرفية ، مع دراسة بعض الظواهر العامة لهذه اللهجات ، وتركت ما وراء ذلك للمستقبل ، إن شاء الله ، لاسيما أن بعض المستويات فيهـا « كالمستوى الدلالي : السيمانتيك » يراعي ظروف الموقف الكلامي الحي وملابساته ، وما يرتبط بذلك من أحوال المتكلمين والسامعين كالحركات الجسمية والإشارات ، والغمز والابتسام ، ومن الصعب الوقوف على مثل هذا ، لأن اللهجات التي نقوم بدراستها انقطع دورانها على الألسن .

أما مصادر البحث : فقد حتمت علي دراسة اللهجات أن أقرأها من أولها الى آخرها قراءة دقيقة فاحصة ، وكثيراً ما كنت أخرج من الكتاب الضخم بكلمة أو كلمتين إذ اللهجات ليس لها كتاب مسطور ، وإنما هي نتفٌ وأمشاجٌ في ثنايا كتبهم ، وتصانيف رسائلهم ، لهذا جردت ما وقعت عليه يدي من الكتب مخطوطها ومصورها ومطبوعها جرداً تامـــاً ، كما قمت بعمل لوحات إحصائية بينت فيها عدد ورود لهجات القبائل ، وعدد الرواة الذين روى عنهم لهجات معزوة الى قبائلها ، وقد شملت هذه الاحصائات عدداً من المصادر تمثل الاتجاهات المختلفة من علوم العربية : كالقراءات والمعاجم ، والنحو ، وشروح الأشعار ، والأدب العامة ، وكان لها أثر واضح حيث قادتني الى أدلة يقتنع بصوابها ، وكشفت لي المعالم حتى لا أعتسف الطريق ، أو أسير فيه على غير هدى .

وفي سبيل إخراج الموضوع على هذه الصورة اعترضتني صعاب جمة .

١ — منها ما يتصل بجمع اللهجات من مصادرها ، وهذا الجمع وحده يجب أن يكون من عمل هيئة لا فرد واحد ، لأنها تكمن في كتب لا رباط يجمعها ، ولا وحدة تلم شعثها ، وإنما هي مطمورة ذهب بها تقادم العهد حتى ان التدوين أهملها ولم يسجل إلا نتفـــاً يسيرةً منها في كتب عتيقة لا تعرف نظام الفهرسة أو التنظيم .

٢ — كما أن الكلمات التي جاءتنا عن العرب لاسيما ما يتعلق بمعاني الكلمات أو دلالتها إنما هي كلمات مفردة منعزلة عن السياق الذي يوضحها، فعندما سمع الأزهري رجلاً من بني كلاب يقول لآخر « قد مككت روحي »[1] فإننا لا نستطيع تفسير هذه اللهجة إلا إذا عرفنا الحـالة التي بين المتكلم والسامع . فإذا عرفنا أن قائلها يخاطب بها رجلاً عنّته — عرفنـا معناها لاسيما إذا عرفنا أن تمكك على الغريم — ألحّ عليه في اقتضاء الدين . وقد ترتب على غموض الظرف اللغوي

(١) اللسان : ١٢/٣٨٠ – ٣٨١ .

أو الظروف التي مهدت الكلام ، وحتمت أن يكون على نمط خاص اضطراب المعنى بين يدي الرواة ، وعدم تحديده ، فمن ذلك ما جاء في اللسان « الحُدُلقة : العين . وقال الأصمعي : هو شيء من جسد الشاة ، وعن ابن برى عن الأصمعي أن الحدلقة : الغلصمة[1] . فالكلمة الواحدة أصابها هذا الغموض نظراً لفقدان الحالة التي قيلت فيها وهي نطق الكلام ، وما يقدمه هـــذا النطق من مساعدات — حتى سمعنا الأصمعي يفسرها بأنها : أي شيء من جسد الشاة ! ولا شك أن معرفة « الجو » الذي قيلت فيه اللهجة يساعد على فهمها ودراستها ، ولهذا اضطررت أن أستعين بالمعلومات التاريخية والجغرافية والنفسية لأتعرف على المجتمع صاحب هذه اللهجة .

٣ — كما أنني لم أستطع أخذ (عينات حية) منطوقة تمثل الواقع اللهجي ، ولم يكن بد من أنني ركنت الى الروايات في المصادر المخطوطة والمكتوبة وهي صامتة مشوشة يحيط بها الغموض ويعوزها كثير من التمحيص والبصر العلمي ، لأستشف منها تلك العينات ، فهي الى حـد تمثل واقعاً لهجياً ، وإنما كان ذلك لأن هذه المصادر ما كانت لتهتم باللهجة في جوها الاجتماعي ، بل كانت تسجلها وتنظر إليها في موقف دراسي بحت ، وخير طريق لدراسة اللهجات أن تدرس متصلة بالانسان لا أن تدرس عن طريق الكتب ، لأن الكتابة العربية لا تمثل اللهجات ، وإنما هي اصطلاح فقط ، بدليل أنها لم تنقل اللهجات كما كان ينطقها أهلهـــا ، لأن الكتابة جامدة هامدة أو محنط ثابت — واللهجة كائن حي متطور ولهذا كثيراً ما يقع سوء الفهم واللبس في اللهجات على عاتق الكتابة ، يؤيد ذلك ما استشهد به ابن بشّار الانباري من قول الشاعر :

عافَتِ الشّرب في الشّتاء فقلْنا   بَرّديه تصاد فيـه سَخينا[2]

إذ رأى أن (برّد) تـــدل على المعنى المعروف في الفصحى ، كما تشير الى معنى آخر بمعنى (سخن) وهي في الشاهد بهذا المعنى الأخير ، فتكون على هذا من الأضداد . والحق أن الكلمة ليس لها إلا معنى واحد بعيد عن المعنيين السابقين وهو الورود بمعنى الاقبال عليه ، وكان يجب أن تكتب : بلْ رديه ، ولكن كتابتها : برديه — جعلت بعض الرواة يتعسف ويحملهـــا على التضاد — والمسئول عن ذلك كتابتنا تلك التي تتسكع منزوية في مؤخرة الزمن وأزقة التاريخ بينما اللغة تهرول عجلة مسرعة في طريق التطور والصعود ، زد على ذلك أن الكتابة العربية لم تسجل الأصوات تسجيلاً دقيقاً ، فلم تسجل الحروف الصوتية القصيرة وتركت بذلـك مجالات

---

(١) اللسان : ١١/٣٢٣ .

(٢) أضداد ابن الانباري : ٥٢ .

للتخمين ، كرسل ، وعمر – هل هما بسكون السين والميم أو بضمها ؟ ومما يتصل بالكتابة وبعجزها عن توضيح الفروق اللهجية ما عانيناه من لعب النساخ والمحققين في النص بحمله على الفصحى ، وكثيراً ما رجحت في دراستنا صيغة شعبية في إحدى النسخ ، عمد الناشر الى تبديلها بالفصحى ، ولهذا لم يصلنا التراث اللهجي على تحوله إلا بعد أن مرّ بغربلة دقيقة خضع خلالها وهذب وصقل تحت تأثير الفصحى على أيدي النساخ تارة ، والمحققين تارة أخرى ، والمترمتين من هؤلاء وأولئك .

٤ – كما وقف في طريقي تلك المادة اللهجية والتي يغلب عليها سحنة الصنعة ، صنعة النحاة[١] ، حيث صهروها في عقولهم وعلى ألسنتهم ، وكان عليهم أن يتحاشوا أمثلتهم ، ويستشهدوا على اللهجات بما يدور في كلام العربي العادي نفسه ، ومما يجري على لسانه في المنزل والسوق بألوان الفكاهة والقصص الشعبي .

٥ – كما كان من الحواجز الصعبة « المادة اللهجية » المشوشة التي جاءتنا عن العرب مبتورة حيناً ، وممسوخة حيناً آخر ، وملفقة لأغراض في نفس الراوي أحياناً أخرى ، وأعرض أمثلة يسيرة حتى نلمس الغموض الذي أحاط بهذه اللهجات فمن ذلك :

أ) التحريف في الرواية لإثبات لهجة ، فقد استشهدوا على أن (أن) تجزم واستشهدوا لها بقول الشاعر :

إذا ما ركبنا قال ولدان أهلنا تعالوا الى أنْ يأتنا الصيد نحطب

وعثرت على الشاهد بعد لأي – وهو لامرىء القيس – وصيغته في ديوانه[٢] بعد تحقيقه :

(تعالَوْا إلى أنْ يأتِيَ)

فأن – ناصبة على المهيع الصحيح لا جازمة كما رأوا .

ب) كما ورد في الهمع أن الجزم بـ (لن) لغة بعض العرب[٣] : وأيد ذلك ابن هشام[٤] ،

---

(١) انظر : شرح السيرافي ٢/٣٥٦ ، ٣٥٨ مخطوط في تيمور .
(٢) ديوان امرىء القيس : ٣٨٩ دار المعارف .
(٣) الهمع : ٢/٤ ، الموفى في النحو الكوفي : ١٢٠ .
(٤) المغني : ١/٢٢١ .

والأشموني[1] ، ونقل صاحب الدرر[2] الجزم بها عن اللحياني ، واستشهدوا لذلك بقول الشاعر :

(فلن يحلَ للعينين بعدك منظرُ)[3]

وأثبتَ أن الشاهد محرف ، وهو لكثير بن عبد الرحمن الخزاعي ، وهو في ديوانه بعد تحقيقه :

أيادي سَبًا يا عزُّ ما كنت بعدكم   فلم يحلَ للعينين بعدك منظرُ[4]

فهم قد أثبتوا الرواية محرفة لإثبات لهجة ، مخالفين ما جاء في ديوان الشاعر نفسه ، وما جاء في اللسان[5] ، وأساس البلاغة[6] حيث ورد فيها « لم » على اللغة الفصحى ، ولا أثر في الشاهد لظاهرة لهجية .

جـ) كما حكى اللحياني النصب بـ « لم » لغة[7] . وجزم بذلك السيوطي[8] لغة لبعض العرب ، وعليها قراءة من قرأ « ألم نشرح لك » بفتح الحاء ، وقول الحرث بن المنذر الجرمي :

في أيّ يوميّ من الموت أفِرْ   أيوم لم يُقدرَ أم يومَ قُدِر[9]

والحق أن « لم » جازمة غير ناصبة ، وأن الفتحة على الحاء في الآية إنما جاءت اتباعاً لحركة الراء قبلها ، أو لحركة اللام بعدها ، ثم أن الحاء من حروف الحلق ، وهي تؤثر الفتح[10] .

و « لم » في شاهد « الجرمي » جازمة غير ناصبة كذلك ، والأمر لا يعدو أن الشاعر ألقى

---

(١) ٣/٢٧٨ .
(٢) ٢/٤ .
(٣) المغني : ١/٢٢١ .
(٤) ١/٦٠ شرح ديوان كثير : الجزائر : تحقيق ونشر الشيخ هنري بيرس .
(٥) ١/٨٧ .
(٦) ٩٤ .
(٧) همع الهوامع : ٢/٢٦ .
(٨) الصبان على الأشموني : ٤/٨ .
(٩) المغني : ١/٢١٧ .
(١٠) المخصص : ١٤/٢٠٦ ، شرح الشافية : ١/٤٠ ، والمنصف : ١/١١٥ .

حركة همزة « أم » وهي فتحة ، على راء « يقدر » مراعاة لحبك النسق الصوتي ، وبعض علماء العربية كابن جنى لمح هذا الذوق العربي وأحسه[1] .

وإذا كان التحريف قد أصاب المتن حيناً ، فقد أصاب السند أحياناً كثيرة ، وهذا كله يشير الى الصعاب التي لاقيتها ، ولكن ذللها الوعي والمضاء، والإخلاص للعلم والإيمان به، والولاء له . كما أعانني عليها المخلصون ، وفي مقدمتهم أستاذي الكريم الدكتور « خليل يحيى نامي » أستاذ فقه اللغة بكلية الآداب بجامعة القاهرة والمشرف على البحث ، حيث وجّه ، ويسّر ، وأعانَ . وافدت من مكتبته ، وانتفعت بنصحه وتوجيهه ، وأعمق الشكر وأخلصه لشقيقي الاستاذ رمضان الجندي المدرس بالأزهر ، ولزوجي جزاء ما قدما من عون وجهد .

كما أقدم خالص شكري لتلميذي النجيب الاستاذ أحمد أبو طالب الجندي المدرس بمعهـــد البعوث الإسلامي بالقاهرة .

واليوم : أقدم هذا العمل العلمي بين يديك – عزيزي القارىء – كما قدمته الى كلية الآداب بجامعة القاهرة أمام لجنة المناقشة سنة ١٩٦٥ م. بدون تغيير فيه ، لأنه يمثل مرحلة فكرية من حياتي ، وقد حاز على مرتبة الشرف الأولى من كلية الآداب بجامعة القاهرة – قسم اللغـــات الشرقية – فرع اللغات السّامية الحيّة واللّهجات .

والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

أحمد علم الدين الجندي

حدائق المعادي : في ١٣ من رمضان سنة ١٣٨٤ هـ. الموافق ١٥ من يناير سنة ١٩٦٥ م.

---

(١) انظر : الخصائص : لابن جنى : ٣/٩٥ ، سر الصناعة : ١/٨٥ .

تمهيد

أولاً : « جغرافية بلاد العرب »

شبه جزيرة العرب :

حدودها : اختلف جغرافيو اليونان والرومان في حدودها فجعل (اكسنفون) حدودها الشمالية تبدأ من الفرات وأضاف إليها قسماً كبيراً من العراق وتوسع بطلميوس وديودور وسترابون بحدودها الشمالية حتى قالوا : انها تبدأ تقريباً من مدينة الرقة الحالية التابعة لمحافظة دير الزور[١] .

وبلاد العرب في الجزء الجنوبي الغربي من آسيا ، وهي جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات: البحر الأحمر ، المحيط الهندي ، والخليج العربي . ويطلق العرب على بلادهم اسم « جزيرة العرب »[٢] . قال الهيثم بن عدي: جزيرة العرب من العذيب الى حضرموت[٣] ، وقال الأصمعي: جزيرة العرب الى عدن أبين في الطول والعرض من الأيلة الى جدة[٤] . وقال الأصمعي : جزيرة العرب ما لم يبلغه ملك فارس ، من أقصى عدن أبين الى أطرار الشام ، هذا هو الطول ، والعرض من جدة الى ريف العراق[٥] . وقال الشعبي : جزيرة العرب ما بين قادسية الكوفة الى حضرموت[٦] . وقال أبو عبيدة : جزيرة العرب ما بين حفر أبي موسى ، بطوارة من أرض العراق ، الى أقصى اليمن في الطول ، وأما في العرض فما بين رمل يبرين الى منقطع السماوة[٧] .

---

(١) جغرافية شبه جزيرة العرب ص ٣ عمر رضا كحالة . المطبعة الهاشمية دمشق ١٣٦٤ - ١٩٤٤ .

(٢) الهمداني ص ٤٧ ليدن سنة ١٨٨٤ ، بلوغ الأرب : ج ١ ص ١٨٦ الألوسي ط الثالثة . دار الكتاب العربي .

(٣) معجم البلدان : ياقوت ١٠١/٣ ط ١ ١٣٢٤ - ١٩٠٦ مطبعة السعادة .

(٤) معجم البلدان : ياقوت : ١٠١/٣ .

(٥) معجم ما استعجم للبكري ٦/١ تحقيق السقا — لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٥ م .

(٦) معجم ما استعجم للبكري ٦/١ .

(٧) المرجع السابق .

ونرى أن تسمية العرب بلادهم بـ (جزيرة العرب) فيه تسامح كبير ، إذ أنهـا لم تتم إحاطتها بالماء ، قال ياقوت[١] : وإنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر ، وذلك أن الفرات أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين ثم انحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق حتى وقع في البحر في ناحية البصرة والأبلة وامتد الى عبادان وأخذ البحر في ذلك الموضع مغربـاً ببلاد العرب منعطفاً عليها ، فأتى منها على سفوان وكاظمة الى القطيف وهجر وأسياف البحرين ، وقطين وعمان والشحر ، ومال منه عنق الى حضرموت وناحية أبين وعدن وانعطف مغرباً منصباً الى دهلك ، واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن الى بلاد فرسان وحكم والأشعريين ، وعك ، ومضى الى جدة ساحل مكة ، والجار ساحل المدينة ثم ساحل الطور وخليج أيلة وساحل راية حتى بلغ قلزم مصر وخالط بلادها ، وأقبل النيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً للبحر معه حتى دفع في بحر مصر والشام ، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فمر بعسقلان وسواحلها ، وأتى صور ساحل الأردن وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ الى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منحطاً على أطراف قنسرين والجزيرة الى سواد العراق[٢] .

وهذا التحديد وان كان يسهل فهم تسمية البلاد العربية بالجزيرة إلا أنه يتطلب أن تعتبر ولايات الشام وفلسطين والأراضي المصرية الواقعة شرقي فرع دمياط من ضمن بلاد العرب ، وهذا غير مرض عند المؤرخين ، فإنهم يحدون بلاد العرب من الشمال بالجزيرة وبلاد الشام وفلسطين فهذان خارجان عنها . « وعلى ذلك لا بد من القول بأن هناك تسامحاً في إطلاق لفظ الجزيرة على بلاد العرب »[٣] .

تقسيم اليونان والرومان :

أقسامها : (أ) قسم بطليموس[٤] شبه الجزيرة الى ثلاثة أقسام :

---

(١) نقلاً عن هشام بن محمد بن السائب عن ابن عباس .

(٢) معجم البلدان : ياقوت ٣/١٠٠ - ١٠١ ، وانظر : صفة جزيرة العرب ، الهمداني ص ٤٧ ليدن .

(٣) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية : محمد الخضري ١/٧ ط الخامسة مطبعة الاستقامة ١٣٦٦ هـ وانظر في تحديد الجزيرة : سبائك الذهب : محمد البغدادي ص ٨ « بدون تاريخ » التجارية .

(٤) شبه جزيرة العرب ، ص ٥٤ كحالة ، خلاصة الكلام في تاريخ الجاهلية والإسلام ، محمد غنيم ص ٣٤ ط الأولى — المطبعة العامرية ١٣١٦ هـ .

١ – بلاد العرب الحجرية .

٢ – بلاد العرب الصحراوية .

٣ – بلاد العرب السعيدة .

أما الحجرية : فقــد كانت تطلق على شبه جزيرة سيناء وعلى بلاد النبط وهي : الأراضي الجبلية والمرتفعات المتصلة بها الواقعة على شرق البحر الميت وفي شرق وادي العربة وفي جنوب اليهودية حتى خليج العقبة ويفهم من كلام « ديودور » أن بــلاد العرب الحجرية كانت في شرق مصر ، وجنوب البحر الميت .

والصحراوية : وتطلق على البادية الواسعة المسماة ببادية الشام ، وقد فهم « ديودور » منها أنها تشمل : المناطق الصحراوية التي كانت تسكنها القبائل البدوية .

أما السعيدة : فقد كانت تشمل أكبر الأقسام رقعة فيدخل في حدودها جميع المناطق التي تعرف باسم شبه جزيرة العرب – أي شمال الجزيرة ووسطها وجنوبها[١] . ويلاحظ على هــذه الأقسام أن حدودها كانت تتوسع حيناً وتتقلص حيناً آخر حسب الأوضاع السياسية ، كما كانت تخضع لمكانة العرب ومقدرتهم .

(ب) تقسيم جغرافيي العرب القدماء :

حدث خلاف بينهم بشأن تقسيم الجزيرة: فيرى المدايني أنها تشتمل على خمسة أقسام: تهامة ، ونجد ، والحجاز ، والعروض ، واليمن[٢] . وزاد ابن حوقل في أقسامها : بادية العراق ، وبادية الجزيرة فيما بين دجلة والفرات ، وبادية الشام . وقسمها جغرافيو اليمن قسمين هما : يمن وشأم ، قال الهمداني : هي عند أهل اليمن يمن وشأم ، فجنوبها اليمن ، وشمالها الشأم ونجد وتهامة[٣] .

وجعل البشاري جزيرة العرب : أربع كور جليــلة ، وأربع نواح نفيسة ، والكور : أولها : الحجاز ، ثم اليمن ، ثم عمان ، ثم هجر ، والنواحي : الأحقاف ، والأشجار ، واليمامة ، وقرح[٤] .

---

(١) جغرافية الجزيرة العربية : محاضرة للدكتور نامي ، وانظر : تاريخ العرب قبل الإسلام : ١١٧/١ .

(٢) سبائك الذهب : ٨ البغدادي .

(٣) صفة جزيرة العرب : ٥٠ للهمداني .

(٤) شبه جزيرة العرب : ٤٩ كحالة نقلاً عن أحسن التقاسيم للبشاري .

ويلاحظ في تقسيم العرب الجغرافي لشبه الجزيرة العربية – أن التقسيم لم يكن محدداً بحدود ثابتة ، فتارة يمتد وأخرى ينحسر – كما أن تقسيم الهمداني وغيره يجعل جنوب الجزيرة كله من اليمن والشائع غير هذا[١] .

(ج) **تقسيم المحدثين :**

وكما حدث الخلاف بين القدماء، حدث مثله بين المتأخرين، فمنهم من قسمها الى ستة أقسام[٢]، ومنهم من قسمها الى ثمانية[٣]. ومنهم من نظر في تقسيمها باعتبار قربها أو بعدها من البحر[٤] ، كما أن بعضهم لاحظ في التقسيم الجانب الطبيعي فقسمها الى ثلاثة أقسام :

الشمال ، والوسط ، والجنوب – وإلى هذا ذهب الدكتور عبد الوهاب عزام[٥] ، تلك هي أهم الآراء قديماً وحديثاً في تقسيم الجزيرة العربية – وسنكتفي بالحديث عن التقسيم الخماسي حسب ما ذهب إليه جغرافيو العرب القدماء – وفي ضوئه ستبرز طبيعة الجزيرة وتكوينها الجغرافي .

الحجـــاز :

قال عبيدالله ، والذي أجمع عليه العلماء أنه (أي الحجاز) من قولهم حجزه يحجزه حجزاً أي منعه ... قال الخليل : سمي الحجاز حجازاً لأنه فصل بين الغور والشام وبين البادية[٦] . وقال الزبير بن بكار : سألت سليمان بن عياش السعدي : لم سمى الحجاز حجازاً ؟ فقال : لأنه حجز بين تهامة ونجد . قلت : فما حد الحجاز ؟ قال : الحجاز ما بين بئر أبي بكر بن عبدالله بالشقرة ، وبين أثاية العرج . فما وراء الأثاية من تهامة[٧] . وقال الأزهري[٨] : سمي حجازاً ، لأن الحرار حجزت بينه وبين عالية نجد . وقال الأصمعي[٩] : ما احتجزت به الحرار حرة

---

(١) مهد العرب : ٣٣ عزام .
(٢) شبه جزيرة العرب : ٥١ كحالة .
(٣) خلاصة الكلام : ١/٣٥ – ٣٦ .
(٤) شبه الجزيرة : ٥٢ كحالة .
(٥) مهد العرب : ٣٣ عزام .
(٦) معجم البلدان : ياقوت : ٣/٢١٨ .
(٧) معجم ما استعجم : ١/١١ البكري .
(٨) لسان العرب : ٧/١٩٦ .
(٩) معجم البلدان : ياقوت الحموي : ٣/٢١٨ ، وانظر : هذا التحديد في اللسان وهو : « وما احتزمت به الحرار » ... اللسان : ٧/١٩٦ – ١٩٧ .

شوران وحرة ليلى وحرة واقم وحرة النار وعامة منازل بني سليم الى المدينة فذلك الشق كله حجاز ، ونقل[1] ابن دريد قال : إنما سمي حجازاً لأنه حجز بين نجد والسراة .

وقال عمارة بن عقيل[2] : ما سال من حرة بني سليم وحرة ليلى فهو الغور حتى يقطعه البحر ، وما سال من ذات عرق مغرباً فهو الحجاز الى أن تقطعه تهامة ، وهو حجاز أسود حجز بين نجد وتهامة . قال عرام[3] : حد الحجاز من معدن النقرة[4] الى المدينة ، فنصف المدينة حجازي ونصفها تهامي .

ويسمى القسم الشمالي من الحجاز : أرض مدين وحسمى ، وتطلق حسمى على سلسلة جبلية تتجه من الشمال الى الجنوب حيث تجوس خلالها أودية محصورة بين التيه وأيلة من جهة ، وأرض بني عذرة من ظهر حرة نهيل من جهة أخرى ، وكانت قبائل جذام تسكن هذه المناطق في الجاهلية[5] .

وقد اختلف الباحثون في العصر الأخير في تحديد الحجاز ، قال محمد صادق[6] : ان ولاية الحجاز واقعة بين نجد وتهامة ، ومحدودة من الجنوب ببلاد عسير ، ومن الشرق بصحراء نجد ، ومن الشمال بسورية ، ومن الغرب بالبحر الأحمر . وقال الاستاذ العبادي[7] : الحجاز يمتد بوجه عام من رأس خليج العقبة الى حدود اليمن إذا اعتبرنا عسيراً داخلة فيه ، كما يصنع بعض الجغرافيين .

مدن الحجاز وقراه :

لا أريد أن أتحدث حديثاً مفصلاً عن ذلك ، فلا تتسع لمثل هذا تلك الفصول الضيقة المحدودة ، وإليك طرفاً من ذلك :

---

(١) معجم ما استعجم للبكري : ١١/١ .

(٢) معجم البلدان : ياقوت : ٢١٨/٣ .

(٣) كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها : عرام بن الأصبغ السلمي ص ٢٤ : ط أولى ، لجنة التأليف : ١٣٧٥ - ١٩٥٦ تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون .

(٤) قال الأعرابي كل أرض منصبة في وهدة فهي النقرة وبها سميت النقرة بطريق مكة التي يقال لها معدن النقرة ، معجم البلدان : ٣٠٨/٨ .

(٥) تاريخ العرب : ١٢٨/١ جواد علي .

(٦) شبه جزيرة العرب : ١١٠ كحالة . نقلا عن « دليل الحاج » لمحمد باشا صادق .

(٧) شبه جزيرة العرب : كحالة : ١١١ نقلا عن « مرآة الحرمين » لابراهيم رفعت باشا .

أم القرى :

سميت أم القرى[١] — لأنها أقدم القرى التي في جزيرة العرب وأعظمها خطراً ، اما لاجتماع أهل تلك القرى فيها كل سنة أو انكفائهم إليها وتعويلهم على الاعتصام بها لما يرجونه من رحمة الله تعالى . وقال الليث[٢] : كل مدينة هي أم ما حولهــا من القرى . وأم القرى هي مكة المكرمة ، وقد اختلف العلماء في معناها على خمسة أقوال[٣] . وقال عبيد الله الفقير إليه[٤] : ووجدت أنها سميت مكة من ملك الندى أي مصه لقلة مائها لأنهم كانوا يمتكون المــاء ، أي يستخرجونه وهي في واد ضيق[٥] يتجه من الشمال الى الجنوب ، تحيط به جبال شاهقة ، وهي عند درجة ٢١ من ادرجات العرض الشمالي ، ودرجة ٣٧ من درجات الطول الشرقي . وأمــا صفتها : فهي مدينة[٦] في واد والجبال مشرفة عليها من جميع النواحي ، وبناؤها من حجارة سود وبيض ملس ... حارة في الصيف إلا أن ليلها طيب ... وليس بمكة ماء جار ومياهها من السماء ، ليست لهم آبار يشربون منها وأطيبها بئر زمزم ... فإذا جزت الحرم فهناك عيون وآبار ومزارع ونخيل .

وكان أول من سكنها العمالقة ، ثم خلفهم : جرهم ، ثم جاءهــا بنو إسماعيل وتبعهم الأزد بعد سيل العرم ، وعلى أثرهم حلت خزاعة فكنانة فقريش[٧] .

كما ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع » وقد شاء الله تعالى أن تتملك مكة ما حولها ، إذ كانت منابة للعرب وأمناً ، لأنها تمسك بيدها مفتاح التجارة ، ومفتاح المركز الديني الذي كان يتبلور في الكعبة ، ولهذا دانت لهــا الرقاب وخضعت . يقول ابن الفقيه : ان أهل مكة لم يؤدوا في الجاهلية أتاوه قط ، ودانت لهم خزاعة

---

(١) معجم البلدان : ياقوت ١/٣٣٧ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) معجم البلدان : ٨/١٣٤ - ١٣٥ .

(٤) معجم البلدان : ٨/١٣٥ .

(٥) مهد العرب : ٥٣ - ٥٤ .

(٦) معجم البلدان : ٨/١٤٢ ياقوت .

(٧) العرب قبل الإسلام : ٢٧٥ جرجي زيدان ، تحقيق حسين مؤنس .

وثقيف وعامر بن صعصعة[١] . كما أشار القرآن الى تجارتهم بقوله « رحلة الشتاء والصيف » وقد جعلت التجارة من مكة مركزاً مالياً في الحجاز[٢] .

وكان المجتمع المكي يتألف من قريش البطاح والظواهر[٣] ، وكان في يدها زعامة مكة عند ظهور الإسلام ، وكذلك كانت السقاية والرفادة فيها ، وقد تجمعت الثروة في يد قريش من تجارتها ، ومن ملك المال ، واحتضن الدين فقد تحققت له الغلبة السياسية . ويشير ابن فارس الى ذلك معللاً بقوله « بأن الله تعالى اختارهم من جميع العرب واصطفاهم ، واختار منهم نبي الرحمة محمداً ﷺ ، فجعل قريشاً قطان حرمه ، وجيران بيته الحرام وولاته ، فكانت وفود العرب من حجاجها ، وغيرهم يفدون الى مكة للحج ، ويتحاكمون الى قريش في أمورهم ، ولم تزل تعرف العرب لقريش فضلها عليهم وتسميهم (أهل الله) ... إذ جعلهم رهط نبيه الأدنين ، وعترته الصالحين »[٤] .

المـــدينة :

وأول من سكنها العماليق ، ثم اليهود « قريظة والنضير » ، ثم تتابعت عليها القبائل اليمنية (الأوس والخزرج) التي هاجرت إليها بعد سيل العرم . والمدينة عدة أسماء « قد أوردها ابن الفقيه »[٥] منها طيبة ، ويثرب ، وقد نطق القرآن ببعض أسمائها « يقولون لـئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ، « وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم » وتقع المدينة في أرض بركانية بين حرتين تقعان شمال جبل أحد[٦] ، وهو من أشهر جبالها كما تكتنفها عدة أودية من أشهرها : وادي العقيق ، وقد جعل من المدينة وما حولها جنـة وارفة الظل ، يحيط بها النخيل ، والخضرة الدائمة .

والمدينة على الخط الخامس والعشرين من العرض الشمالي — والخط الأربعين من الطول الشرقي وعلى ثلاثمائة ميل من مكة[٧] .

---

(١) تاريخ الأدب العربي : ١/٥٠ دكتور شوقي ضيف .
(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام : ١٤٧/٨ دكتور جواد علي .
(٣) نهاية الأرب : ٣٩٨ ، صبح الأعشى : ٣٥١/١ .
(٤) المزهر : ٢١٠/١ ، الصاحبي : ٢٣ .
(٥) شبه جزيرة العرب : ١٣٨ كحالة .
(٦) تاريخ العرب : ١٣٢/١ جواد علي .
(٧) مهد العرب : ٥٥ عزام .

ومن مدن الحجاز وقراه : جدة[١] ، والحجر[٢] ، وخيبر[٣] ، والطائف[٤] .

تهامـــة :

ويقال لها الغور وهي الأراضي التي على شاطىء بحر القلزم ممتدة عرضاً الى سلسلة جبـــل السراة ، وقال الأصمعي[٥] : ... إذا تصوبت من ثنايا العرج واستقبلك الأراك والمرخ – فقد أتهمت . وقال عمارة بن عقيل[٦] ما سال من الحرتين حرة سليم وحرة ليلى – فهو تهامة . وقال الباهلي[٧] : وتهامة ما بين ذات عرق الى مرحلتين من وراء مكة .

وقال الرياشي[٨] : سمعت الأعراب يقولون : إذا انحدرت من ثنايا ذات عرق فقد أتهمت ، قال الرياشي : والغور : تهامة . وسميت تهامة[٩] ، لشدة حرها وركود ريحها ، وهو من التهم وهو شدة الحر وركود الريح .

وقال الأصمعي[١٠] : التهمة : الأرض المتصوبة الى البحر .

وتطلق كلمة « تهامة » على القسم الذي تحاذيه : فتسمى في الجنوب باسم « تهامة اليمن »[١١] وتهامة عسير ، وفي الشمال تهامة الحجاز ، وتقع فيها كثير من المرافىء العربية مثل : جـدة ، وينبع في الحجاز ، والحديدة والمخا في بلاد اليمن . ولما كانت الحرارة قاسية في تهامة ، فقـــد أصبحت الأرض المجاورة للبحر قاحلة تقريباً ، وأما مناطقها القريبة من المنطقة الجبلية ، فهي ذات أودية خصبة تصلح لزرع كثير من النباتات[١٢] .

---

(١) معجم البلدان : ٦٧/٣ .
(٢) معجم البلدان : ٢٢١/٣ ، وانظر كتاب أسماء جبال تهامة : ٤٢٧ للسلمي .
(٣) معجم البلدان : ٤٩٥/٣ .
(٤) صفة جزيرة العرب : ١٢٠ ، مهد العرب : ٥٨ – ٥٩ .
(٥) معجم البلدان : ٤٣٧/٢ .
(٦) المرجع السابق .
(٧) اللسان : مادة نجد : ج ٤ .
(٨) اللسان : ٣٤٠/١٤ .
(٩) معجم البلدان : ٤٣٧/٢ .
(١٠) اللسان : ٣٤٠/١٤ .
(١١) صفة جزيرة العرب : ١١٩ الهمداني .
(١٢) شبه جزيرة العرب : ١٣ – ١٤ كحالة .

وقد ذكر الألوسي[١] كثيراً من قراها ووديانها وأسماء صحاريها .

العروض :

وتعرف أيضاً باليمامة ، وسميت عروضاً ، لأنها تعترض ما بين نجد واليمن ، وسميت يمامة نسبة الى اليمامة ، وهي أشهر بلد فيها ، وكانت تسمى أيضاً (جوا)[٢] وهو الاسم القديم لليمامة .

ويقسم الألوسي[٣] العروض الى قسمين :

١ – اليمامة . ٢ – بلاد البحرين .

وقال هشام بن محمد السائب[٤] : ... وصارت بلاد اليمامة والبحرين وما والاهما العروض .

قال ياقوت[٥] : قال أهل السير : كانت منازل طسم وجديس – اليمامة . وتسمى اليمامة اليوم : العارض[٦] – وهو القسم الأوسط من جبل طويق ، ووادي حنيفة وسطه ، وفي الجنوب الغربي منه إقليم الخرج . وفي اليمامة : قرية « منفوحة »[٧] لبني قيس بن ثعلبة . والظاهر[٨] أن عامل الجفاف قد أثر كثيراً في اليمامة فحول أكثر أراضيها الى مناطق صحراوية ، على حين أننا نجد في الكتب أنها كانت غزيرة المياه ، ذات عيون وآبار ومراع .

وتكثر المرتفعات[٩] في اليمامة ويمثلها جبل يقال له « شهوان » يصب فيه نعام وبرك ، ومن أوديتها « العرضى »[١٠] حيث يخترق اليمامة من أعلاها الى أسفلها ، ولما كان من الأودية الخصبة كثرت فيه القرى والزروع .

ومن بلاد اليمامة : الوشم ، والسدير ، والمحمل ، وقد ذكر حافظ[١١] وهبه

---

(١) بلوغ الأرب : للألوسي : ج ١/١٩٤ - ١٩٥.

(٢) مهد العرب : ٧٣ ، معجم البلدان : ٨/٥١٦ ، صفة جزيرة العرب : ١٦١ بلهيد .

(٣) بلوغ الأرب : ج ١ ص ١٩٦ – ١٩٧ .

(٤) معجم البلدان : ٣/١٠١ ياقوت .

(٥) معجم البلدان : ٨/٥١٦ .

(٦) مهد العرب : ٧٣ عزام .

(٧) صفة جزيرة العرب : الهمداني ص ١٦٢ بلهيد .

(٨) تاريخ العرب قبل الإسلام ١/١٤٥ جواد علي .

(٩) معجم البلدان : ٧/٣٨٦ .

(١٠) تاريخ العرب ، جواد علي : ١/١٤٥ .

(١١) شبه جزيرة العرب : ٢٤٤ كحالة .

عدداً منها ، ومن أهم إماراتها : إمـــارة الرياض ، وهي عاصمة نجد ، وقد اتخذها آل سعود عاصمة لهم .

نجـــد :

قال عمارة بن عقيل[1] : ما سال من الحرة : حرة بني سليم وحرة ليلى ، فهو الغور ، ومـا سال من ذات عرق مقبلاً فهو نجد .

وقال ابن السكيت[2] : ما ارتفع عن بطن الرمة فهو نجد . قـال : وهو نجد الى ثنايا ذات عرق . .

وروى الأزهري[3] بسنده عن الأصمعي قال : سمعت الأعراب يقولون : إذا خلفت عجلزا مصعدا – وعجلز فوق القريتين – فقد أنجدت . وقال عمارة : وسمعت[4] الباهلي يقول : كل ما وراء الخندق خندق كسرى الذي خندقه على سواد العراق هو نجد . وقال الأصبهاني[5] نقـلاً عن ابن الاعرابي : نجد اسمان : السافلة والعالية ، فالسافلة ما ولى العراق والعالية ما ولى الحجاز وتهامة وقال ابن الاعرابي[6] : نجد – ما بين العذيب الى ذات عرق . وقال ياقوت[7] : ونجـد اليمن غير نجد الحجاز غير أن جنوبي نجد الحجاز يتصل بشمالي نجد اليمن . وقال الهمداني[8] : وصار ما دون ذلك الجبل (أي السراة) من شرقيه من صحارى نجـــد الى أطراف العراق والسماوة وما يليها نجداً ، ونجد تجمع ذلك كله .

ومن هذا العرض نرى أن صورة تحديد (نجد) مبهمة شيئاً ما – في المراجع القديمة ، ويظهر أن حدودها من الحجاز غرباً الى البحرين شرقاً ، ومن بادية الشام شمالاً الى حدود اليمن جنوباً ، وكأنها الهضبة التي تكون قلب الجزيرة ، وقد قيل لها في الانكليزية The Heart of Arabic وتتخلل هذه الهضبة أماكن وتلال تختلف في العلو والهبوط بعضها عن بعض فتعلو في الغرب

---

(١) معجم ما استعجم للبكري : ١/١٤ .
(٢) اللسان : ٧/١٩٦ - ١٩٧ .
(٣) اللسان مادة (نجد) ج ٤
(٤) معجم ما استعجم : ١/١٤ .
(٥) تاريخ نجد : الألوسي : ٨ ط ٢ السلفية : ١٣٤٧ القاهرة . نهاية الأرب ١/٢٠٠ .
(٦) اللسان مادة (نجد) ج ٤ ، اللسان : ١٤/٣٤٠ .
(٧) معجم البلدان : ٨/٢٥٨ .
(٨) صفة جزيرة العرب : ٤٨ الهمداني .

المحاذي لبلاد الحجاز ، ثم تنحدر بك دون أن تدرك ذلك ، لأنه أحياناً غير محسوس . وتتألف « نجد » من الوجهة الطبيعية من مناطق ثلاثة :

١ – منطقة وادي الرمة ، وتتوافر فيها المياه ويكثر فيها الخصب ، يقول العاصمي سمعت ابن الاعرابي[1] يقول : الرمة طويلة عريضة تكون مسيرة يوم تنزل أعاليها بنو كلاب . ثم تنحدر فتنزل عبس ثم تنحدر فتنزل بنو أسد .

٢ – المنطقة الوسطى : وهي هضبة تتخللها أودية تتجه من الشمال الى الجنوب ، وبها جبل طويق .

٣ – المنطقة الجنوبية : وتتكون من المنحدرات الممتدة من جبل « طويق » في إتجاه الجنوب وفيها مناطق معشبة ذات عيون وآبار مثل «الحريق» و « الخرج » ومن مناطقها المشهورة: « الأفلاج ، والسليل ، والدواسر » .

اليمن :

وقد اختلف جغرافيو العرب في حدودها ، فقال البكري[3] : وحد اليمن مما يلي المشرق : رمل بني سعد ، الذي يقال له يَبْرين ، وهو منقاد من اليمامة حتى يشرع في البحر بحضرموت ، ومما يلي المغرب : بحر جدة ، الى عدن أبين ، وحدها الثالث : طلحة الملك الى شرون ، وشرون : من عمل مكة ، وحدها الرابع : الجوف ومأرب . وقال الأصمعي[4] : اليمن وما اشتمل عليه حدودها بين عمان الى نجران ثم يلتوي على بحر العرب الى عدن الى الشّحر حتى يجتاز عمان . وقيل[5] : حد اليمن من وراء تثليث وما سامتها الى صنعاء وما قاربها الى حضرموت والشحر وعمان الى عدن أبين وما يلي ذلك من التهائم والنجود واليمن تجمع ذلك كله .

والقسم الشمالي من اليمن المجاور للحجاز يسمى : تهامة عسير ، وفي عسير أودية وزروع ، وقرى كثيرة ، منها بيشة ، وتربة ، وهي مدينة مسورة كبيرة تحيط بها المزارع والنخيل .

---

(١) معجم البلدان : ياقوت ٤/٢٩٠ .
(٢) شبه جزيرة العرب كحالة : ٢٢١ .
(٣) معجم ما استعجم : ج ١٦/١ .
(٤) معجم البلدان : ٥٢٢/٨ .
(٥) المرجع السابق .

وأما القسم الذي يلي البحر – فهو الغور واسمه تهامة[١] . وتهامة اليمن سهل خصيب تنحدر إليه أودية من الجبال المحاذية للساحل ، وهذه الجبال هي امتداد لجبال السراة، القائمة في الجزيرة العربية من شمال الحجاز الى شمال عدن . « ومن مدن تهامة اليمن : زبيد وبيت الفقيه »[٢] .

والقسم الجبلي – هو سلسلة جبال يتصل بعضها من الشمال الى الجنوب ، « وجميع هـذه الجبال آهلة بالسكان ، وفيها عيون تنبع وتجري على وجه الأرض »[٣] وتصب العيون ماءها في أودية حتى تنتهي الى البحر الأحمر .

وهذا الخصب والرخاء ، وتلك الحضارة التليدة نتلمس اطارها في قول القرآن « لقـد كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور »[٤] .

وقد تحدث عن اليمن – موقعها ومساحتها وقصورها ومبانيها وجبالها ومعادنها والدول التي حلت بها – الحسن بن أحمد الهمداني في كتابه المشهور[٥] .

تفصيلات طبوغرافية :

يمكن أن ترسم صورة كاملة لشبه الجزيرة بعد أن نبرز صورتها في الأمور الآتية :

١ – السهول ٢ – الهضاب ٣ – الجبال

كما يمكن أن نوضح المسائل السالفة في توزيع التضاريس على الوجه الآتي :

(أ) بادية الشام :

وبادية[٦] الشام على التحقيق كانت اسماً للقسم الغربي منها ، وقسمها الشرقي كان يسمى في الجنوب بادية العراق أو السماوة . وهي تشمل المنطقة المثلثة الشكل الواقعة فيما يلي خط ٣٠° من شمال شبه الجزيرة ، وفي ناحيتها الغربية صحراء بها حجارة صوانية سوداء تفصل منحدرات

---

(١) شبه جزيرة العرب : ٣٠٣ كحالة .
(٢) مهد العرب : ٨٦ .
(٣) تاريخ اليمن : ٢٨٢ الواسعي .
(٤) سورة سبأ آية : ١٥ .
(٥) انظر صفة جزيرة العرب : الهمداني : ٥١ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٧٥ الخ ...
(٦) مهد العرب : عزام ٣٥ .

مؤاب وايدوم عن منخفض وادي سرحان الذي يمتد الى الجنوب الشرقي والذي تكثر به بحيرات الملح ، وفي طرف هذا الوادي تقع مدينة الجوف .

(ب) **النفود أو الدهناء :**

وتقع جنوب الجوف ويبلغ طولها من الغرب الى الشرق نحو ٤٠٠ ميل ومتوسط عرضها نحو ٢٠٠ ميل ، وهي في الغالب عديمة الماء ، وتكثر فيها الكثبان المرتفعة ذات الرمل الدقيق .

(جـ) **الربع الخالي :**

مفازة مقفرة موحشة كانت تعرف فيما مضى باسم رملة يبرين[١] ، وأما أبعاد هذه المنطقة فهي غير محدودة على وجه الصحة ، والمعروف عند العرب أنها تبدأ من جنوبي واحة « يبرين » ، وتمتد الى الهضاب الموازية لساحل البحر الهندي في الجنوب والى الجهـــة الغربية ، والغربية الجنوبية من هذه المقاطعة توجد مساحات شاسعة من الرمال الرقيقة المعروفة بالأحقاف . لقد وفق[٢] رجلان من مجـــازفي الانجليز لاختراقها أحدهما وهو « برترام توماس » من الجنوب الى الشمال الشرقي مجتـــازاً أطراف الرمال الكثيفة الشرقية ، وقد قـــص في كتابه : Arabia Felix : Across the Empty Quarter Arabia. ما شاهده في تلك المجازفة .

وثانيهما المستر « سنت جون فلبي » حيث عبره من الشمال الى الجنوب الى نقطة متوسطة كان وصلها المستر توماس واتجه منها غرباً الى منتهى وادي الدواسر .

(د) **النفود الصغرى :**

وتسمى الدهناء ، قال ياقوت ، وقال أبو منصور « الدهناء[٣] من ديار بني تميم ، وهي سبعة أجبل من الرمل في عرضها بين كل جبلين شقيقة ... وهي من أكثر بلاد الله كلأ » ، وقـــد اخترقها الشيخ حافظ[٤] وهبة من الشمال ، وقطعها في ثلاث عشرة ساعة على الإبل ، وقطعها

---

(١) صفة جزيرة العرب : الهمداني ١٣٧ ، ص ١٦٥ ، معجم البلدان : ٩٤/٨ .

(٢) قلب جزيرة العرب : ٢٣ ، فؤاد حمزة .

(٣) معجم البلدان : ١١٥/٤ .

(٤) مهد العرب : ٧٦ .

من جهة الاحساء في ست ساعات ، ولفظ الدهناء[١] يطلق على أسياف رملية منفصلة عن النفود الشمالي وواصلة بينه إلا في مسافة قصيرة بين النفود الجنوبي الكبير المسمى بالربع الخالي وتنتشر الدهناء بشكل حبال وخيوط وألسنة رملية ، بينها فجوات صلبة ، والدهناء بمجموعها تفصل بين مرتفعات العارض والقصيم والدبر ، وبين سواحل « الحسا » و « الكويت » ومهمة النفود أنها تتمم الحلقة التي تطوق « نجدا » بالصحارى .

مناخ بلاد العرب :

١ ـ السمة الغالبة في مناخها الحرارة الشديدة التي تلفح البشرة بوهجها، إلا أنه يمكن التمييز بين أقسامها فيما يأتي :

المناطق الساحلية[٢] سواء مـــا كان منها في الشرق أم في الغرب تتميز بحرارة شديدة أيام أشهر القيظ تشوبها رطوبة لزجة ، وتتمثل تلك المناطق في تهامة وسواحل الخليج الفارسي ، وأما المنطقة النجدية فإنها في أيام القيظ تكاد تميل الى الاعتدال بسبب ارتفاعها ، وتكاد تتسم ليالي هذه المنطقة برقة الهواء ولطافته .

أما المنطقة التهامية الجبليـــة الشاملة لمكة والمدينة في الغرب ، والحسا في الشرق فالسحنة الغالبة عليها المسموم القاتل في أشهر الصيف متسعراً من صخور تسفعها الهاجرة ، ورمال تغلي الدم وتصهر المظم ، ثم يتقلب الجو فيما عدا ذلك . وفي منطقة جبال الحجاز وعسير يظل الجو معتدلاً حتى في أشهر القيظ وفي جهات الطائف وجبل الشفا وعسير لا يشعر السكان بأنهـــم في بلاد حارة « والسبب في ذلك »[٣] ارتفاع تلك المنطقة عن سطح البحر .

٢ ـ بلاد العرب عديمة الأمطار أو قليلتها . وتترجّح بين الكثرة والقلة تبعـــاً لاختلاف المواسم والمواقيت ، ففي الجنوب تهطل أمطـــار الرياح الموسمية في الصيف ، وفي الشمال الغربي تهطل كذلك أمطار الرياح الغربية شتاء ، ومما يعجب الانسان أن المطر أحيانـــاً ينزل قاسياً عارماً حتى إنه ليغطي الأرض بزبده في ساعة واحدة وللإنسان أن يتحدث بعد ذلك[٤] « كيف أن بلاداً برمتها كانت من قبل بضع دقائق تحرق الجسد بحرارة أرضها إذا بهـــا كنهر متلاطم

---

(١) قلب جزيرة العرب : ٣١ فؤاد حمزة .
(٢) المرجع السابق : ٥٣ .
(٣) قلب جزيرة العرب : ٥٣ ، شبه جزيرة العرب كحالة ٢٧٩ .
(٤) قلب جزيرة العرب : ٦٠ .

مزبد ، أما الأمطار في نجد « فلها الشأن الأول في الحياة »[١] ، وتتسم بالقـلة على العموم إذا قيست بمناطق الجنوب ، وهيهات أن ترى على وجـه البدوي مسحة من السرور إلا إذا برق البرق ، وهطل القطر وشمل بدفقاته جنبات القفر . وهذا الاختلاف وذلك التنوع في الأمطار يعكس صورة للمجتمع العربي فحيث تقل الأمطار أو تنعدم ترى أسلوب العيش الرعوي وحياة التنقل والقفر ، وحيث تكثر الأمطار ترى أسلوبـاً للاستقرار الزراعي حيث تشق الأرض وتلقى البذور ، وبجانب الأمطار نرى المياه الجوفية تتمثل في الوديان عابرة طريقها ، ضاربة في قلب الجزيرة والأودية التي تصفي سطح السلسلة الغربي دافعـة بمياهه الى البحر الأحمر كثيرة جداً منها :

وادي التيم : ويصب قريباً من مدينة العقبة ، ووادي الجوشية[٢] ، والمرحق والأبيض ، واليمنونة . والجدايل ، والعمور[٣] ، وداما ، وأزلم ، والمياه[٤] والحمض[٥] ، والحيران[٦] ، ووج[٧] ، وبارق[٨] ، واندوم[٩] .

ولما كان العمل الأساسي الذي أهدف إليه هو الحديث عن اللهجات العربية كان لزاماً علي أن أمهد لذلك بالبحث عن القبائل العربية وتنقلاتها في شبه الجزيرة، حتى أكون على علم بمواطنها وديارها التي اطمأنت إليها وأخلدت، وحديث مثل هذا بالغ الأهمية إذ دراسة اللهجات لا يمكن أن تكون دراسة حقة إلا إذا اعتمدت على دراسة أماكن القبائل ونزولهـا في السهل أو في الجبل ، أو على مواطن الكلأ أو على سفوح الوديان ، كما أن بعد القبائل في الأماكن ، وانتشار ديارها هنا وهناك ، أو قرب تلك المنازل وانخراطها في وحدة جغرافية مما يترك آثاره العميقة في لغات تلك القبائل عن طريق تهذيب لغاتها حيناً وتشذيبها أحياناً . كما أن مثل هذه الدراسة الجغرافية — تفتح ميادين للمقارنات اللهجية وإبراز الخلافات التي تكون بين قبيـلة وأخرى ،

---

(١) شبه جزيرة العرب : ٢١٢ كحالة .
(٢) معجم البلدان لياقوت : ١٧١/٣ .
(٣) صفة جزيرة العرب للهمداني : ١٨٩ بليهد .
(٤) معجم البلدان : لياقوت ٣٧٦/٨ ، وصفة جزيرة العرب : الهمداني ٢٢٧ .
(٥) صفة جزيرة العرب : الهمداني ٧١ ، ٨١ .
(٦) صفة جزيرة العرب : الهمداني ١٢٠ .
(٧) معجم البلدان : لياقوت ٣٩٩/٨ ، صفة جزيرة العرب : الهمداني ١٢٠ .
(٨) معجم البلدان : ياقوت ٣٢/٢ .
(٩) المرجع السابق : ٣٧٣/٨ .

فالعلاقة لا زالت قائمة بين اللهجات ، وبين بيئتها الجغرافية بل إننا نجـــد كثيراً من خـ
الأقاليم الجغرافية تنطبع في لغة قاطنيها ومن أجـــل اختلاف الأقاليم والسكنى و
والاستقرار . تختلف مظاهر اللهجات بين سكان الجبل والصحراء ، والأودية ، وبين سـ
الجنوب والشمال ، كما أن هذه الهجرات في الجزيرة – كانت تسبب احتكاكاً لغوياً بين الـ
والطارئين « فاللغة كما أنها لصيقة[1] بالدين والأدب ، والتاريخ والقومية » نراها كذلك
بالجغرافيا والأرض . والاستاذ « هنري بر » كان على حق عندما قال (واللغة[2] تظل ـ
للحياة « في تطورها الذي لا ينتهي الى حد ») .

---

(١) محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها : مقدمة د. أنيس فريحة . مطبعة الرسالة : ١٣٧٤ ـ ٥٥

(٢) اللغة : فندريس ص ٦ ترجمة الدواخلي والقصاص . مطبعة لجنة البيان العربي : ١٩٥٠ .


جزيرة العرب
بيان
أماكن القبائل العربية التي
اشتهرت لهجاتها
دولة الروم الشرقية
فارس
صحراء الأحقاف
حضرموت
خليج عدن
أرض السودان
كندة الملوك
عقيل
غني
باهلة
هذيل
ثقيف
خثعم
همدان
عنس

ثانياً : (أ) تنقلات القبائل العربية

مقدمة

لم يكن المجتمع العربي مجتمعاً انعزالياً كما يظن ، بل كان من أهم مميزاته النشاط والحركة والتوثب وكانت تيارات القبائل تتحرك في قلب الجزيرة وعلى أطرافها تارة صاعدة وأخرى هابطة ، والعربي بعد ذلك كثير التنقل للقنص أو السطو على القوافل السابحة في بطن الجزيرة ، وكانت الهيئة الجبلية والصحراء الوعرة لها الأثر الكبير حيث صبغتهم بصبغة خاصة ، وطبيعة الإقليم في الجزيرة هو الذي حدد تنقلاتهم وتحركاتهم ، فالمرتفعات تقف حائلاً أمام تجمعاتهم ، ثم لا تلبث عزائمهم أن تزلزل تلك الكتل الصخرية حيث يفرون منها ضاربين في الوهاد ما دام الفقر والقسوة قد أحاطا بمجتمعهم من كل جانب ، وما دام إقليم الجزيرة قد اتسم بالشذوذ الجغرافي ، فالمناطق القاحلة الجرداء بجانب المناطق الغنية الخصبة وبينما الجبال الضاربة في الأفق بجانب الأغوار الموغلة في العمق ، ففي موضع تبسم الحياة ، وفي موضع تقسو ، ومن المعروف أن العربي يربط حياته بأمرين : تتبع المطر[1] ، ومواطن الكلأ ، فإن وجد ذلك استقر وأمن ، وإن لم يجد لا يلقي عصا التسيار إلا إذا فاجأه واحد منها ، وحياة العربي كانت تتمثل في الصيد والرعي والغزو والقنص والسلب ، فإن لم يجد العربي عدواً من غير قبيلته — أغار على قبيلته[2] والأدلة على ذلك كثيرة في الأدب العربي .

وجميع الصفات السالفة تحتم على العربي أن يكون في دائرة متصلة من الحركة التي لا تنقطع ، بل كانت جميعها تتمثل في دمه ، لأن العربي يريد أن يعيش .فلا بد من أن يغزو حيناً ويرعى حيناً آخر ، ومن هنا لا يمكن أن نتصور القبائل بأنها كانت كتلاً صماء لا تتلاقى ، ولعل الهجرة التي أعقبت انهيار سد مأرب كانت أبرز دليل على هذا التمازج والتواصل والحركة ، ونرى صورة لمثل هذا يحدثنا عنها ياقوت حيث يقول في هجرة اليمنيين (وباعد الله بين أسفارهم كما ذكروا فتفرقوا عباديد في البلدان)[3] . ثم يحدثنا ياقوت عن نزول من نزل في « خيبر » ،

---

(١) معجم البلدان : ياقوت ٣٥٧/٧ .

(٢) فجر الإسلام : ١١/١ – ١٢ أحمد أمين : ط الثالثة لجنة التأليف والترجمة ، سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م.

(٣) معجم البلدان : ٣٥٦/٧ .

« وتيماء » ، « ووادي القرى » ، « ويثرب » ، « والحرم » ، « وعمان » ، « والشحر » ، « والشام » .

فلم تكن القبائل في عزلة ولا واقعة تحت أرض محدودة ضيقة ، ولم تكن تتمثل فيها الانطوائية كما حدثتنا كتب الأخبار ، وإنما كان التقارب بين القبائل عن طريق النسب تارة ، والحلف[1] تارة أخرى ، والمصالح المشتركة أحياناً .

ويرى « جولد تسهير » أن الدوافع التي تكون هذه الأحلاف لم تكن ناشئة عن حس داخلي بوجود قرابة وصلة رحم بين المتحالفين ، بل كانت ناشئة عن المصالح الخاصة التي تهم العشيرة كالحماية والأخذ بالثأر[2] .

ونجد أمثلة للتحالف كثيرة في حياة العرب منها «الرباب»[3] ، أو حلف «الحمس» ومعناه : التشدد ، وقد كان بين قريش وكنانة وخزاعة « ويروى عن أبي عبيدة النحوي : أن بني عامر ابن صعصعة دخلوا معهم في ذلك أيضاً »[4] .

والذي يرى من تاريخ العرب أن القبيلة لا تكاد تتسم بسحنة خاصة في الزمان والمكان حتى يعرض لها ما يعرض للمجتمعات من قلقلة ، فتختلف الأرض التي كانت تعيش فوقها وتختلف كذلك الأسماء التي كانت تتسمى بها ، ومن هنا نرى منازلهم تتداخل وتتعدد حتى أصبحنا لا نستطيع أن نحدد مَنْ من القبائل يسكن هذه الأرض « فيحدثنا العاصمي عن أبي المكارم الاعرابي وابن الاعرابي أن الرمة طويلة عريضة تكون مسيرة يوم تنزل أعاليها بنو كلاب ثم تنحدر فتنزل عبس وغيرهم من غطفان ، ثم تنحدر فتنزل بنو أسد »[5] .

وفي كتاب نصر « أن وسطه لبني كلاب[6] وغطفان » ، فهذا الخلط الذي أراه من النصين السابقين مرجعه القلقلة المستمرة بين المد والجزر فمرة تنزل بنو كلاب في أعالي الرمة ، ومرة

---

(١) قال البكري : لما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف انضم الذليل منهم الى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير . معجم ما استعجم : ١/٥٣ البكري .

(٢) تاريخ العرب : ١/٥٠٤ جواد علي .

(٣) الاشتقاق لابن دريد : ص ١١١ وستنفلد ، وانظر اللسان : ١/٣٨٨ .

(٤) بلوغ الأرب : الألوسي ٢/٢٨٩ ، نهاية الأرب للنويري : ج ٢ ص ٣٦٧ .

(٥) معجم البلدان : ٤/٢٩٠ .

(٦) المرجع السابق : ٤/٢٩١ .

تتحيز القبيلة نفسها في وسطه فالحدود معالمها باهتة في تلك الجزيرة الشاسعة ، ومرجع ذلك الهجرات التي لا تنتهي حتى تبدأ من جديد في هجرة أخرى ، فكم من قبيلة خانها الغيث ونبا بها الموضع فهجرته الى مساقط المطر، ومنابت العشب وها هو الهمداني يتحدث عن هجرة الأزد فيقول (وأقاموا بتهامة[1] ما أقاموا حتى وقعت الفرقة بينهم وبين كافة عك فساروا الى الحجاز فرقاً ، فصار كل فخذ منهم الى بلد ، فمنهم من نزل السروات ومنهم من تخلف بمكة وما حولها ، ومنهم من خرج الى العراق) ...

وكا حدثنا عن هذا ياقوت والهمداني حدثنا عن ذلك أبو علي أحمد[2] بن رسته وأبو الحسن المسعودي[3] . وإذا كان الخلط في السكنى وفي أماكن القبائل قد لمح عند ياقوت ، فإنه يلمح كذلك عند مؤرخ جغرافي مشهور حيث ذكر أن « عسفان[4] كانت تسكنها هذيل » وكانت كذلك « تسكنها بنو المصطلق »[5] .

وهكذا نجد أنفسنا أمام قفزات رائعة صورتها لنا القبائل العربية فتارة تضرب الأرض بأقدامها منجدة ، وتارة تضرب بأقدامها متهمة ، ثم تلمح لها صورة أخاذة على أطراف الجزيرة جبالها ووديانها وغورها ونجدها . وفي الفقرة الآتية أحاول أن أرسم صورة سريعة لتفرق القبائل العربية في الجزيرة لنتعرف على مساكن كل قبيلة على سبيل التقريب ، لأن القبائل تتداخل مساكنها ثم هي دائبة التنقل والفر من هنا والى هناك ، فالحديث عن تفرق القبائل صعب عسير ولن يجد الباحث وطناً ثابتاً محدداً لأي قبيلة من القبائل، ولا بقعة في شبه جزيرتهم — على تباعد أطرافها — اختصت بقوم منهم دون الآخرين فيحدثنا البكري (أن بعض[6] بيشة لبني هلال ، وبعضها لسلول) أو أن « الوصيف »[7] أدناه لكنانة وشقه الآخر لهذيل « أو » الضجن[8] — واد في بلاد هذيل بتهامة أسفله لكنانة ، أو أن « سمياً »[9] واد بتهامة

(١) صفة جزيرة العرب : الهمداني ٢٠٩ .
(٢) الأعلاق النفيسة : ٥٩
(٣) التنبيه والاشراف : ٢٠٨ .
(٤) معجم ما استعجم : ٩٩٢/٣ .
(٥) المرجع السابق : ٩٤٢/٣ .
(٦) المرجع السابق : ٢٩٤/١ .
(٧) معجم قبائل العرب : كحالة ٩٩٧/٣ .
(٨) معجم البلدان : ياقوت مادة (ضجن) .
(٩) معجم قبائل العرب : ٩٩٧/٣ .

قرب مكة أسفله لكنانة وأعلاه لهذيل ، أو أن « أدام »[١] واد بتهامة أعلاه لهذيل وأسفله لكنانة .

أرأيت تداخل الحدود والتحام السكنى ؟ ثم هذا التحديد المبهم من أن الوادي شقه لقبيلة كذا وشقه الآخر لقبيلة كذا ، إن هذه الحدود على الرغم من تحديدها باهتة لا تشفي غلة الباحث اللغوي الذي يريد أن يدرس لهجات هذه القبائل دراسة منهجية .

وإليكم صورة مبسطة تبرز فيها الخطوط العريضة لهذا التنقل .

تنقلات القبائل :

حدثتنا كتب التاريخ أن العرب قسمان :

١ ـ العرب البائدة : وهم الذين بادوا ودرست آثارهم ، وانقطعت تفاصيل أخبارهم .

٢ ـ العرب الباقية وهم قسمان :

القسم الأول :

العرب العاربة . وهم بنو قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، وهم عرب اليمن ، ومن أشهر قبائلهم :

جرهم : وكانت منازلهم أولاً باليمن ، ثم انتقلوا الى الحجاز فنزلوه وأقاموا به[٢] .

يعرب : ومن يعرب تشعبت القبائل والبطون من فرعين كبيرين وهما حمير ، وكهلان .

القبيلة الأولى : (حمير) وهم حمير بن سبأ « وكانت بلادهم مشارف اليمن فظفار وما حولها »[٣] . وأشهر بطون حمير قضاعة والمشهور من « قضاعة » الأحياء الآتية :

الحي الأول : « بلى » .

---

(١) معجم البلدان : ياقوت ١/١٥٥ .

(٢) صبح الأعشى : القلقشندي ١/٣١٥ دار الكتب ١٣٤٠ هـ ـ ١٩٢٢ م ، قلب جزيرة العرب : فؤاد حمزة ٢٢٥ ، العقد الفريد : مطبعة الاستقامة ط أولى سنة ١٩٤٠ ٣/٣٥٣ ، نهاية الأرب : ٢١١ ط أولى القاهرة ١٩٥٩ تحقيق الأبياري .

(٣) صبح الأعشى : ١/٣١٥ .

الحي الثاني : « جهينة » .

الحي الثالث : « كلب » قال صاحب حماة « وكان بنو كلب[1] في الجاهلية ينزلون دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام » .

الحي الرابع : « بهراء » وقال في العبر « وكانت منازلهم[2] شمالي منازل «بلي» من الينبع الى عقبة أيله » .

الحي الخامس : « بنو نهل » وكانت منازلهم[3] باليمن .

القبيلة الثانية : (كَهْلان) وأشهر بطون كهلان :

أولاً : (الأزد) قال أبو عبيد : ويقال بالسين بدل الزاي . قال الجوهري : بالزاي أفصح وقد قسم الجوهري الأزد الى ثلاثة أقسام :

أ) « أزد شنؤة » ، (ومنازلهم المراة)[4] .

ب) « أزد السراة » ، وهو موضع بأطراف اليمن نزل به فرقة منهم فعرفوا به[5] .

جـ) « أزد عمان » ، وعمان مدينة بالبحرين نزلها قوم منهم فعرفوا به[6] .

ثم الأزد بطون كثيرة منها : غسان ، قال في العبر « وبلادهم على القرب من بلاد اليمن ... ولغسان هؤلاء ملك العرب[7] بالشام» ، ومنها «الأوس والخزرج» ، وكانت منازلهم[8] بيثرب .

---

(١) المرجع السابق : ٣١٦/١ ، معجم قبائل العرب ٩٩١/٣ .

(٢) صبح الأعشى : ٣١٧/١ ، معجم قبائل العرب : كحالة ١١٠/١ ، نهاية الأرب : القلقشندي ١٨٢ .

(٣) صبح الأعشى : ٣١٧/١ ، معجم قبائل العرب : ١١٩٧/٣ ، صفة جزيرة العرب : الهمداني ١١٦ .

(٤) معجم ما استعجم : البكري ٩٠/١ .

(٥) صبح الأعشى : ٣١٩/١ ، معجم قبائل العرب : كحالة ١٥/١ .

(٦) صبح الأعشى : ٣١٩/١ ، معجم قبائل العرب : كحالة ١٦/١ .

(٧) صبح الأعشى : ٣١٩/١ ، معجم قبائل العرب : كحالة ١٦/١ .

(٨) صبح الأعشى : ٣٢٠/١ ، نهاية الأرب : القلقشندي : ٩٤ ، صفة جزيرة العرب ٢١١ ، معجم قبائل العرب : كحالة ٥٠/١ .

ثانياً : « طيء » قال في العبر « وكانت منازلهم[1] باليمن فخرجوا منها على أثر خروج الأزد عند تفرقهم بسيل العرم، فنزلوا بنجد والحجاز على القرب من بني أسد ثم غلبوا بني أسد على جبلي «أجا وسلمى» من بلاد نجد » .

ثالثاً : « مذحج » ، ومدحج بطون كثيرة منها :

أ) « خولان » قال في العبر : « وبلاد خولان في بلاد اليمن من شرقيه »[2] .

ب) بنو الحارث بن كعب ، قال في العبر (وديارهم بنواحي نجران[3] من اليمن وهم مجاورون لبني ذهل) .

رابعاً : (همدان) قال في العبر : « وكانت ديارهم باليمن من شرقيه ولما جاء الإسلام تفرق من تفرق منهم وبقي من بقي »[4] .

خامساً : (كندة) قال صاحب حماة : (وبلادهم اليمن قبلي حضرموت ، وكان لهم ملك بالحجاز واليمن[5] ويذكر الهمداني بأن « كندة[6] من أرض حضرموت » وأما ياقوت فيذكر أن « كندة اسم قبيلة ، ومخلاف كندة[7] باليمن » ويذكر الاستاذ « نكلسون » أن دولة[8] كندة كانت لتبابعة اليمن ، كما كان اللخميون لملوك الفرس والشيء المهم في قيام دولتهم القصيرة العمر : أنها كانت أول محاولة في داخل بلاد

---

(١) صبح الأعشى : ٣٢٠/١ ، معجم قبائل العرب : كحالة ٦٨١/٢ ، جمهرة أنساب العرب : ابن حزم ٣٧٥ تحقيق بروفنسال ، دار المعارف بمصر ، معجم ما استعجم ٩٠/١ ، نهاية الأرب : القلقشندي : ٣٢٦ .

(٢) صبح الأعشى : ٣٢٧/١ ، معجم قبائل العرب : ٢٣١/١ ، صفة جزيرة العرب : ١١٦ ، نهاية الأرب ٤٩٠ القلقشندي .

(٣) صبح الأعشى : ٣٢٦/١ ، معجم قبائل العرب : ٣٦٦/١ ، صفة جزيرة العرب ٥٣ .

(٤) صبح الأعشى : ٣٢٨/١ ، معجم قبائل العرب : ١٢٢٥/٣ ، صفة جزيرة العرب ٨٥ .

(٥) صبح الأعشى : ٣٢٨/١ ، معجم قبائل العرب : ٩٩٨/٣ ، نهاية الأرب : ٤٠٩ ، العقد الفريد : ٣٤١/٣ ، قلب جزيرة العرب : ٢٣٤ ، فؤاد حمزة .

(٦) صفة جزيرة العرب : الهمداني ٨٥ .

(٧) معجم البلدان : ٢٨٤/٧ .

(٨) تاريخ العرب : مبروك نافع ١٤٣ مطبعة وادي النيل .

العرب لتوطيد مجموعة من القبائل حول سلطة مركزية لها زعيم واحد ، ولم تنجح هذه المحاولة لأن التوحيد العام نجح على يد نبي الإسلام محمد عليه السلام[1] .

سادساً : (مراد) قال صاحب حماة (وبلادهم الى جانب زبيد من بلاد اليمن)[2] .

سابعاً : (أنمار) قال في العبر (وكانت بلادهم في سروات اليمن[3] والحجاز الى تبالة) .

ثامناً : (جذام) « ومساكنها بين مدين الى تبوك ، فإلى أذرح[4] ، وقال الهمداني (ومنها فخذ مما يلي طبرية من أرض الأردن) »[5] .

تاسعاً : (لخم) ، (وكان لهم ملك بالحيرة من بلاد العراق)[6] .

عاشراً : (الأشعريون) ، وهم من كهلان من القحطانية قال الهمداني (ديار الأشعريين[7] من حدود بني مجيد بأرض الشقاق فإلى حيس فزبيد) ومن بلدانهم: القحمة «والحصيب»[8] وقدموا على النبي ﷺ فقال لهم : نعم الحمى[9] ، والأشعريون لا يفرون في قتال ولا يغلون هم مني وأنا منهم .

الحادي عشر : (عاملة) ، وقد ذكر الحمداني (أن بجبال عاملة من بلاد الشام[10] منهم الجم الغفير «وعاملة خرجت الى الشام من سيل العرم[11] ، ونزلوا بالقرب من دمشق » وقد أفاض علماء الجغرافيا والتاريخ من المسلمين في وصف هجرات اليمنيين كأحمد

---

(١) المرجع السابق : ١٤٧ .

(٢) صبح الأعشى : ٣٢٩/١ ، معجم قبائل العرب : ١٠٦٦/٣ .

(٣) صبح الأعشى : ٣٢٩/١ .

(٤) معجم قبائل العرب : ١٧٤/١ .

(٥) صفة جزيرة العرب : ١٢٩ .

(٦) صبح الأعشى : ٣٣٤/١ ، صفة جزيرة العرب : ١٢٩ ، نهاية الأرب : ٤١١ .

(٧) صفة جزيرة العرب : ١١٩ .

(٨) المرجع السابق : ٥٣ .

(٩) معجم قبائل العرب : ٣١/١ نقلاً عن (مشكاة المصابيح) .

(١٠) صبح الأعشى : ٣٣٦/١ ، صفة جزيرة العرب : الهمداني ١٢٩ ، معجم قبائل العرب : ٧١٤/٢ ، جمهرة أنساب العرب : ٣٩٤ .

(١١) خلاصة الكلام : ٥٧ غنيم ط أولى المطبعة الشرقية .

ابن رسته[١] ، وأبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني اليمني[٢] (٣٣٤ هـ) وأبي الحسن المسعودي[٣] (٣٤٦ هـ) وياقوت بن عبدالله الحموي[٤] (٥٧٢ – ٦٢٦ هـ) .

هذا وقد علل بعض مؤرخي العرب هجرة اليمنيين هذه الى الشمال «بانهيار سد مأرب»[٥] ، ويعللها الآخرون بانحطاط التجارة في اليمن بين القرن الثالث والرابع ق م – إثر نشاط الرومان التجاري في البحر الأحمر – وقد سبب هذا النشاط انحطاطاً في المجتمع وتدهوراً فيه .

وأياً ما كان فتصدع السد لم يكن إلا السبب المباشر لمجموعة كثيرة من الأسباب التاريخية المختلفة : اقتصادية واجتماعية وسياسية ، خارجية وداخلية – أدت الى هذا التفكك في المجتمع ، ثم الى الهجرة بعد أن حلت بهم النكبات ، وفاجأتهم الكوارث . ويستنبط من هذا العرض أن عرب اليمن قد أسسوا فى هجراتهم خارج بلادهم ممالك عظيمة – كالغساسنة في الشام ، والمناذرة في العراق – وجميع هؤلاء من الأزد ، ثم مملكة كندة في نجد والحجاز[٦] .

وتلك الصورة المبعثرة للقبائل أشبه ما تكون بتداخل الموج عندما تهب عليـــه الرياح السافيات ، فلم نكد نلمح فاصلاً بين القبيلة والأخرى في هجرتها كما أننـــا لا نلمح الموجة تنتهي عندما تتصل بها موجة أخرى ، وهكذا كانت الهجرات في اتصال وتداخل وتقلقل .

القسم الثاني : العرب المستعربة :

وعرفت بالعدنانية ، ومن أولاد عدنان : معد ، وكان لمعد أربعة أولاد: اياد ، نزار ، قنص ، أنمار ... ويقسم النسابون عدنان الى فرعين كبيرين (ربيعة ومضر)[١]

---

(١) الأعلاق النفيسة : ٥٩ .

(٢) صفة جزيرة العرب : ٢٠٩ .

(٣) التنبيه والاشراف : ٢٠٨ .

(٤) معجم البلدان : ٣٥٦/٧ وما بعدها .

(٥) انظر : في خبر خراب سد مأرب : معجم البلدان : ٣٥٥/٧ .

(٦) لا زال المؤرخون على خلاف في أصل كندة وهل هي عدنانية أو قحطانية ؟ انظر في ذلك : تاريخ العرب قبل الاسلام ٢١٨/٣ – ٢١٩ .

الأصل الأول : (ربيعة) ،

ولربيعة بطنان وهما : أسد وضبيعة ، وديارهم الى الآن بالجزيرة الفراتية تعرف بديار ربيعة، وقال الهمداني : « ديار ربيعة من العروض ونجد »[٢] .

ومن أسد (بنو عنزة) ، (وكانت ديارهم خيبر[٣] من ضواحي المدينة) ، «وتمتد منازلهم[٤] من نجد الى الحجاز فوادي السرحان فالحماد فبادية الشام » ومن أسد - جديلة ومن جديلة عبد القيس قال في العبر : (وكانت ديارهم بتهامة حتى خرجوا الى البحرين وزاحموا من بها من بكر ابن وائل وتميم وقاسموهم المواطن)[٥] ومن بكر بن وائل من ربيعة بنو عجـــل - (وكانت منازلهم من اليمامة[٦] الى البصرة) .

ويرسم الوزير الفقيه عبدالله البكري الأندلسي المتوفي سنة ٤٨٧ هـ صورة متحركة لتنقل قبائل ربيعة ، وذلك بسبب الفتن التي قامت بين قبائلها ، وأشهر القبائل التي فارقتها عبد القيس وشن بن أفصى ومن معهم - فاختاروا البحرين وهجر[٧] ، واقتسموها بين قبائلهم .

ودخلت قبائل أخرى من ربيعة ظواهر بلاد نجد والحجاز وأطراف تهامة وما والاها ، وانتشروا فيها ، فكانوا « بالذنائب » ، و « واردات » و « الأحص »[٨] ... وتيامنت قبائل أخرى من ربيعة الى بلاد اليمن فحالفت أهله ، واستقرت بها ، وبقوا على أنسابهم - وكان منهم أكلب بن ربيعة بن نزار ، وقبيلة عنز وتنسب الى عبدالله بن وائـــل بن قاسط من بني أسد بن ربيعة[٩] .

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : ١/١٤ .

(٢) صفة جزيرة العرب : ١٧١ الهمداني .

(٣) صبح الأعشى : ١/٣٣٧ ، نهاية الأرب : ٣٧٨ .

(٤) معجم قبائل العرب : ٢/٨٤٦ .

(٥) صبح الأعشى : ١/٣٣٧ ، معجم قبائل العرب : ٢/٧٢٦ .

(٦) صبح الأعشى : ١/٣٣٩ ، معجم قبائل العرب : ٢/٧٥٧ ، صفة جزيرة العرب : ١٦١ ، نهاية الأرب: ٣٠٥ القلقشندي .

(٧) معجم ما استعجم : ١/٨٠ .

(٨) المرجع السابق : ١/٨٢ .

(٩) ١/٨٢ .

« ولم تزل الحروب والوقائع تنقلهم من بلد الى بلد ، وتنفيهم من أرض الى أرض»وتغلب في كل ذلك ظاهرة على بكر[١] حتى التقوا يوم (قضة) »[٢] .

وكانت الدائرة في هذا اليوم لبكر على تغلب – فتبددت تغلب في البلاد « وانتشرت بكر ابن وائل وعنزة، وضبيعة ، باليمامة فيما بينها وبين البحرين الى أطراف سواد العراق... وانحازت النمر وغفيلة ، الى أطراف الجزيرة وعانات وما دونها الى بلاد بكر بن وائل وما خلفها من بلاد قضاعة من مشارق الأرض »[٣] .

الأصل الثاني : (مضر) .

وقد تشعبت مضر شعبتين : قيس عيلان بن مضر ، والياس بن مضر . هذا ويعلل البكري في معجمه تفرق قبائل مضر في شتى أنحاء الجزيرة العربية الى تبـــاين قبائلهم ، وكثرة عددهم وفصائلهم ، حتى ضاقت بلادهم عنهم « فطلبوا المتسع والمعاش وتتبعوا الكلأ والماء ، وتنافسوا في المحال والمنازل ، وبغى بعضهم على بعض فاقتتلوا »[٤] .

وكانت مضر مقيمة وحدها في تهامة – بعد خروج ربيعة منها ، حتى دب بينها التفرق ، ووقعت بين قبائلها البغضاء ، فرأينا قبيلة متهمة ، وأخرى منجدة ، فظعنت قيس من تهامة طالعين الى بلاد نجد ، إلا قبائل منهم ، فانحازت الى أطراف الغور من تهامة »[٥] .

كما نزلت هوازن ما بين غور تهامة إلى ما والى بيشة ، وبركا ، وناحية السراة ، والطائف ، وذا الحجاز وحنين وأوطاس وما صاقبها من البلاد ، ومن هوازن بنو سعد الذين كان رسول الله ﷺ رضيعاً فيهم . وقال في العبر : (وقد افترق بنو[٦] سعد هؤلاء في الإسلام ولم يبق لهم حي فيطرق) . وكانوا قبل ذلك بنجد شرقي مكة .

---

(١) المرجع السابق : ٨٥/١ .

(٢) قضة : من اليمامة على ثلاثة ليال : معجم ما استعجم ٨٥/١ .

(٣) معجم ما استعجم : ٨٦/١ .

(٤) المرجع السابق : ٨٧/١ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) صبح الأعشى : ٣٤٠/١ ، معجم قبائل العرب : ٥١٣/٢ .

ومن هوازن « بنو عامر » بن صعصعة ، ومن بني عامر «بنو كلاب» قال في العبر: (وكان[1] لهم في الإسلام دولة باليمامة ، وكانت ديارهم حمى[2] ضرية . وهي حمى كليب وحمى الربـــذة في جهات المدينة المنورة وفدك والعوالي، ثم انتقلوا بعد ذلك الى الشام) ومن بني عامر بن صعصعة « بنو هلال » (وكانوا[3] يقطنون الحجاز ونجد حول مكة وفي بسائط الطائف ما بينه وبين جبل غزوان) وقال الهمداني « ووادي جلذان منقلب الى نجـــد في شرق الطائف يسكنه بنو هلال »[4] .

ومن بني عامر أيضاً « بنو عقيل » قال في العبر (وكانت مساكنهم[5] البحرين في كثير من قبائل العرب ، وكان أعظم القبائل هناك بنو عقيل هؤلاء ، وبنو تغلب وبنو سليم وكان أظهرهم في الكثرة والغلب بنو تغلب ثم اجتمـــع بنو عقيل وبنو تغلب على بني سليم فأخرجوهم من البحرين ، ثم اختلف بنو عقيل وبنو تغلب بعد مدة فغلب بنو تغلب على بني عقيل فطردوهم من البحرين) ، ومن هوازن « بنو جشم قال في العبر (وكانت مساكنهم[6] بالسروات ، وهي تلال تفصل بين تهامة ونجد متصلة من البحرين الى الشام) ، والسروات على قرب من هذيل . ومن بطون هوازن « ثقيف » قال في العبر : وثقيف[7] بطن واسع ، وكانت منازلهم بالطائف، وهي مدينة من أرض نجد على مرحلتين من مكة . ومن قبائل قيس « باهلة » (وكانوا يقطنون اليمامة)[8] ومن قبائل قيس « بنو غطفان » قال في العبر (وكانت منازلهم[9] ممـــا يلي وادي

---

(١) صبح الأعشى : ٣٤٠/١ ، معجم قبائل العرب : ٩٨٩/٣ ، نهاية الأرب : القلقشندي ٤٠٧ .

(٢) قال البكري : وكانت « ضرية » في الجاهلية من مياه ضباب . معجم ما استعجم : ٨٦٥/٣ ، ثم قال : وقد دخل في حمى ضرية حقوق لسبعة أبطن من بني كلاب ، وهم أكثر الناس أملاكاً في الحمى . معجم ما استعجم : ٨٦٦/٣ .

(٣) معجم قبائل العرب : ١٢٢٧/٣ .

(٤) صفة جزيرة العرب : الهمداني ١٢١ .

(٥) صبح الأعشى : ٣٤٢/١ ، معجم كحالة : ٨٠١/٢ ، نهـــاية الأرب : ٣٦٦/١ ، جمهرة أنساب العرب ٢٧٣ .

(٦) صبح الأعشى : ٣٤٣/١ ، نهاية الأرب : ٣١٤ القلقشندي .

(٧) صبح الأعشى : ٣٤٣/١ ، معجم قبائل العرب : ١٤٩/١ ، صفة جزيرة العرب : ١٢٠ ، معجم مـــا استعجم للبكري : ٦٧/١ ، ٧٧ ، ٧٩ .

(٨) معجم قبائل العرب : ٦٠/١ ، معجم ما استعجم : ٩٠/١ البكري .

(٩) صبح الأعشى : ٣٤٤/١ ، معجم قبائل العرب : ٨٨٨/٣ .

القرى وجبلي طيىء : أجأ وسلمى) ، وقال البكري « ممن نزل بالحجاز غطفان »[1] ولعل نزولهم الحجاز كان بعد الإسلام . وقال القلقشندي : ومنازل غطفان[2] بنجد مما يلي وادي القرى . ومن غطفان ذبيان ومن ذبيان « فزارة » قال في العبر : وكانت[3] فزارة بنجد ووادي القرى . وقال البكري : ممن نزل بالحجاز فزارة[4] ، ولعل نزولهم الحجاز كان بعد الإسلام .

ومن قبائل قيس أيضاً « بنو سليم » قال الحمداني : وهم أكبر قبائل قيس ، قال في العبر (وكانت منازلهم في عالية نجد بالقرب من خيبر)[5] ومن قبائل قيس (عدوان) قال في العبر (وكانت منازلهم[6] بالطائف من أرض نجد) قال البكري « وممن نزل بالحجاز من العرب[7] عدوان » ولعلهم نزلوا الحجاز بعد الإسلام .

الأصل الثالث : الياس بن مضر :

وكان لالياس بن مضر ثلاثة أولاد : قمعة[8] ،وطابخة ومدركة وقد تفرعت منهم بطون كثيرة . أما طابخة فقد خرجت من تهامة الى ظواهر نجد والحجاز . ومن قبائل طابخة تميم « وقد نزحت تميم وضبة وعكل بن أد من الحجاز – الى بلاد نجد وصحاريها فحلوا منازل بكر وتغلب التي كانوا ينزلونها في الحرب التي كانت بينهم ثم مضوا حتى خالطوا أطراف هجر ونزلوا ما بين اليمامة وهجر »[9] كما نفذت بنو سعد بن زيد مناة بن تميم الى « يبرين » حتى خالطوا بني عامر بن عبد القيس في بلادهم «قطر»[10] .

---

(١) معجم ما استعجم : ١/٩٠ البكري .

(٢) نهاية الأرب : ٣٨٨ القلقشندي .

(٣) صبح الأعشى : ١/٣٤٤ ، معجم قبائل العرب : ٣/٩١٨ .

(٤) معجم ما استعجم : ١/٩٠ البكري .

(٥) صبح الأعشى : ١/٣٤٥ ، معجم قبائل العرب : ٢/٥٤٣ ، جمهرة أنساب العرب : ٢٤٩ ، صفة جزيرة العرب : ١٣١ الهمداني .

(٦) صبح الأعشى : ١/٣٤٦ ، معجم قبائل العرب : ١/٧٦٢ .

(٧) معجم ما استعجم : ١/٩٠ .

(٨) نهاية الأرب في فنون الأدب : النويري السفر الثاني ص ٣٠٨ دار الكتب ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م .

(٩) معجم ما استعجم : ١/٨٨ .

(١٠) المرجع السابق .

الأصل الرابع : (مدركة) :

وله فرع واحد على حاشية عمود النسب (وهو هذيل) ، وهي قبيلة متسعة لها بطون كثيرة[1] وكانت ديارهم بالسروات ، وسراتهم متصلة بجبل غزوان المتصل بالطائف ، وكان لهم أماكن[2] ومياه في أسفلها من جهات نجد وتهامة بين مكة والمدينة ، ثم تفرقوا بعد الإسلام ، « وكانوا ينزلون الحجاز عند مجيء الإسلام »[3] .

الأصل الخامس : (خزيمة) :

وله فرعان على حاشية عمود النسب وهما « الهون وأسد » أمـــا أسد فهم بطن كبير متسع قال في العبر (ومنازلهم[4] مما يلي الكرخ من أرض نجد في مجاورة طيىء . قال ويقال : ان بلاد طيىء كانت لبني أسد ، فلما خرج بنو طيىء من اليمن تغلبوا على أجأ وسلمى وتفرق بنو أسد ، « وقد كانوا ينزلون الحجاز[5] عند مجيء الإسلام » .

تعقيب :

يلاحظ فيما سبق عند عرض القبائل العربية — أن ظهرت أسماء عديدة لهـــا أسماء كأسماء الحيوانات والوحوش والطيور . ونظرة واحدة الى كتب الأنساب العربية مثل (كتاب صبح الأعشى : للقلقشندي[6] ، وبلوغ[7] الأرب : للألوسي ، ونهاية[8] الأرب : للقلقشندي ، ونهاية الأرب للنويري[9] ، والعقد الفريد[10] لابن عبد ربه ، والمعارف لابن قتيبـــة[11] ، ونسب

---

(١) صبح الأعشى : ٣٤٩/١ .

(٢) معجم كحالة : ١٢١٣/٣ .

(٣) معجم ما استعجم للبكري : ٩٠/١ .

(٤) صبح الأعشى : ٣٤٩/١ ، معجم كحالة : ٢١/١ ، نهاية الأرب : القلقشندي ٣٧ .

(٥) معجم ما استعجم : ٩٠/١ .

(٦) ٣٠٨/١ صبح الأعشى للقلقشندي . وما بعدها .

(٧) ١٩٣/٣ .

(٨) انظر : الفهرست من ص ٤٦٧ — ٤٩١ .

(٩) السفر الثاني : ٣٠٨ ، وما بعدها .

(١٠) ٢٨٧/٣ ، وما بعدها .

(١١) ص ٢٩ ط الأولى : ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٥ م المطبعة الرحمانية بمصر .

عدنان وقحطان لأبي العباس المبرد(١) وغيرهما من كتب الأنساب ترينا كيف أن كثيراً من أسماء القبائل موافقة لأسماء الطيور والوحوش ، وربما أن البدوي لطول الفه بالصحراء صار يرى في تلك الوحوش – ما يؤنسه ويواخيه فركن إليها وسكن وأصبحنا نسمع العربي يعلن الإلفة بينه وبين الذئب نفسه الذي جعله أقرب إليه من الانسان .

عوى الذئب فاستأنَسْتُ بالذئب إذ عوى وصوّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

ولهذه القربى التي كانت بين الانسان والحيوان ، رأينا أن هذا الحيوان كان مسئولاً كالانسان تماماً إذا أحدث شيئاً في العصور القديمة ، ففي سفر الخروج إذا نطح(٢) ثور رجلاً أو امرأة وأفضى ذلك الى موت النطيح ، وجب رجم الثور وحرم اكل لحمه ولا تبعة على مالكه ... فالصلة كانت وثيقة بينهم وبين الحيوان .

وقد شاهد بعض الرحالة إحدى قبائل « البيجا » بالقرب من سواكن لا تأكل لحم الغزال مطلقاً كا ن الحيوان إذا مات عندهم ، دفنوه باحتفال مهيب(٣) : وقد أورد « سمث » عن ابن المجاور « ان قبيلة بني الحارث باليمن »(٤) كانوا إذا مات غزال قاموا إليه فغسلوه وكفنوه ثم دفنوه ، ولبسوا عليه الحداد سبعة أيام كأحد أفراد القبيلة » .

ولأجل هذه الصلة التي كانت بين الانسان والحيوان لا نعجب ان رأينا أسماء تلك القبائل العربية هي نفسها أسماء الحيوانات التي كانت حبيبة إليهم قال القلقشندي: « غالب أسماء العرب منقولة عما يدور في خزانة خيالهم مما يخالطونه ويجاورونه ، إما من الحيوانات كأسد ونمر وإما من النبات كنبت وحنظلة ، وإما من الزواحف كحية وحنش ، وإما من أجزاء الأرض كفهر وصخر ونحو ذلك »(٥) . وأرجع « نولدكه » سبب التسمية الى نوع من الشعر الطبيعي « Natural Poety » فكما أن البدوي راح ينتزع من الطبيعة أخيلته الشعرية ، كذلك مال

---

(١) لجنة التأليف والترجمة : ١٣٥٤ - ١٩٣٦ تحقيق الميمني .

(٢) المسئولية والجزاء : علي عبد الواحد وافى : ص ١٤ الطبعة الثانية سنة ١٣٦٨ - ١٩٤٩ دار إحياء الكتب العربية .

(٣) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب – المرحوم محمد محمود جمعة ص ١٠٤ مطبعة السعادة بالقاهرة : سنة ١٩٤٩ .

(٤) انظر : المرجع السابق .

(٥) نهاية الأرب : ٢٢ القلقشندي ، بلوغ الأرب : ١٩٣/٣ الألوسي .

إليها يستلهمها أو يستخيرها أسماءه الشخصية[1] وعلل ابن فارس تسمية العربي بأسماء الحيوان « وأما تسمية العرب أولادها بكلب وقرد ونمر وأسد — فذهب علماؤنا الى أن العرب كانت إذا ولد لأحدهم ابن ذكر سماه بما يراه أو يسمعه مما يتفأل به — فإن رأى حجراً تأول فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر — وان رأى ذئباً — تأول فيه الفطنة والنكر والكسب ، وان رأى حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة ، وان رأى كلباً تأول فيه الحراسة وبعد الصوت والإلف »[2].

ويرى القلقشندي أن العرب[3] تسمي أبناءها بمكروه الأسماء وتسمي عبيدهم بمحبوب الأسماء « ولعل السبب في ذلك ما قاله الألوسي » حكى[4] أنه قيل لأبي الدقيش الكلابي : لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب — وعبيدكم بأحسن الأسماء ؟ فقال : « إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا » .

ولهذا لا نعجب عندما يعدد لنا ابن عبد ربه بطون قضاعة فيقول (كلب بن وبرة ، وذلك أن وبرة ولد له : كلب ، وأسد ، ونمر ، وذئب ، وثعلب ، وفهد ، وضبع ، ودب ، وسيد ، وسرحان)[5].

(١) النظم الاجتماعية والسياسية : ١١٤ .

(٢) الصاحبي : ابن فارس : ٦٢ ط السلفية .

(٣) نهاية الأرب : القلقشندي ٢٢ .

(٤) بلوغ الأرب : الألوسي ١٩٣/٣ ، صبح الأعشى : القلقشندي ٣١٢/١ .

(٥) العقد الفريد : ٣٢١/٣ .

(ب) مدى الاعتماد في دراسة اللهجات العربية على أماكن القبائل :

في الصفحات السابقة[١] من الرسالة عرضت بياناً شاملاً لتنقلات القبائل العربية كما جاء في كتب الجغرافيين العرب ، ومن هذا البيان لمحت الحركة الدائبة والنشاط الدائم في قلب الجزيرة من جميع أقطارها، والأفواج البشرية كالسيل الهادر لا ينقطع مده – صاعدة هابطة تتبع مواطن الكلأ ومجاري المياه ، فلم يكن بين القبائل هذه الحدود القاصمة القاسية ، ولم يكن المجتمع العربي صلباً جامداً – بل كانت المناقذ عديدة بين القبائل ، وكانت طرق القوافل التي تحدثت عنها تسهل تلك المنافذ وتقوي ذلك التقابل ، وكان ذلك التقابل عن طريق الأسواق والمجتمعات وأيام العرب ، ويذكر صاحب العقد الفريد عدداً كثيراً من هذه الأيام[٢] التي تقابلت فيها القبائل وتجمعت فيها البطون المختلفة ، وكما جمعت بينها أيام العرب جمعت بينها كذلك المنافرات التي كانت تقع بين القبائل ، وكانت هذه المنافرات من الأمور العادية التي تقع كل يوم بين الأفراد والأسر والقبائل وبطونها ، وقد ساق الألوسي عدداً وافراً من هذه المنافرات في كتابه[٣] . وجميع هذه الأمور وغيرها تجعل الباحث يتمثل المجتمع العربي تمثلاً صحيحاً قائماً على التقارب والالتقاء عن طريق الأنساب والمصاهرة حيناً ، وعن طريق الأحلاف تارة أخرى ، قال البكري[٤] (فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة ... انضم الذليل منهم الى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ... وبالطبع كان ينزل الحليف على حليفه في موطنه ليحتمي فيه ، وكانت المصالح الخاصة هي الدافع لتلك الأحلاف، وتذكر كتب التاريخ والأدب أسماء لهذا التحالف[٥] ، ونتيجة لهذا كله يظهر أن المجتمع العربي لم يكن انطوائياً ولا منعزلاً ، بل كان متحركاً متقلقلاً تلتقي تياراته متصلة – لدواعي ضرورات الحياة ومطالب العيش .

---

(١) الكتاب ص ٣٦ – ٥٠ .

(٢) العقد الفريد : ٦/٤ – ١١١ .

(٣) بلوغ الأرب : الألوسي ٢٨٧/١ .

(٤) معجم ما استعجم : البكري ٥٣/١ .

(٥) بلوغ الأرب : الألوسي ٢٨٩/٢ ، الاشتقاق لابن دريد : ١١١ وستنفلد .

وتبع هذا أن القبائل كانت تتحرك كل ساعة وكل يوم فلا تلبث أن تستقر من أثر هجرة شاقة حتى يناديها منادي الرحيل الى مكان آخر ، قال البكري (لما ضاقت الديار بالعرب تفرقوا في الأرض طلباً للماء والكلأ)[1] . وما أكثر ما تضيق بلادهم عنهم ، فيطلبون المتسع ويتنافسون على المحال والمنازل ، ومن هنا نرى منازلهم تتداخل وتتعدد ، فالمكان الواحد تجد عدة قبائل تسكنه وتنزله ، والوادي تتقابل القبائل حوله فيستقرون جميعاً فيه[2] .

فإذا كان الأمر كذلك ، فأيها أجدى لدراسة اللهجات العربية ، أندرس كل لهجة متمثلين أبعادها واتجاهاتها – طالت هذه الأبعاد أم تضاءلت سواء أكانت هذه اللهجة لهجة قبيلة أو بطن أو فخذ مشهور أو مغمور ، أم ندرس اللهجات العربية متصورين أن الجزيرة العربية ظل ثابت ينقسم الى قسمين غربي وشرقي ؟ ونتغاضى عن بقية القبائل المغمورة الذكر ، وسنحاول في الباب الآتي عرض آراء علماء العربية والمستشرقين في هذا الموضوع وموقفنا منه .

---

(١) معجم ما استعجم : ٥٣/١ البكري .

(٢) انظر : أمثلة لذلك في معجم ما استعجم للبكري : ٩٤/١ ، في معجم البلدان لياقوت : مــادة : ضجن ١٠٥/١ ، في معجم قبائل العرب كحالة ٩٩٧/٣ .

الباب الأول

جغرافية اللهجات

الفصل الأول

رأي المستشرقين وعلماء العربية في تقسيم اللهجات إلى الحجازية والتميمية

لقد رأى « فولرز » Vollers وسرو Sarauw[1] إرجاع كل الفروق اللهجية الى الخلاف بين الحجازية والتميمية ... كما رأى « رابين » أنه لا يعلم إلا قليلاً جداً عن سواهما ، ولذلك لا يتمكن من أخذ غيرهما في الاعتبار ، فكأن دراسة اللهجات عندهم تقوم على كلتا الكتلتين الشرقية والغربية مهملين ما عداهما ، ولا يمكن أن أقرهما على دراسة اللهجات عن طريق « الحجازية والتميمية » ، أو « الشرقية والغربية » لأسباب عدة :

معارضة هذا التقسيم وأسباب ذلك :

١ — إن كلمة الشرق أو الغرب أو الحجاز وتميم — كلها أسماء مشوهة الحدود ، ووحدات ضخمة شاسعة ، فدراسة اللهجات على هذا النظام لا يرضى البحث الحديث .

٢ — أن الحجاز وتميم ، كلاهما من القبائل الضخمة ذات الفروع والبطون العديدة ، وكثيراً ما نجد لهجات هذه الفروع تخالف لهجة القبيلة الأم ، ثم إن بعض بطون هذه القبائل نفرت عنها وعاشت في أماكن عديدة — فدراسة اللهجات عن طريق تلك الواحدات الضخمة فيه خطورة ، وخروج على المنهج السليم .

٣ — إذا كنا سنوجه أنظارنا الى الخلاف بين الكتلتين الحجازية والتميمية فقط فإن معنى هذا — أننا سنبتر ما عداها من السمات اللهجية للقبائل المغمورة الذكر وستكون الدراسة اللهجية قاصرة ومحدودة ، ولا تمثل اللهجات في الجزيرة تمثيلاً صحيحاً ، وبحث يسدي مصادر ترى الباحث أن اللهجات غير التميمية والحجازية كثيرة جداً كثرة غامرة — فبترها يضيع نتائج حاسمة في دراسة اللهجات ، ويحرمنا من ثمرات بيئة لغوية ، نتيجة لإفلات كثيرة من

(١) Rabin, Ancicnt, West Arabian. P. 1 London.

كلام القبائل المعتد بها ، بعدما ضاع كثيره وذهبت به الأيام قال أبو عمرو بن العلاء « ما انتهى[1] إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » وقال ابن فارس « لغة العرب[2] لم تنته إلينا بكليتها وان الذي جاءنا عن العرب قليل من كثير ، وان كثيراً من الكلام ذهب بذهاب أهله » ، فإذا كان أكثر لغة العرب قد شردت وتاهت على الزمان بشهادة أئمة اللغة ، فلا معنى بأن تضيع الثمالة الباقية منها .

٤ — ان أخذ تميم والحجاز في الاعتبار دون غيرهما يضيع على الباحث لهجات المدن كمكة والمدينة والطائف ، ويضيع كذلك لهجات : العمائر ، والبطون ، والأفخاذ والفصائل والأحياء « جمع حي ... » وهذا ما حدث فعلاً ، فلم يتعرض Vollers ولا Sarauw ولا غيرهما ، لأنهم ساروا على خطة المستشرقين تماماً — لم يتعرضوا لدراسة لهجات العربية عن طريق الوحدات الصغيرة ، بل كان شغلهم الشاغل تلك الوحدات الضخمة التي لا تعرف لها حدوداً مثل «الشرقية والغربية أو الحجازية أو التميمية » أو مثل اللهجات البارزة مثل طيىء وهذيل ، أما ما عداهما من اللهجات كحنظلة أو يربوع أو حنيفة ، أو عقيل ، أو غنى، أو باهلة، أو سليم ، أو غطفان أو فزارة أو ثقيف الى أكثر من مائة اسم — فقد أهملوا وتركوا كأن أهلها لم يعيشوا على التربة العربية .

أسباب جغرافية تعارض منهج التقسيم :

ثم كيف تسنى للمستشرقين دراسة اللهجات على أساس الشرق والغرب ، وتقسيم الشرق والغرب في الجزيرة من الأمور الصعبة القاسية حتى على علماء الجغرافيا من العرب وليس أدل على ذلك من تداخل الحدود والمناطق مما جعل العلماء يضطربون في مواقع البلدان وإليكم الدليل :

(أ) في مرآة الحرمين عندما تكلم مؤلفه * عن المدينة قال « وهي في صحراء مستوية ... مكشوفة من جهاتها الأربع » وقال مؤلف تقويم البلدان « المدينة النبوية[3] من الحجاز ، وقيل من

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ١٣ تحقيق شاكر .

(٢) الصاحبي لابن فارس : ٣٤ ، وانظر : المزهر للسيوطي : ٦٦/١ ، ٤٧٣/٢ - ٤٧٤ .

(٣) جغرافية شبه جزيرة العرب : كحالة ١٣٩ .

* المؤلف هو ابراهيم رفعت باشا ت ١٩٣٥ م .

نجد » وقال عرام « حد الحجاز[١] من معدن النقرة الى المدينــة ، فنصف المدينة حجازي ونصفها تهامي » أرأيت الى التخليط وميوعة التحديد ؟

(ب) سبق أن تكلمت عن تحديد الحجاز ، ومما سبق يظهر الاضطراب وعدم الضبط[٢] .

(جـ) كما سبق أن تكلمت عن إقليم نجد ، وأوردت تحديد علماء الجغرافيا من المسلمين له ، وفيه من التخليط وعدم الضبط ما يكفي لاضطراب الحدود[٣] .

(د) في تقويم البلدان لأبي الفداء : أن اليمامة من الحجاز ، وقيل من العروض وهو الأصح .

وفي صبح الأعشى : أن اليمامة قطعة من جزيرة العرب والحجاز[٤] ، وفي معجم البلدان لياقوت : « أن اليمامة معدودة من نجد »[٥] أرأيت الى القلق الجغرافي ، والميوعة في التحديد — إذا ثبت ذلك ، وقد ثبت فما معنى ذلك التحديد الجغرافي القاسي في دراسة اللهجات العربية الذي نادى به المستشرقون وأضرابهم . ولم تكن الفوضى في تحديد الأماكن فقــط ، ولكن الفوضى بلغت أقصاها في احتكاك القبائل ونزولها مجتمعة حول مجاري المياه وفي مواطن الكلأ ، وقد حدثنا عن ذلك البكري وياقوت والمسعودي وغيرهم .

وعرفنا منهم أن « ربيعة » لما دارت الحرب بينها تفرقت شيعاً في البلدان فبعضها نزل في ظواهر نجد ، وبعضها في الحجاز وأطراف تهامة « ولم تزل الحروب والوقائع تنقلهم من بلد الى بلد ، وتنفيهم من أرض الى أرض »[٦] فبعضهم باليمامة ، وآخرون بالبحرين ، وفرقة منهم الى أطراف سواد العراق[٧] .

ولما خرجت ربيعة من تهامة وتفرقت شعاعاً في الجزيرة حدث لمضر مــا حدث لربيعة ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ثم اقتتلوا وتفرقوا ونزلوا أماكن متعددة متهمين ومنجدين —

---

(١) كتاب أسماء جبال تهامة : عرام السلمي ص ٤٢ .

(٢) هذا الكتاب ص ٢٢ – ٢٦

(٣) هذا الكتاب ص ٢٨ – ٢٩

(٤) شبه جزيرة العرب : كحالة ٢١٤ .

(٥) معجم البلدان : ٥١٦/٨ .

(٦) معجم ما استعجم : ٨٥/١ .

(٧) المرجع السابق : ٨٦/١ .

شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، هذا أمرهم في الجاهلية ، ولما جاء الإسلام ، وفي ضحاه رأينا أماكنهم تتغير ، فالقبيلة التي كانت متهمة وجدناها في صبح الإسلام منجدة[1] ، وتمثلت لنا شبه الجزيرة أشبه ما تكون بالموج المتداخل لا نلمح له فاصلاً ، بل موج زاخر يغشاه موج .

فإذا كان الأمر كذلك من اضطراب تحديد الأماكن ، واضطراب نزول القبائل ، فما معنى فكرة التقسيم التي نادى بها المستشرقون جميعاً وما معنى عملية البتر الجغرافي في الجزيرة ، ألا يمكن أن يقع ذلك البتر على رأس قبيلة فيقصمها نصفين ، فتكون نصفاً مشرقة ونصفاً مغربة ، ثم بعد ذلك تكون الطامة الكبرى التي نفذها « رابين Rabin » مترسماً خطا سابقيه وهي أن مثل هذه القبائل « مختلطة فهي غير شرقية وغير غربية وبالتالي — فلغتها منذ البداية وسط بين العربية الشرقية والعربية الغربية »[2] .

والحقيقة التي أراها أن تقسيمه للجزيرة وشطره لها ، لما لم يسلم له وقابلته عقبات مثل قبائل « قيس » التي في وسط الجزيرة ، وثبت أن بعض قبائلها وبطونها كانت تعيش في الحجاز ، وبعضها الآخر في نجد — راح يتخبط من جديد ويعلن أن هذه منطقة متوسطة « لا شرقية ولا غربية » ، ثم لا يزال يتخبط حتى يعلن « بأنه من المحتمل أن تكون لغتها منذ البداية وسطاً بين الغربية والشرقية » وكيف حكم على لغة المنطقة الوسطى منذ البداية مع أنه نفسه يعترف في صراحة «[3] بأننا لا نستطيع بأي حال أن نعيد بناء مادة كاملة في لهجة من اللهجات وكأن مثل هذه المسائل الخطيرة عنده تثبت « بالاحتمال » ، « والظن » والظن لا يغني من الحق شيئاً ! .

اهتمام القدماء بالكتلتين الشرقية والغربية دون غيرهما ، وأثر ذلك :

وما وقع فيه المستشرقون ، وقع فيه القدماء أنفسهم من أول سيبويه ، ونظرة واحدة الى كتابه « الكتاب » ولاسيا شرح السيرافي تريك الكثرة الغامرة للهجات الحجاز وتميم بينما باقي اللهجات العربية الأخرى لا تنال منه اهتماماً ، ومن الرسم البياني في هذا الكتاب — للسان العرب ، وشرح المفصل لابن يعيش ، وخزانة البغدادي ، يتضح ذلك ، ومعنى هذا أن علماء العربية اقتفوا أثر سيبويه في إهماله العزو للهجات البطون المغمورة .

---

(١) المرجع نفسه : ١/٩٠ .

(٢) رابين P. 3 .

(٣) رابين P. 13 .

والحقيقة القاسية أن اهتمام اللغويين بالحجاز وتميم – ضيع علينا أكثر من نصف اللغة ، وما جاءنا من اللهجات العربية غير لغتي تميم والحجاز – أضاعوه وشردوه، تارة مهمل العزو، وأخرى تحت الشذوذ ، وأحياناً باسم الندور أو « الندرة » . وطوراً بين المسموع الذي يسمع ولا يقاس عليه ! حتى جاءتنا بقية اللهجات العربية وليداً مشوه الخلقة مبتور اليدين والقدمين محروماً من النسب لأمه وأبيه ! ومصداق ذلك ما حكاه الصّغاني من أن في (هيهات)[1] ستاً وثلاثين لغة ثم لا يعزو منها إلا صيغتين واحدة لتميم ، والأخرى للحجاز دون غيرهما . والمسئولية الكبرى تقع على الرواة أحياناً ، وعلى جامعي اللغة حيناً آخر ، ذلك الجمـــع المبتور الأشل ، لم يكن الخروج الى الباديه لجمع اللغة ولهجاتها أمراً جاداً « ولا مقصوداً[2] فيه الى الجمع بمعناه الذي يراد عندما يقصد استيعاب اللغة وجمع مادتها واستقراء أحوالها – ولا يمكن لجمع اللغة أن يتحقق بمثل خرجات الأصمعي وما أفنى من قنينات مداده المعدودة » ثم أرى رابين محقـــاً في تجاهله اللهجات الأخرى غير لهجات تميم واليمن والحجاز حيث يقول « وفيما عدا لهجـــات الحجاز[3] وتميم واليمن – فالمعلومات التي لدينا طفيفة جداً – تحملنا على أن نتجاهلها مؤمنين بأننا لا نعرف عنها شيئاً » .

والحق أنني عرفت عنها شيئاً كثيراً ، وتحت يدي احصائية أمينة لهـــا . فإزاء اضطراب الحدود ، وتداخل القبائل بعضها مع بعض في المرعى والماء ، « وعدم استقرارها في مكان واحد »[4] يجعلنا نميل الى أن الحدود الجغرافية كما رآها المستشرقون أمر لا سبيل إليه في الجزيرة العربية ، لأننا لا نستطيع أن نحدد جغرافية قبيلة واحدة ، إذ إنها في الصباح لها حدود ، وفي المساء لها حدود تختلف عن حدود الصباح ، لأن الحدود الحقيقية ترجع الى اختلاف قوة القبيلة وقدرتها على عقد الأحلاف للاستعانة بغيرها لدفع الأذى عنها ، وإذا عجزنا عن تحديد قبيـــلة واحدة فكيف نقوم بتحديد جغرافي لهجي بين شرق الجزيرة وغربها .

ولكن (رابين) رأى دراسة اللهجات العربية في ضوء التقسيم الجغرافي : الشرقي والغربي ، أو الحجازي والتميمي (حيث عالج اللهجات الغربية – يقصد الحجازية – على أنهـــا وحدة

---

(١) التصريح : ٢/١٩٦ – ٧ .

(٢) الاجتهاد في النحو العربي : أمين الخولي ، بحث قدم لمؤتمر المستشرقين المنعقـــد باستانبول سبتمبر سنة ١٩٥١ مخطوط .

(٣) رابين P. 16 .

(٤) تاريخ نجد : ٢١ الألوسي .

منفصلة تماماً »[1] وكأن قبائل الجزيرة عنده كانت تعيش منعزلة منفصلة ملتزمة هذا التقسيم، فلا يمكن لقبيلة غربية أن تسكن في حدود شرقية، ولا تستطيع قبيلة شرقية أن تعيش على موارد المياه في أرض غربية، هذه الانعزالية القاسية ما كانت تعرفها العرب ولا آمنت بها يوماً من أيامها ولا ساعة من ساعاتها .

أدلة لهجية تكشف عن مدى التشابه بين الكتلتين وتعارض منهج التقسيم :

وبعد أن أقمت الدليل تاريخياً واجتماعياً وجغرافياً على ما أردت، أسوق أدلة لهجية تؤيد ذلك وتكشف عن :

أولاً : تشابه بين الكتلتين الشرقية والغربية .

ثانياً : اختلاف لهجي بين قبائل الكتلة الشرقية .

ثالثاً : اختلاف لهجي بين قبائل الكتلة الغربية .

رابعاً : خلافات لهجية في القبيلة الواحدة، شرقية كانت أم غربية .

---

(١) رابين P. 2 .

أولاً : تشابه بين الكتلتين الشرقية والغربية

١ - في تخريج قوله تعالى : « إن هذان لساحران » وهي قراءة أبي جعفر وغيره - عرض أبو حيان لتخريج النحاة لها ، ثم قال : (والذي[١] نختاره في تخريج هذه القراءة ، أنها جاءت على لغة بعض العرب من إجراء المثنى بالألف دائماً وهي لغة لكنانة حكى ذلك أبو الخطاب ، ولبني الحارث بن كعب ، وخثعم ، وزبيد ، وأهل تلك الناحية حكى ذلك عن الكسائي ، ولبني العنبر وبني الهجيم ومراد وعذرة) . وأما السيوطي[٢] : فقد نسب هذه الظاهرة الى (كنانة ، وبني الحارث بن كعب ، وبني العنبر ، وبني الهجيم ، وبطون من ربيعة ، وبكر بن وائل ، وزبيد ، وخثعم ، وهمدان ، ومزادة ، وعذرة) .

كما نطق بها عدد من الشعراء - أذكر منهم المتلمس[٣] :

فأطرقَ إطراقَ الشّجاع ولو يرى مساغاً لِنابيْه الشّجاعُ لصمّمَا

وأنشده بعض المتأخرين من النحويين « لناباه » قال الأزهري : هكذا أنشده الفراء - لناباه - على اللغة القديمة لبعض العرب[٤] .

وفي الأصمعيات : « لنابيه »[٥] ، والمتلمس هذا : ولد في أخواله من بني « يشكر »[٦] وكانوا يسكنون اليمامة .

ومن هذا العرض ، أرى ظاهرة إلزام المثنى الألف قد نسبت الى « بني الحارث بن كعب ،

---

(١) البحر المحيط : ٦/٢٥٥ ، النهر الماد : ٦/٢٥٠ .

(٢) همع الهوامع للسيوطي : ١/٤٠ .

(٣) هو جرير بن عبد المسيح من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار - ومكث في أخواله « بني يشكر » ويقال : إنه ولد فيهم - فمكث فيهم حتى كادوا يغلبون على نسبه .

(٤) الأصمعيات : ٢٨٧ تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون ، وشاكر : دار المعارف ١٩٥٥ ، اللسان : ١٥/٢٣٩ .

(٥) الأصمعيات : ٢٨٧ .

(٦) معجم قبائل العرب : كحالة ٣/١٢٦٥ .

وخَثْعم ، وزبيد ، ومراد ، وعذرة ، وكنانة ، وهَمْدان ، ومزادة . وجميع هذه القبائل السابقة غربية ، يمنية . « فزبيد »[١] بطن من سعد العشيرة من القحطانية « وخثعم »[٢] بطن من « أنمار » من « أراش » من القحطانية . قال : « في العبر »[٣] وبلاد خثعم مع إخوتهم «من بجيلة » بسروات اليمن والحجاز الى تبالة ، « وبنو عذرة »[٤] بطن من قضاعة .

فالقبائل السابقة كلها من المجموعة الغربية ، ونسبهم الى قحطان . ولكننا نجد أن قبائل من الشرق تشترك معهم في تلك الظاهرة . فقد عزيت الظاهرة الى قبائل شرقية مثل « ربيعة » ، وبكر بن وائل ، وبني العنبر[٥] .

٢ – « جبرت » لغة بني تميم[٦] ، وكثير من أهل الحجاز يتكلم بها . وهنا اتفاق بين الشرق الذي تمثله تميم ، والغرب الذي يمثله الحجاز .

٣ – قال كثير[٧] :

إذا وصلتْنَا خلّة كي نزيلها أبَيْنَا وقلنا الحاجبية أوّل
لها مهلٌ لا يُستطاع دراكه وسابقة مِلْحُبٌ لا تتحوّل[٨]

وقال المغيرة بن حبناء[٩] :

إني امرؤٌ حنظليٌ حين تنسبني لا مِلْعَتِيك ولا أخوالي العوق[١٠]

---

(١) نهاية الأرب : القلقشندي ٢٦٨ .
(٢) المرجع السابق : ٢٤٣ .
(٣) نهاية الأرب : ٢٤٣ .
(٤) المرجع السابق : ٣٥٩ .
(٥) وهم من تميم : المرجع السابق ٦٨ .
(٦) المصباح المنير : ١٤١/١ .
(٧) هو من خزاعة وهي من الأزد . نهاية الأرب : ٢٤٤ .
(٨) الشعر والشعراء : ٢٠٢ تحقيق السقا .
(٩) من ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم : الشعر والشعراء : ١٥١ السقا .
(١٠) الشعر والشعراء : ١٥١ .

وقال أبو صخر الهذلي :

كأنهما مِلآنِ لم يتغيّرا وقد مرّ للدارين من بعدنا عصر[1]

واستشهد صاحب التصريح بقول الشاعر ·

لقد ظفر الزوّار أقفية العدا بما جاوز الآمال مِلْأسْرِ والقتل

فحذفت النون على لغة زبيد وبني خثعم من قبائل اليمن[2] .

فهذه الظاهرة اشتركت فيها اليمن ممثلة في زبيد وخثعم ، وشاركتها فيها تميم ، وشاعر من هذيل . فالمجموعة الغربية بها ملامح لهجية تماماً كما في الشرقية .

٤ – « أفلطني » لغة في «أفلتني» – لغة تميمية قبيحة ، وقد استعمله ساعدة بن جؤية فقال :

بأصدقَ بأسٍ من خليلِ ثمينة وأمضي إذا ما أفلَطَ القائمَ اليدُ

أراد – أفلت – القائم اليد – فقلب[3] – فهذه لغة تميم وهي شرقية تكلم بها رجل من قبيلة غربية وهي هذيل ، ولا يمكن أن يكون قد استعملها لضرورة شعرية ، إذ الوزن لا يتأثر بذلك .

٥ – اختارت تميم موافقة لغة الحجاز في قولهم « هذه حضار » بسبب الراء ، وذلك أن بني تميم يختارون الإمالة – وإذا ضموا الراء ثقلت عليهم الإمالة ، وإذا كسروها خفت الإمالة أكثر من خفتها في غير الراء ، لأن الراء حرف مكرور والكسرة فيها مكررة كأنها كسرتان[4] ... ولأجل هذا « تركت تميم لغتها ، ووافقت لغة الحجاز في ذلك »[5] .

وقال ابن سيده « قال أبو سعيد : اعلم أن بني تميم تركوا لغتهم في قولهم : هذه حضارِ وسفارِ ، وتبعوا لغة أهل الحجاز بسبب الراء »[6] ففي النصوص السابقة نجد أن «تميماً» تركت

---

(١) الهمع : ٢٠٨/١ ، الدرر اللوامع : ١٧٥/١ الشنقيطي ، وانظر : ديوان الهذليين : ٤٠/١ .

(٢) التصريح على التوضيح : ٢٩/٢ .

(٣) اللسان : ٢٤٧/٩ ، ديوان الهذليين : ٢٤٠/١ « بأصدقَ بأساً » .

(٤) كتاب السيرافي على سيبويه : ٣٣٠/٤ مخطوط بالتيمورية ٥٢٨ نحو .

(٥) المرجع السابق .

(٦) المخصص : ٦٧/١٧ ، التصريح على التوضيح : ٢٢٥/٢ ، حاشية يس : ٢٢٥/٢ .

لغتها ووافقت لغة الحجاز في لغتها ، فهذا إن دل فإنما يدل على الملامح القوية والاشتراك في السمات اللهجية بين الشرق والغرب أو بين تميم والحجاز .

٦ – كما نجد أمثلة تحقق فيها الحجاز الهمزة – على غير لغتها ، لأن لغتها التخفيف قال سيبويه « وقد بلغنا أن قوماً من أهل الحجاز يحققون : نبيء وبريئة »[١] مع أن الشائع أن الذي يهمز هي تميم . وابن كثير وهو القارىء المكي يلتزم تحقيق الهمزة – مع أنه في بيئة الحجاز التي تسهل ولكنه مال في قراءاته الى تحقيق الهمزة كتميم »[٢] كما يرى ابن السكيت أن تميماً تقول في عظاءة وعباءة وصلاءة وسحاءة – عظاية وعباية وصلاية وسحاية[٣] . فتميم هنا في الأمثلة السابقة لم تنطق بالهمز – والصفة التي اتصفت بها هي الهمز[٤] ولكنها لم تلتزم حدودها وطريقتها بالنسبة لظاهرة الهمز التي كان يجب عليها أن تحققها ، والصفة التي اتصفت بها اللغة الحجازية هي تسهيل الهمز[٥] ولكنها لم تلتزم هذا التسهيل الذي كان يجب عليها أن تلتزمه ووجدناها تنطق بالهمز في مثل « نبيء وبريئة[٦] ، والخابئة والذريئة » وهذا ان دل فإنما يدل على أن الفروق بين الكتلتين التميمية والحجازية لم تطرد في كل الكلمات ولا على جميع الألسنة في الكتلتين، ويدل أيضاً على أن كلتا الكتلتين المتعارضتين كانتا تتوافق مع الكتلة الأخرى فالحجازي الذي يسهل الهمزة – نطقها بالتحقيق كتميم ، والتميمي الذي يحققها – رأيناه يسهلها كالحجازي .

٧ – وقرأ الحسن « وإن كانَ قميصُهُ قُدَّ مِن دُبْرٍ »[٧] بسكون الباء ، وهي لغة الحجاز وأسد[٨] . فاتفقت لغة الحجاز وهي غربية مع لغة أسد وهي شرقية .

٨ – يقرأ أبو عمرو بن العلاء والكسائي ومن يقنط[٩] « يقنطون »[١٠] « لا تقنطوا »[١١]

---

(١) كتاب سيبويه : ١٧٠/٢ .
(٢) في اللهجات العربية : ٦٦ ط ٢ .
(٣) إبدال ابن السكيت : ٥٦ .
(٤) كتاب سيبويه : ١٦٩/٢ ، شرح شواهد شافية ابن الحاجب : ٣٣٥/٤ .
(٥) كتاب سيبويه ١٦٧/٢ – ١٦٨ ، شرح الشافية : ٣٠٩/٢ – ٣١١ .
(٦) النهاية لابن الأثير : ١٢٠/٤ ، المخصص س : ١٥٢/١٧ – ١٥٣ .
(٧) سورة يوسف : آية ٢٦ .
(٨) اتحاف فضلاء البشر : ٢٦٤ .
(٩) سورة الحجر : آية ٥٦ .
(١٠) سورة الروم : آية ٣٦ .
(١١) سورة الزمر : آية ٥٣ .

بكسر النون والباقون بفتحها كعلم يعلم لغة فيه . والأول ، كضرب يضرب لغة أهـل الحجاز وأسد وهي الأكثر[١] .

فهنا اتحدت ظاهرة لهجية بين الحجاز التي تمثل الغرب وأسد التي هي من الشرق .

٩ – بلحارث[٢] بن كعب وبعض ربيعة يحذفون نون اللذان واللتان في حالة الرفع: ويروى بيت للأخطل وهو[٣] :

(هما اللتا لو ولدت تميم) أراد اللتان

فقبيلة بلحارث بن كعب وهي غربية يمنية تتفق في ظاهرة لهجية مع قبائل شرقية ممثلة في ربيعة وتغلب .

١٠ – الوقف بالنقل[٤] ظاهرة تميمية ، ووردت نصوص تشير الى أن هذه الظاهرة أيضاً في اليمن[٥] . وتميم في الشرق واليمن في الغرب .

١١ – حذف الحركة أو اختلاسها في حالة الوصل – ظاهرة وجدت في أعراب عقيـــل وكلاب[٦] ، وقد أثبت أن الظاهرة نفسها وجدت في أزد الشّراة[٧] وعقيل وكلاب في الجانب الشرقي ، وأزد الشراة في الجانب الغربي .

١٢ – نسب ابن خالويه قراءة قوله تعالى : « ما لكم من إله غيره »[٨] بالنصب لتميم[٩] بينما

---

(١) اتحاف فضلاء البشر : ٢٧٥ .
(٢) التصريح على التوضيح : ١٣٢/١ ، خزانة الأدب ٥٠٣/٢ .
(٣) الأخطل تغلبي : الشعر والشعراء : ١٨٩ تحقيق السقا .
(٤) انظر : الوقف بالنقل بالفصل الخامس من الباب الثالث من هذا الكتاب
(٥) كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم : ١١٥ لنشوان الحميري ط بريل .
(٦) انظر : الوقف بالحذف بالفصل الخامس من الباب الثالث من هذا الكتاب
(٧) البحر : ٢٢٦/٥ ، المحتسب : ٤٠١/١ تيمور .
(٨) سورة الأعراف : آية ٥٩ – ٦٥ .
(٩) مختصر شواذ القرآن لابن خالويه ، تحقيق برجشتراسر ٤٤ .

نسب الفراء هذه القراءة الى بعض بني أسد[١] وقضاعة . وقد نقــل رأي الفراء[٢] صاحب التصريح أيضاً . كا نسبها الجوهري الى شهل وقضاعة ، وبعض بني أسد ، عندما ذكر أن هذه القبائل تنصب (غير) إذا كان بمعنى (إلا) سواء تم الكلام قبــله أم لا[٣] . وشهل وقضاعة « قبائل قحطانية »[٤] غربية كا أن تميماً وبعض أسد قبائل شرقية .

١٣ – ان صاحب إتحاف البشر نسب قراءة « عليهم القتال » ، « يؤتيهم الله » ، « وبهم الأسباب » ، « وفي قلوبهم العجل » بضم الميم وكسر الهاء في ذلك كله « الى لغــة بني أسد والحرمين »[٥] ، والمقصود بلغة الحرمين مكة والمدينة وهما من مدن الحجاز ، والظاهرة اللهجية السابقة قد اتحدت في بني أسد وهي شرقية ، وبين أم القرى ويثرب وهما غربيتان .

١٤ – يرى صاحب التصريح أن أهل الحجاز تعمل « ما » بشروط ، وتميما[٦] تهملها ، وعلى ذلك سار جميع النحاة[٧] . لكن يقف في سبيل ذلك ما جاء عن الفرزدق :

(فما أ.سد من قيس عيلان[٨] فاخرا) ...

وقوله أيضاً : (فما المرء منفوعا[٩] بتجريب واعظ) ...

والفرزدق تميمي شرقي – وكان عليه أن يلتزم الرفع ، ولو نطقها (فاخر ، منفوع) لأمكن ذلك من غير مساس بالوزن الشعري – ولعل السبب في اتجاهه هذا أن الظاهرة اللهجية قــد تشترك فيها قبائل من الجزء الشرقي موافقة الجزء الغربي ومما يؤيد هذا إشارة خافتة أوردها ابن هشام حيث يرى أن « ما » أعملها الحجازيون والتهاميون والنجديون عمل ليس[١٠] .

---

(١) معاني القرآن : ١/٣٨٢ - ٣٨٣ الفراء : تحقيق الشيخ محمد النجار .
(٢) التصريح على التوضيح : ١/٣٦١ .
(٣) المصباح المنير : ٢/٧٠٤ .
(٤) نهاية الأرب : ٤٠٠ ، معجم كحالة : ٢/٦١٨ .
(٥) إتحاف فضلاء البشر : ١٢٤ .
(٦) شرح التصريح : ١/١٩٦ .
(٧) الكتاب : ١/٢٨ .
(٨) رابين : ١٧٥ .
(٩) شرح ديوان الفرزدق : ١/٥٢ ، تحقيق الصاوي .
(١٠) مغني اللبيب : ٢/٦ .

فأضاف ابن هشام الى الحجاز – نجداً – في إعمالها ، وابن هشام حجة ، وتكفينا فيه شهادة ابن خلدون حيث يقول عنه « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام – أنحى من سيبويه »[١] .

فكأن نجداً – وهي شرقية قد اشتركت مع القبائل الغربية في الظاهرة . ومما يؤكد رأي ابن هشام هذا – أن بعض قبائل حجازية كانت تسكن نجداً ، وبعض قبائل نجدية كانت تسكن الحجاز ، مما يؤكد التداخل بين القبائل ، ومن العسير إقامة فصل جغرافي يترتب عليه فصل لهجي بين الشرق والغرب ، ومما يؤكد هذا أن عمر ابن أبي ربيعة نطق خبر (ما) مرفوعاً في قوله :

ما روضةٌ جـــاد الربيع لها مولِيّةٌ[٢] ما حولها جدب[٣]

وكنا ننتظر منه أن ينصب خبرها ، لأنه حجازي .

١٥ – ويقول عمرو بن قميئة[٤] :

فبيني على طـــيرٍ سنيحٍ نحوسه وأشأم طير الزّاجرين سنيحها[٥]

والمعروف أن العرب تختلف في العيافة . فمنهم من يتيمن بالسانح ، ويتشاءم بالبـــارح وهم أهل نجد ، ومنهم من يخالف ذلك وهم أهل الحجاز ، ولذلك نرى النابغـــة – وهو نجدي – يتشاءم بالبارح في قوله :

زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك تنعاب الغراب الأسود

وقال كثير – وهو حجازي ممن يتشاءم بالسانح :

أقول إذا ما الطير مرت مخيفةً سوانحها تجري ولا أستثيرها[٦]

---

(١) قطر النّدى وبل الصدى : المقدمة ١٣٦٧ - ١٩٤٨ .
(٢) مولية - ممطرة بفتح الراء
(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة : ٣٠ ط بيروت .
(٤) وهو من قيس بن ثعلبة من بني سعد بن مالك : الشعر والشعراء ٣٣٦/١ شاكر .
(٥) اللسان : مادة « سنح » ٣٢٠/٣ ، الشعر والشعراء : ٣٣٧/١ تحقيق شاكر .
(٦) اللسان : ٣٢٠/٣ .

والإشكال هنا في قول عمر بن قميئة ذلك النجدي الذي كان يجب عليه أن يتيمن بالسانح تبعاً للهجة قومه ، ولكنه تكلم بما يتكلم به أهل الحجاز فتشائم بالسانح ، فهذا ان دل فإنما يدل على أن الحدود بين الشرق والغرب قد انهارت وخف الخلاف بينها حتى أصبحنا – ولا ضير – أن نسمع نجدياً كهذا الاعرابي يجد نفسه طليقاً فيتكلم بما تكلم به أهل الحجاز ، وأعتقد أنه لو سار على لهجة قومه لما أعياه ذلك ولما حدث للبيت أي تشويه عروضي وإلا فأي تشويه يحدث لو قال :

(وأيمن طير الزاجرين سنيحها)

أو (وأحسن) على لهجة قومه ، ولكنها العادات والتقاليد قد اختلطت وتوحدت بين الشرق والغرب ، وما اللغة إلا واحدة من هذه العادات ، وتلك التقاليد .

١٦ – طالعتنا كتب اللغة والنحو أن أصحاب الإمالة هم تميم وقيس وأسد وعامة أهل نجد ، كما طالعنا السيوطي(١) بذلك ، وابن يعيش(٢) (٦٤٣ هـ) ، وأبو شامة الدمشقي (٦٦٥ هـ) يقول « الإمالة والفتح لغتان مشهورتان فاشيتان على ألسنة الفصحاء من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم فالفتح لغة أهل الحجاز ، والإمالة لغة عامة أهل نجد من تميم وقيس وأسد »(٣) كما يقول مثل ذلك ابن الجزري(٤) – ونتيجة هذه النصوص أن القسم الشرقي من الجزيرة يميل مثلاً في تميم وقيس وأسد ، وأن القسم الغربي يفتح مثلاً في الحجاز .

ولكن وجدنا حديثاً يغاير ما تقدم إذ قد عزا السيوطي بعض الإمالة للحجاز(٥) كما ثبت بالسماع أن أهل الحجاز يميلون(٦) الألف للكسرة .

ويقول ابن الانباري (٥٧٧ هـ) « والإمالة تختص(٧) بلغة أهل الحجاز ومن جاورهم من بني

(١) همع الهوامع للسيوطي : ٢/٢٠٤ .
(٢) شرح المفصل لابن يعيش : ٩/٥٤ .
(٣) إبراز المعاني : لأبي شامة : ١٥٢ .
(٤) النشر : ٢/٣٠ مطبعة مصطفى محمد .
(٥) همع الهوامع : ٢/٢٠٠ .
(٦) المرجع السابق : ٢/٢٠١ .
(٧) أسرار العربية : ٤٠٦ ابن الانباري ط دمشق .

تميم » . ويطالعنا سيبويه في عدة أماكن من كتابه بنسبة بعض أحوال الإمالة الى الحجاز[1] . ويظهر ـ والله أعلم ـ أن القضية المعروفة وهي نسبة الفتح للحجاز ـ لم تكن صحيحة تماماً ، بل كان بعض الحجاز يميل ـ مثل ما كانت تميل تميم . كما ثبت أن المميلين في شرق الجزيرة قد يفتحون[2] ، وهذا معنى قول سيبويه « اعلم أنه ليس كل من أمال الألف وافق غيره من العرب ممن يميل ، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه ، فينصب بعض ما يميل صاحبه ويميل بعض ما ينصب صاحبه ، وكذلك من كان النصب من لغته : لا يوافق غيره ممن ينصب ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأول في الكسر ، فإذا رأيت عربياً كذلك فلا ترينه خلط في لغته ، ولكن هذا من أمرهم[3] . كما حكى صاحب الغنية عن أبي بكر بن مقسم « أن بعض أهل نجد ، وأكثر أهل اليمن يميلون ألف « حق » ، لأن الإمالة غالبة على ألسنتهم في أكثر الكلام »[4] . وفي هذا النص أجد ملامح بين اليمن ونجد ، والأولى غربية ، والثانية شرقية .

(١) الكتاب : ٢/٢٦١ .

(٢) انظر (الإمالة) في الفصل الثاني من الباب الثالث من هذا الكتاب

(٣) شرح السيرافي : ٥/٣٤١ تيمور .

(٤) همع الهوامع : ٢/٢٠٤ .

ثانياً: اختلاف لهجي بين قبائل الكتلة الشرقية

(أ) بين تميم، وأسد، وقيس:

١ - قرأ ابن كثير وغيره «وآخرون مرجئون لأمر الله»[١] بالهمز، و «ترجىء مَنْ تشاء»[٢] وهي لغة تميم، والباقون بغير همز لغة قيس وأسد[٣]. وكأن المسهلين في (ترجى) راعوا تخفيف الهمزة فيها لمكان «تؤوى» إذ الآية «ترجى من تشاء منهن وتؤوى» وفي قوله تعالى «قالوا أرجِهْ وأخاه[٤] وأرسل في المدائن حاشرين» وقوله تعالى «ترجى من تشاء»[٥] قال الطبري في تفسيره «الهمز من كلام بعض قيس، وترك الهمز من لغة تميم وأسد»[٦].

فعلى نص صاحب «إتحاف البشر» يوحى بأن تميماً في جانب، وقيساً وأسداً في جانب آخر. وعلى نص الطبري نرى قيساً في جانب وتميماً وأسداً في جانب آخر.

(ب) بين تميم وقيس:

١ - قال أبو زيد: تميم تقول: سماء البيت، وقيس تقول: بني سماوة البيت[٧].

٢ - تقول قيس: الضبع - بضم الباء، وبسكونها في لغة تميم[٨].

٣ - لغة بني تميم يقولون: الرفقة - بضم الراء والجمع رفاق - وبكسرها في لغة قيس، والجمع: رفق[٩]. فالخلاف قائم بين تميم وقيس - في نفس الكلمة أولاً ثم في جمعها ثانياً.

---

(١) سورة التوبة: ١٠٦.

(٢) سورة الأحزاب: آية ٥١.

(٣) إتحاف فضلاء البشر: ٥٩.

(٤) سورة الأعراف: آية ١١١.

(٥) سورة الأحزاب: آية ٥١.

(٦) تفسير الطبري: ٢١/١٣ تحقيق شاكر.

(٧) نوادر أبي زيد: كتاب مسائية: ٢٥٣.

(٨) المصباح المنير: ٢/٥٤٥، الخزانة: ٢/٣٦٩.

(٩) المصباح المنير: ١/٣٥٩.

٤ ـ يقولون في لغة قيس : الصرع ، وتميم تقول : الصرع[١] . قيس بالكسر ، وتميم بالفتح .

٥ ـ قيس تقول : ناقة عِجلزة ، وتميم تقول : عَجلزة[٢] . قيس بكسر الحرف الأول ، وتميم بفتحه .

٦ ـ تقول تميم : المغزل والمصحف والمطرق . بكسر الحرف الأول ، وقيس تقول : المغزل والمطرق والمصحف[٣] ـ بالضم .

٧ ـ الأضحا : يؤنث في لغة تميم ، ويذكر في لغة قيس[٤] .

٨ ـ في قوله تعالى « وإن جنحوا للسلم فاجنح[٥] لها » قرأ الأشهب العقيلي ـ فاجنح ـ بضم النون ـ وهي لغة قيس ـ والجمهور بفتحها ـ وهي لغة تميم[٦] .

٩ ـ يقال لصق به يلصق لصوقاً ـ وهي لغة تميم ، وقيس تقول : لسق ـ بالسين[٧] .

١٠ ـ ما نقل عن أبي زيد من أن السدفة ـ في لغة تميم ـ الظلمة ، وفي لغة قيس الضوء[٨] . وما نقل عن أبي عبيد من أن : السدفة ـ في لغة تميم ـ الضوء وفي لغة قيس : الظلمة[٩] . كما نقل صاحب اللسان عن أبي زيد من أن السدفة في لغة بني تميم ـ الظلمة ، وعند قيس : الضوء[١٠] . كما نقل السيوطي مثل ذلك عن أبي عبيد القاسم في الغريب المصنف في باب الأضداد[١١] .

---

(١) إصلاح المنطق: ٣١ ، المخصص : ٧٤/١٥ ، الغريب المصنف: ٢٣/١ مخطوط بدار الكتب رقم ١٢١ .

(٢) إصلاح المنطق : ١٠٣ ـ ١٢٢ ، المخصص : ٨٤/١٥ ، اللسان : ٢٤٠/٧ .

(٣) إصلاح المنطق : ١٢٠ ، المخصص : ٦٨/٤ ، ٢٠٤/١٤ .

(٤) كتاب التذكير والتأنيث للسجستاني : ص ٦ رقم ٢٦٤ لغة تيمور .

(٥) سورة الأنفال : آية ٦١ .

(٦) البحر : ٥١٤/٤ ، شواذ القرآن : ابن خالويه : ٥٠ ، المحتسب : ابن جنى مخطوط بالتيمورية رقم ٣٧٩ تفسير : ٣٥٠/١ .

(٧) اللسان : ٢٠٥/١٢ .

(٨) الأضداد للأصمعي : ٥٣ تحقيق هفنر ، الأضداد لابن السكيت : ١٨٩ هفنر .

(٩) المخصص : ابن سيده سفر ٤٩/١ .

(١٠) اللسان : ٤٦/١١ وما بعدها .

(١١) المزهر للسيوطي : ٣٩٠/١ ، ٤٠١ .

١١ ـ ما نقل عن أبي زيد في الغريب المصنف من أن الالفت ـ في كلام قيس الأحمق ، وفي كلام تميم : الأعسر[١] .

١٢ ـ ما روي عن اللحياني من أن : تميماً تقول ـ خلا فلان على اللبن وعلى اللحم ـ إذا لم يأكل معه شيئاً ، ولا خلطه به . وقيس تقول : أخلى فلان على اللبن واللحم[٢] .

١٣ ـ بعض قيس يقولون : وجع ياجع بينما تقول تميم : وجع ييجع[٣] .

فهذه خلافات في الصيغ ، وفي دلالة الكلمات ، وفي الجموع بين تميم وقيس والمعلوم أن تميماً من القبائل الشرقية ، وأغلب عشائر وبطون قيس تقع كذلك في المنطقة الشرقية ، ومع ذلك فقد رأينا الخلاف الشاسع بينهما مما يبرهن على أن التقسيم الى شرقي وغربي لا يستقيم .

(جـ) بين أسد وتميم :

١ ـ في حديث أنس « كان لا يقطع التذنوب من البسر » والتذنوب : الرطب واحدته تذنوبة . وروي عن الفراء أنه يقول : جاءنا بتذنوب ـ بالضم ـ ونسبها لبني أسد ، والتميمي يقول : تذنوب[٤] ـ بالفتح .

٢ ـ كما حدث خلاف في صيغة النداء « يافل » بين بني أسد ، وتميم ، فالجوهري يذكر أن بني أسد يوقعونها على الواحد والاثنين والجميع والمؤنث ـ بلفظ واحد[٥] . وقال ابن بُزرُجْ : بعض بني أسد يقولون : يافل أقبل ، ويافل أقبلا ، ويافل أقبلوا ، وقالوا للمرأة فيمن قال : يافلَ أقبل ، يا فلانَ أقبلي . وبعض بني تميم يقول : يا فلانة أقبلي ، وبعضهم يقول : يا فلاة أقبلي[٦] .

٣ ـ نسب في اللسان الى تميم أنهم يقولون « البُلولة » من بِلّة الثرى . كما نسب الى أسد أنهـا تقول : البلة[٧] .

---

(١) المزهر : ٣٨١/١ .

(٢) اللسان : ٢٦١/١٨ .

(٣) ليس في كلام العرب : ١٥ تحقيق الشنطيقي ، خزانة الأدب : ٢٣٥/١ .

(٤) لسان العرب : ٣٧٦/١ .

(٥) اللسان : ٤٩/١٤ .

(٦) المرجع السابق : ٢٠٢/١٧ .

(٧) نفس المرجع : ٧٠/١٣ .

فالخلاف واضح بين قبيلتين شرقيتين : أسد وتميم ، فالكتلة الشرقية بينها اختلاف في اللهجة لا يقل عن الاختلاف بين الحجازيين والتميميين .

٤ – قال أبو عمرو « الدمدم »[١] الصِّلِّيان المجبل في لغة أسد ، وهو بلغة تميم الدندن . فأسد وتميم كلاهما من المجموعة الشرقية ، وعلى الرغم من هذا وقع الخلاف بينهما في الصيغتين بالميم عند أسد ، وبالنون عند تميم .

٥ – عزا أبو حيان في قوله تعالى « وليملل الذي[٢] عليه الحق » أن « أمل ، وأملي – لغتان – الأولى لأهل الحجاز وبني أسد ، والثانية[٣] لتميم » .

(د) بين تميم وبكر :

وسأل أبو عدنان أبا عبيدة عن الماء العد – فقال له : الماء العد بلغة تميم – الكثير ، قال : وهو بلغة بكر بن وائل : الماء القليل[٤] ، وكلا القبيلتين من الشرق .

(ه) بين نجد وأسد :

وصاحب الإتحاف يحدثنا أن حفصاً وحمزة والكسائي وأبا جعفر وخلفاً يقرءون « حج البيت »[٥] بكسر الحاء في لغة نجد ، وبعض القراء بالفتح لغة أهل العالية والحجاز وأسد[٦] . فالحجاز غربية ولكنها وافقت لغة أسد ، وهي من القسم الشرقي . بينما نرى منطقة نجد وهي شرقية تتخالف مع شقيقتها أسد وهي تسكن المنطقة النجدية .

---

(١) الابدال لابن السكيت : ٢٢ ، اللسان : ٩٩/١٥ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٨٢ .

(٣) البحر المحيط : ٣٤٢/٢ .

(٤) اللسان : ٢٧٦/٤ ، المصباح المنير : ٦٠٥/٢ .

(٥) سورة آل عمران : آية ٩٧ .

(٦) إتحاف فضلاء البشر : ١٧٨ .

ثالثاً : اختلاف لهجي بين قبائل الكتلة الغربية

١ – حدثتنا كتب العربية أن المألوف في الفصحى أن يفتح حرف المضارعة فتقول « تعلم » ، « نضرب » الخ ... وحدثتنا كذلك أن كسر حرف المضارعة من خصائص لغات المنطقة الشرقية ، وأما المنطقة الغربية فتفتح حروف المضارعة فتقول « تعلم » ، بدليل ما رواه أبو حيان حيث نسب (نستعين)[١] ، بالفتح الى لغة الحجاز .

ودليلنا على ذلك ما رواه سيبويه في قوله « هذا باب ما تكسر فيه أوائل الأفعال المضارعة للأسماء كما كسرت ثاني الحرف حين قلت : فعل – وذلك في لغة جميع العرب سوى أهل الحجاز »[٢] ونقل مثل هذا الكلام صاحب شرح الشافية[٣] . ونسب ابن جني كسر حرف المضارعة مما ثاني ماضيه مكسور – الى تميم[٤] . وعزا السيرافي فتح حرف المضارعة الى الحجاز[٥] . ومفهوم هذه النصوص جميعاً أن فتح حرف المضارعة من عادات المنطقة الغربية ممثلة في الحجاز ، وأن المنطقة الشرقية ممثلة في تميم تؤدي عملية كسر حرف المضارعة فإذا سمعنا من عمر بن أبي ربيعة قوله :

مـــا لقلبي كأنه ليس مني وعظامي أخال فيهن فترا[٦]

لم نعجب لأنه حجازي ، والحجازي يفتح ، فعلى ذلك قال (أخال) . وإنما العجب يأخذنا عندما نرى المرزوقي ينسب الكسر « إخال »[٧] الى هذيل ، وكذلك نسب الطوسي الكسر في قوله « نستعين » الى هذيل[٨] . كما ذكر الخليل أن لغة هذيـــل في « تعرج وتعكف – تعرج

---

(١) البحر المحيط : ١/٢٣ – ٢٤ .

(٢) الكتاب : ٢/٢٥٦ .

(٣) شافية ابن الحاجب : ١/١٤١ .

(٤) المحتسب : ١/١١ ؛ مخطوط بالتيمورية .

(٥) شرح السيرافي على سيبويه : ٥/٣١٦ مخطوط بالتيمورية .

(٦) حماسة المرزوقي : ٤/٥٤٨١ تحقيق عبد السلام هارون .

(٧) المرجع السابق .

(٨) البحر المحيط : ١/٢٣ – ٢٤ .

وتعكف لأنهم مولعون بالكسر »[1] وفي مكان آخر نسب المرزوقي الكسر « إخال »[2] الى طيء ، وكذلك « نسبها التبريزي في شرحه »[3] على الحماسة ، ومعلوم أن « هذيلاً » من القبائل الغربية التي كان يجب أن تنطق بالفتح فتقول « أخال » ولكن ماذا نصنع وقــد عزى الكسر إليها ؟

وقبل أن يتركك العجب ترى رواية أخرى يسوقها إليك البغدادي ، وذلك حيث ينسب « أخال » بالفتح لأسد[4] — وعلى هذه الرواية تكون « أسد » وهي من القبائل الشرقية التي تكسر كتميم — قد اتخذت لها طريقاً آخر مما يجعل نظام التقسيم الجغرافي يحيطه المشكلات من كل جانب ، فكأن المجموعة الشرقية ذاتها انقسمت على نفسها ، كما انقسمت المجموعة الغربية على نفسها أيضاً .

٢ — في قوله تعالى « حتى إذا ساوى بين الصدفين »[5] يرى صاحب الإتحاف « أن الصدفين — بضمتين — لغة قريش ، والصدفين « بفتحتين » لغة الحجاز »[6] ومن المعروف أن قبيلة قريش — حجازية ، ومع ذلك لم يمنعها هذا من أن تختلف مع سمة لهجية منسوبة للحجاز ، فقبيلة حجازية قد اختلفت لهجياً مع لغة الحجاز .

---

(١) كتاب العين للخليل : ١٣١ طبع بغداد .

(٢) شرح الحماسة للمرزوقي : ٢٤٨/١ .

(٣) شرح الحماسة للتبريزي : ٢٤٢/١ تحقيق محي الدين .

(٤) خزانة الأدب للبغدادي : ١١/٤ .

(٥) سورة الكهف : آية ٩٦ .

(٦) اتحاف فضلاء البشر : ٢٩٥ .

رابعاً: خلافات لهجية في القبيلة الواحدة

١ – قال أبو زيد – لمق الشيء: كتبه في لغة عقيل – وسائر قيس يقولون: لمقه – محاه[١].
ومنه قول بعض العرب – لمقه بعد ما نمقه – أي محاه بعد كتبه.

وقد ذكرت كتب الأنساب أن «عُقَيْلاً – من قيس»[٢]، ومع ذلك اختلفت قيس القبيلة الأم مع بطن من بطونها.

٢ – يسوق السيرافي نصاً مضمونه «أن قوماً من ربيعة يقولون[٣] – منهم في منهم» ويعلل سيبويه لذلك فيقول «أتبعوها الكسرة ولم يكن المسكن حاجزاً حصيناً عندهم»[٤].
ويستفاد من هذا النص أن بعض ربيعة اختلفت على بعضها الآخر، فمنهم من كسر ومنهم من ضم.

٣ – يرى السيرافي أن ناساً[٥] من بكر بن وائل يكسرون الكاف من نحو «منكم وأحلامكم» فبعضهم ضم وبعضهم كسر، بدليل أن الظاهرة في (ناس) منهم.

٤ – وحكى أبو محمد البطليوسي في كتاب الفرق أن بني ضبة يقولون: فاظت نفسه بالظاء، وفي الغريب المصنف: أن ناساً من بني تميم يقولون: فاضت نفسه[٦] وتشير كتب الجغرافيا والأنساب أن منازل ضبة «كانت في جوار بني تميم[٧] إخوتهم» فهم إخوتهم في النسب، وجيرانهم في عالم الجغرافيا – ومع هذا فكل قبيلة اتخذت لها مجرى لهجيّاً يخالف القبيلة الأخرى.

---

(١) لسان العرب: ٢٠٨/١٢.

(٢) معجم قبائل العرب: ٨٠١/٢ كحالة.

(٣) شرح السيرافي: ٦٢/٥؛ مخطوط بالتيمورية.

(٤) الكتاب: ٢٩٤/٢.

(٥) شرح السيرافي: ٦٣/٥؛ مخطوط بالتيمورية، الكتاب: ٢٩٤/٢.

(٦) المزهر للسيوطي: ٥٦١/١ – ٥٦٢.

(٧) معجم قبائل العرب: ٦٦١/٢ كحالة.

٥ – وسأل ابن السكيت أعرابيين فصيحين من بني كلاب عن (انفحة الجدي) فقال أحدهما لا أقول إلا انفحة ، وقال الآخر : لا أقول إلا منفحة ، ثم افترقا على أن يسألا عنها أشياخ بني كلاب فاتفقت جماعة على قول ذا ، وجماعة على قول ذا[١] .

٦ – تحدثنا كتب اللغة أن الفصحى تجمع « ناقة » على «أينق» بينما طيىء تقول في جمعها «أونق» وذلك كما جاء عن ابن السكيت[٢]، وابن يعيش[٣]، وهذا معناه أنهم يفضلون حركة (أو) .

ومما يؤيد ذلك أن طيئاً نفسها تقول في (حيث)[٤] « حوث » أي بتفضيل حركة (أو) كما سبق ، ولكن على الرغم من ذلـــك وجدناهم يفضلون حركة (أي) على (أو) فيقولون : « محيت »[٥] بدلاً من « محوت » كما أنهم قالوا « المياثق » في « المواثق » في قول عيـــاض بن أم درة الطائي :

(ولا نسأل الأقوام عهد المياثق)[٦]

كما روى ذلك أحمد بن يحيى ثعلب مع تغيير « عهد » بـ « عقد » .

فالقبيلة الواحدة خلطت بين الحركتين (آو) و (آي) ، مما يدل على أن اللغة إنسانية طيعة لا تخضع لهذا البتر الجغرافي .

تعقيب :

ظهر من هذا العرض الموجز أن دراسة اللهجات العربية على أساس الكتلة الغربية والكتلة الشرقية لا يحل مشكلات اللهجات ، وأنه من الصعب ادعاء أن الكتلة الحجازية في جـــانب والكتلة التميمية في جانب آخر، وأن كل كتلة منها شرقية أو غربية يمكن أن تعالج كل واحدة منهما على أنها وحدة منفصلة تماماً ، وأقمت فيما تقدم أدلة دامغة – تاريخية واجتماعية وجغرافية ، وأخيراً أدلة لهجية وكلها تعارض منهج المستشرقين في التقسيم ، كما بينت أن الجانب الغربي مؤثر في الجانب الشرقي ومتأثر به أيضاً ولهذا فلا أستطيع فهم قول المستشرق Rabin عندما أراد

---

(١) لسان العرب : ٤٦٤/٣ ، إصلاح المنطق : ١٧٥ – ١٧٦ .

(٢) إصلاح المنطق : ابن السكيت : ١٤٤ دار المعارف .

(٣) شرح المفصل : ١٢٩/٨ .

(٤) مجالس ثعلب : ٦٣٤/٢ ، المغنى : ١١٦/١ .

(٥) اللسان : ١٣٩/١٠ .

(٦) شرح الشافية : للرضى : ٢١٠/١ ، نوادر اللغة : لأبي زيد : ٦٤ – ٦٥ .

أن يتحدث عن اللهجات الغربية « بأنها وحدة منفصلة تماماً »[١] والذي أوقعه في ذلـــك هو التقسيم الجغرافي الشرقي والغربي ، وأرى أن هذا التقسيم لم يمنع من وجود صـــلات لغوية قوية ربطت بين هذه اللغات في شقي الجزيرة في الزمن الأقدم ، كالذي حدث بين مجموعة اللغـــات الأكادية وبين اللغات العربية الجنوبية القديمة كالمعينية والحضرمية والقتبانية والأوسانية[٢] ، كما ثبت أيضاً من الدراسات اللغوية المقارنة وجود ملامح متشابهة شديدة بـــين القسمين الشرقي والغربي متمثلة في اللغات الكنعانية والبابلية[٣] وهذا التشابه لم يأت عفواً ، ولكنه يشير الى ماض مشترك ، وإلى مراحل تاريخية واحدة .

وأثبتنا كذلك أن هذا التقسيم لم يكن محدداً ثابتاً ، بل اختلف علماء الجغرافيا من المسلمين في بيان هذه الحدود كما أسلفنا القول في ذلك فجعل دراسة اللهجات العربية في ضوء هـــذا التقسيم قلقة مبهمة ، والحق أن الجزيرة لم تعش منعزلة منفصلة ملتزمة هذا التقسيم ، بل كانت القبائل في تنقل دائم ، وهذه الانعزالية القاسية ما كانت لتعرفها العرب .

وإنني لا أنكر أثر الفاصل الجغرافي بين القسم الشرقي والغربي ، ولكنني أعتقد كذلك أن العامل الجغرافي ليس كل شيء — بل هناك عوامل أخرى متشابكة يأخذ بعضها برقاب بعض — يجب أن تكون محل الاعتبار الأول في الدراسات اللهجية ، كالعامـــل الإنساني والإجتماعي والتاريخي ، إذ إن الانسان الذي كان يعيش في الشرق وفي الغرب من الجزيرة العربية هو إنسان واحد — وهو الانسان العربي ، ويقول : Jespersen « ليس المهـــم في اختلاف اللهجات هو الفاصل الطبيعي الجغرافي »[٤] . وعلى فرض أن العامـــل الجغرافي له أثره الكبير ، فيجب ألا ننسى أن الكتلة الشرقية المثلة لنجـــد كانت تختلف اختلافاً عظيماً في ذات نفسها من حيث تكوين التربـــة وطبيعة التكوين الجغرافي والجيولوجي ويجب ألا ننسى الاختلاط في السكنى وموارد المياه والأسواق مما كان له الأثر الفعال في تآكل خشونة الاختلاف اللهجي بين الكتلة الشرقية وأختها الغربية ولقد قيل « إنّ إنشاء سوق سنوية في جبال « روكيز » كان من نتائجه

(١) رابين : P. 2 .

(٢) محاضرات الدكتور خليل نامي في كلية الآداب .

(٣) تاريخ اللغات السامية : ١٠٥ ولفنسون .

(٤) اللغة بين المعيارية والوصفية : ص ١٨٦ الدكتور تمام حسان .

أن أصبحت القبائل الهندية الحمراء من شرق هذه الجبال ومن غربها يفهم بعضها بعضاً بعد أن كانت لا تستطيع التفاهم بسبب اختلاف لهجاتها اختلافاً كبيراً »[1] .

ولهذا آثرت أن أدرس لهجات القبائل - لا عن طريق هذه الوحدات القبلية المنعزلة عن بعضها كلهجة الحجاز وهذيل، وقيس وفصل كل لهجة عن الأخرى في الدرس والبحث ، بـل درستها على مستوى الظواهر اللهجية ، تلك التي تجمع بين قبائل عدة مـا داموا يشتركون في الظاهرة ، وهذا منهج يؤمن بالأخذ والعطاء والتأثير والتأثر بين القبائل أولاً ، ثم يؤمن بوحدة الجنس العربي في الجزيرة ثانياً .

ولهذا كان لي أن أتجه اتجاهاً آخر في الدرس - ما دامت طريقة المستشرقين قد عجزت عن حل المشكلات اللهجية التي أثرتها .

وفي الفصل القادم سأقدم اقتراحين جديدين لدراسة اللهجات في ضوئها . ثم أحاول أن أحل المشكلات اللهجية السالفة .

---

(١) انظر : المرجع السابق .

الفصل الثاني

« منهج وتطبيق »

قدمت في الفصل السابق شواهد اجتماعية وجغرافية ولهجية ، وجميعهـــا تعارض منهج المستشرقين في جعلهم دراسة اللهجات قائمة على المعسكرين الحجازي والتميمي فقط . ووضحت خطورة ذلك – وفي هذا الفصل سأقدم منهجاً يتلخص في عرض اقتراحين يمكن أن تقوم دراسة اللهجات على أساسها ، ثم نقيم دراسة لبعض النصوص اللهجية في ضوء هذا المنهج .

أولاً : الاقتراح الأول

أن تدرس اللهجات على أساس أصغر وحدة قبلية ، ولأجل أن نتمثل ذلك نسوق ما ذكره علماء العرب في طبقات الأنساب .

يحدثنا القلقشندي[١] أن الأنساب ست طبقات :

الطبقة الأولى : الشعب ، وهو النسب الأبعد كعدنان .

الطبقة الثانية : القبيلة ، وهي ما انقسم فيها الشعب : كربيعة ومضر .

الطبقة الثالثة : العمارة ، وهي ما انقسم فيه أقسام القبيلة كقريش أو كنانة .

الطبقة الرابعة : البطن ، وهو ما انقسم فيه أقسام العمارة كبني عبد مناف .

الطبقة الخامسة : الفخذ ، وهو ما انقسم فيه أقسام البطن كبني هاشم .

الطبقة السادسة : الفصيلة ، وهي ما انقسم فيه أقسام الفخذ ، كبني العباس .

ومن العلماء من زاد : « الأسرة »[٢] ، ثم العنزة وبعضهم يزيد[٣] الرهط ويقع في اعتبارهم

---

(١) نهاية الأرب : ١٣ القلقشندي .

(٢) بلوغ الأرب : ١٨٩/٣ الألوسي .

(٣) نهاية الأرب للنويري السفر الثاني : ص ٣٠٠ دار الكتب .

أشياء مرادفة لما تقدم كقولهم « حي » وبيت وعقيلة ، وأرومة ، وجرثومة[1] الخ ... « وقد حدث خلاف في هذه الطبقات بالزيادة أحياناً وبالنقص أحياناً أخرى . وذلك لا يعنينا ، وإنما هدفنا أن نحدد أصغر وحدة اجتماعية في هذا النظام فماذا تكون ؟ أرجح أنها الرهط أو الحي أو الفصيلة وكلها تقريباً بمعنى واحد ، ويرى القلقشندي وحقاً ما رأى أن المراد « بالفصيلة » « العشيرة الأدنون »[2] بدليل قوله تعالى : « وفصيلته التي تؤويه » أي تضمه إليها ولا يضم[3] الرجل إلا أقرب عشيرته « ولعل أصغر وحدة اجتماعية هي ما يطلق عليه علماء الاجتماع كلمة Family أي الأسرة . وأياً ما كان فالأسرة أو الرهط أو الفصيلة كلها تمثل وحدة صغرى ، وعلى هذا تكون الوحدة الاجتماعية الصغرى ممثلة في الأسرة أو الفصيلة » والرهط – هي الأساس السليم الذي يجب أن تقوم على أساسه الدراسة اللهجية ، وذلك لأن الرابطة في تلك الوحدة الاجتماعية الصغرى كانت قوية حيث (كانوا يؤلفون[4] من وجهة النظر الاجتماعية والقانونية ما يشبه الشخص الواحد ، حتى إن ثروة الأسرة كانت ملكاً مشاعاً لجميع أفرادها « وإنما آثرت دراسة اللهجات على هذه الوحدة الصغرى الاجتماعية ، لأن السمات اللهجية ستكون منطبقة عليها دون غيرها ، وسيترتب على هذا أن نمزق الكتل التميمية والحجازية واليمنية والقيسية والأسدية وغيرها من الكتل حتى لا تضيع تلك الوحدة الاجتماعية الصغرى ، وتبتلع سماتها اللهجية تلك الوحدات الكبرى ، وللأسف هذا ما حدث فعلاً ، حيث ضاعت الوحدة الاجتماعية الصغرى وأصبحنا لا نرى إلا وحدات ضخمة – كالعزو الى تميم أو أسد أو ربيعة أو مضر أو اليمن أو الحجاز أو نجد ، وكلها وحدات ضخمة مشوهة واسعة الحدود والبطون ، وكلها بالطبع لا ترضي الباحث ولا تشفي غلته ، فإذا ما طالعنا العلماء بالعزو الى قبيلة تميم مثلاً ، فماذا يقصد بتميم هل كل بطونها وعمائرها وفصائلها أو بعضها ؟ وإذا كان بعضها فلم سكتت المصادر عن تعيين هذا البعض في كثير من الأحيان ، وإذا طالعتنا بالنسبة الى قبيلة كقيس – فماذا يقصد بها ؟ هل يريد القبيلة كلها مثلاً مع العلم أن قيساً من القبائل الضخمة ذات الشعب والفصائل المتفرقة في شرق الجزيرة وغربها ، لا شك أن مثل هذه الكتل الضخمة لا تؤدي الى نتائج حاسمة عندما ندرس اللهجات في ضوئها ، إذ دراسة اللهجات في ضوئها يضيع

---

(١) بلوغ الأرب : ٣/١٨٩ الألوسي .

(٢) نهاية الأرب : ١٤ القلقشندي .

(٣) بلوغ الأرب : ٢/١٩٠ الألوسي .

(٤) الأسرة والمجتمع : ص ٩ الدكتور علي عبد الواحد وافي ، سنة ١٣٦٧ - ١٩٤٨ ط الثانية دار إحياء الكتب العربية .

على الباحث لهجات العمائر والبطون والفصائل ، وحقاً لقد ضاعت معالم لهجاتها ، ضاعت بين « استعمال الشرقية والغربية أو التميمية والحجازية » ، وكأن مثل هـــذه البطون لم تستنشق نسمات الجزيرة العربية يوماً ولا عاشت على تربتها ولا استظلت تحت سمائها . وإلا فأي ضياع أكبر عندما نسمع عزواً الى لغة نجد[1] تلك الكتلة الجغرافية المشوهة ـ وما أكثر ما نسمع ، مع أن المعروف أن تلك المنطقة وحدها تشمل تميماً بفروعها وبطونها ، وتشمل أسداً وقبائل ربيعة وبطونها المتناثرة على موارد المياه وأطراف الصحراء ، فماذا يعنون بنجد، ونجد حوت في بطن صحرائها أسماء عمائر وفصائل وعقائل وأرومات تساوي عدد حصاها ! .

وماذا يريدون بالحجاز ، والحجاز بلغت في تهائمها ونجودها ، وعلى موارد مياهها ، وأسياف خلجانها العدد العديد من القبائل .

وكما أسفنا لنسبة اللهجات الى نجد ، نأسف كذلك لنسبتها الى الحجاز[2] تلـــك الكتلة

---

(١) انظر في العزو الى نَجْد : اللسان ٣١١/١ ، ٢٢٦/٢ ، ٣٢١/٣ ، ٤٧٠/٤ ، ٢٤٤/٦ ، ٢٧٤ ، ١٣٥/٧ ، ٤٢٧ ، ٦١/٩ ، ١٩٥/٨ ، ٤١٤/١٣ ، ١٧٥/١٤ ، ٣٩١/١٥ ، ١٠١/١٦ ، ١٩٤/١٧ ، ١٩٦ ، ٢٥٩/١٨ ، شرح الشافية لابن الحاجب : ١٥٢/١ ، اللسان : ٢١٩/٢٠ ، ٣٦٢ ... الأضداد للأصمعي والسجستاني وابن السكيت والصغاني : ص ٦ ط بـــيروت سنة ١٩١٢ م ، ١٦٤ ، ١٩٣ . المزهر للسيوطي : ٢١٥/١ الرابعة ١٣٧٨ هـ ، المذكر والمؤنث للفراء ٢١ ط حلب سنة ١٣٤٥ هـ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ . المزهر : ٤٦٣ ، ٥٥٤ ـ ٥٥٥ ، إصلاح المنطق لابن السكيت : ص ١٣٩ تحقيق الاستاذ عبـــد السلام هارون والشيخ شاكر ، ٢٠٦ . المصباح المنير : ١٤٤ ، ٣٥١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٦ ، ٥٥٤ ، ٧٨٠ ، ١٠٠١ . البحر المحيط : ٨٣/١ ، ١٠٩ ، ١٧٢ ، ٢٨٢ ، ٣١٨ ، ٣٤٠/٢ ، ٤٣٣ ، ٥٠١ ، ١٠/٣ ، ٣٨٠ ، ٤١٠ ، ١٤١/٤ ، ١٨٤ ، ٢٣٤ ، ٢٦٩/٥ ، ١٨٥/٦ ، ٢٤٤ ، ٤٧٨ ، ٢٠٠/٧ ، ٤٦٠ ، ١١/٨ . همع الهوامع للسيوطي : ٢٠٤/٢ ، ٢٠٠ . القلب والإبدال : ابن السكيت ٤٨ ط بيروت : ١٩٠٣ م . الأفعال : ابن القطـــاع : ٢٧٧/٢ ، ١٦٢/٣ الطبعة الأولى بحيدر أباد . الغريب المصنف : ٢٦١ لأبي عبد القاسم خط دار الكتب رقم : ١٢١ . المذكر والمؤنث لابن جني ١٠ خط لغة تيمور : ٣٨٨ . البلغة في شذور اللغة : ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ١٢٨ المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٠٨ . ديوان الأدب : الفارابي ورقة ٢٨٨ ، ٨٩ ، ٢٦٦ تيمور لغة ٣٨٣ خط دار الكتب . المخصص : لابن سيده سفر : ٥٩/١٠ ، سفر ١١١/١١ ، سفر ٢٣/١٤ ، سفر ٥٧/١٥ ، ٨٣ ، سفر : ٢٤/١٧ ، سفر : ٢٤٨/١٤ . الجمهرة لابن دريد ٢٨٨/١ .

(٢) انظر العزو الى الحجاز : كتاب سيبويه ٢٨/١ ، ٣٦ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ٣٦٣ ، ٤٠٣ ، ٤٠/٢ ـ ٤١ ، ٤٣ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ٢٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٩٨ ، ٤١٦ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ . شرح الشافعيـــة : ٤٠/١ ، ١٥٢ ، ٢٣٩/٢ ، ٢٤٤ ، ٢٨٦ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٤/٣ ، ٣١ ، ٣٢ ، ١١١ ، ١١٩ ، ٢٦٨ ، ٢٧٩ ، كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ للتبريزي : ٥٥٧ ، شرح المفصل : ابن يعيش ١٩/١ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٨٠/٢ ، ٨١ ، ٩١ ، ١١٦ ، ١٩/٤ ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٤٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٠٦ ، ٢٧/٦ ، ١٢٩/٨ ، ٥٤/٩ ، ٧٤ ، ١٠٧ ،=

الجغرافية الضخمة ، التي لا ترضى منهجنا في دراسة اللهجات ، والحق أنني قد جمعت لهجات أخرى حجازية في كتب عدة ، ولكن حسبي بعض ما سجلته وكل ذلك ليجد الباحث أن هذه

= ١١٦ ، ٦٣/١٠ ، ١١٨ ، ١٤١ ، ١٥٣ . المحتسب لابن جني ٧٨/١ ، ٣٢٥ ، ١١٤ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ٢/٢ ، ٣١٢ مخطوط رقم ٣٧٩ تفسير تيمور ، المذكر والمؤنث للفراء : ١٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٤ طبع حلب . خزانة الأدب: البغدادي ٤٦٨/٢ ، ٤٤٢ ، ٢٢٠/٣ - ٢٢١ ، ٢٣٥/١ ، ٥/٢ ، ١٩ - ٢٠ ، ١٢٥ - ١٢٩ ، ٤١٠/٤ . التصريـــح ٣٦/١ ، ٦٨ ، ١٢٧ ، ١٩٦ ، ٢٤٦ ، ٣٥٢ ، ٩٥/٢ ، ١١٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٣٩١ ، ٤٠١ ، ٣٩٧ ، ١٩٩ . أسرار العربية ابن الانباري ١٤٤ ، ٣٩١ دمشق . مغني اللبيب ابن هشام ٢٧٧/١ ، ٦/٢ ، ١٩١ التجارية . أدب الكاتب ، ابن قتيبة ٤٨٨ تحقيق محي الدين . مجـــالس ثعلب ٤٢٢/٢ ، ٦٤٦ دار المعارف . شمس العلوم : نشوان الحميري ٥٠ - ٥١ مطبعة بريل ١٩١٦ م . الاشتقاق ، ابن دريد ١٤ ، ٤٠ ، ٦٨ ، جوتجن سنة ١٨٥٤ . حماسة المرزوقي : ٢١٠/١ ، ٢٤٩ ، ٦٤١/٢ تحقيق هارون كتاب الإبل للأصمعي ٨٢ ط بيروت ١٩٠٣ . الإنصاف ابن الانباري ١٠٧/١ مطبعة حجازي ط أولى ١٩٤٥ م تحقيق محيي الدين . الفائق في غريب الحديث الزمخشري ١١٩/١ ، ٢١٠/٣ دار إحيـــاء الكتب ، معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس ٢٣٦/١ . ديوان الأدب : الفارابي ورقة ١٣٣ ، ٢٣٥ ، ٣٣٠ ، ٣٥٢ مخطوط تيمور لغـــة رقم ٣٨٣ . كتاب المذكر والمؤنث ابن جني ١٠ لغة رقم ٣٨٨ مخطوط تيمور كتاب التذكير والتأنيث السجستاني ١٨ لغة تيمور خط رقم ٢٦٤ . البلغة في شذوذ اللغة ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ١٢٨ بيروت . عقد الجوهرة في الأسماء المؤنثة والمذكرة ١٤ لغة رقم ٣٢٧ تيمور . المقتضب للمبرد ٤٩٩ - ٥٠٠ القسم الثاني من الجزء الرابع مصورة بدار الكتب رقم ١٥٢٥ نحو . الحجـــة للفارسي ٥٠/١ مخطوط بدار الكتب قراءات رقم ١٩٥٥٣ . التذييل والتكميل ورقة ١٧ جـ ٥ مصور بجامعة القاهرة ٢٦٠٥٨ . الغريب المصنف : القاسم بن سلام ٢٦١ ، ٤٦٨ خط دار الكتب رقم ١٢١ . كتاب الوحوش : للأصمعي : ٢٨ - ٢٩ ط فينا ١٨٨٨ أفعال ابن القطاع : ٤٦٤/٢ حيدر أباد الدكن ، البحر المحيط ٢٥/١ ، ٣٧ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٨٣ ، ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٨ ، ١٧٧ ، ٢١٨ ، ٢٨٢ ، ٢٩٧ ، ٣١٧ . ١٥٠/٢ ، ٢١٤ ، ٢٢٩ ، ٢٤٣ ، ٢٨٥ ، ٣٢٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٥٤ ، ٣٩٨ ، ٥٠١ ، ٤٣/٣ ، ٩٦ ، ١٥٢ ، ١٨١ ، ١٩٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧ ، ٢٨٩ ، ٣٣٩ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ ، ٣٩٧ ، ٥١١ ، ١٤١/٤ ، ١٨٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٣٧٧ ، ٣٨٩ ، ٤٠٦ ، ٤٧١ ، ٤٩٦ ، ٥١٨ ، ١١٥/٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٥٧ ، ٤٩٠ ، ٢١١ ، ٥١١ ، ١٠٧/٦ ، ١٧٢ ، ٢٤٤ ، ٢٧٣ ، ٣٧٤ ، ٤٠٤ ، ٤٢٣ ، ٤٥١ ، ٤٧٨ ، ٩١/٧ ، ١١٠ ، ١٨٢/٧ ، ٢٦٩ ، ٤٤٩ ، ٥١٤ ، ٥١/٨ ، ١١٧ ، ١٩٤ ، ٢٣٢ ، ٤٩٧ ، الاضداد ابن الانباري : ٢٢ ، ٢٣ ، المطبعـــة الحسينية المصرية . المنصف ابن جني ٢٢٨/١ ، ١٨/٢ مصطفى الحلبي . الجمل للزجاجي ١١٩ ، ٣١٧ ، ٣٨٠ مطبعة جول كربونل الجزائر سنة ١٩٢٧ . معـــاني القرآن . الفراء ١٩٠/١ ، ٢١٢ ، ٢٨٦ ، ٤٤٧ ، ٤٨٠ ، ط دار الكتب . الامالي الشجرية ٧٤/١ ، ٢٠٩ ، ١١٤/٢ ، ٢١٢ ، ٢٣٨ . ط أولى حيدر أباد الدكن ١٣٤٩ هـ . جمهرة ابن دريد ١٧٣/١ ، ٢٢٨ ، ٢١/٢ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٥٢ ، ٢١٤ ، ٢٤/٣ ، ٦٨ ، ٢٣٩ ، ٢٦٧ . الهمع للسيوطي ٤٧/١ ، ٢٩ ، ٧٥ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٢٣ ، ١٤٦ ، ٢٠٨ ، ١٠٧/٢ ، ٨٠/٢ ، ٢٣٩/١ ، ١٥٣/٢ ، ٢٠١ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٢٧ . اللسان : ١١/١ ، ١٤ ، ٢٤ ، ٤٧ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٣٥ ، ٣٢٩ ، ٣٨٠ ، ٣٢٦/٢ ، ٤٢٦ ، ٤٦٣ ، ٤٧٦ ، ١١٦/٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٤٩٠ ، ٧/٤ ، ٢٥٠ ، ٤٢٥ ، ٤٣٧ ، =

النسبة أو هذا العزو الى الكتل الكبرى ضيع علينا اللهجات الصغرى ، والتي نسيها الرواة أو تناسوها لأغراض لهم خاصة ، ولهذا نرى أن العزو الى الوحدات الصغرى بالمقارنة الى الوحدات الكبرى يظهر تافهاً ضئيلاً ، ونظرة واحدة الى الرسم البياني يبين ذلك . يضاف الى هذه الضآلة قائمة قليلة لا تتجاوز أصابع اليد نسبت الى أفراد من البيئة العربية (أي نسبت الى الوحدات الصغرى الاجتماعية) التي كنت أحب وأتمنى أن يكون عزو اللهجات إليها حتى نضع يدنا على حقيقة اللهجات في شبه جزيرة العرب ، ولقد كلفني البحث عنها جهداً وعنتاً . وهي :

أ) لغة « العجاج »[1] جاءتنا عن الأصمعي ، وجاءتنا أيضاً عن « ابن سلام »[2] .

ب) لغة « يزيد بن مزيد الشيباني » وجاءت عن ابن السكيت[3] ، والقالي[4] .

جـ) ولغة « بثينة » جاءت عن « الليث »[5] وأهل بثينة هؤلاء كانوا يسكنون هضبة على طريق السفر بين البحرين والبصرة[6] .

= ٤٦٩ ، ٧٣/٥ ، ١١٧ ، ١٨٥ ، ١٩٧ ، ٢٧٦ ، ٦٢/٦ ، ٢٤٤ ، ٢٧٤ ، ١٣٥/٧ ، ١٣٦ ، ٢١٣ ، ٢٨٥ ، ٣٠٥ ، ٥٠/٨ ، ٥٧ ، ١٣٣ ، ١٩٥ ، ٢٧٥ ، ٣٠٠ ، ٣٧/٩ ، ٦١ ، ٨٣ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ٣٣٤ ، ٤٠٩ ، ٩٢/١٠ ، ٢٣١ ، ٢٩٦ ، ٣٤٥ ، ٣٥١ ، ٢٨١/١١ ، ٣٠٣ ، ٩/١٢ ، ١٩ ، ٣٨ ، ١٤٣ ، ٢٢٢ ، ٣١٢ ، ١٢٧/١٣ ، ٣٣٦ ، ٣٥٣ ، ٤١٤ ، ٤٤١ ، ١٥٤/١٤ ، ١٧٥ ، ٢٧٣ ، ٢٥٦/١٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٤٢٨ ، ٥٩/١٦ ، ١٠١ ؛ ١٠٢ ؛ ١٢٣ ، ١٧١ ، ٢٩٣ ، ٧٤/١٧ ، ١٧١ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٣٠٧ ، ٢٧/١٨ ، ٣٠٨ ، ٥/١٩ ، ١٧ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ١٠٣ ، ١٨/٢٠ ، ٤٤ ، ٦٧ ؛ ١١٤ ؛ ١٢٥ ، ٢٨٣ ، ٣٤١ . الطبعة الأولى . نوادر يونس بن حبيب وردت لغة الحجاز ٢٧ مرة . نوادر اليزيدي : وردت لغة الحجاز ست عشرة مرة من ص ٢٧٥ – ٢٧٧ انظر المزهر للسيوطي . إصلاح المنطق : ابن السكيت : ٩٨ ، ١٠٧ ، ١١٧ ؛ ١٢١ ، ١٣٢ ، المخصص لابن سيده : السفر الأول /٤٨ ؛ ١٦٤ ، سفر ٢٢/٣ ، ٦٤ ، سفر ٢٤/٥ ؛ ١٢٣ ؛ ١٢٤ ، سفر ١٦٢/٨ ؛ ١٦٥ ؛ سفر ٢٧/١٢ ، ٣١/ ، ٦٦ ، ٣٢٢ ، سفر ٨٧/١٤ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ؛ سفر ٩٤/١٥ ، ١٣٧ ، سفر ١٤/١٧ ، ٢٤ ، ٦٦ ، ٦٧ .

(١) كتاب خلق الانسان للأصمعي : ص ١٦٥ طبع مع كتاب القلب والإبدال لابن السكيت باسم « الكنز اللغوي » بيروت سنة ١٩٠٣ .

(٢) طبقات فحول الشعراء : ص ٦٥ ابن سلام ، تحقيق شاكر .

(٣) القلب والإبدال : ٥٤ .

(٤) أمالي القالي : ٩١/٢ ط الثانية دار الكتب : ١٩٢٦ .

(٥) اللسان : ٣١٨/١٨ .

(٦) انظر : التاج — ومعجم البلدان لياقوت .

د) لغة « أبي حية النميري » جاءت عن ابن الجزري[١] .

هـ) لغة « أبي عون الحرمازي »[٢] .

و) لغة « أبي الجراح العقيلي » جاءت عن اللحياني[٣] .

ز) لغة « أبي هريرة » : جلدّ ، فزدُ ، في جلدت وفزت ، وقد عزاها إليه المختار بن بونة[٤] .

فهذا العزو السابق يجعل الباحث يتأكد من مواضع أقدامه حين يجد عزواً الى « أصغر وحدة اجتماعية » . ولنفرض مثلاً أن الرواية رقم (أ) جاءتنا عن « تميم » لأن العجاج تميمي ، فهل تتساوى الروايتان مثلاً حيث تكون النسبة « لغة العجاج » أو لغة « تميم » ؟ ربما هذا يرضي بعض الباحثين ولكن الحق أن هذا لا يرضي دارس اللهجات ومع أن نسب العجاج يئول الى « تميم »[٥] إلا أن تميماً هي قبيلته الكبرى أو هي (الأم) التي تجتمع فيها البطون والفصائل ، ولكننا نريد أن نحدد لهجة العجاج فنرى ان ابن حزم ينسبه الى «سعد بن مالك»[٦] الذي يئول نسبه بعد سلسلة نسبية الى تميم ، فدارس اللهجات الحديث ، يرضى بأن تستبدل « سعد بن مالك » بتميم — وإن كانت نسبة « سعد » ستؤول الى تميم ، وإنما كان هذا لا يرضى لأن اللغة في انتقالها من الأم الى العمائر والبطون والأحياء تصيبها بعض التغيرات الصوتية والدلالية والمعجمية في نظامها اللهجي .

وما يقال عن « العجاج » يمكن أن يقال « عن أبي عون الحرمازي » فالحرماز « بطن من تميم »[٧] فلو نسبت اللهجة الى تميم بدل « حرماز » لما كان هذا العزو دقيقاً ، وإن كانت الحرماز من تميم . لأن اللغة كما قلنا آنفاً تتغير في انتقالها من السلف الى الخلف .

---

(١) النشر في القراءات العشر : ٣٣٨/٢ .

(٢) طبقات فحول الشعراء : ٦٥ .

(٣) اللسان : ٩٣/١٤ .

(٤) ألفية ابن بونة : ٤٠٢ .

(٥) الشعر والشعراء : ٢٣٠ ط السقا .

(٦) جمهرة أنساب العرب : ٢٠٤ ابن حزم دار المعارف .

(٧) نهاية الأرب : ١٢٣ .

وهذا الخلط توقعناه من القدامى «فأبو حنيفة الدينوري نسب ما كان لغة لرؤبة بن العجاج — نسبه الى تميم »[1] ولكن يظهر أن خلط الدينوري لم يعجب رجلا كابن سلام الذي قال إن هذه اللغة « وهي لغة نصب الجزأين بليت هي لغة جماعة من تميم هم قوم رؤبة بن العجاج »[2] .

والحق أن الدراسة اللهجية لا تسمح بهذا التعميم ، ففرق بين قوم رؤبة بن العجاج ، وتميم .

وأرى أنه كلما عزيت الظاهرة الى أصغر وحدة اجتماعية — استطاع الباحث أن تكون دراسته للهجات دراسة منهجية مبنية على التخصيص والتحديد الذي يؤمن به العلم والعلماء .

---

(١) الدرر اللوامع : الشنقيطي : ١/١١٢ ؛ الخزانة : ٤/٢٩١ - ٢٩٤ .

(٢) الخزانة : ٤/٢٩١ - ٢٩٤ .

ثانياً : الاقتراح الثاني

أن تدرس اللهجات العربية على هـدى اختلاف طبقات المجتمع العربي ، فاختلاف مظاهر الحياة الاجتماعية في البيئة يؤدي الى التميز في اللهجة ، ولا شك أن مظاهر الحياة الاجتماعية واسعة متشابكة متداخلة فمنها ما يرجع الى البداوة والحضارة ومـا يتصل بذلك من الأنظمة الاقتصادية ، وشئون الحياة المادية ، ونظام السياسة والتشريع وحياة الأسرة ، فجميع هـذه الأمور وما يتوالد منها له أثر فعال في اختلاف اللهجات في البيئة .

أثر المجتمعات في اللغة :

وقد لحظ ابن فارس اختلاف مثل هذا في المجتمع الجاهلي والإسلامي حيث انقرضت كلمات جاهلية عندما أشرق فجر الإسلام ، ولا شك أن انقراض تلك الكلمات الجاهلية إنما كان سببه تغير المجتمع من نظام جـاهلي الى آخر إسلامي فهو يقول « ومن الأسماء[1] التي كانت فزالت بزوال معانيها قولهم « المرباع » ، « والنشيطة » ، «والفضول» وقولهم للملك : «أبيت اللعن» ، وترك أيضاً تسمية من لم يحج (صرورة) ومما كانت العرب تستعمله ثم ترك قولهـم « حِجْراً مَحْجُوراً » .

وقد يكون للمجتمع أثره لا في انقراض الكلمات كما سبق ، بل له أثره أيضـاً في تخصيص دلالة الكلمة حيناً وتوسيعها حيناً آخر أو تغيير مجال الدلالة ، كما قـد يصيب مدلول الكلمة بالانحراف ، فينحرف معناها الأصلي ، ومن ذلك كلمات كانت عامـة في مدلولها في المجتمع الجاهلي ثم لما جاء الإسلام خصص معانيها ، وقد لاحظ ذلك ابن فارس حيث يقول : كان العرب في جاهليتهم على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم ، فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات ، وأبطلت أمور ، ونقلت من اللغة ألفـاظ من مواضع الى مواضع أخر بزيادات زيـدت ، وشرائع شرعت ، وشرائط شرطت فعفى الآخر الأول[2] وهذا التطور لا يكون مقصوراً على المفردات والمدلولات فحسب ، وإنما يشمل كذلك التطور الصوتي والتفاعل بين الأصوات وانسجامها أو عدمه . ومما يؤكد أثر المجتمع في اللغة ما

---

(١) الصاحبي لابن فارس : ص ٥٨ - ٦١ .
(٢) المرجع السابق : ٤٤ .

لاحظه الأقدمون أنفسهم، فقد جاء عن أبي عدنان أسلوب عزاه الى التميميات[1] دون التميميين، وهذا شيء غريب حقاً، ولا أجد تفسيراً لذلك إلا لاستحكام حلقات الانفصال بين الجنسين في بيئة تميم لأسباب اجتماعية أو دينية، ومن هنا اشتملت لهجة النساء التميميّات على جمل وأساليب لا يستخدمها الرجال التميميون، ويلاحظ هذا في الشعوب البدائية، والتي لا شك في أن أكثر تميم تمثلها. ولقد كان الاستاذ « هنري بر » على حق عندما رأى « أن المجتمع[2] من جهة كونه مجتمعاً، له حياته الخاصة التي تشمل حياة الأفراد - ينعكس على اللغة » وفي مكان آخر يقول أيضاً « واللغة تظل خاضعة للحياة في تطورها الذي لا ينتهي[3] الى حد ».

طبقات المجتمع العربي :

والمجتمع العربي[4] الجاهلي بدو وحضر، أهل وبر وأهل مدر يتساوى في هذه الحال عرب الشمال وعرب الجنوب وعرب جميع أنحاء جزيرة العرب الأخرى، وأجزاء الجزيرة كلها تشترك في صفتي البداوة والحضارة فكلتا الصفتين تتخلل في كل مكان من الجزيرة، فمناطق الحجاز وان اتسمت بالحضارة فليس معنى هذا أنها لا تشتمل على البداوة، ومنطقة نجد وإن غلبت عليها البداوة فليس معنى هذا أنها لا تشتمل في بعض أجزائها على الحضارة، وليس معنى صفة البداوة - الثبات وعدم التطور فقد أثبت علم الاجتماع « أن الجماعة[5] البشرية لا يمكن أن تثبت على حال واحدة، وأن أكثر الجماعات جموداً ينالها التطور والتغيير بإستمرار » وطبقة البدو يعيشون في الصحراء وهم كما وصفهم « سمنت » « رعاة[6] يحبون الحرب ويغير بعضهم على بعض » بعكس طبقة الحضر الذين يعيشون في المدن كمكة والطائف وخيبر والمدينة ومدن اليمن كمأرب وصنعاء - على حرث الأرض والتجارة. فالعرب في جاهليتهم لم يكونوا مجتمعاً واحداً، بل كان مجتمعهم يمثل شطرين وقد نرى قبيلة واحدة يسكن جزء منها مستقراً في الحضر بينما باقيها لا يزال على بداوته في أهل الوبر، وذا هو عرام بن الأصبغ السلمي يحدثنا عن

(١) اللسان : ٢٥٩/٨ .

(٢) اللغة : فندريس : ٨ تعريب الاستاذ الدواخلي والدكتور القصاص . لجنة البيان العربي : سنة ١٩٥٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ٦ .

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام : جـ ٨ ص ٨ جواد علي ؛ محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية جـ ١ ص ١٦ . الشيخ محمد الخضري .

(٥) النظم الاجتماعية والسياسية : ٦ المرحوم محمد جمعة .

(٦) تاريخ الاسلام السياسي : ٦٥/١ حسن إبراهيم حسن ط ٢ ١٩٤٨ دار النيل .

نهد فيقول « ويسكن ذراهما[1] وأحوازهما نهد وجهينة في الوبر خاصة دون المدر ولهم هناك يسار ظاهر »[2] .

ثم يقول في مكان آخر « والصفراء[3] : قرية كثيرة النخل والمزارع وماؤها عيون كلها — وهي لجهينة والانصار ولبني فهر ونهد » ونرى من هذا النص أن بعض نهد كانوا يسكنون الوبر ، وبعضها الآخر كان يسكن في الحضر في قرية الصفراء .

ثم يحدثنا عن مزينة فيقول « ولمن صدر[4] من المدينة مصعداً أول جبل يلقاه من على يساره (ورقان) وهو جبل أسود عظيم كأعظم ما يكون من الجبال ... سكانه أوس من مزينة ... (وقدس) هذا جبل شامخ ... والقدسان جميعاً لمزينة ... ويقابلهما من غير الطريق المصعد جبلان يقال لهما (نهبان) ... وهما لمزينة ... (والفرع) وهي قرية غناء كبيرة وهي لقريش والأنصار ومزينة ، ويؤخذ من هذا النص أن مزينة بعضها كان يسكن الجبل أي هم في طبقة البدو ، والبعض الآخر كان يسكن الحضر كما في بلدة « الفرع » الذي وصفها عرام بقوله «قرية[5] غناء كبيرة » وكقريش فإنها وان كانت قبيلة واحدة ، إلا أن بعضها كان يسكن البادية ويسمى قريش الظواهر ، وبعضها يسكن الحاضرة ويسمى قريش الأباطح ، فالعرب فيهم البدو أهل الوبر الذين يتخذون حياة الخيام والتنقل حول مجاري المياه ، ومنهم الحضر الذين يشتغلون بالزراعة ، وهم مستقرون في قراهم ومدنهم ، ولذلك فإن بعض المؤرخين الذين نظروا الى العصر الجاهلي نظرة واحدة ووصموه بالبداوة — ولم يراعوا تلك الفروق الشاسعة في المجتمع — قد جانبوا الحقيقة وضلوا في أحكامهم .

ولا شك أن الدراسات اللهجية في الجزيرة العربية ستؤمن بهاتين النظريتين في المجتمع المنقسم الى طبقتين تختلف إحداهما عن الأخرى اختلافاً كبيراً إذ المجتمع البدوي له من ظروفه في حياته ما يدفعه الى التطور بلغته ، وكذلك انعزاليته وتعصبه في خصائصه اللهجية وشدة احتفاظه بتلك السمات — كما أن دورانه حول مسايل المياه ومواطن الكلأ ، وتلك الحركات الدائبة — تجعله يتجه اتجاهاً خاصاً في كيفية نطقه وتحدد مدى تأثر الأصوات بعضها ببعض من ادغام لميله

(١) الضمير يعود على جبلي (رضوى وعزور) .

(٢) أسماء جبال تهامة : ٣٩٧ عرّام بن الأصبغ ط أولى سنة ١٩٥٦ .

(٣) أسماء جبال تهامة : ص ٣٩٨ عرام بن الأصبغ ط أولى سنة ١٩٥٦ .

(٤) أسماء جبال تهامة : ص ٤٠١ - ٤٠٤ .

(٥) المرجع السابق : ٤٠٤ .

الى السرعة في الحديث، وإسقاطه بعض الحروف من الكلمة تخفيفاً كي يصل الى غرضه من أقرب طريق وأيسره بعكس الحضري المستقر في كلامه وعيشه ، المطمئن الى بيئته حيث يوفي نطق الأصوات دون إسقاط حرف منها ، وذلك لأن بيئته تتطلب منه حسن الأداء وتخير الألفاظ ، ومن أجل هذا اتسمت اللهجات والبيئة البدوية بسمات صوتية وأدائية تجعلها تغاير لهجات البيئات الحضرية ، يقول الاستاذ « شارل كوينتز » (البدو[١] الرحل أبعد من غيرهم عن التأثر بلهجات سواهم ، لما في طبيعة البدوي من الاعتزاز وسكان الحواضر يأخذون ويعطون ، ولذلك كانوا أسرع في التأثر من البدو — يفيدون من اللغات المحيطة بهم) .

كما لحظ الميداني فرقاً بين لغة سكان العراء وسكان المدن ، ولمح ابن جني هذا حين ساق مردداً لغة المدر والوبر[٢] ، كما ساق الجاحظ صيغاً يرجع الاختلاف بينها الى المجتمعات[٣] ، كما فرق ابن خلدون[٤] في مقدمته بين لغات الحواضر والأمصار ، وبين لغات البادية من الأعراب .

ولقد سبق أن أثرت نصوصاً لهجية تقف في وجه المستشرقين وتقسيمهم وقلت انه يجب أن نلتمس لدراسة اللهجات العربية نظاماً جديداً ، والآن أحب أن أعالج بعض تلك النصوص التي اعترضت بها على منهج المستشرقين ولم يجد منهجهم حلاً لها .

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة : ٣٨٦/٨ .

(٢) الخصائص : ٥/٢ .

(٣) البيان والتبيين : ١٨/١ - ١٩ .

(٤) مقدمة ابن خلدون : ٨٧ - ٩١ ط مصطفى محمد بدون تاريخ ؛ وانظر حديثه عن لغات البدو والحضر .

ثالثاً : دراسة لهجية تقارنية في ضوء المنهج المقترح

١ – قال كثير(١) :

إذا وصلتنا خلة كي تزيلها   أبَيْنا وقلنا الحاجبية أول
لها مَهَلٌ لا يستطاع دراكه   وسابقة مِلْحُبّ لا تتحوّل

وقال المغيرة بن حبناء(٢) :

إني امرؤ حَنْظلي حين تنسبني   لا مِلْعتيك ولا أخوالي العوق

وقال أبو صخر الهذلي :

كأنهما مِلآن لم يتغيّرا   وقد مرّ للداريين من بعدنا عصر

واستشهد صاحب التصريح بقول الشاعر :

لقد ظفر الزوّار أقفية العدا   بما جاوز الآمال مِلْأسْرِ والقتل

فحذفت النون على لغة زبيد وبني خثعم من قبائل اليمن ، وقد يعترض معترض بأن هذا الحذف لضرورة الشعر ولكن يرد ذلك بأنه ثبت في نثرهم مثل هذا حين قالوا «خرجت مدّار» «وجئت ملمسجد »(٣) فهذه الظاهرة اشتركت فيها اليمن ممثلة في زبيد وخثعم ، وشاركتها فيها تميم وشاعر هذلي – فالمجموعة الغربية بها ملامح لهجية تماماً كما في الشرقية .

وقد سبق(٤) أن تعرضت لهذه الأبيات الشعرية ، فإذا سرنا على طريقة المستشرقين في الفصل بين الكتلة الغربية وبين الكتلة الشرقية وعالجنا كلاً منهما على حدة ، وقفت في طريقهم تلك الأمثلة اللهجية المتشابهة بين الكتلتين فيرتطم تقسيمهم أمام عتبة هذا التشابه ، لكن إذا سرنا على منهجنا الجديد الذي نادينا به أمكن أن نجد الحل بين أيدينا وهو :

---

(١) هو من خزاعة وهي من الأزد ، نهاية الأرب للقلقشندي : ٢٤٤ .

(٢) من ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم . الشعر والشعراء : ١٥١ .

(٣) مميزات لغات العرب : ٣٠ حفني ناصف ط الثانية .

(٤) انظر من هذا الكتاب ص ٦٠ – ٦١

من الملاحظ « أن القبائل البدوية تميل الى السرعة في نطقها وتلمس أيسر السبل فتدغم الأصوات بعضها في بعض ، وتسقط منها ما يمكن الاستغناء عنه دون إخلال بفهم[1] السامع » . ومعنى ذلك أن هذه القبائل لاسيا ما اتصف منها بإسقاط النون في (من) كانت بدوية ، فتميم كان يغلب عليها البداوة ، أو على الأقل ذلك الجزء الذي كان يحذف ويقتصد في الجهد العضلي ويسرع النطق كي يصل الى غرضه من أيسر طريق وأقربه ، وكذلك أرجح أن الذي نطق بهذه الظاهرة من هذيل تأثر بالبدو ، لاسيا وأن المجتمع الهذلي لم يكن حضرياً كله ، بل بعضهم كانوا يعيشون على قنن الجبال ضاربين في البيداء ، وتسلم لنا طريقتنا تلك التي تبني الفوارق اللهجية على أساس من تباين طبقات المجتمع العربي ، بغض النظر عما إذا كان أصحاب هذه الظواهر بعضهم من الشرق وبعضهم من الغرب .

٢ — « أفلطني » لغة في « أفلتني » — لغة تميمية قبيحة وقد استعمله ساعدة بن جؤية فقال :

بأصدقِ بأس من خليل ثمينةٍ   وأمضى إذا ما أفلط القائمَ اليدُ

أراد — أفلت — القائمُ اليدَ — فقلب[2] . فنرى من هذا النص أن اللغة التميمية الشرقية تكلم بها رجل هذلي — من الغرب ، وعلى طريقة المستشرقين في فصل الكتلة الشرقية عن الغربية يقف في سبيلهم مثل هذا التشابه ، ولكننا نجد لمثل هذا حلاً على طريقتنا يتمثل فيما يأتي :

لا شك أن تميماً يغلب عليها البداوة ، « والبدو[3] يميلون في نطقهم الى الحروف المفخمة — لأن لها رنة قوية في الآذان مما يلائم طباع البدو وخشونتهم ولا شك أن الطاء في مثالنا حرف مطبق نظيره التاء ، فاختصت الحروف المطبقة باللسان البدوي ومما يرجح ذلك أن سيبويه « ينسب صيغة[4] فحصط برجلك ، وحصط — يريد حصت وفحصت — الى تميم » .

كما أرجح أن هذا الهذلي وإن كان من القبائل الغربية التي يغلب عليها التحضر — متأثر بالبداوة ، لاسيا وأن لهجات الهذليين[5] متأثرة بمجموعة اللهجات الشرقية . وبيت ابن جؤية

---

(١) في اللهجات العربية : ص ١٢٠ الدكتور أنيس ط ٢ .

(٢) اللسان : ٩/٢٤٧ ؛ ديوان الهذليين : ١/٢٤٠ والرواية « بأصدق بأساً » .

(٣) في اللهجات العربية : ص ١١٥ دكتور ابراهيم أنيس الطبعة الثانية .

(٤) سيبويه : ٢/٣١٤ .

(٥) رابين : ٧٩ — ٨٠ .

السابق لا يمكن أن نخرجه على أن هناك ضرورة شعرية اقتضته أن ينطق بالطاء بدل التاء لأن الميزان الشعري قائم في كلا النطقين بالتاء والطاء .

٣ – سقت حديثاً[١] ملخصه : أن فتح حرف المضارعة من عادات المنطقة الغربية ممثلة في الحجاز ، وأن المنطقة الشرقية ممثلة في تميم تكسر حروف المضارعة وقلنا ان المرزوقي نسب (إخال) بالكسر الى هذيل وفي مكان نسبها الى طيىء ، والمعروف أن هذيلا غربية ، وكان الواجب أن تنطق (أخال) بالفتح كالبيئة الغربية ، ولكن النصوص جاءت بالكسر لها – فهذا إن دلّ فإنما يدل على أن التقسيم الجغرافي الى كتلتين شرقية وغربية والفصل بينهما يصيبه التشويه والتعقيد من أجل هذا التشابه بين تميم وبقية الكتلة الشرقية من جهة ، وبين طيىء هذيل من الكتلة الغربية من جهة أخرى ، ولكن إذا نظرنا الى هذه المشكلات من وجهة منهجنا الذي نادينا به سابقاً – وجدنا أن هذه أمور يسيرة على الحل : فالمعروف أن المنطقة الشرقية يغلب عليها البداوة ، وأرجح أن البدويين منهم آثروا الكسر ، على حين أهل الحضر ممثلين في الحجاز آثروا فتح حرف المضارعة ، فإذا وجدنا هذيلا نسب إليها الكسر في (إخال) وكالقراءة المنسوبة إليهم في قوله تعالى « نِستعين » كما نسبها الطوسي[٢] » وهذيل غربية ، أرجح أن هذا القسم من هذيل الناطق بالكسر من بيئة بدوية فإذا رأينا ابن منظور يعزو الفتح في (تعلم)[٣] لبعض هذيل « كان معنى ذلك أن الذين يفتحون من هذيل متأثرون بالحجاز المتحضر وأن الذين يكسرون منهم متأثرون بالبدو من قيس وتميم وأسد وربيعة لأنهم يكسرون »[٤] .

٤ – نسبت العَنْعَنَة الى تميم « وهي قلب الهمزة[٥] عيناً » واستشهدوا لها بقول ذى الرمة :

أعَنْ ترسّمت من خرقـاء منزلة ماء الصّبابة من عينيك مَسْجُوم

أراد الشاعر – أأن ترسمت . وساق التبريزي[٦] في حماسته بيتاً روايته :

رعاك ضمان الله يا أم مالك ولله عن يشقيك أغنى وأوسع

---

(١) هذا الكتاب ص ٧٢ – ٧٣

(٢) البحر المحيط : ٢٣/١ – ٢٤ .

(٣) لسان العرب : ٢٨٣/٢٠ .

(٤) اللسان : ٢٨٣/٢٠ .

(٥) السيرافي على سيبويه : ٢٧٨/١ مخطوط بالتيمورية ؛ شرح الشافية لابن الحاجب ٢٠١/٣ ؛ الخزانة : ٤٩٥/٤ – ٥٩٦ .

(٦) شرح الحماسة للتبريزي : ٢٧٠/٣ تحقيق محمد محي الدين .

وقال التبريزي يحتمل وجهين : أحدهما : عن أن يشقيك والثاني : أن تكون العين مبدلة من همزة (أن) ، لأن بعض العرب يفعل ذلك بكل همزة مفتوحة فينشدون قول ذى الرمة : أعن ترسمت ... ولقد حدد الجاحظ شاهد الحماسة بأنه من هذيل[١] .

فهذه الظاهرة التي نسبت الى تميم الشرقية نرى صداها في هذيل الغربية ، وكما قلنا إن التشابه بين الكتلتين يقف في سبيل تقسيم المستشرقين ، ولكن على منهجنا يكون الأمر سهلا « ذلك[٢] لأن البيئة الصحراوية التي تنتشر فيها الأصوات الى مسافات شاسعة لا يعوقها عائق — تتطلب الميل الى توضيح الأصوات بطرق عدة من بينها الجهر بالصوت » فقلب الهمزة عيناً هو ميـــل بالصوت الى الجهر حتى يكون واضحاً ، وذلك « أن الهمزة صوت شديد[٣] ، لا هو بالمجهور ولا بالمهموس ، لأن فتحة المزمار معها مغلقة — إغلاقاً تاماً » بينما العين « صوت مجهور عند النطق به يندفع الهواء ماراً بالحنجرة فيحرك[٤] الوترين الصوتيين » فعندما تقلب تميم الهمزة الى العين فإنما تفعل ذلك حتى يصبح الصوت مجهوراً ، لأن الجهر من خصائص البدو ، يقول ابن دريد : « ان بني تميم عندما يحققون الهمزة ، يجعلونها عيناً[٥] ، فالهمزة حين يبالغ في تحقيقها تصبح عيـــناً . فإذا رأينا هذه الظاهرة لرجل هذلي غربي — فلا بد أنه من هذيل البدوية ، لا هذيل الحضرية ، لأن الحضر لا يميلون الى الجهر بالصوت .

٥ — من ظواهر قبيلة طيىء اللهجية (أنها تفتح قياساً[٦] ما قبل الياء إذا تحركت الياء بفتحة غير اعرابية فتقلب الياء ألفاً) ومثل لها ابن الحاجب[٧] بقوله في بقِيَ : بقَى ، وكذلك مثل لها السيرافي[٨] . وعلل البغدادي هذه الظاهرة عند طيىء فقال « لأنهم يكرهون

---

(١) الحيوان للجاحظ : ١٤٨/٧ تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون .
(٢) في اللهجات العربية : ٩٦ .
(٣) الأصوات اللغوية : ٨٣ الدكتور أنيس .
(٤) المرجع السابق : ص ٨١ .
(٥) الجمهرة : ٢٣٧/١ .
(٦) شرح شواهد الشافية : ٤٨/٤ البغدادي .
(٧) شرح الشافية لابن الحاجب : ١٣٤/١ .
(٨) شرح السيرافي لسيبويه : ٥٩٥/١ .

مجيء(١) الياء المتحركة بعد كسرة فيفتحون ما قبلها لتنقلب ألفاً ، وقـــد جمعت شواهد وردت للظاهرة في قبائل أخرى منها :

أ) ما قاله الشاعر :

« سُقَى السُّمّ ممزوجاً بشَبّ يماني »

وعقب أبو بكر عليه بقوله :

(سُقَى(٢) في لغة طيىء وغيرها بمعنى سُقِي)

ب) ووردت كذلك تلك الصيغ في شعر كعب بن زهير في قوله :

ومن للقوافي(٣) شأنـَها من يحوكها إذا ما تـَوَى كعب وفوّز جرول

فأصل الفعل تِوَى – بمعنى مات – ولكنه قال (تـَوَى) .

جـ) كما وردت صيغة (فنا) في شعر زهير بن أبي سلمى في قوله :

تربّع صارة(٤) حتى إذا ما فـَنَا الدُّحلان عنه والإضاء

د) وقد نسبت تلك الظاهرة أيضاً الى رجل من بلحارث(٥) بن كعب

هـ) كما وجدت مثل هذه الصيغة في شعر رجل تميمي هو علقمة بن عبدة التميمي حيث يقول :

زَها الشّوق حتى ظلّ إنسان عينه يفيض بمغمور من الدّمع متأف(٦)

و) كما وجدت مثل هذه الصيغ في شعر امرىء القيس وهي :

عارضٌ(٧) زوراء من نَشَم غـــير باناةٍ على وتره(٨)

---

(١) خزانة البغدادي : ١٤٩/٤ .
(٢) جمهرة ابن دريد ٣٢/١ وانظر صيغة أخرى في الجمهرة : ١٤٣/٢ .
(٣) الشعر والشعراء : ١٠٣/١ شاكر ؛ وفي ديوان كعب : ٥٩ (ثوى) بالثاء دار الكتب .
(٤) ديوان زهير : ٦٨ ؛ طبقات فحول الشعراء ٢٩٠ .
(٥) اللسان : ٣٢٢/١٩ ؛ النوادر : ٥٨ .
(٦) البحر المحيط : ٢٣٩/١ – ٢٤٠ .
(٧) ديوان امرىء القيس : ١٢٣ دار المعارف ؛ اللسان : ١٠٤/١٨ ؛ معجم مقاييس اللغـــة لابن فارس : ٢٧٦/٩ تحقيق عبد السلام هارون .
(٨) البانية من القسيّ التي لصق وترها بكبدها ؛ ودي الباناة – طائية ؛ ورجل باناة – منحن عل وتره عند الرمي : اللسان ١٠٤/١٨ .

ز) ورأينا صداها في شعر طفيل الغنوي إذ يقول[1] :

فلما فنَنَا ما في الكتائب قارعوا بكل رقيق الشفرتين مشطّب

كما جاءت مثل هذه الصيغة في شعر المستوفر بن ربيعة بن كعب بن سعد حيث يقول[2] :

هل ما بقَى إلا كما قد فاتني يوم يمرّ وليـــلة تحدونا ؟

وقد استشهد ابن دريد بقول الشاعر :

وقبر بـأعلى مسحلان[3] مكانه وقبر سُقِي صوب السّحاب ببربخا

وفي (ل) سقى « بفتح القاف » أصح وهي لغة طيىء وأسد[4] .

والآن أقف وقفة في مناقشة تلك الظاهرة في ضوء النصوص السابقة فأقول :

١ – ان الظاهرة عزيت الى طيىء والى بلحارث بن كعب وكلاهما من القبائل اليمنية .

٢ – وجدنا صداها يتردد عند زهير بن أبي سلمى ، وكعب بن زهير ، وكلاهما من مزينة مضر من العدنانية[5] ، وجميع هذه القبائل غربية .

ولكن وجدنا صداها يتردد في تميم ، حيث نطق بها علقمة بن عبدة وهو تميمي أي في الجانب الشرقي ، وعند امرىء القيس – وكان في كندة وهي تنتظم معظم بلاد نجد ، وعند المستوفر بن ربيعة بن كعب بن سعد ، وهو تميمي[6] ، ووجدناها عنـــد طفيل الغنوي ، وهو من قيس بن عيلان « وكانوا يسكنون نجداً »[7] كما وجدناها عند أسد – وهي شرقية كما نص على ذلك ابن

---

(١) عبث الوليد : ٢٣٢ ط الترقي ، وفي ديوان طفيل : ١٣ .

فلما فنا ما في الكنائن ضاربوا على القرع من جلد الهجان الجوب

(٢) الشعر والشعراء : ١٤٤ السقا ، طبقات فحول الشعراء : ٢٩ تحقيق شاكر .

(٣) الجمهرة لابن دريد : ٣٤٨/٣ – ٣٤٩ ؛ قال أبو بكر : (وقبر بأعلى مسحلان) : قبر المنذر ، وقـــبر ببربخ ، وهو قبر عمرو بن مامة عم النعمان : الجمهرة ٣٤٩/٣ .

(٤) جمهرة ابن دريد : ٣٤٩/٣ .

(٥) الشعر والشعراء : ٩٠/١ تحقيق شاكر ؛ معجم قبائل العرب : ١٠٨٣/٣ كحالة .

(٦) طبقات فحول الشعراء : ٢٩ ؛ الشعر والشعراء : ١٤٤ تحقيق السقا .

(٧) معجم قبائل العرب : ٨٩٥/٣ كحالة .

دريد ، فالظاهرة قسم بين الشرق والغرب وعلى أساس التقسيم والفصل بين الكتلتين لا نستطيع أن نفهم مثل هذا التشابه في الظاهرة اللهجية . وإنما إذا بحثناها لا على أساس الفصل الذي نادى به المستشرقون بين الجزيرة – وإنما على أساس منهجنا الذي رسمناه آنفاً – ينجلي الموقف وهو :

أن الانسجام بين الأصوات سقنا له نصاً من كتاب شرح سيبويه للسيرافي يقول : « بأن تميماً تكسر أول « فعيل » – إذا كان حلقى العين ، فتقول في بعير[1] : بِعير . وفي قوله تعالى «بهيمة الأنعام»[2] – بِهيمة الأنعام وعزا أبو حيان الصيغة الثانية وهي التي حدث فيها الانسجام الى تميم[3] .

فالانسجام من طبع البدوي ، لأنه يميل بطبعه الى الاقتصاد في المجهود عند نطقه ، فإذا نطق « بهيمة » بالكسر عمل اللسان من وجه واحد وهو الكسر ، بعكس « بهيمة » بالفتح فإن فيها مشقة ، لأن اللسان ينتقل من الفتح الى الكسر .

وإذا ما حققنا البحث في القبائل التي نطقت بطريقة الانسجام في الظاهرة التي معنا من قولهم في « بقي » وهي صيغة لم يحدث فيها الانسجام – الى « بقي » وهي الصيغة التي حدث فيها الانسجام – وجدنا تلك القبائل كالآتي :

١ – قبيلة طيىء وهي قبيلة بدوية يمنية الأصل .

٢ – قبيلة بلحارث بن كعب (وهي يمنية ، بطن من مذحج من القحطانية[4] وهي بدوية أيضاً) .

٣ – تميم – ويغلب عليها البداوة – أو على الأقل ما كان ينطق منها « بالانسجام » .

٤ – « غنى » وهي قبيلة بدوية نسبتها الى قيس عيلان[5] ، وكانت تسكن « نجداً » .

٥ – « أسد » وهي قبيلة بدوية تسكن « نجداً » فتكون تلك الظاهرة – متسمة مع مظاهر « الانسجام » الذي هو من خصائص البدو . وسواء علينا أكان هؤلاء البدو من شرق

---

(١) شرح السيرافي : ١٣٦/٢ مخطوط بالتيمورية رقم ٥٢٨ نحو .

(٢) سورة المائدة : آية ١ .

(٣) البحر المحيط : ٤٠٩/٣ .

(٤) معجم قبائل العرب ٢٣١/١ كحالة ، صبح الأعشى : القلقشندي : ٣٢٦/١ ، صفة جزيرة العرب : الهمداني : ١١٦ .

(٥) معجم كحالة : ٨٩٥/٣ .

الجزيرة أم من غربها ، فهو أمر لا يعنينا كثيراً في دراسة اللهجات بقدر ما يهمنا ذلك الأساس الذي أشرنا إليه سابقاً ، والذي رأينا أن الدراسة يجب أن تقوم عليه ، ولذلك رأينا هذه الظاهرة السابقة في الحجاز بدون انسجام – وهي بقِيَ – ولعل السبب في ذلك أن الناطقين لها بدون انسجام متحضرون .

٦ – سقت فيما تقدم خلافاً لهجياً بين تميم وقيس ملخصه : أن تميماً تقول : الرفقة بضم الراء ، وقيس تكسرها[١] ، فالكتلة الشرقية اختلفت على نفسها وهذا يطعن في التقسيم ، ولكن يسهل فهم هذا الخلاف إذا عرفنا أن الضم يميل إليه البدو ، لأنه سمة من سمات الخشونة البدوية ، ويمثلهم تميم ، وأن الكسر يجنح إليه الحضر ، لأنه سمة من سمات الرقة . ولهذا أرجح أن الذين آثروا الكسر – هم القبائل المتحضرة من قيس ، والتي كانت تجاور الحجاز لا جميع قيس ، لأن قيساً من القبائل الكبرى ، والتي ينضوي تحتها عشرات من العمائر والبطون والفصائل ، وكانت جميعها تتناثر على صفحة الجزيرة العربية في الحجاز ونجد وشرق الجزيرة وغربها .

(١) المصباح المنير : ٣٠٩/١ .

الباب الثاني

مصادر اللهجات

الفصل الأول

القرآن الكريم وقراءاته

القرآن هو المعجزة الكبرى الخالدة على الزمان ، جاء الى الأرض ليكون للعـــالمين نذيراً ، فراع خيال العرب وأخذ أسماعهم بما فيه من آيات محكمات ، ومعجزات على الزمان خالدات ، فكان الواحة التي يستظل بها الانســان من حر الحياة اللافح ، والنسمة الرطيبة التي تمسح عن الانسانية كدح الأيام ووعثاء الدهور .

(لا جرم[1] أن القرآن سِرّ السماء – فهو نور الله في أفق الدنيا حتى تزول ، ومعنى الخلود في دولة الأرض الى أن تدول) .

ولقد اندفع المسلمون كالسيل يدرسونه ويحفظونه ، متفقهين متعبدين تحقيقاً لقول الله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[2] ولما تكفل الله تعالى بحفظه خص به من شاء من بريته ، وأورثه من اصطفاه من خليقته قال تعالى « ثُمّ أورثْنَا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا »[3]. وكان الاعتماد في نقل القرآن على حفـــظ القلوب والصدور كما جاء في صفة أمـــة الرسول « أنا جيلُهم[4] في صُدُورهم » .

ولقد أحيط نص القرآن الكريم بالعناية الشديدة المنقطعة النظير ، فأقام الله له أئمة ثقات تجردوا لتصحيحه ، وبذلوا أنفسهم في إتقانه ، وتلقوه من النبي ﷺ حرفاً حرفاً ، لم يهملوا[5] منه حركة ولا سكوناً ولا إثباتاً ولا حذفاً ولا دخل عليهم في شيء منه شك ولا وهم ، ولقد تلقاه أصحاب رسول الله منه على تلك الرعاية والأمانة حتى كان يستمع إليهم وهم يقرءون عليه ،

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي : ٢/١١ مطبعة الاستقامة الطبعة الثانية .

(٢) سورة الحجر : آية ٩ .

(٣) سورة فاطر : آية ٣٢ .

(٤) النشر : ابن الجزري ١/٩ .

(٥) المرجع السابق .

فمن ابن مسعود قال : « قال لي رسول الله : اقرأ علي: ففتحت سورة النساء فلما بلغت «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً »[1] رأيت عينيه تذرفان من الدمع فقال : « حسبك الآن »[2] ! وما روي من قول النبي ﷺ « من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم معبد »[3] ، وذلك حين قام ابن مسعود يصلي والنبي يسمع قراءته[4] وإنما سقت هذين النصين ليتبين من خلالهما توثيق النص القرآني ، لأن النبي ﷺ كان يستمع الى قراءة أصحابه ، وهناك توثيق آخر لهذا النص الكريم ظهر فيما رواه عطاء بن يسار عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : لا تكتبوا[5] عني شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحه ، فالرسول مبالغة منه في شدة الحفاظ على النص القرآني رأى ألا يكتب شيء عنه من كلامه حتى لا يختلط الأمر فيما بعد على المسلمين بين السنة والقرآن .

لذلك كان القرآن هو النص العربي الصحيح المتواتر المجمع على تلاوته بالطرق التي وصل إلينا بها في الأداء والحركات والسكنات ، « فلم يتوفر لنص ما توفر للقرآن الكريم من تواتر رواياته ، وعناية العلماء بضبطها وتحريرها متناً وسنداً »[6] بل لم تعرف البشرية كتاباً أحيط بالعناية واكتنف بالرعاية فحوفظ على تراكيبه وكلماته وحروفه وحركاته ، وكيفية ترتيله بلهجاته مع إتقان متنها في التلقن والتلقين ، ودقة بالغة في الأخذ والأداء – مثل الكتاب العزيز[7] ، ولهذا كان القرآن الكريم مع قراءاته الواردة إلينا عن الصحابة وقراء التابعين – وهم جميعاً ممن يحتج بكلامهم العادي بل قراءاتهم التي تحروا ضبطها – حجة في اللغة لاسيما لهجات العرب الذين أبيح لهم أن يقرءوه على لهجاتهم المختلفة فكانت قراءات القرآن موئلاً جامعاً للهجات العرب قال الإمام أبو محمد عبدالله بن قتيبة « وكان من تيسير الله أن أمر نبيه ﷺ أن يقرىء كل قوم بلغتهم وما جرت عليه عادتهم ، فالهذلي يقرأ « عتى حين » يريد (حتى حين) لأنه هكذا يلفظ بها ويستعملها ، والأسدي يقرأ (تِعْلمون) ، (وتِعْلم) « وتِسْود وجوه » ، « وألم إعْهد إليكم »

---

(١) سورة النساء : آية ٤١ .

(٢) تاريخ القرآن : للزنجاني ١٧ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٤ هـ .

(٣) المسند : ابن حنبل : ١/١٧٦ ، ١/٢٦٥ تحقيق أحمد شاكر دار المعارف سنة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .

(٤) كتاب المصاحف : ١٣٧ .

(٥) المصاحف – السجستاني : ٤ ط أولى المطبعة الرحمانية تحقيق آثر جفري .

(٦) في أصول النحو : الأفغاني : ٢٥ مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٧ ط الثانية .

(٧) نظرة في النحو: طه الراوي مجلة المجمع العلمي بدمشق مجلد ١٤ ج ٩ - ١٠ سنة ١٣٥٥ هـ - ١٩٥٦م .

والتميمي يهمز ، والقرشي لا يهمز ، والآخر يقرأ « وإذا قيل » ، «وغيض» بإشمام الضم الكسر ، « وبضاعتنا ردّت إلينا » بإشمام الكسر مع الضم ، « ومالك لا تأمنّا » بإشمام الضم مع الادغام - وهذا ما لا يطوع به كل لسان »[1] فالقرآن العظيم وإن نزل بلغة أدبية نموذجية ، إلا أنه أبيح في قراءاته أن يخرج عن تلك اللغة النموذجية - تيسيراً على العرب ، وجمعاً لكلمتهم وكما يسر الله على الناس في الدين « حين[2] أجاز لهم على لسان رسوله الكريم ﷺ أن يأخذوا باختلاف العلماء من أصحابه رضي الله عنهم في فرائضهم وأحكامهم وصلاتهم وزكاتهم وحجهم وطلاقهم وعتقهم وسائر أمورهم » يسر عليهم كذلك في قراءات القرآن حيث تقرؤه كل قبيلة بلهجتها . قال ابن قتيبة : « ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشياً وكهلاً - لاشتد ذلك عليه وعظمت المحنة فيه »[3] وذلك يتفق مع ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « أقرأني جبريل على حرف فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى الى سبعة أحرف »[4] .

وهذا الحديث مشهور في كتب القراءات والمصاحف والتفاسير ، كما ورد من طرق متعددة ، وبأوجه مختلفة[*] ، ولكنها مع ذلك متفقة في الفكرة[5] ، وهي أن الرسول ﷺ أدرك أن الأمة العربية لا تستطيع أن تقرأ كتاب الله إذا نزل بلغة واحدة ، لأن لغة العرب لهجات مختلفة «فلو كلفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم لكان من التكليف بما لا يستطاع»[6] فطلب الرسول من ربه التخفيف فنزل بلهجات عدة ، والدليل على ذلك ما يقوله الإمام

---

(١) مشكل القرآن : ابن قتيبة ١/٢٢٢ الخانجي ، النشر : ابن الجزري ١/٢٢ .

(٢) القرطين : ابن مطرف الكتاني ١/٢٢٣ ط أولى مطبعة الخانجي .

(٣) النشر : ابن الجزري : ١/٢٣ .

(٤) فتح الباري بشرح البخاري : ٩/١٩ لابن حجر المطبعة البهية سنة ١٣٤٨ ، وانظر النشر : ١/١٩ لابن الجزري .

(*) فقد روي عن جمع كثير من الصحابة : كأبيّ بن كعب ، وأنس ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن أرقم ، وسمرة بن جندب ، وسليمان بن صرد ، وابن عباس ، وابن مسعود ؛ وعبد الرحمن بن عوف ؛ وعثمان بن عفان ؛ وعمر بن الخطاب ؛ وعمرو بن أبي سلمة ؛ وعمرو بن العاص ؛ ومعاذ بن جبل ؛ وهشام بن حكيم ؛ وأبي سعيد الخدري . وقد وصل عدد الصحابة عند السيوطي في إحصائه لروايات هذا الحديث - واحداً وعشرين صحابياً (انظر : تفسير الطبري ١/٩ . الإتقان ١/٤٧ . فتح الباري ٩/١٩ . مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٠٢) .

(٥) انظر : جامع البيان في تفسير القرآن : الطبري ١/١٠ ط أولى .

(٦) النشر : ابن الجزري : ١/٢٢ .

الدمشقي أبو شامة : ٦٦٥ هـ - « القرآن العربي فيه من جميع لغات العرب ، لأنه أنزل عليهم كافة ، وأبيح لهم أن يقرءوه بلغاتهم المختلفة ، فاختلفت القراءات فيه لذلك »[١] ، ويفهم من هذا أن الاختلاف في كثير من القراءات يرجع الى اختلاف لهجات العرب ، فتكون القراءات القرآنية مصدراً هاماً وينبوعاً ثـرّاً في تعريفنا بلهجات العرب ، لأن القرآن العظيم بلغتهم جميعاً نزل لا بلغة قبيل دون قبيل ، فقد جاء عن أبي عبيد أن القرآن « بعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن وغيرهم - ثم قال : وبعض اللغات أسعد به من بعض وأكثر نصيباً »[٢] ، وروى عن ابن عباس أنه قال « نزل القرآن على سبعة أحرف ، خمسة منها للعجز من هوازن سعد بن بكر وجشم بن بكر ، ونصر بن معـــاوية ، وثقيف »[٣] وقال ابن عطية في مقدمة تفسيره مبيناً لهجات القبائل في القرآن « وقاعدة هذه القبائل : قريش ، ثم بنو سعد بن بكر ، لأن النبي ﷺ قرشي ، واسترضع في بني سعد ونشأ فيهم ، ثم ترعرعت وعفت تمائمه وهو مخالط في اللسان : كنانة ، وهذيلا ، وثقيفاً ، وخزاعة ، وأسداً ، وضبـــة وألفافها ، لقربهم من مكة وتكرارهم عليها ، ثم بعد هذه تميماً ، وقيساً ، ومن انضاف إليهم وسط جزيرة العرب »[٤] ، كما روى السيوطي عن أبي بكر الواسطي في كتابه « الإرشاد في القراءات العشر » أنـه ذكر أن القرآن قد اشتمل من اللغات على خمسين لغة[٥] ، وعددها ، ونظرة واحدة الى النوع السابع والثلاثين في الإتقان تطالعنا بقائمة ضخمة لألفاظ قبائل وردت في القرآن - بعضها بلغة حمير[٦] ، وبعضها بلغة جرهم[٧] ، وخثعم[٨] ، ومذحج[٩] ، وكندة[١٠] ، ولغة الأشعريين[١١] ... فالقرآن الكريم لم يلتزم لهجة واحدة - ولو كانت لهجة قريش كما توهم

---

(١) إبراز المعاني لأبي شامة : ٨٧ ؛ مطبعة الحلبي : ١٣٤٩ .

(٢) الكلمات الحسان : ٥٦ ؛ فتح الباري : ٢٢/٩ ؛ الاتقان : ٤٨/١ - ٤٩ ؛ لسان العرب : ٣٨٥/١٠ - ٣٨٦ .

(٣) مقدمتان في علوم القرآن : ٢١١ ؛ الكلمات الحسان : ٥٦ ؛ التبيان : ٥١ . الاتقان ٤٨/١ .

(٤) مقدمتان في علوم القرآن : ٢٦٩ .

(٥) الإتقان : ١٣٦/١ .

(٦) الإتقان : ١٣٥/١ .

(٧) المرجع السابق ، كتاب اللغات في القرآن : ٢٠ .

(٨) الإتقان : ١٣٦/١ .

(٩) كتاب اللغات في القرآن : ٥٠ .

(١٠) الإتقان : ١٣٦/١ .

(١١) الإتقان : ١٣٦/١ ، كتاب التيسير في علوم التفسير : ١٢٧ .

ذلك بعض الروايات[١] ، ومما يدفعها ما جاء عن ابن عبد البر (٤٦٣ هـ) في التمهيد « إن غير لغة قريش موجودة في جميع القراءات »[٢] كما يرى الشيخ جمال الدين بن مالك أن القرآن كما نزل بلغة الحجازيين نزل بلغة التميميين[٣] « فالقرآن كما فيه من لهجة قريش فيه من لهجة غيرها من القبائل العربية يوضح هذا ما روي عن عمر بن الخطاب ، وكان لا يفهم معنى قوله تعالى « أو يأخذهم على تَخَوّف »[٤] فوقف به فتى فقال : إن أبي يتخوّفني حقي فقال عمر : الله أكبر « أو يأخذهم على تخوّف » أي على تنقّص لهم[٥] .

فهذه القصة إن دلت فإنما تدل على معنى واحد ، وهو أن القرآن كله لم ينزل بلغة قريش – بل فيه من لهجات العرب الأخرى ، وذلك أن عمر بن الخطاب قرشي، فلو كانت هذه الكلمة التي جهلها بلغة قريش لعرفها ولكن جهله بها – وهو القرشي دليل على أن هذه الكلمة لم تكن بلهجة قريش ، وفي رواية ساقها القاضي البيضاوي في تفسيره ١٨٢/٣ : ان عمر سأل عن قوله تعالى « أو يأخذهم على تَخَوّف » وهو على المنبر ، وقال ما تقولون فيها ؟ فسكتوا ، فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا . التخوف : التنقص ، فقال : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال : نعم ، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته :

تَخَوّفَ الرّحل منها تامِكاً قَرِداً ... كما تخوّف عود النبعة السفن

وقد أورد ابن قتيبة[٦] هذا المعنى في قول طرفة – على إحدى الروايتين .

وجامِلٌ خوّع[٧] من نبته ... زجْر المعلّى أصلاً والمنيح

وذكر أن :(خوع)معناها : نقص ، وقد ذكر مكانها « خوف » : بمعنى نقص ، في رواية أخرى – وهي حينئذ تتفق والقرآن الكريم .

---

(١) ابن جرير الطبري : ٢٣/١ ط أميرية ، فتح الباري : ١٦/٩ .

(٢) الإتقان : ١٣٦/١ .

(٣) الاتقان : ١٣٦/١ ، مقدمتان في علوم القرآن : ٢٦٩ .

(٤) سورة النحل : آية ٤٧ .

(٥) مقدمتان في علوم القرآن : ٣٧١ .

(٦) الميسر والقداح : ابن قتيبة : ٥٩ – ٦١ ط السلفية .

(٧) الجامل : اسم جمع غير مكسر ، ومعنى الجامل ، جماعة الإبل مع رعاتها/هامش الميسر والقداح : ٦٠ نقلاً عن شرح ديوان طرفة : ١٣ – ١٤ ط قازان نشره : الشيخ الشنقيطي .

وليست القراءة السبعية وحدها – مصدراً من مصادر اللهجات العربية ، بـل تشاركها القراءات الشاذة ، لأن لها سنداً من صحة الرواية ، وموافقتها وجهاً من وجوه العربية ، ولهذا كان ابن جنى على حق عندما وثق الشاذ واحتج له ، وأنه (نازع بالثقـة الى قرائه ، محفوف بالروايات من أمامه وورائه)(١) . ثم حاول ابن جنى أن يعلن توثيقه للشاذ بقوله : « ولعـله أو كثيراً منه مساو في الفصاحة للمجتمع عليه ... والرواية تنميه الى الرسول ﷺ والله تعالى يقول « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا »(٢) ، وما القراءات الشاذة في نظرنا إلا صورة نابضة بالحياة لكثير من لهجات القبائل العربية – ولكن هذه القبائل – لم تنل نصيباً من المجد والجاه – فحكموا بشذوذ قراءاتهم التي هي صورة حية للهجاتهم ، وأرى أن القراءة وإن شذت – هي أقوى من تراث النـثر والشعر على السواء،يقول الفراء « والكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر »(٣) ، ولهذا قامت حركة علمية على امتداد التاريخ بالتأليف في القراءات الشاذة ، والدفاع عنها . وأشهر من ألف فيها :

١ – كتاب معاني القرآن ، لأبي علي محمد بن المستنير قطرب (ت ٢٠٦ هـ) .

٢ – كتاب معاني القرآن ، لأبي زكريا الفراء (٢٠٧ هـ) وقد طبع الجزء الأول منه عام ١٩٥٥ ، والثاني عام ١٩٦٦ .

٣ – كتاب اختلاف المصاحف ، لأبي حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني (ت ٢٥٥ هـ) .

٤ – كتاب معاني القرآن للزجاج (ت ٣١١ هـ) .

٥ – كتاب المصاحف للحافـظ أبي بكر عبدالله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٣١٦ هـ) . وقد نشر هذا الكتاب وحققه الدكتور آثر جفري عام ١٩٣٦ م .

٦ – كتاب الشواذ ، لأبي بكر أحمد بن موسى بن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) .

٧ – كتاب البديع ، لابن خالويه ت ٣٧٠ هـ ، وقد طبعت جمعية المستشرقين الألمانية ١٩٣٤ م مختصر كتاب البديع ، ونشره وحققه الاستاذ برجشتراسر .

٨ – كتاب المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، لأبي الفتح عثمان بن جنى

---

(١) المحتسب : ابن جني : ٣/١ تيمور .

(٢) المرجع السابق : ٤/١ تيمور .

(٣) معاني القرآن : الفراء : ١٤٠ .

ت ٣٩٢ هـ، وقد نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة الجزء الأول من هذا الكتاب عام ١٣٨٦ هـ ، كما نشر الجزء الثاني والأخير منه سنة ١٩٦٩ م .

١٠ – اللوامح ، لأبي الفضل الرازي ت ٤٥٤ هـ ، وكتاب المبهج لسبط الخياط البغدادي ت ٥٤١ هـ .

١١ – كتاب شواذ القراءة واختلاف المصاحف لمحمد بن أبي نصر بن عبدالله الكرماني ، وقد عثر على مخطوطته صديقنا الدكتور عبدالصبور شاهين بمكتبة الأزهر برقم ٢٤٤ قراءات .

هذا ، وممن كان يقرأ بالشواذ : الحسن البصري ت ١١٠ هـ ، ومحمد بن عبد الرحمن بن محيصن السهمي مقرىء مكة ت ١٢٣ هـ ، وسليمان بن مهران الأعمش ت ١٤٨ هـ ، ويحيى اليزيدي ت ٢٠٢ هـ ، وابن شنبوذ ت ٣٢٨ هـ ، وكان يرى جواز القراءة بما خالف الرسم ما دامت الرواية صحيحة النقل ، ولهذا عقد له مجلس بحضرة الوزير أبي علي بن مقلة ، وجماعة من العلماء والقضاة ، وضرب في هذا المجلس سبع درر، ولم يتركه الوزير حتى أعلن توبته عن القراءة بالشاذ (انظر طبقات القراء لابن الجزري ٥٢/٢) .

ولقد أمدتنا المصاحف القديمة للقرآن بعدد لا ينقطع من سمات لهجات القبائل، لأن اختلافها في الإملاء والرسم يوضح لنا اتساع العربية إبان نزول الوحي من جهة ومن جهة أخرى يشير الى تعدد لهجات القبائل ، فحلول التاء المفتوحة محل المربوطة في (رحْمت) في المواضع السبعة بالبقرة والأعراف وهود وأول مريم والروم والزخرف ، و (نِعْمت) في أحد عشر موضعاً من كتاب الله ، و (امرأت) كما في سورة القصص والتحريم وآل عمران ، و (قرَّت) بالقصص ، و (فِطْرَت) بالروم ، و (شَجَرَت) في سورة الدخان ، و (لَعْنَت) بآل عمران والنور ، و (جنّت نعيم) بالواقعة ، و (ابنت عمران) بالتحريم ، و (مَعْصِيت) بالمجادلة ، و (كلمت ربك) بالأعراف[1] – يشير الى أثر القرشية في الإملاء القرآني ، كما نلمح أثر القرشية أيضاً في قوله تعالى : « أن اقذفيه في التابوت »[2] وقوله « أن يأتيكم التابوت »[3] ، وقد كتبت في

(١) الإتحاف : ١٠٣ والمقنع للداني : ٧٧ وما بعدها .

(٢) سورة طه : آية ٣٩ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٤٨ .

مصحف زيد بن ثابت (التابوة)[1] ويفسر هذا ما روي عن زيد حين أراد أن يكتب (التابوت)[2] بالهاء على لغة الأنصار - فمنعوه من ذلك ، ورفعوه الى عثمان رضي الله عنهم ، وأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش[3] ، كما حملت مصاحف الصحابة والتابعين إشارات مفيدة كانت عمدتنا في هذا البحث[4] . كما أن قراءات القرآن قد صورت لهجات القبائل أيضاً ومصداق ذلك قول أبي حيان « والقراءات جاءت على لغة العرب[5] قياسها وشاذها » .

ولقد كان إسرائيل ولفنسون على حق عندما قال : « إن العربية يجب أن تبحث أحوالها في ضوء القرآن أولاً »[6] .

وإذا ما قارنا بين ما ورد في القرآن الكريم من لهجات عربية ، وبين ما ورد في غيره من كتب العربية . كان القرآن أوفى منها جميعاً ، ولهذا جمعت أسماء اللهجات التي وردت في كتاب البحر المحيط لأبي حيان كله بأجزائه الثمانية ، فوجدت أنه ذكر اللهجات الآتية وهي ما ورد في تفسيره للقرآن الكريم .

اللهجة	القبيلة	اللهجة	القبيلة
«	بلحارث بن كعب	«	الحجاز
«	بكر بن وائل		
«	قيس	«	تميم
«	أسد	«	ربيعة
«	هُذَيل	«	قريش

---

(١) مصحف زيد بن ثابت : ٢٢٥ جفري .

(٢) هذه الكلمة دخلت العربية عن طريق الحبشية ، وأصلها من الآرامي اليهودي/اللغة العربية كائن حي : ٣٦ هامش .

(٣) حاشية عبادة على الشذور : ١/٧٤ . كتاب المصاحف : ١٩/لابن أبي داود . فضائل القرآن لابن كثير : ٣٥ .

(٤) انظر مصاحف ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وأم سلمة ، وطلحة بن مصرف ، والأعمش في كتاب تاريخ المصاحف لجفري .

(٥) البحر المحيط : ٨/٤٩٣ .

(٦) تاريخ اللغات السامية : ٢٠٦ وما بعدها ط أولى لجنة التأليف والترجمة .

اللهجة	القبيلة	اللهجة	القبيلة
«	عَذْرة	«	كعب
	القَيْن	«	هَمْدان
«	سُلَيْم	«	أزد شنوءة
«		«	مكة
«	فَقْعَس	«	برابر مكة
«	كنانة	«	عُقَيْل
«	دُبَيْر	«	غنم
«	نجد	«	المدينة
«	عامر	«	مالك (من بني أسد)
«	تهامة	«	صباح
«	غسّان	«	أزد عمان
«	النّخَع	«	يربوع
«	خَثْعَم	«	زبيد
«	الصعدان	«	طيىء
«	اليمن	«	الحيرة
«	كلاب	«	العالية
«	أكلوني البراغيث		
«	سفلى مضر	«	حِمْيَر
«	ضَبّة	«	هوازن
«	كلب	«	لخم
«	نجران	«	فَزَارة
«	أزد السّراة	«	حَوْران
«	كِنْدة	«	بَلْعَنْبر
«		«	الأزد
«	الهُجَيْم	«	مراد
«	حنيفة	«	جذام
«	الأنصار	«	هَجَر
«	عُكْل	«	غطفان
«	تيم	«	العرب العاربة

فإذا ما ذكرنا أسماء اللهجات التي وردت في كتاب ككتاب «شرح السيرافي على سيبويه»[١] وهو يمثل أعظم كتب العربية – وجدنا أسماء اللهجات التي وردت في أجزائه الستة كالآتي :

اللهجة	القبيلة	اللهجة	القبيلة
«	طيىء	«	تميم
«	الحجاز	«	المدينة
«	العراق	«	مكة
«	بكر بن وائل	«	خيبر
«	النضير	«	أسد
«	كعب	«	بغداد
«	تغلب	«	قيس
«	البصرة	«	الكوفة
«	الموصل	«	أزد السَّراة
«	خَثْعم	«	هذيل
«	سعد	«	اليمن
«	بنو عَدِيّ	«	فَزَارة
«	بنو ربيعة		

وإذا أخذنا إحصائية لكتاب سيبويه[٢] ، وجدنا أسماء اللهجات وردت فيه كالآتي :

اللهجة	القبيلة	اللهجة	القبيلة
«	خثعم	«	الحجاز
«	تميم	«	
«	سُلَيْم	«	طيىء
«	أسد	«	كعب
«	غني	«	بكر بن وائل

(١) اعتمدت في هذه الإحصائية على نسخة مخطوطة بالتيمورية رقم ٥٢٨ نحو .
(٢) اعتمدت في هذه الإحصائية على نسخة بولاق المطبوعة .

اللهجة	القبيلة	اللهجة	القبيلة
«	قيس		عدي (من تميم)
«	فزارة	«	بنو سعد
«	ربيعة	«	هذيل « العلويون »

فإذا أردنا أن نقارن بين هذه الكتب القرآنية والنحوية يتبين أن أسماء القبائل في « البحر المحيط » لأبي حيان أربع وستون قبيلة ، على حين بلغت في شرح « السيرافي على كتاب سيبويه » خمساً وعشرين ، وفي كتاب سيبويه ستّ عشرة قبيلة[١] .

وفي كتاب « اللغات في القرآن » المسند لابن عباس ، وهو الكتاب الوحيد الذي وصلنا عن لغات القرآن ، بعد أن فقدت جميع كتب لغات القرآن الأخرى بلغت أسماء القبائل فيه — ستاً وثلاثين[*] . فيكون القرآن الكريم وقراءاته — مصدراً أوفى من غيره في دراسة اللهجات العربية القديمة . بل هو الحقل الخصيب الذي ينطوي على تاريخ العربية وأصول منابعها الثرة ، وإذا طمعنا في كتابة تاريخ للغتنا عليه سمة علمية — يجب أن نفتش عن قراءات القرآن أولاً ، ولذلك يصيبني القلق العلمي عندما تعرض المستشرق Rabin الى دراسة قسط من اللهجات العربية من غير أن يفتش عن كتاب (كالبحر المحيط) — كما صرح بذلك في آخر كتابه المشهور: « Ancient West Arabian » في قسم الإضافات الملحقة بكتابه المذكور[٢] .

(١) مطبعة الرسالة سنة ١٩٤٦ تحقيق صلاح الدين المنجد .

(*) وقد ذهب محقق الكتاب الى أنها تسع وعشرون (انظر إحصاءه ص ٦ كتاب اللغات في القرآن — لابن عباس تحقيق د. صلاح الدين المنجد) ولكنني أضفت بعض القبائل الى إحصائه وهي : هَمْدان . الأوس . اليمن . عذرة . الخزرج . تَغْلب . الحجاز .

(٢) في إضافات الكتاب P. 211 رابين .

الفصل الثاني

كلام العرب

ويشمل :

أولاً : الروايات الواردة في كتب العربية :

لا شك أن الروايات التي جاءت عن العرب وامتلأت بها كتب اللغة والنحو والأدب والتاريخ والسير – تمدنا بروافد عديدة في موضوع اللهجات العربية،وذلك أن العلماء عندما قرروا جمع اللغة أخذوها عن العرب الذين لم تفسدهم الحضارة،وفي ذلك يقول أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمى « بالألفاظ والحروف » والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس ، وتميم،وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم فإنه لم يؤخذ لا من – لخم ولا من جذام – فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط ولا من قضاعة ولا من غسان ولا من اياد – فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون في صلاتهم بغير العربية ، ولا من تغلب ولا النمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية ، ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس ولا من عبد القيس ، لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أزد عمان ، لأنهم كانوا مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن أصلا لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم ولا من حاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم)[١] .

وليس المهم الآن أن أناقش هذا النص – لأنني أعارض منهج اللغويين فيه ، لأنهم عزلوا عن مجال الاستشهاد معظم القبائل العربية ، وإذا كانوا قد عزلوا كل هذا – فما الذي يبقى لهم من

(١) الاقتراح : للسيوطي ١٩ – ٢٠ ط الهند الثانية ، المزهر للسيوطي ١/٢١١ – ٢١٢ .

اللغة ! وإنما أريد أن أقول الآن إنهم عندما أرادوا جمع اللغة نظروا الى اللغة العربية ككل ، فكانوا يجمعون من هذه القبيلة ومن تلك بدون أن يميزوا بين قبيلة وأخرى ، بل كانوا يجمعون حيثما اتفق ، فجاءت اللغة خليطاً من هنا ومن هناك ، خليطاً من اللغة الفصحى المنسجمة في خصائصها وخليطاً من اللهجات العربية ذات الصفات الخاصة بكل قبيلة عربية – وما أكثر هذه القبائل ! – ثم بنوا قواعدهم من هذا الخليط المتنافر المتشاحن ، ومن هنا كان الاضطراب في النحو الذي نشاهده حتى طالعتنا الكتب بقوائم عدة لجمع الكلمة الواحدة « فاجمل أجملا ثم إجمالاً ثم جاملاً ثم جمالة ثم جمالات »[١] .

وقالوا كذلك ناقة « ثم جموعها : ناقات ونوقاً وناقاً وأيانق ونياقاً وأينقاً وأنوقاً »[٢] . كما نرى كثرة المصادر للفعل الواحد فتفاعل يأتي مصدرها على التفاعل بضم العين والتفاعل بفتحها ، والتفاعل بكسرها كما قالوا « تفاوت : تفاوتاً وتفاوتاً وتفاوتاً »[٣] وكما قالوا في مصدر « لقي » زيداً فقد قالوا فيه « لِقَاء ولقاءة ولقية ولقياً ولقياً ولقية ولقيانا ولقيانا ولقيانة »[٤] .

وإنما كثرت هذه الخلافات في المصادر وفي الجموع وصيغ الأفعال وغيرها لأن جمع اللغة كان خليطاً من اللهجات الخاصة بكل قبيلة – مع الفصحى النموذجية الموحدة ولم يلحظ الجامعون للغة هذا الملحظ « ولو أن الرواة وقفوا في استنباط قواعدهم عند اللغة الأدبية التي جاءتهم موحدة وممثلة في الآداب الجاهلية والقرآن الكريم لجنبوا أنفسهم الكثير من المهاترات والجدل حول ما يجوز وما لا يجوز ، ولكنهم حاولوا اقحام تلك الصفات الخاصة للهجات العربية – فبدت لنا القواعد اللغوية مضطربة متعددة الوجوه »[٥] ونظرة واحدة الى كتاب « أدب الكاتب لابن قتيبة » ، أو « إصلاح المنطق لابن السكيت » أو « فصيح ثعلب » أو « الاقتضاب لابن السيد البطليوسي » أو « درة الغواص للحريري » وشرحها للخفاجي ، تقفك على بحر زخّار من الأوجه المختلفة ، والأبنية الكثيرة في الأسماء والأفعال والمصادر .

نخلص من هذا الى أننا حتماً سنجد روايات عن اللهجات العربية في كتب العربية على

---

(١) ليس في كلام العرب : ابن خالويه ٣٠ ط أولى سنة ١٣٢٧ هـ مطبعة السعادة .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق : ص ٥ ، وانظر : أدب الكاتب لابن قتيبة : ص ٥١٠ مطبعة السعادة الطبعة الثالثة : ١٩٥٨ .

(٤) ليس في كلام العرب : ص ٦ .

(٥) في اللهجات العربية : ص ٤١ الدكتور إبراهيم أنيس الطبعة الثانية .

اختلاف نحلها واتجاهاتها – نجد هذه الروايات مختلطة اختلاطاً من العسير على الباحث أن يميزه – من اللغة الفصحى ، وقليلاً ما نجد إشارة الى هذه اللهجات في تلك الروايات ، ولعل السبب يرجع الى أن علماء العربية كانوا يعتقدون أن لغة قريش أفضل من غيرها من اللهجات العربية الأخرى – فاكتفوا بتسجيل القرشية وأهملوا ما عداها ، ولا شك أنها نظرة خاطئة « لأن اللغة ظاهرة اجتماعية يتميز بها كل مجتمع إنساني ، واللغة تطورت بتطور الانسان ذاته ، ونمت بنمو حضاراته ، فليس هناك من مبرر للمفاضلة بين لهجة وأخرى »[1] واللغة الجيدة هي التي تقوم بوظيفتها في الفهم والإفهام ، وفي التعبير عن دواخل الناس بدون اجهاد ، وأعتقد أن جميع اللهجات العربية كانت تقوم بذلك خير قام .

كما كان علماء العربية ينظرون الى اللهجات على أنها نوع من الانحطاط اللغوي ، وغاب عنهم أن ما يسمونه « انحطاطاً » هو في الحقيقة تطور لغوي ، وها هوذا ابن حزم ينكر تفضيل لهجة على لهجة أخرى « وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات ... وهذا لا معنى له ... لأن وجوه الفضل معروفة ... وإنما هي بعمل أو اختصاص ، ولا عمل للغة ، ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة ... وقد غلط في ذلك جالينوس فقال : ان لغة اليونانيين أفضل اللغات ، لأن سائر اللغات إنما تشبه إما نباح الكلاب وإما نقيق الضفادع »[2] .

فلأنهم كانوا يحترمون لهجة قريش لمكان النبي ﷺ منها ، جمعوا لهجتها وتركوا ما سواها ، فإن انحرفوا عن طريقتهم وسجلوا لهجة غير قرشية طالعتك قوائم أوصافهم لهذه اللهجات من مثل قولهم : « لغة ردية[3] أو لغة شنعاء »[4] أو «هذلية شاذة»[5] أو لغة «ضعيفة ورديئة»[6] أو قليلة[7] ، أو « خبيثة »[8] .

وربما كان من أسباب إهمال اللهجات العربية وعدم تسجيلها « أن المملكة العربية حينما

---

(١) نحو عربية ميسرة : ٧٣ د. فريحه .

(٢) مشكلات حياتنا اللغوية : ٦٣ – ٦٤ الخولي .

(٣) أمالي الشجري : ٣٨١/١ .

(٤) اللسان : ١٤٩/٣ – ٢٢٧/٤ .

(٥) اللسان : ٤٨٠/١٣ .

(٦) اللسان : ١٣٩/٢٠ ، ٢٧١ .

(٧) كتاب سيبويه : ٢٩٦/٢ .

(٨) الشافية : ٢٤٧/٢ .

اتسعت – كان لا بد لضمان وحدتها ، والقضاء على عوامل الفرقة فيها ألا تعطى اللهجات العربية من العناية ما قد يزيد من عصبية القبائل ويباعد بينها – فأهمل أمرها »[1] وعلى ذلك فقد جاءتنا هذه اللهجات العربية ممسوخة حيناً ، ومبتورة السند مشوهة المتن أحياناً أو مهملة العزو .

(أ) فمن إهمال العزو :

١ – يقال : اطمأن يطمئن اطمئناناً ، واطبأن يطبئن اطبئناناً[2] . فأبو الطيب اللغوي يهمل عزو هذه الخلافات البدلية بين الميم والباء بينما بالتحقيق وجد أن صيغة « الباء » معزوة لبني أسد[3] .

٢ – كما يهمل العزو الأصمعي في (المغاثير والمغافير)[4] ، والتحقيق أثبت أن الأولى لأسد[5] .

٣ – ما يذكره صاحب المصباح من أن « الهدى » ما يهدى الى الحرم من النعم يثقل ويخفف[6] فيهمل العزو في التخفيف والتثقيل ، وأثبت أن الهدى – مخففاً لغة الحجاز ، ومثقلاً لغة تميم وسفلى قيس[7] .

٤ – ما ذكروه من أن « الأكاف » للحمار ، معروف ... والوكاف : على البدل لغة جارية[8] . واكتفى صاحب المصباح بكونها لغة فقط. ولكن عند التحقيق نجد أن اليزيدي في نوادره ينسب الى أهل الحجاز صيغة الواو ويعزو الى تميم صيغة الألف وهي : الإكاف[9] .

(ب) وأحياناً يتشككون في الصيغة هل هي لهجة ، أو هي واقعة على الابدال فمن ذلك :

١ – في حديث القبائل : سئل عن مضر . فقال تميم برثمتها وجرثمتها – قال الخطابي : إنما هو

---

(١) في اللهجات العربية : ٤٠ الدكتور إبراهيم أنيس .

(٢) الإبدال لأبي الطيب اللغوي : ١/٥٣ .

(٣) الإبدال لابن السكيت : ١٣ .

(٤) الإبدال لأبي الطيب : ١/١٨٦ .

(٥) إبدال ابن السكيت : ٣٥ .

(٦) المصباح المنير : ٩٨٤ .

(٧) اللسان : ٢٠/٢٣٤ .

(٨) المصباح المنير : ١/٣٠ .

(٩) المزهر للسيوطي : ٢/٢٧٧ .

برثنتها بالنون – فيجوز أن تكون الميم لغة وأن تكون بدلاً لازدواج الكلام في الجرثومة كما قال الغدايا والعشايا[1] .

٢ – ما روي عن النبي ﷺ أنه أبدّ يده الى الأرض عند انكشاف المسلمين يوم حنين فأخذ منها قبضة من تراب فحذا بها في وجوه المشركين – فما زال أحدهم كليلا . قال ابن الأثير : أي « حثى » على الإبدال ، أو هما لغتان[2] .

(جـ) وقد يتحيّرون في الصيغة الواردة أهي لغة أم لثغة مثل :

١ – والعاذر : لغة في العاذل ، أو لثغة ، ولقيت منه عاذوراً : أي شرّا ، لغـــة في العاثور ، أو لثغة[3] .

١ – ما قاله الثعالبي من أنه استظرف قول الليث عن الخليل : الذعاق كالزعاق سمعنا ذلك من بعضهم ، وما ندري : ألغة أم لثغة[4] ؟ « ونقل مثل ذلك ابن سيده »[5] .

(د) وقد يكتفون بأن الصيغة وردت « في بعض اللغات » مثل :

١ – ما ذكره ابن دريد من أن « ماغت السنور » مثل :(مـــاءت)تموغ مواغا – إذا صوتت في بعض اللغات[6] .

٢ – الغضغاض « بالغين المعجمة » في بعض اللغات – العرنين وما والاه من الوجه[7] .

٣ – الخنذع – عيب يعاب به الرجل – وأحسبه القليل الغيرة على أهـــله – سمعته في بعض اللغات[8] .

---

(١) اللسان : ١٩٥/١٦٠ .

(٢) اللسان : ١٨٧/١٨ .

(٣) الجاسوس : للشدياق : ٣٤٦ ط القسطنطينية ١٢٩٩ هـ الجوائب .

(٤) المزهر : ٥٥٦/١ .

(٥) المخصص : ابن سيده/السفر ٩ ص ١٣٦ ، كتاب العين للخليل : ٧١ بغداد .

(٦) الجمهرة لابن دريد : ١٥٢/٣ .

(٧) المزهر للسيوطي : ٣٦٧/٢ .

(٨) الجمهرة لابن دريد : ٢٠٣/٢ .

٤ – ما قاله ابن دريد من أن « الصهوة في بعض اللغات – مطمئن من الأرض تلجأ إليه ضوال الابل »[١] وقال السيوطي بأن « الصوة » في بعض اللغات الأرض ذات الحجارة[٢] .

(هـ) وأحياناً تكتفي الرواية بأن الكلمة أو الصيغة « لغة لبعض العرب » مثل :

١ – ما ذكره الفراء من أن « المنجنيق – أنثى ، وبعض العرب يسميها : منجنوق وقال الفراء بعد ذكر الصيغة السابقة « أحكيت لي ولم أسمعها من العرب »[٣] .

٢ – قرأ الحسن : « من كان يريد[٤] الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها » ، « بالياء بعد الفاء » نوفي – فاحتمل أن يكون مجزوماً بحذف الحركة المقدرة على لغة من قـــال « ألم يأتيك » وهي لغة لبعض العرب[٥] .

(و) أو تتشكك الرواية في الصيغة ، فتارة تحمل وجهـــاً من الصيغة على المصدر ، والوجه الآخر على الاسم – مثل :

١ – ما ذكره الفراء في قوله تعالى « إن يَمْسَسْكُمْ قَرح[٦] فقد مسّ القومَ قرْحٌ مثلُه » من أن « قرح قد قرىء بها – وأكثر القراء على فتح القاف – وكأن القُرح : ألم الجراحات ، وكأن القرح : الجراح بأعيانها »[٧] هكذا جاءت الصيغة في حالتيها مهملة العزو والتحقيق يثبت أن الفتح لغة الحجاز ، والضم لغة تميم »[٨] .

٢ – ما ذكره صاحب البحر في قوله تعالى « إلا مَن اغترفَ غرفة[٩] بيده » . فقرأ الحرميان

---

(١) المرجع السابق ٣/٩١ .

(٢) المزهر للسيوطي : ١/٢١٧ .

(٣) المذكر والمؤنث للفراء : ٢٩ ط أولى – حلب .

(٤) سورة هود : آية ١٥ .

(٥) البحر المحيط : ٥/٢٠١ .

(٦) سورة آل عمران : آية ١٤٠ .

(٧) معاني القرآن للفراء : ١/٢٣٤ دار الكتب ، الحجة : ابن خالويه ورقة ٢٧ مخطوط بدار الكتب رقم ١٩٥٢٣ ب .

(٨) كتاب اللغات في القرآن : ٢٣ مطبعة الرسالة .

(٩) سورة البقرة : آية ٢٤٩ .

وأبو عمرو غرفة — بفتح الغين ، والباقون بضمها — فقيل هما بمعنى المصدر ، وقيل هما بمعنى المغروف ، وقيل : الغرفة بالفتح : المرة وبالضم ما تحمله اليد[1] . وهكذا تكون الصيغة غير معزوة في كلتا الحالتين . والتحقيق يثبت أن الضم للحجاز ، وبالفتح لتميم ، وإنما قلنا ذلك ، لأن قبيلة تميم تميل الى انسجام الأصوات ففتح الغين مع فتح الفاء تجعل اللسان يعمل في طريق منسجم ، بعكس الحجاز وهي التي لا تميل الى الانسجام ولذلك قرأتها بالضم لأن اللسان ينتقل من الضم الى الفتح ، ومما يثبت أن الفتح لتميم ، أن أبا عمرو ابن العلاء قرأها غرفة — بالفتح وهو تميمي .

(ز) أو حيناً آخر تطالعنا كتب اللغويين والنحاة باضطراب في عزو اللهجة ويظهر ذلك في :

١ — ما رواه ابن دريد من أن « الرخة » والجمع «الرمخ» وقالوا الرمخ وهو البلح لغة يمانية[2] . وفي نسخة أخرى من الجمهرة قال بأنها لغة طائية[3] .

٢ — في قوله تعالى « أو الطّفل الذين لم يظهروا على عورات النساء »[4] قرأ الجمهور (عورات) بسكون الواو ، وهي لغة أكثر العرب ، لا يحركون الواو والياء في نحو هذا الجمع . والمشهور في كتب النحو تحريك الواو والياء في مثل هذا الجمع — وهي لغة هذيل بن مدركة ، وقال الفراء : العرب على تخفيف ذلك إلا هذيلاً فتثقل ما كان من هذا النوع من ذوات الياء والواو وأنشدني بعضهم :

أخُو بَيَضَات رائح متأوّب رفيق بمسح المنكبين سَبوح[5]

فكأن ظاهرة فتح هذا الجمع منسوبة بالإجماع الى هذيل . والدليل على ذلك أن سيبويه يرى هذا ، ورضيّ الدين[6] صاحب الشافية ، والبغدادي شارح[7] الشواهد ، والسيرافي على شرح

---

(١) البحر المحيط : ٢/٢٦٥ .

(٢) الجمهرة : ٢/٢١٤ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) سورة النور : آية ٣١ .

(٥) البحر المحيط : ٦/٤٤٩ .

(٦) شرح الشافية : ٢/١١٣ .

(٧) شرح شواهد الشافية : ٤/١٣٢ .

كتاب سيبويه[1] ، والبغدادي في خزانته[2] ، ولكن نقل ابن خالويه في كتابه شواذ القرآن : أن بني تميم يقولون رَوَضات وجَوَزات وعوَرات – يعني بتحريك الواو بالفتح ، وسائر العرب بالإسكان[3] ، فالاضطراب بادٍ في آراء العلماء بخصوص تلك الظاهرة – فبعضهم ينسبها الى هذيل[4] ، وبعضهم ينسبها الى تميم[5] .

٣ – الوذيلة هي المرآة – طائية . قال أبو عمرو ، قال الهذلي : الوذيلة المرآة في لغتنا[6] . ثم ساق ابن منظور شاهداً من قول أبي كبير الهذلي على ذلك وهو :

وبياض وجـــهٍ لم تَحُلْ أسرارُه مثل الوذيلة أو كشِنْف الأنضر[7]

فالنصوص هنا متعارضة ، كما أوردها ابن منظور بين هذيل تارة ، وطيىء تارة أخرى .

هذه أمثلة يسيرة مما حوته الروايات الأدبية واللغوية عن اللهجات العربية وقد سقت أمثلة عنها لا تبلغ معشار ما فيها – من الخلط والتشويه ، وإلا فما هذا العزو المضطرب لصيغة واحدة يختلف فيها النسابون الى هذا الحد ، فمرة تنسب الى اليمن ، وأخرى الى طيىء أو تنسب حيناً الى هذيل ، وحيناً آخر الى تميم ، ثم يختلفون أحياناً في وصف الظاهرة كالكشكشة والكسكسة الى حد يجعل الباحث أسفاً الى مصير تلك الدراسات اللهجية ، والعبث الذي نالها على أيدي الرواة وعلماء اللغة . هذا إذا وصلت اللهجة معزوة وهو قل من كثر – أمـــا الكثرة الغالبة ، « فروايات[8] مهملة العزو » – كقولهم هي « لغة »[9] أو لغة معروفة مشهورة[10] «أو لغـــة

---

(١) شرح السيرافي على سيبويه : ٦٦/٥ مخطوط بالتيمورية ٥٢٨ نحو .

(٢) الخزانة : للبغدادي ٤٢٧/٣ – ٤٢٩ .

(٣) الدر اللقيــط : ٤٤٩/٦ ، وانظر مختصر شواذ القرآن : ابن خالويه ١٠٣ نشرة برجشتراسر ١٩٣٤ القاهرة .

(٤) البحر المحيط : ٤٧٢/٦ ، النهر الماد من البحر ٤٧١/٦ .

(٥) مختصر شواذ القرآن : ١٠٣ .

(٦) اللسان : ٢٤٩/١٤ .

(٧) المرجع السابق ، وفي ديوان الهذليين : ١٠٢/٢ « كسيف » .

(٨) حيث ذكر ابن الشجري لهجات « حيث » ولم ينسب صيغة « حوث » أمالي الشجري ٢٦٢/٢ ، وكذلك أهمل أبو زيد العزو في « ألته يألته ألتاً ، ولاته يلتينه ليتاً » النوادر في اللغة لأبي زيد ١٩٧ ، بينما نسبت الصيغة الأولى لتميم والثانية للحجاز . انظر : المزهر للسيوطي : ٢٧٦/٢ .

(٩) حماسة المرزوقي : ١٤٣٨/٣ تحقيق الاستاذ هارون : ١٣٥٩/٣ ، ٧٣٠/٢ ، حماسة التبريزي : ٢٥٠/٢ تحقيق محي الدين مطبعة حجازي ، المخصص لابن سيده سفر ١٣٣/٤ ، المصباح المنير ٢١/١ .

(١٠) المخصص لابن سيده سفر ١٩/١٧ .

قوم »[1] ، « أو لغة بعضهم »[2] ، « أو لا ندري ألغة[3] أم لثغـــة » ، « أو لغة قليلة »[4] ، « أو رديئة »[5] ، « أو شنعاء »[6] ، « أو لغة علياء »[7] ، أو قصة الرجـــل الذي « ظحى بضبي »[8] فالسيوطي يخبر أنه « رجل » ولا نعلم عنه إلا أنه رجل أما من هو الرجل ، وتعيين قبيلته لنعرف خصائصها – فتسكت المصادر العربية وتصم آذانها ، أو قول الرواة أحياناً إن هذه الكلمة (في بعض اللغات)[9] بمعنى كذا – هكذا مبهمة قلقة .

ثانياً : الأمثال :

لا شك أن المثل صورة حيّة من حياة الشعب ، يعبر عن آماله ، وآلامه التي تحيـــط به في ماضيه وحاضره ومستقبله – إذ هو بوتقه تنصهر الأحوال الاجتماعية والاقتصادية واللغوية فيها ، فمثلاً لما كانت قريش من القبائل التجارية وجدنا في أمثالهم ما يدل على ذلك كقولهم « لا في العير ولا في النفير »[10] ، كما أن الحالة الاقتصادية لما كانت في ضيق وعسر – كانت الأمثال العربية مرآة لتلك الأحوال فهي تصور ذلك تصويراً دقيقاً . وليس هذا الكلام مقصوراً على الأمثال الأدبية فقط ، ولكنه أكثر انطباقاً فيما يخص الأمثال العامية ، إذ هي خير أنموذج حيّ ينطبق على الحياة ولذلك فهي أصدق مثال على لغة القوم ، « ولذلك يحرص جامعو الأمثال الشعبية على كتابتها كتابة مطابقة تماماً لنطقها ، حتى تكون ذات جدوى أكثر من ناحية الدلالة اللغوية »[11] .

---

(١) النوادر في اللغة : لأبي زيـــد : ٤٠ ، الكامل المبرد ١/١٨٦ ط التجارية ١٣٦٥ هـ ، الجاسوس على القاموس : للشدياق ٥٤٨ ، سر صناعة الاعراب : ابن جنى ١/١١١ الحلبي .

(٢) أمالي الشجري : ٢/٣٤ ، ٢/٣٠٢ ، الكامل المبرد : ٢/١٩٥ ، المخصص لابن سيده سفر ١٤/١٤ .

(٣) المخصص سفر ٩/١٣٦ .

(٤) سيبويه ٢/٢٩٦ .

(٥) أمالي الشجري ٢/٣٤ .

(٦) اللسان ٣/١٤٩ ، ٤/٢٢٧ .

(٧) أمالي الشجري ٢/٣٠٤ ـ٣٠٥ ، أو لغة علياء : انظر أمالي الشجري : ٢/٧٩ ـ ٨٠ أو اللغة العالية انظر : المصباح ٥٧١ .

(٨) المزهر للسيوطي : ١/٥٦٣ .

(٩) مثل ما ذكره ابن سيده من أن « القطاه هي العجوز في بعض اللغات » المخصص لابن سيده السفر الأول ص ٥٢ ، المزهر للسيوطي ٢/٣٦٧ .

(١٠) فجر الإسلام : أحمد أمين : ٧٦ ط الثالثة .

(١١) الأمثال العامية في نجد : ٧ القسم الأول ط أولى ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ م .

والحق أن المثل يفوق الشعر، ذلك لأن الشعر له طبقة خاصة تنطق به فهو أرقى من مستوى العامة، أما المثل فعام تنطبع فيه أسرار الحياة كلها، وتشترك فيه جميع الطبقات، قال أبو هلال العسكري في كتابه « جمهرة الأمثال » في شرح (بِعينْن ما أرَيَنَّكَ) ان معناه «أعجل» وهو من الكلام الذي قد عرف معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه، وهذا يدل على أن لغة العرب لم ترد إلينا بكمالها[1]، فالأمثال دلالتها على اللهجات أصدق من الشعر في ذلك: لأن الشعر له نظامه وجرسه وحدوده، بعكس المثل الذي ينطق به الانسان في سهولة ويسر لقربه من النفس وشدة إلفه بالحياة قال ابن المقفع « إذا جعل الكلام مثلاً – كان أوضح للمنطق، وآنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث »[2]، ومن أجل هذا عبر بعضهم عن الأمثال بأنها « صوت الشعب »[3]، ويكفيها أن الاستعمال قد حفظها، فشاعت على الألسنة لأنها مركز للحياة في كل خطوة من خطواتها وحركة من حركاتها، وهي إما أمثال قديمة أو حديثة.

أ – الأمثال القديمة ودلالتها على اللهجات:

١ – قولهم « أتى عليهم ذو أتى »[4] فهـذا مثل من كلام طيىء، وذو في لغتهم تكون بمعنى الذي، يقولون « نحن ذو فعلنا كذا » أي نحن الذين فعلنا كذا، و « هو ذو فعـل كذا » ومعنى المثل « أتى عليهم الذي أتى على الخلق ».

٢ – قولهم « أثقل من شمام »[5]، « وهو مبني على الكسر عند الحجازيين »[6].

٣ – كما قالوا « هو أثقل[7] من الزاووق » وهو اسم للزئبق في لغة أهل المدينة.

٤ – وقولهم: « جزاء سِنّمار »[8] والسنمار في لغة هذيل – اللص، وذلك أنهم يقولون للذي لا ينام الليل سنماراً، فسمي اللص به لقلة نومه.

---

(١) فجر الإسلام: أحمد أمين ٥٧ ط الثالثة.

(٢) مجمع الأمثال ٦/١ مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٤ هـ – ١٩٥٥ م.

(٣) فجر الإسلام: أحمد أمين ٥٧/١.

(٤) مجمع الأمثال ٦/١، وانظر: المزهر للسيوطي ٤٣٨/٢، ٣٠٨.

(٥) مجمع الأمثال: ١٥٥/١.

(٦) شرح السيرافي على سيبويه: ٣٤٨/٤ مخطوط بالتيمورية، خزانة الأدب للبغدادي ٣٤٩/١، ١٥٧/٢، ٤١٤، ٤٨٠.

(٧) مجمع الأمثال للميداني ١٥٦/١.

(٨) المرجع السابق: ١٧٧/١.

٥ – وقالوا «حب الى عبد محكده»(١) المحكد : الأصل ، وهي لغة عقيل ، وأما كلاب فيقولون « محقد » يضرب لمن يحرص على ما يشينه .

٦ – وقولهم «ليت(٢) القسى كلها أرجلا» يضرب للمتمنى محالاً ، لأنه لمـــا كانت أعالي القسى أطول من أسافلها ، ولو تركت الأسافل على غلظ الأعالي مع قصرها،لم توات النازع فيها ، ولتخلفت عن الأعالي وخذلتها .

والمعلوم أن ليت – تنصب الاسم وترفع الخبر إلا في لغة تميم فإنها تنصبهما « كما حكى ذلك ابن سلام(٣) – وزعم أنها لغة رؤبة(٤) وقومه » وزعم أبو حنيفة الدينوري في كتاب « النبات » أن النصب « بليت » – لغة تميم ، ولذلك فأرجح أن الذي نطق بالمثل هكذا – أي بنصب الجزأين – من قوم رؤبة .

٧ – وقالوا « لأضمنك ضم الشناتر »(٥) . قال أهل اللغة : هي لغة يمانية – وهي الأصابع – وذو شناتر : ملك من ملوك اليمن ، وقال حميري منهم يرثي(٦) امرأة أكلها الذئب :

أيا جحمتا بكىّ على أم واهب   أكيلة قلّوب ببعـــض المذانبِ
فلم يبق منها غير شط عجانها   وشُنْتُرَةٍ منها وإحدى الذوائبِ

٨ – كما روى ابن فارس(٧) أن الأصابع في لغة حمير هي الشناتر. وأن القلّوب في البيت الأول هو الذئب بلغة حمير(٨) .

٩ – ما روى عن عبدالله بن مسعود أنه قال « ما على الأرض(٩) شيء أحـــق بطول سجن من

---

(١) المرجع السابق : ١/٢٠٠ .
(٢) المرجع نفسه : ٢/١٨٧ .
(٣) خزانة الأدب : ٤/٢٩١ – ٢٩٤.
(٤) رؤبة : من تميم : الشعر والشعراء لابن قتيبة : ٢٣٠ تصحيح السقا .
(٥) مجمع الأمثال للميداني ٢/١٨٩ .
(٦) اللسان : ٦/٩٩ .
(٧) الصاحبي لابن فارس : ٢٦ .
(٨) المرجع السابق .
(٩) مجمع الأمثال للميداني ٢/٢٦٠ .

لسان «والمثل روي بنصب «أحق» وبرفعها . ولا شك أن الذي نطق بالنصب حجازي ، وأن الذي نطقه بالرفع تميمي ، لأن الحجاز تنصب خبرها[1] ، وتميماً تهملها »[2] ومثله « مكره أخوك لا بطل » أمثال الميداني ٣١٨/٢ فقد ورد المثل أيضاً بالألف « أخاك » العربية ص ١٠٦ يوهان فك .

ب – الأمثال العامية الحديثة ودلالتها على اللهجات العربية القديمة :

وإذا كانت الأمثال العربية القديمة مصدراً من مصادر اللهجات العربية ، فإن الأمثال العامية الحديثة تعتبر معيناً صافياً للهجات العربية القديمة أيضاً ، وذلك لأن العلاقة بين لهجاتنا الحديثة ولهجاتنا العربية القديمة قوية . بل هناك بعض الظواهر اللهجية القديمة والتي لا يمكن تفسيرها – أمكن تفسيرها الآن في ضوء اللهجات العربية العامية ، لأن اللهجات القديمة بقيت تنتقل على ألسنة الناس في الأجيال الذاهبة حتى وصلتنا ، وتلك الظواهر العامية في اللهجات الحديثة – هي في الواقع عريقة في القدم ممتدة جذورها في حياة الأمة العربية – ومن هنا نجد أن خصائص لغتنا العامية قد عاشت على أرض التربة العربية الأولى – عندما كانت تسير على ألسنة القبائل العربية القديمة ، ولذلك كان على الباحث أن يلتمس خصائص اللهجات العربية القديمة – في أمثالنا العامية ، وأحاديثنا العادية لأنها جميعاً تحمل بذوراً للهجات القديمة .

وكانت دلالة الأمثال العامية – على اللهجات العربية القديمة – طبيعية لا تكلف فيها ولا التواء ، وسأكتفي في هذا المقام بالحديث عن ظاهرة واحدة ، في الأمثال العامية ، وأما بقية الأمثال فستدرس في خلال لهجات القبائل .

وردت عدة أمثال يستنبط منها ظاهرة لهجية واحدة وتلك الأمثال هي :

أ) « الحِرّ تكفيهْ الاشارة »[3] .

ب) « قِصيرة تقطع طويلْ »[4] .

---

(١) الخزانة للبغدادي ١٣٠/٢ – ١٣٥ .

(٢) الكتاب لسيبويه ٢٨/١ ، ٦٢ ، ٧٤ ، ٣٦ . وانظر شرح السيرافي لكتاب سيبويه ٤٠٢/١ – ٤٠٤ مخطوط بالتيمورية .

(٣) الأمثال العامية في نجد ٧١/١ رقم ١٨٣ قسم ١

(٤) المرجع السابق ٢٢٠/١ رقم ٥٥٦ .

جـ) « خذ الحفنيه من اللحية المفنيه »[1] .

د) « الخيل تضمّر لأجل ساعه »[2] .

هـ) « الدنيا ما تغني عن الآخره »[3] .

وأريد أن أبين أن هذه الأمثال العامية النجدية تهدينا الى شيء واحد مهم – وهو أن نجداً كانت محطاً للإمالة – لاسيما إمالة ما قبل هاء التأنيث كما في الأمثال السابقة ، وكان الكسائي يميل[4] ما قبل هاء التأنيث ، وكذلك كان القارىء عاصم ١٢٧ هـ – وهما كوفيان – والكوفة نزلها رجال من قبيلة أسد وتميم ، وقد اشتهرتا بالإمالة ، « بل الكسائي نفسه كان مولى بني أسد »[5] كما يذكر السيوطي أن الإمالة في تميم وأسد وقيس وعامة أهل نجد[6] وصاحب التصريح يعزو الإمالة الى « تميم وقيس وأسد وعامة نجد »[7] – فإذا كان الأمر كذلك تكون الأمثال السابقة – وهي كلها في عامية نجد الحديثة – قد أمدتنا بتأييد لميل تلك القبائل التي حدثنا الرواة عنها أنهم يميلون .

وأما السبب في إمالة ما قبل هاء التأنيث – في الأمثال الخمسة السابقة في عامية نجد، فيرجع الى أن الألف يمال ما قبلها ، والهاء شبيهة بالألف ، فأميل ما قبل الهاء كذلك ، لاسيما وأن الألف والهاء تحل إحداهما مكان الأخرى ، من ذلك ما ذكره ابن خالويه في قوله تعالى « أنا أحيي وأميت »[8] – من أن (أنا) فيها أربع لغات : أنا فعلت ، أنَ فعلت ، أنْ فعلت ، أنَهْ فعلت »[9] فالألف قرينة الهاء – فإذا ما أميلت الألف – أميلت كذلك الهاء ، وهذا معنى قول سيبويه «شبه الهاء بالألف ، فأمال ما قبلها كما يميل ما قبل الألف»[10] .

---

(١) المرجع السابق ١/٨١ رقم ٢٠٩ ويضرب في اغتنام القليل من البخيل .

(٢) المرجع السابق ١/٨٨ رقم ٢٣٦ .

(٣) الأمثال العامية في نجد ١/٩٤ رقم ٢٥٥ .

(٤) إبراز المعاني : أبو شامة ١٧٦ ، النشر لابن الجزري ٢/٨٢ ، ولقد قيل للكسائي : إنك تميل ما قبل هاء التأنيث فقال : هذا طباع العربية . النشر : ٢/٨٢ مطبعة مصطفى محمد .

(٥) طبقات القراء : ابن الجزري ١/٥٣٥ ، النشر لابن الجزري ١/١٦٩ .

(٦) همع الهوامع للسيوطي ٢/٢٠٤ مطبعة السعادة .

(٧) التصريح على التوضيح : خالد الأزهري ٢/٣٥ .

(٨) سورة البقرة : آية ٢٥٨ .

(٩) الحجة في قراءات الأئمة السبعة ورقة ٢٠ ابن خالويه مخطوطة بدار الكتب رقم ١٩٥٢٣ ب .

(١٠) الكتاب لسيبويه : ٢/٢٧٠ ، وانظر النشر لابن الجزري ٢/٨٧ .

ثالثاً : اللهجات العربية الحديثة :

وهي مصدر أصيل يهتدى به الى معرفة اللهجات العربية القديمة ، وذلك أن الجزيرة العربية قديماً كانت قبائل ، وبطوناً ، وتلك القبائل وهذه البطون تختلف لهجاتها فيما بينها اختلافاً مرده الى الفردية والمغايرة حيناً ، أو الكسل والشذوذ أحياناً ، كما أن هذا الاختلاف قـــد يرجع الى احتكاك القبائل بعضها ببعض مع اختلاف الظروف الاجتماعية الى غير ذلـــك من العوامل التي أفاض فيها علماء اللغة والاجتماع،وكما وجدت في المجتمع العربي القديم تلك العوامل التي تساعد على اختلاف اللهجات بين القبائل ، وتشيع الفرقة بين البطون ، وجدت كذلك في هذا المجتمع نفسه عوامل قد ترجع الى روابط سياسية أو اجتماعية – كما ظهر ذلك في الأحلاف[١] ، والاتحادات الكبرى كاتحاد كندة[٢] حيث حاولت أن تكون مجموعة من القبائل حول سلطة مركزية – هذه العوامل هي التي تميـــل بالمجتمع كي يحافظ على الطابع المميز للهجته ، وتعرقل من العوامل التي تساعد على اختلاف لغته ، ولا يزال الأمر بين عوامل انفصال ، وعوامل اتصال – هذه تباعد بين اللهجات وتلك تقرب بينها[٣] حتى يكون النصر في النهاية لعوامل الانفصال ، وعندئذ تتميز اللهجات ، ويبقى لها كيانها وهذا معنى قولهم « إن في كل لغة حية قوتين متضادتين ، الأولى : تدفع بالفرد عن المركز ، والأخرى : تشد به نحو المركز[٤] » .

ونرى مظاهر اختلاف هذه اللهجات : في المشترك[٥] ، وفي التضاد[٦] ، وفي الترادف[٧] ، والقلب[٨] ، وفيما سمع عن العرب من أشياء قاطعة في اختلاف اللهجات مثل ما ذكره ابن خالويه في شرح الفصيح ، وما جاء عن الأصمعي من قوله : « اختلف رجلان في الصقر ، فقال أحدهما :

---

(١) تاريخ العرب : ٣٥٢/١ جواد علي ، معجم ما استعجم ٥٣/١ البكري (تحقيق السقا) .

(٢) تاريخ العرب : ١٤٧ مبروك نافع .

(٣) في اللهجات العربية : ١٩ الطبعة الثانية دكتور ابراهيم أنيس .

(٤) نحو عربية ميسرة : ١٠٥ أنيس فريحة .

(٥) المزهر للسيوطي : ٣٦٩/١ وما بعدها .

(٦) المزهر : ٣٨٧/١ ، القرطين : ٢٨/١ ابن مطرف الكناني ، اللسان : ٤٤٣/٤ ، ١٠١/٥ ، البحر المحيط ١٥٤/٦ .

(٧) المزهر : للسيوطي : ٤٠٢/١ وما بعدها .

(٨) همع الهوامع للسيوطي : ٢٥٥/٢ .

الصقر – بالصاد ، وقال الآخر : السقر – بالسين ، فتراضيا بأول وارد عليهما فحكيا له ما هما فيه فقال : لا أقول كما قلتما – إنما هو – الزقر »[1] .

ثم شاء الله أن تنزح العربية مع الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً حيث اتصلت هناك لغات الفاتحين بلغات غيرهم ، وقام الصراع بين لغة الدخيل ، ولغة الأصيل ، ولغة الغزاة الفاتحين ، ولغة المغلوبين المنهزمين ، وفي نزوح العربية من ديارها حدثت لها هزات واضطرابات ، ونالها بعض التغيير والتبديل ، وشاء الله أن تنتشر هذه العربية في تلك المساحات من البلاد المفتوحة قريبها وبعيدها ، ومن المقرر أن اللغة المقهورة تترك في اللغة الغالبة آثاراً كثيرة في مختلف المظاهر[2] ، وكان هذا الصراع مع اللغات الآرامية في سوريا والعراق ولبنان ، ومع القبطية في مصر ، ومع البربرية في شمال افريقيا ، ومع الفارسية بإيران ، ومع التركية ببلاد المغول ، « وتقتضي نواميس اللغات أنه متى انتشرت اللغة في مناطق واسعة من الأرض ، وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس – استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلا »[3] .

وهكذا كان لا بد لهذا المبدأ أن ينطبق على اللغة العربية ، عند انتشارها ، فقد انشعبت الى لهجات – واتخذت كل لهجة منهجاً خاصاً بها تحت تأثير ظروفها الخاصة بها « فلهجة العراق أو لهجة المغرب – في العصر الحاضر – لا يفهمها المصري إلا بصعوبة وفي صورة تقريبية »[4] ، لكن لما كانت العربية الفصحى – هي لغة الكتابة ولغة الدين في هذه الأماكن – كان من الضروري أن تخف أوجه الخلاف بين تلك اللهجات العامية ، ذلك لأن العربية الفصحى كما يقول يوهان فك : « ظلت في الأدب الملكة المتوجة التي أقسم لها يمين الطاعة كل من ادعى الى الثقافة بسبب أو نسب »[5] فأصبح مكان الفصحى ثابتاً مشمخر البناء – نظراً لبقاء وحدة الثقافة في تلك الدول من جهة ، ومن جهة أخرى أن هذه اللغة هي لغة الدين الجديد نفسه وأداته الأولى ، فكان الإسلام بمثابة الطائر الذي حملها على جناحيه حتى نشرت ألويتها في تلك المناطق واقترنت في أرواح المؤمنين بهالة من التقديس والتعظيم ، وإنما بلغ انتشار العربية مداه الواسع في تلك المناطق لأنها تتشابه مع بلاد العرب في طبيعتها وخصائصها وبيئتها – ولذلك علل انتشار

---

(١) الخصائص : ١/٣٧٨ ، الاقتراح : ٢٦ للسيوطي ، حيدر أباد ط الثانية .

(٢) فقه اللغة : ١٢٥ الدكتور عبد الواحد وافى الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٠ .

(٣) فقه اللغة : ١٤٢ وافى .

(٤) المرجع السابق ١٤٣ وافى .

(٥) العربية : ص ١٤٣ يوهان فك ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ط دار الكتاب العربي سنة ١٩٥١ .

العربية سريعاً في مصر ، لأن بيئتها موصولة بالبيئة العربية ، وجغرافيتها كذلك ، وما يقال في مصر يقال في غيرها : كالعراق ، لأنها موصولة الطبيعة بالجزيرة العربية ، وشمال إفريقيا ، فهي بلاد متشابهة في مظاهرها وفي صحرائها وصخورها وتلالها ، ثم انشعبت هذه اللغة العربية الى لهجات عامية ، لأنها انتشرت في مناطق شاسعة من الأرض ، وقد قسم المحدثون هذه اللهجات العامية الى خمس مجموعات[١] .

أ) مجموعة اللهجات الحجازية (وتشمل لهجات الحجاز ونجد واليمن) .

ب) مجموعة اللهجات السورية (وتشمل جميع اللهجات العربية في سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن) .

جـ) مجموعة اللهجات العراقية .

د) مجموعة اللهجات المصرية (وتشمل جميع اللهجات العربية في مصر والسودان) .

هـ) مجموعة اللهجات المغربية (وتشمل جميع اللهجات العربية في شمال إفريقيا) .

ولهذا وجدنا أن كل قطر من الأقطار العربية تختلف فيه لهجات العامية عن غيره في مدلول اللفظ الواحد ، وفي صيغة الجموع . ففي مصر يقولون[٢] « طقطوقة » للإناء الذي يطرح فيه رماد اللفائف ويطلقون « الطقطوقة » على الأغنية البلدية ، بينما الشامي لا يعرفها تطلق إلا على الأغنية فقط .

وفي الشام : يجمعون سيكارة على سيكارات، وفي لبنان : على سواكير ، وفي مصر على سكاير .

وفي مثل ذلك يقول المستشرق مورينو « لقد تعلمت العربية في إيطاليا ، ثم أقمت زمناً في ليبيا وفي مصر والسودان والعراق ، فواجهتني مشقة اختلاف اللهجات ، وصعوبة التفاهم بها ، إذا قلت لعربي في بنغازي : أعطني شراباً ، ثم قلت لعربي في طرابلس ، أعطاني أحدهما مشروباً ، وأعطاني الآخر جورباً »[٣] .

---

(١) فقه اللغة : ١٥٩ وافى .

(٢) من مقال الاستاذ محمد كرد علي بمجلة مجمع اللغة العربية جـ ٧ .

(٣) جريدة الأهرام في ١٩٦١/١١/٢٤ من مقال لبنت الشاطىء .

فالعامية قد انحرفت في هذه الأقطار عن الفصحى، وهذا الانحراف ناشىء في أغلب الأحيان من القصد الى التخفيف في النطق ، ويحدث التحريف[1] :

١ – إما بزيادة حرف كما هو الحال في راجل بدلاً من رجل ، ودواية في دواة .

٢ – واما بتخفيف الهمزة مثل بير بدلاً من بئر .

٣ – وقد يكون باتباع حركة أول الكلمة للحرف اللين الذي في وسطها مثل : بيِيت بدلاً من بيْت « ومُولد » بدلاً من مَوْلد .

٤ – وإما بإبدال بعض الحروف بأخرى – أسهل في النطق مثل : « بحتر » في بعثر . اتاوب بدلاً من تثائب .

٥ – أو تخفيف النطق بإبدال الحرف المضعف – ياء مثل :

مدّيت – حطّيت – فكّيت

٦ – أو يكون التخفيف[2] ناشئاً عن النحت مثل أيش بدك – أي شيء بودك . أو منين ، وأصلها من أين .

٧ – أو يكون التخفيف ناشئاً عن القلب مثل : الزحالف للزلاحف – أي السلاحف والمعلقة يعني الملعقة .

٨ – أو من الإبدال : مثل : يلهط الطعام يعني يرهط . واشْترّت الدابة يعني اجترت . دِحك يعني ضِحك .

٩ – أو من النقصان من عطوني – في أعطوني ، ومثل : مرتْ فلان ، أي امرأته ، ونهار الحد . أي الأحد ، وقولنا : عَ الرف ، مِ السّوق .

١٠ – أو التصحيف : مثل احْذِف الشّيء : أي احذفه ، واتنين في اثنين ، أو تمر في ثمَر .

وهكذا شاء الله للعامية العربية أن تسير مع الزمن، وتنطلق في ركب التطور: من الصعب

---

(١) انظر مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٧ من مقال في « موقف اللغة العربية العامية من اللغة العربية الفصحى » للأستاذ محمد فريد أبو حديد .

(٢) انظر : في هذا مجلة مجمع فؤاد الأول جـ ٤ في مقالة « اللهجة العامية في لبنان وسورية » للأستاذ المعلوف .

الى السهل ، ومن الخشن الى الناعم ، ومن المعقد الى الميسر ، ومن المزخرف الى البسيط ، ولهذا فإن الفروق التي تشاهد بين الفصحى واللهجات العامية — إنما تنتج من حاجة الناس الى التعبير عن أفكارهم بسهولة وبساطة ووضوح ، ومن نزوعهم الى الاقتصاد في الكلام[1] .

وهذا التخفيف الذي سارت عليه العامية العربية ، والذي مثلنا له سابقاً يرجـــع الى قرب مخارج الحروف حيناً ، والى لهجات القبائل أحياناً ، وما يعرض من التصرف في اللفظ والسمع، فالكثرة من الألفاظ العربية أصيلة من لهجة قريش أو غيرها من القبائل القيسية والأسدية ، والتميمية ، والهذلية والطائية واليمنية وغيرها ، ذلـــك لأن القبائل العربية التي هاجرت من الجزيرة الى آفاق الأرض الرحيبة — كانت من أصول مختلفة ، لذلك اختلفت اللهجات العامية العربية في تلك الأصقاع تبعاً لأصلها ، ويمكننا لذلك أن نقول بأن العامية العربية الحديثة أقدم من الفصحى على الزمن — فهي موصولة النسب بهـــا عاشت معها في أرضها وتحت سمائها — ألم تكن عاميتنا لهجات لمختلف القبائل والبطون والمشائر ؟ فسبقت بذلك اللغة الفصحى وتقدمت عليها — ثم جرت عليها سنة الزمن في التطور ، وعجيب أن يصمها قوم بالفساد لأنها تطورت ، وما الفساد إلا أن تتجمد في مكانها — وتتكتل، بل تتحجر أساليبها ومعانيها، ألم تكن عاميتنا من صنع مجتمع عربي أصيل ؟ فليست ظواهره العامية بنت اليوم أو الأمس بل هي قديمة قدم التاريخ ، موصولة النسب بفصحاها ، قوية الوشائج بلغة القرآن وأدب العرب ، وإذا كان التطور قد أصاب هذه اللهجات فلقد أصاب الفصحى هذا التطور وذلك التصرف . فحرى بعد هذا أن يجد الباحث علائق قوية بين هذه العاميات العربية ، وبين لهجات القبائل في جزيرة العرب . وسيجد الباحثون مقدار ما احتفظت به هذه اللهجات الحديثة من صفات لهجية قبلية قديمة ، وفي ذلك يقول الدكتور إبراهيم أنيس[2] « فاللهجات الحديثة وان كانت قد تطورت في البيئات العربية المختلفة تطوراً مستقلاً باعد بينها ، وصبغها بصبغة محلية في بعض ظواهرها — قـــد استمسكت بكثير من السمات التي عرفت عن القبائل القديمة » .

وإذا كانت العامية الحديثة ترتبط ارتباطاً وثيقاً باللهجات العربية القديمة فإنها ترتبط كذلك بالفصحى ، فمن هذا الارتباط بين العامية والفصحى :

ما ذكره صاحب اللسان في مادة[3] (زنأ) — (زنّأ) عليـــه تزنئة — ضيّق واستشهد ببيت العفيف العبدي :

---

(١) نحو عربية ميسرة : ١١٥ ، فريحة .
(٢) في اللهجات العربية : ٢١٦ الطبعة الثانية .
(٣) اللسان : « زنأ » .

لا هُمّ * إنّ الحراث بن جبلهْ   زنَّا على أبيه ثم قتلـه

قال : وأصله : زَنَّأ – بالهمزة ، وفي الحديث أنه كان (أي النبي عليه السلام) لا يحب من الدنيا إلا أزنأها – أي أضيقها . وفي اللسان أيضاً : زنأ الظل يزنأ – قلص . وقـال صاحب القاموس[1] (زنأ – لزق بالأرض ، وزنأ بوله – احتقن ، وأزنأه – ألجأه ، وزنـأ عليه تزنئة – ضيق .

هذا معنى الكلمة في معاجم اللغة .

فإذا انتقلنا الى اللسان العامي في مصر نجد أننا نقول (زَنَّأ فلان على نفسه أو أولاده) بمعنى ضيق بخلاً (وانزنق فلان في كذا) إذا أضاق عليه أمر ، أو حزبته شدة (وفلان انزنق بالبول ، أو انزنق بوله) بمعنى احتبس (وزنق الخفير اللص في الحائط) ألجأه إليها .

ونقول (فلان ما يعرفش ربّه إلا وقت الزّنْقهْ) أي وقت الضيق – وبالمقارنة ظهر أن هذه المادة مستعملة في اللسان العامي كما في العربية الفصحى ومما يؤكد هذا ما جاء عن أبي عمرو: الأفز . الوثبة بالعجلة ، والقفز : الوثب[2] ، وكذلك أبدلت القاف همزة في اللغة البونية ، وفي شمال مراكش ، كما وجدت الظاهرة في لهجة مالطة[3] .

وإذا كانت العلاقة بين عاميتنا والفصحى على تلك الحال ، فأمرها مع اللهجات العربية القديمة أكثر اتصالاً ، وأقوى رابطة ، واكتفي هنا بكلمة واحدة حتى يحين الوقت لعرضها مع دراستنا عن لهجات القبائل .

روي عن تميم أنهـا تقلب الألف المتطرفة همزة فيقولون في حرف النفي « لا » ، « لأ »[4] والدليل على ذلك ما ثبت من أن بعضهم يقلب الألف في المقصور همزة فيقول : « الهدأ »[5] في

---

(١) القاموس : (زنأ) .

(٢) إبدال أبي الطيب : ٢/٥٦٢ . وأشب وقشب بمعنى خلط .

(٣) حروف الحلق : دكتور خليل نامي .

(٤) مميزات لغات العرب : ص ٢٧ ، مجلة المجمع اللغة العربية جـ ١٣ من مقال العامية ... الفصحى للأستاذ محمود تيمور .

(٥) مميزات لغات العرب : ٢٧ حفني ناصف .

* لا هُمّ : أي اللهم

الهدى ، وروى السيرافي « أن بعض[1] العرب يقلب الألف همزة نحو « رأيت رجلأ » فإذا ملنا الى لهجتنا المصرية لنتعرف منها ما يساوق هذه اللهجات نراها تقول في حرف النفي (لا) — « لأ » بالهمز ، فليس في مصر من ينطق بها إلا مهموزة ، إلا أهل الصعيد فإنهم يقولون فيهـــا (لع) بقلب الهمزة عيناً — مبالغة منهم في الوضوح والبيان ، وقلب الهمزة عيناً من سمات[2] تميم ، وهذا يؤكد أن في النازلين الأولين في صعيد مصر من العرب قوماً من بني تميم .

---

(١) شرح السيرافي على سيبويه : ٥/٤٣١ - ٤٣٣ مخطوط بالتيمورية .

(٢) خزانة الأدب للبغدادي : ٤/٤٩٥ ، ٥٩٦ .

الفصل الثالث

« التراث اللهجي »

أولاً : تصنيف هذا التراث :

١ - التأليف في لغات القبائل في القرآن[*] :

يظهر أن هذا النوع من التأليف « كان من أول الفنون اللغوية ظهوراً »[١] ، لأنه يتصل بالقرآن الكريم مباشرة ، ولا شك أن كل تأليف يتصل بالقرآن الكريم - نال من القوم عناية ظاهرة ، إذ كانت له قدمة على غيره ، وتفضيل على ما سواه .

أ) فقد ألف هشام الكلبي (٢٠٤ هـ) كتاب « لغات القرآن »[٢] كما في الفهرست : ص ١٤٧ وقد أشار إليه في كتاب الأصنام المحقق أحمد زكي ص ٧٣ .

ب) وألف الفراء (٢٠٧ هـ) كتاب « لغات القرآن » كما أشار إليه أبو حيان في تفسيره[٣] ، والشيخ عبادة في حاشيته على شذور[٤] الذهب ، كما ساق صاحب التصريح نصوصاً من « لغات القرآن » للفراء[٥] .

جـ) كما ألف الاصمعي « ٢١٣ هـ » كتاب « اللغات[٦] في القرآن » .

(*) انظر مقالتنا « نصوص من تراث لغوي مفقود » بمجلة المجمع اللغوي بالقاهرة ج ٢٦ .

(١) المعجم العربي : ٧٣/١ دكتور نصار مطبعة دار الكتاب العربي ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ .

(٢) الفهرست : ابن النديم : ٥٩ .

(٣) البحر المحيط : ١٩٣/٣ .

(٤) حاشية عبادة على الشذور ١٤٨/١ .

(٥) التصريح على التوضيح : ١٢٨/١ ، ١٣٨/١ .

(٦) الفهرست : ابن النديم : ٥٩ .

د) وقفّى على أثره أبو زيد الانصاري (٢١٥ هـ) فألف مثل ذلك، وأشار الى ذلك التأليف صاحب « البغية »[١] ، وابن النديم[٢] .

هـ) كما ألف في لغات القرآن – الهيثم بن عدي[٣] .

و) وذكر ابن دريد (٣٢١ هـ) في الجمهرة أنــه ألف كتاب اللغات[٤] في القرآن كما ذكره صاحب الفهرست ، وقال : بأنه لم يتمه[٥] .

ز) ونسب ابن النديم مؤلفاً باسم « لغات[٦] القرآن » الى محمد بن يحيى القطيعي (٥٤٤ هـ) .

ح) وذكر السيوطي في ترجمة أحمد بن علي بن محمد البيهقي (٥٤٤ هـ) أنــه صنف (المحيط بلغات[٧] القرآن) .

ط) ووجدت نسخة في مكتبة المرحوم أحمد تيمور بدار الكتب بعنوان (لغات القرآن – مختصرة من مفردات الراغب) لا يعلم[٨] مؤلفهـا والنسخة بدون خطبة ، وهو يتعرض لمفردات القرآن على ترتيب حروف الهجاء ، فيقدم حرف الألف مثل « الأب ، الأبد ، أبق » ... ثم باب الباء : البت البتر – البت ... والكتاب لا ينسب أي لفـظ من القرآن الى قبيلته ولذلك أرجح أن الكتاب « أقرب الى غريب القرآن ، منه الى لغات القرآن » .

ي) كما رأيت نسخة أخرى في التيمورية بعنوان[٩] « لغـات القرآن » لأبي حيان (٦٥٤ – ٧٤٥ هـ) ، وبقراءتي لهذا الكتاب لم أجد به أثراً من لغات القبائل في القرآن – إلا كلمة واحدة في القرآن نسبها الى قبيلتها : قال « أفلم يَيْئَسُوا » معناه : بلغة النَّخَع « يعلم

---

(١) بغية الوعاة السيوطي : ٢٥٥ مطبعة السعادة .

(٢) الفهرست : ٥٩ .

(٣) الفهرست : ٥٩ .

(٤) جمهرة : ابن دريد ٢/٤٠٠ والفهرست : ٥٩ .

(٥) الفهرست : ٥٩ .

(٦) الفهرست : ٥٩ .

(٧) بغية الوعاة : ١٥١ .

(٨) رقم ٣٧٧ مخطوط بالتيمورية لغة .

(٩) رقم ٧٤٠ لغة مخطوط بالتيمورية .

ويتبيّن ، والله أعلم[1] بالصواب » . والكتاب يرتب مفردات القرآن حسب الحروف الهجائية ، ولقد أهمل أبو حيان عزو مفردات القرآن الى لغاتها ، ولذلك أشك كثيراً في اسم هذا الكتاب ، لاسيما وأن السيوطي في ترجمته له في بغية الوعاة ذكر مؤلفاته ، ولم يذكر منها هذا الكتاب ، بل ذكر له كتاباً آخر باسم « إتحاف الأريب بما في القرآن[2] من الغريب » ، ومما يؤيد ظني أن الكتاب الذي نسبه له السيوطي ، قد طبع في « حماة » سنة ١٣٤٥ هـ ، ١٩٢٦ بمطبعة الإخلاص ، وبمقارنتي « كتاب تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب » بكتابه الذي أتكلم عنه وهو « لغات القرآن » وجدت أن مادة الكتابين واحدة ، مما يدل على أن مفهرس مكتبة المرحوم تيمور قد أخطأ في عنوان الكتاب .

ك) وعثرت في الخزانة التيمورية على تأليف سمي (رسالة غريب القرآن على لغات القبائل)[3] ألفه أبو حيان (٦٥٤ ـ ٧٤٥ هـ) ، وهذه الرسالة المنسوبة الى أبي حيان النحوي تسير على نظام سور القرآن ، فيستخرج لهجات القبائل من كل سورة على حدتها مبتدئاً بسورة البقرة ، فآل عمران ...

ل) وهناك رسالة تحت عنوان (كتاب اللغات[4] في القرآن) أخبر بـه إسماعيل بن عمرو المقرئ عن عبدالله بن الحسين بن حسنون المقرئ بإسناده الى ابن عباس وقـام بنشرها الدكتور صلاح الدين المنجد ، وهـذا الكتاب منسوب لابن عباس ويسير على ترتيب المصحف ، إذ يذكر اللهجات واللغات من كل سورة ، وليس فيه أي شاهد على هـذه اللهجات ، وهو ما يؤكد أنه مختصر من كتاب أكبر منه ، وقد طبع هذا الكتاب على هامش « كتاب التيسير في علوم التفسير » لعبد العزيز بن أحمد الدميري الشهير بالدريني[5] من أول صفحة ١٠٩ وما بعدها ، كما طبـع الكتاب مرة أخرى على هامش تفسير الجلالين بمصر ١٣٥٦ هـ . وقد نسب الكتاب في الطبعتين الأخيرتين معزواً فيهما « للإمام أبي القاسم[6] بن

---

(١) لغات القرآن : أبو حيان : ٣٣ مخطوط بالتيمورية رقم ٧٤ لغة .

(٢) بغية الوعاة : السيوطي ص ١٢٢ .

(٣) مخطوط بالتيمورية رقم ١٤٠ حديث .

(٤) مطبعة الرسالة بالقاهرة ١٩٤٦ م .

(٥) مطبعة التقدم بمصر ١٣١٠ هـ

(٦) كتاب التيسير في علوم التفسير : الدميري ١٠٩ .

سلام » ، كما أكد بروكلمان نسبته الى أبي عبيد القاسم بن سلام[1] معتمداً على ما ورد في كتاب التيسير وغيره .

ولكنني أشك في نسبة هذا الكتاب أو تلك الرسالة الى أبي عبيد القاسم بن سلام للأسباب الآتية :

١ – بالبحث في كتب اللغويين ورجال الطبقات لم أجد من نسب كتاباً كهذا الى أبي عبيد القاسم، فابن النديم[2] مثلاً يذكر له « كتاب غريب القرآن » ، « وكتاب معاني القرآن » . وأبو بكر الزبيدي في طبقاته لا ينسب له رسالة باسم «ما ورد في القرآن من لغات القبائل» ولا ما يشبه هـــذا[3] ، وكذلك صاحب مراتب النحويين لا يذكر له إلا كتابه « غريب القرآن » وذكر أنه منتزع من كتاب أبي[4] عبيدة ، ومثله السيوطي[5] في بغيته لم يعز له رسالة في لغات القرآن .

٢ – في هامش كتاب التيسير يقول المؤلف، « هذه[6] رسالة جليلة لبعض الأفاضل تتضمن ما ورد في القرآن الكريم من لغات القبائل ، وأظنها للإمام أبي القاسم بن سلام » فصاحب الكتاب وان نسب الرسالة الى أبي عبيد ، فإن قوله « وأظنها » يشير الى أنه غير متأكد من نسبتها إليه ، ثم إنه لم يذكر اسمه صراحة .

٣ – أن رواة الرسالة ليس منهم اسم أبي عبيد القاسم بن سلام ، بـل رواتها اسماعيل بن عمرو المقرىء عن عبدالله بن الحسين بن حسنون المقرىء بإسناده الى ابن عباس[7] .

٤ – أن بروكلمان في كتابه يذكر أن رسالة أبي عبيد القاسم التي نتحدث عنهـــا مأخوذة من كتابه المفقود في غريب[8] القرآن – وإذا كان الأصل مفقوداً فكيف ساغ له أن يدّعي

---

(١) تاريخ الأدب العربي : ٢/١٥٩ نشره المرحوم الدكتور النجار .

(٢) الفهرست : ابن النديم : ١١٢ .

(٣) طبقات النحويين واللغويين : ٢١٧ وما بعدها تحقيق أبو الفضل .

(٤) مراتب النحويين : أبو الطيب اللغوي : ٩٣ مطبعة نهضة مصر تحقيق أبي الفضل .

(٥) بغية الوعاة : السيوطي ٣٧٦ .

(٦) كتاب التيسير في علوم التفسير : ١٠٩ .

(٧) كتاب اللغات في القرآن : ج ١ / ١١ .

(٨) بروكلمان : تاريخ الأدب العربي : ٢/١٥٩ .

بأن رسالتنا مأخوذة من أصل مفقود ، ويربط بين الرسالة هذه ، وبـــين أصلها الذي لا نعرف عنه شيئاً .

لهذا ، أشك في نسبة هذه الرسالة الى أبي عبيد القاسم بن سلام ، وكما شككت في نسبة هذه الرسالة أشك في نسبة «رسالة غريب القرآن[1] على لغات القبائل» لأبي حيان (٦٥٤ ـ ٧٤٥ هـ) وهي التي تحدثت عنها آنفاً وعلة ذلك :

١ ـ بمقارنتي نصوص هذه الرسالة ، على النصوص الواردة في (كتاب اللغات في القرآن) المعزو الى ابن عباس ، وجدت نصوص الرسالتين لا تختلف عن بعضها ، فعزو اللهجات يـــكاد يكون متفقاً .

٢ ـ في مقدمة رسالة أبي حيان المخطوطة يدلي المؤلف برواية عن شرف الدين أبي الحسن علي بن المفضل ابن علي المقدسي إجازة ، قال : أخبرنا الشيخان الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي : ... عن إسماعيل بن عمرو المقرىء الى ابن عباس ، فهي تتفق ورواية « كتاب اللغات في القرآن » المسند الى ابن عباس لذا شككت في نسبة (رسالة غريب القرآن على لغـــات القبائل) الى أبي حيان .

٣ ـ ان السيوطي مثلاً لم يعز لأبي حيان[2] هذا الكتاب ـــ عندما ترجم له واعتقد ان النسبة لأبي حيان جاءت خطأ من مفهرس مكتبة المرحوم أحمد تيمور كذلك .

فقد كتب اللغات في القرآن :

وهذه الكتب السابقة والتي تحدثت عن أسمائها في « لغات القرآن » تعد مفقودة حتى الآن مما يحدث فراغاً ضخماً في الدراسات القرآنية اللهجية ، وصلة ذلك من الناحية التاريخية بلهجات القبائل العربية فيه ـ باستثناء الكتب السالفة التي وصلتنا عن المكتبة التيمورية ، والتي ألقيت ظلاً من الشك عليها آنفاً من ناحية أسمائها ، ومتنها .

فتكون الرسالة الباقية في أيدينا حتى الآن من هذا العدد الضخم الذي جاء في كتب التراجم والطبقات ـ هي ممثلة في (كتاب اللغات في القرآن) وهو ثمرة لغرس ابن عبـــاس ظهر الى

---

(١) مخطوطة بالتيمورية رقم ١٤٠ حديث

(٢) بغية الوعاة : السيوطي : ١٢٢ . وانظر مقالنا بمجلة مجمع اللغة العربية الجزء ٢٦ ربيع الأول ١٣٩٠ هـ مايو ١٩٧٠ م .

الوجود من دار الكتب الظاهرية ، ونشرتها مطبعة الرسالة[1] . ومن المفيد أن نشير الى أن السيوطي قد نقل في إتقانه « النوع السابع والثلاثون » من كتاب سماه « تأليفاً مفرداً » نصوصاً في موضوع (لغات القرآن) .

وهذه النصوص التي نقلها السيوطي تتفق الى حد كبير مع ما تضمنه (كتاب اللغات في القرآن) المعزو الى ابن عباس ، لكن تأليفه هذا يختلف عن كتاب اللغات في القرآن السابق بشيئين :

أولهما : أن السيوطي حذف ما جاء في القرآن بلغة قريش والحجاز اختصاراً – وهو بهذا العمل بتر جزءاً كبيراً من لغات القرآن – إذ أن قريشاً لها القسط الوافر من لهجاته .

ثانيهما : أنه رتب هذه اللغات ترتيباً يغاير نظام الكتاب الأصلي ، فترتيبه حسب اللهجات الواردة ، لا السور كما في الرسالة . فيبدأ ما ورد بلغة كنانة ثم هذيل ...

نقد كتاب اللغات في القرآن :

قارنت هذا الكتاب المسند الى ابن عباس ، بالرسالة المعزوة للإمام أبي القاسم بن سلام والمنشورة على هامش كتاب (التيسير في علوم التفسير) للدميري[2] فظهر لي اضطراب في عزو اللغات واللهجات القرآنية أقرره فيما يلي :

١ أ– في قوله تعالى « لولا اجتَبَيتها » أتيتها ، بلغة ثقيف . هذا ما ورد في الرسالة على هامش كتاب « الدميري »[3] ، « وفي كتاب اللغات في القرآن » أنها بلغة قريش[4] .

٢ – في قوله تعالى « ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا »[5] بكسر السين بلغة قريش وهي لغة النبي ﷺ ، وبفتح السين بلغة تميم ، هذا عزو كتاب اللغات في[6] القرآن، وفي هامش الدميري: أن فتح السين لغة[7] جرهم .

---

(١) القاهرة : ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م .
(٢) مطبعة التقدم : ١٣١٠ هـ .
(٣) كتاب التيسير في علوم التفسير : ١١٩ .
(٤) اللغات في القرآن : ٢٨ .
(٥) الأنفال : آية ٥٩ .
(٦) اللغات في القرآن : ٢٩ .
(٧) التيسير في علوم التفسير : ١٢٠ .

٣ – وفي قوله تعالى « إلا تنفروا »[١] يعني تغزوا ، بلغة كنانة عن كتاب اللغات ، وعلى هامش الدميري أنها بلغة هذيل[٢] .

٤ – في قوله تعالى « فلا تبتئس »[٣] يعني تحزن ، بلغة كندة ، كما في هامش الدميري[٤] كما عزيت الى سدوس في كتاب[٥] اللغات ، وعزاها السيوطي في الإتقان الى قبيلة كندة[٦] !

٥ – وفي قوله تعالى « لأحتنكن ذريته »[٧] يعني لأستأصلن بلغة قريش كما في لغات القرآن[٨] ، بينما عزيت في رسالة القاسم بن سلام الى لغة الأشعريين[٩]، وعزاها السيوطي الى الأشعريين كذلك[١٠]، وقد سجلت هذه المتناقضات بين الرسالتين حتى بلغت أكثر من خمسة وعشرين خلافاً بين النسختين ، مما يجعلني أقول في اطمئنان بأن هذا الفن قد دخله التحريف والاضطراب في النسخة الوحيدة التي وصلتنا من مؤلفاته القيمة ، والتي ضاعت جميعها في ثنايا التاريخ .

واكتفى بهذا في (كتب لغات القرآن) وتاريخها وعرضها ، مع ملاحظة أن تلك الرسالة التي بأيدينا الآن لا تحصر حديثها إلا في المفردات القرآنية تسردها سرداً مضطرباً كما رأيت من الأمثلة السابقة ، وكنا نود أن تكون الرسالة أو غيرها في تاريخ اللهجات وتمييزها على الوجه التاريخي وأدواره الاجتماعية ، ولكن مثل هذا ضن به التاريخ كما ضن علينا به القدامى .

ولقد عزّ علي ضياع الكتب السالفة في لغات القرآن، ومن ثمّ ضياع ثروة كبيرة من تاريخ كتابنا المقدس اللغوي ، فتعقبت كتب العربية على اختلاف نحلها علني أضع يدي على نوع من

---

(١) التوبة : آية ٣٩ .

(٢) التيسير : ١٢١ .

(٣) سورة هود : آية ٣٦ .

(٤) التيسير : ١٢٢ .

(٥) كتاب اللغات : ٣٢ .

(٦) الإتقان : السيوطي : ١٣٦/١ .

(٧) سورة الاسراء : آية ٦٢ .

(٨) اللغات : ٣٤ .

(٩) هامش التيسير : ١٢٧ .

(١٠) الإتقان : ١٣٦/١ .

تلك المادة التي احتوتها الكتب الضائعة فعثرت على عدة نصوص من كتب (لغات القرآن) المفقودة ، أنقل أمثلة يسيرة منها :

نصوص من كتب لغات القرآن المفقودة ومنهجها :

١ – عندما ذكر ابن هشام أن « هؤلاء » بالمد لغة الحجازين[١] ، وبها جاء القرآن وبالقصر لغة تميم – علق صاحب الحاشية بقوله (في لغة تميم وقيس وأسد وربيعة – ذكر ذلك الفراء في كتابه « لغات القرآن » ولم يخصه بتميم)[٢] . كما ساق صاحب التصريح[٣] هذا النص السابق وعزاه الى الفراء في كتابه « لغات القرآن » .

٢ – وقال الفراء في (لغات القرآن) وربما قالوا : هذان ذوا تعرف ، وهؤلاء ذو تعرف[٤] .

٣ – وقال الفراء في (لغات القرآن)[٥] سمعنا أعرابيـًّا من طيء يسأل ويقول : (بالفضل ذو فضلكم الله به ، والكرامة ذات أكرمكم الله به) فبنى « ذات على الضم ، ونقل حركة الهاء الأخيرة الى ما قبلها وحذف الألف ، فسكنت الهاء » .

٤ – وعندما كان ابن دريد يتحدث عن (الذي والذ واللذان واللذون – قال: «وقد استقصيناها في كتاب القرآن»، وعلق مصحح الجمهرة على ذلك بقوله (كذا في الأصول – ولعله كتاب لغات القرآن)[٦] كما ذكر ابن دريد « كتاب اللغات في القرآن » مرة أخرى في جمهرته[٧] وفي كتابه « الاشتقاق »[٨] حيث قال : وهذا يستقصى في لغات القرآن . ولا شك أن هذه النقول من تلك الكتب توضح على الأقل المنهج الذي سارت عليه ، ويظهر أنها تتجه الى الناحية اللغوية والنحوية والصرفية – على العكس من الرسالة المعزوة الى ابن عباس فميدانها مفردات القرآن وألفاظه ، وقد ضربت أمثلة سالفة لها .

---

(١) شذور الذهب : ١/١٤٧ ط دار إحياء الكتب العربية .

(٢) حاشية عبادة على الشذور : ١/١٤٨ .

(٣) التصريح على التوضيح ١/١٢٨ .

(٤) التصريح على التوضيح : ١/١٣٨ .

(٥) التصريح على التوضيح : ١/١٣٨ .

(٦) جمهرة ابن دريد : ٣/٢٤٧ .

(٧) الجمهرة : ٢/٤٠٠..

(٨) الاشتقاق : ٨٠ تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون .

وأيًّا ما كان فهذه النقول من تلك الكتب المفقودة – يجب أن تحفز الدارسين الى جمعها من جديد من كتب العربية على اختلاف نحلها ومشاربها ، وفي ضوء هـذا نتبين منهجها والطريقة التي سارت عليها – ومن هنا يمكن أن تقوم دراسة تاريخية مقارنة لهذه اللهجات .

٢ – المؤلفات تحت اسم « كتب اللغات » :

لا شك أن القدماء من علماء العربية ما كانوا ليعرفوا كلمة (لهجات) بل كانوا يستبدلون بها (لغات) يتضح هذا عندما أشار صاحب الأمالي الى قوله تعالى : « والشفع[١] والوتر » فقال : – الفتح لغة أهل الحجاز ، والكسر لغة تميم وأسد[٢] وقيس . كما ذكر أحمد بن فارس اختلاف لهجات العرب فقال « اختلاف لغات العرب من وجوه[٣] ... » وعقد ابن جني باباً في خصائصه « باب اختلاف اللغات وكلها[٤] حجـــة » كما ذكر السيوطي في مزهره « باب الضعيف[٥] من اللغات » فاللغة عندهم كانت مرادفة للهجة عندنا ، ولكن البحث الحديث يفرق بـــين اللهجات واللغات أو بين اللهجة واللغة[٦] .

ولهذا يمكن أن نستقرىء مـــا ترك لنا القدامى من تواليفهم في اللهجات العربية تحت اسم « اللغات أو كتب اللغات » فيما يأتي :

أ) يونس بن حبيب البصري (١٨٢ هـ) ذكر له ابن النديم تأليفاً باسم « كتاب اللغات »[٧] .

ب) أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني (٢٠٦ هـ) ذكر القفطي أن له من التآليف « كتاب اللغات »[٨] كما أرجح أن كتاب اللغات هذا هو كتاب الجيم أو كتاب الحروف الذي ألفه أبو عمرو ، لأنه جمع فيه الحوشي ولم يقصد المستعمل[٩] .

---

(١) سورة الفجر : آية ٣ .

(٢) آمالي القالي : ١/١٣ دار الكتب ١٩٢٦ .

(٣) الصاحبي : ١٩ .

(٤) الخصائص : ٢/١٠ .

(٥) المزهر : ١/٢١٤ .

(٦) انظر في اللهجات العربية : ١٣ ، مجلة الأزهر : المجلد الثالث والعشرون سنة ١٩٥٢ ص ٥٤ .

(٧) الفهرست : ٦٩ ط الاستقامة .

(٨) إنباه الرواة : ١/٢٢٧ .

(٩) إنباه الرواة : ١/٢٢٦ .

ومما يؤكد هذا ما جاء عن السيوطي « وله كتاب اللغات — وهو المعروف بالجيم ، ويعرف أيضاً بكتاب[1] الحروف » وأرى أن العلاقة وثيقة بين معنى الحروف ومعنى اللغات ، يفسرها ما جاء في مسند الحافظ أبي يعلى أن رسول الله ﷺ قال : « إن القرآن نزل على سبعة أحرف كلها شاف[2] كاف » فقد ذهب أبو عبيد وثعلب والزهري الى أن المراد بالأحرف السبعة في الحديث سبع لغات من لغات العرب[3] .

ويظهر أن كتاب اللغات هذا قد ضنّ به أبو عمرو على تلاميذه، جاء في مراتب النحويين :

« وأما كتاب الجيم « اللغات » فلا رواية له ، لأن أبا عمرو بخل به على الناس فلم يقرأه عليه[4] أحد » ، وعلى الرغم من فعلة أبي عمرو هذه — فقد ذكر بروكلمان أن نسخة فريدة من كتابه[5] هذا محفوظة بمكتبة الاسكوريال بأسبانيا[6] .

وأيًّا ما كان فكتاب الجيم هذا يعتبر ذخيرة للهجات القبائل العربية — تلك التي اهتم الشيباني بأشعارها ، « إذ أخذ عنه دواوين أشعار القبائل[7] كلها » يدل على ذلك ما ورد في اللوحات الثاني من كتاب الجيم إذ ينسب الى : الأكوعي والسّعدي ، والطّائي ، والعماني ، والعقوي ، والأشعري ، والوالبي ، والكلابي ، والكلبي ، والزهيري ، والبكري ، والعذري ، والنميري ، والغنوي ، والسماني ، والتغلبي ، والسّلمي[8] ... كما أن عنايته بالرجز وإيراده له بكثرة غامرة في كتاب الجيم — يشير الى اهتمامه بأمر اللهجات ، لأن الرجز هو اللهجة الشعبية للقبيلة يأتي عفواً لا مؤونة فيه ولا كلفة ، ولهذا يعكس السمات اللهجية ويصورها كما هي .

ويذكر السيوطي في البغية ص ٢٦٦ في ترجمة أبي عمرو شمر بن حمدويه الهروي (٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م) بأنه ألف كتاب الجيم

---

(١) البغية : ١٩٢ .

(٢) الإتقان : ٤٧/١ .

(٣) فتح الباري : ٢٢/٩ ، الاتقان : ٤٨/١ .

(٤) مراتب النحويين : ٩٢ .

(٥) برقم أسكوريال ثاني ٥٧٢ تاريخ الأدب العربي : ٢٠٣/٢ بروكلمان : الترجمة العربية .

(٦) علمت أن معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية قد أخذ منها صورة وأعطاها للمستشرق « شارل كويننز » لدراستها وإخراجها ، فقابلت سيادته وطلبت رؤية النسخة المصورة ، ولكنه تأسف لسفره ساعتئذ لأوربا

(٧) الفهرست : ١٠٧ .

(٨) المعجم العربي : ٨١/١ دار الكتاب العربي .

جـ) يحيى بن زياد الفراء (٢٠٧ هـ) وقد عزا له ابن النديم مؤلفاً باسم « كتاب اللغات »[١] ، وكذلك عزاه له السيوطي في بغيتـــه[٢] ، ومزهره[٣] ، كما عُزِيَ الى الفراء مصنف باسم « كتاب الجمع واللغات » ، وذلك في كتابه « المذكر والمؤنث »[٤] .

د) أبو عبيدة معمر بن المثنى (١١٠ – ٢١٠ هـ) وقد عزا له صاحب الفهرست[٥] وياقوت[٦] ، والسيوطي في بغيته[٧] ، ومزهره[٨] مؤلفاً باسم « كتاب اللغات » .

هـ) أبو زيد الأنصاري : (٢١٤ هـ) ، وقد عزى له في الفهرست[٩] ، والبغية[١٠] ، ومزهر السيوطي[١١] كتاب باسم « كتاب اللغات » . وقال بروكلمان عن أبي زيد بأنه « كان شديد العناية بجمع اللغات[١٢] واللهجات » .

و) عبد الملك بن قريب الأصمعي (٢١٦ هـ) ، وقـــد عزا له ابن النديم[١٣] ، والقفطي[١٤] والسيوطي[١٥] وابن خلكان مؤلفاً باسم « كتاب اللغات » أيضاً .

ز) عمر بن شبه بن عبيدة بن ريطة البصري النميري : (٢٦٢ هـ) وقد مات بسر من رأى ،

---

(١) الفهرست : ١٠٦ .

(٢) البغية : ٤١١ .

(٣) المزهر : ٩٦/١ .

(٤) المذكر والمؤنث : ٣٠ ط حلب .

(٥) الفهرست : ٨٦ .

(٦) معجم الأدباء : ١٦١/١٩ .

(٧) البغية : ٣٩٥ .

(٨) المزهر : ٩٦/١ ، انظر : نوادر المخطوطات رقم ٧ ط أولى تحقيق عبد السلام هارون .

(٩) ص ٨٧

(١٠) ص ٢٥٥

(١١) ٩٦/١ .

(١٢) تاريخ الأدب العربي : ١٤٥/٢ الترجمة العربية .

(١٣) الفهرست : ٨٨ .

(١٤) إنباه الرواة : ٢٠٣/٢ .

(١٥) البغية : ٣١٤ .

وعزى له في كتاب الفهرست[1] ، ومعجم الأدباء[2] والبغية[3] مصنف باسم « الاستعانة بالشعر وما جاء في اللغات » .

ح) أبو بكر بن دريد (٣٢١ هـ) ، وقد عد ابن النديم[4] ، وصاحب إنباه الرواة[5] ، وابن خلكان[6] : من تصانيفه (كتاب اللغات) .

ط) عمر بن جعفر بن محمد الزعفراني (توفي في القرن الرابع الهجري) وقد ذكر كل من صاحب الفهرست[7] وصاحب معجم الأدباء[8] ، وصاحب البغية[9] أن من مصنفاته « كتاب اللغات » .

ي) أبو نصر الفارابي ٣٣٩ هـ — وقد عزى له (كتاب في اللغات) انظر الفارابي ص ٤٠ عباس محمود . ط دار إحياء الكتب العربية .

ك) عزيز بن الفضل الهذلي (القرن الرابع الهجري) وقد عزا له الأزهري في مقدمة تهذيبه[10] ، وياقوت في معجمه[11] ، والسيوطي في البغية[12] — مؤلفاً باسم « كتاب لغات هذيل » .

ل) حسين بن مهذب المصري اللغوي (٦٥٠ هـ) وقد ذكر السيوطي أن من كتبه « كتاب السبب في حصر لغات العرب »[13] كما ورد هذا المؤلف أيضاً في تاريخ آداب العرب للرافعي[14] .

---

(١) ١٧٠ .

(٢) ٦١/١٦ دار المأمون .

(٣) ٣٦١ .

(٤) الفهرست : ٩٨ .

(٥) إنباه الرواة : ٩٧/٣ .

(٦) وفيات الأعيان : ٤٤٩/٣ .

(٧) ١٣٠

(٨) ٥٩/١٦ .

(٩) ٣٦٠ .

(١٠) ٧٨ .

(١١) معجم الأدباء : ١٦٨/١٢ .

(١٢) ٣٢٤ .

(١٣) البغية : ٢٣٦ .

(١٤) ١٣٦/١ ط الاستقامة .

م) علي بن الحسن الهنائي المصري ، وقد عزا له ابن النديم مؤلفاً باسم (كتاب في غريب كلام العرب ولغاتها[١] ، ولعل الكتاب يهدف الى حصر ما يسمى باللغات من نحو : المصنوع والضعيف ، والمنكر ، والمتروك ، والرديء والمذموم والحوشي والنوادر — وذلك نفس ما تواضعوا عليه من معنى اللغات .

ن) الحسن بن محمد الصّغاني (٦٥٠ هـ) وقد ذكر السيوطي في البغية أن له مصنفاً باسم «الشوارد في اللغات »[٢] ، وقد عثرت على هذا الكتاب بدار الكتب المصرية برقم ٤١٨ لغة ، ومعنون باسم « ما تفرد به بعض أئمة اللغة » وهي نفسها كتاب « الشوارد في اللغات » وسأتعرض للهجات فيه — عندما أتناول دراسة الناحية المنهجية في تلك الكتب .

س) أبو عبدالله اليمني — ألف رسالة (في اللغات النادرة) وهي مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم ١٣٨ ، وأبو عبدالله اليمني هذا — ذكره صاحب الخزانة فيمن ألف في طبقات النحويين[٣] .

فقد المؤلفات في كتب اللغات :

وهذه الكتب السابقة والمؤلفة في لغات القبائل تعد مفقودة — فلم يصلنا من هذا العدد السابق إلا كتاب « الجيم » للشيباني ، وكتاب « الشوارد في اللغات » للصغاني ، ورسالة « اللغات النادرة » لأبي عبدالله اليمني .

نصوص من هذه الكتب تبين منهجها :

وعلى الرغم من فقد هذه الكتب التي تعد أصولاً للهجات القبائل العربية فإنني حاولت أن أعثر على نقول من بعضها — تبين منهجها في تناول لغات القبائل فمن ذلك :

١ — « كتاب اللغات » الذي ألفه أبو زيد الأنصاري (٢١٤ هـ) والذي يعد مفقوداً حتى الآن، وردت منه نقول في جمهرة ابن دريد معنونة باسم « باب من اللغات عن أبي زيد » في مكانين مختلفين من الجمهرة[٤] ، ومنهجها يظهر عندما تناول ابن دريد في الباب الأول حاكياً عن

---

(١) الفهرست : ١٣٠ .

(٢) بغية الوعاة : ٢٢٧ .

(٣) خزانة البغدادي : ١٤/١ تحقيق محي الدين .

(٤) الجمهرة : ٤٧٢/٣ ، ٤٨٤ .

أبي زيد صيغاً وردت بالتشديد والتخفيف كقولهم « هو هدى لبيت الله » وهدى لبيت الله »[1] هكذا بدون عزو ، إلا أن اليزيدي عزا المخففة الى لغة أهل الحجاز والمشددة الى تميم[2] . كما تناول اختلاف صيغ الماضي مع المضارع ، واختلاف حركات العين في الأسماء كقوله ، وقد قرىء « والذي خَبُثَ لا يَخرجُ إلا نَكداً » ونَكِداً ونكداً – بكسر العين وفتحها وإسكانها ، وينظر لذلك بقوله « مثل سِبط وسَبِط وسبْط » بكسر العين وفتحها وإسكانها ، ثم تناول أمثلة بالهمز تارة والتسهيل أخرى كقولهم « رأف الرجل وراف » كما تناول أمثلة أخرى ظهر فيها الإبدال كقولهم «انتقع لونه وامتقع واهتقع»[3] .

ثم تناول أبو بكر بن دريد باباً آخر من اللغات عن أبي زيد تعرض فيه للألفاظ الثنائية كالأب والأخ والدم والفم – على النقصان والتمام ، واستشهد بالشعر في لغات الأب والفم كقول الفرزدق في حالة التمام :

« هُما نَفَثَا فِي فيّ من فمويهما » .

كما أثار زيادة الميم في بعض الألفاظ مثل « ابنم » فزادوا فيه الميم كما زادوا في « الفم » وإنما هو فاه وفوه وفيه ، وهي في التنزيل « بأفواههم » ولم يقل « بأفمامهم » وكما تزداد الميم في ابن فيقال « ابنم » تزاد في الاثنين ، ومن ذلك :

(منّا ضرارٌ وابناه وحاجب) .

وقد تأتي في حالة الخفض كقول القائل :

أتظلمُ جارتيك عقال بكرٍ وقد أوتيت مالاً وابنمينا[4]

كما أشار الى تداخل اللغات بقوله « ويقولون : مِت ومُت ، ودمت ودمت « بالكسر والضم » فمن قال : مت « بالكسر » قال : يمات ، واستدل لها بقول الراجز :

(عيشي ولا يومي بأن تماتي)[5]

---

(١) الجمهرة : ٣/٤٧٢ .

(٢) المزهر : ٢/٢٧٧ .

(٣) الجمهرة : ٣/٤٧٣ .

(٤) الجمهرة : ٣/٤٨٥ - ٤٨٦ .

(٥) الجمهرة : ٣/٤٨٥ ، وفي الخصائص ١/٣٨٦ ط الهلال « عيشي ولا يؤمن أن تماتي » ، وفي الصحاح «عيشي ولا تأمن أن تماتي » .

ونادراً ما يعزو أبو زيد الى بعض القبائل، كقوله في الصيغة السابقة « وأكثر ما يتكلم بـه طيىء »[1] كما يشير الى التصحيح والإعلال في قوله « وتقول العرب : استجاب واستجوب »[2] وأحياناً يشير الى تطور الدلالة كقوله : تقول العرب « زكأت الى فلان – في معنى لجأت »[3] ويستشهد لها ، كما يشير الى المشترك كقوله : والعرب تقول « هلال السماء وهلال الصيد، وهلال النعل ، وهلال الإصبع »[4] كما تناول المعاقبة في قوله « والعرب تقول قلوت اللحم ، وقليته ، وقلوت الرجل في البغض وقليته »[5] وقد يصدر أبو زيد على بعض اللغـــات أحكاماً منهجية كقوله : « وهي اللغة العالية »[6] أو حكمه على لفظ بقوله « وهو أعلى »[7] .

ويلاحظ على هذه اللغات أنها وردت مهملة العزو الى أصحابها كقوله : « حوث تعلم »[8] مع أن اللسان عزاها الى تميم[9] . وكمثال المعاقبة السابق فقد ورد مهمل العزو عن أبي زيد إلا أن اليزيدي عزاه في نوادره[10] وكإهماله عزو بعض الصيغ المشددة[11] والمخففة ، مع أن اليزيدي عزاها في نوادره[12] .

إلا أنني أرجح أن إهمال العزو في أبواب اللغات – التي نقلها ابن دريد عن أبي زيد – إنما كان من ابن دريد نفسه ، لا من أبي زيد ، لأن أبا زيد كما يرى بروكلمان « كان شديد العنـــاية بجمع اللغات واللهجات »[13] وهذا الحكم لا يتفق وهذه الأبواب التي نقلها ابن دريد عن أبي زيد معنونة باسم « أبواب من اللغات عن أبي زيد » وقد وردت الصيغ والتراكيب مهملة العزو الى

---

(١) الجمهرة : ٣/٤٨٥ .
(٢) الجمهرة : ٣/٤٨٨ .
(٣) الجمهرة : ٣/٤٨٦ .
(٤) الجمهرة : ٣/٤٨٧ .
(٥) الجمهرة : ٣/٤٨٧ ، قارن هذا بما ورد في مزهر السيوطي : ٢/٢٧٧ .
(٦) الجمهرة : ٣/٤٨٧ .
(٧) الجمهرة : ٣/٤٨٤ .
(٨) الجمهرة : ٣/٤٨٨ .
(٩) اللسان : ٢/٤٤٦ .
(١٠) المزهر : ٢/٢٧٧ .
(١١) الجمهرة : ٣/٤٧٢ .
(١٢) المزهر : ٢/٢٧٧ .
(١٣) تاريخ الأدب العربي : ٢/١٤٥ .

لهجات القبائل العربية ، لهذا أرجح أن ابن دريد قد اختصر هذه الأبواب – وحذف منهـا ، ومما يؤيد هذا ما جاء في هذه الأبواب عن ابن دريد قال : قال أبو زيد « هداوي وهدايا »[1] ولما رجعت الى اللسان وجدته يقول « الهدية جمعها هدايا ، وهداوى – وهي لغة أهل المدينة ، وعن أبي زيد : الهداوى لغة عليا معد ، وسفلاها : الهدايا »[2] فنقل اللسان عن أبي زيد يشير الى اهتمامه بالعزو الى القبائل ، بعكس نقل ابن دريد عن أبي زيد في الكلمة نفسها ، إذ جاءت مهملة العزو عنده .

٢ – كذلك أمكنني العثور على نص من كتاب الفراء المسمى « كتاب الجمـع واللغات » حيث يقول فيه : « كل جمع كانت واحدته بالهاء وجمعه بطرح الهاء فإن أهل الحجاز يؤنثونه ، وربما ذكروا ، والأغلب عليهم التأنيث ، وأهل نجد يذكرون ذلك ، وربما أنثوا والأغلب عليهم التذكير »[3] ويمكن أن نستنتج منهج الفراء في هذا الكتاب من هذا المثال ، فهـو يعقده للمقارنة بين لهجات القبائل في صيغ الجموع كما سبق .

٣ – أما كتاب الحسن الصّغاني – فقد سبق الحديث عنه ، ويهمني الآن عرض بعـض نصوصه لنتبين منهجه ، واللهجات فيه ، وأحب أن أشير الى أن الكتاب أربعة أنواع .

النوع الأول : فيما قرىء في الشواذ من القراءات ، ومنهجه يتضح من أمثلته كقوله :

أ) يهبَط : (بفتح الباء) لغة في يهبِط (بكسرها) .

ب) الكِسالى : (بكسر الكاف) لغة في الكَسالى والكُسالى (بفتحها وضمها) .

جـ) التابوه : بالهاء لغة الأنصار .

ويلاحظ على هذا القسم أنه يأتي بالآية ثم يبين القراءة فيها ، ونادراً ما يعزو القراءة الشاذة الى قبيلة معينة .

النوع الثاني : فيما تفرد به أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب البصري ، وقد عزا فيه بعض الصيغ الى بعض القبائل مثل تميم كقوله : يسمِت في الهداية (بكسر الميم) لغة تميم في يسمُت

(١) الجمهرة : ٣/٤٧٢ .

(٢) اللسان : ٢٠/٢٣٣ .

(٣) المذكر والمؤنث للفراء : ٣٠ ط حلب .

(بضمها) ، أو هذيل : كقوله : أجويت القدر وهذيل تقول : أجيبتها[1] . كما عزا الى العالية وأهل نجد .

النوع الثالث : فيما تفرد به أبو حاتم السجستاني .

ويلاحظ على هذا القسم إهمال عزو اللهجات كقوله : النّقاوة والنقاءة لغتان في النقاوة (بضم النون) والنقاية ، ولم يعز الى القبائل العربية إلا مرة واحدة عزا فيها الى لغة تميم ، كما خلا هذا القسم من الشواهد الشعرية .

النوع الرابع : مجموعة من سائر كتب اللغة وشروح شوارد الأشعار . وقد عزا فيه بعض اللغات الى بني أسد ، وتميم ، وأهل المدينة ، وكلب ، وطيىء . ووردت بعض الصيغ مهملة العزو كقوله « حاد يحود لغة في يحيد » ، كما يلاحظ أنه يشرح في هذا القسم بعض الألفاظ الغريبة كقوله « اجرأشت الإبل : سمنت وامتلأت بطونها فهي مجرأشة بفتح الهمزة – ثم علل غرابتها بقوله : « وإنما أدخل هذه اللفظة في الشوارد انفتاح همزة مجرأشّة – لامتّنها » . وكأن ابن خالويه كان يرى غرابتها ، ولذلك يقول : « وجدت هذه اللفظة بعد سبعين سنة »[*] .

٣ – التأليف في نوادر اللغات وشواردها :

والنوادر من ندر الشيء يندر ندوراً : سقط وشذ ، وقد نجد أحكاماً للغويين على بعض الألفاظ كقولهم : « غالباً » و « كثيراً » و « نادراً » و « قليلا » و « مطرداً » ، فالمطرد – لا يتخلف ، والغالب : أكثر الأشياء ، ولكنه يتخلف والكثير دونه ، والقليل دون الكثير ، والنادر : أقل من القليل[2] .

وإليك ثبت بمن ألف تحت هذا الاسم من علماء العربية :

أ) أبو عمرو بن العلاء (١٥٧ هـ) ، فقد عزا له صاحب الفهرست مؤلفاً باسم « كتاب النوادر »[3] .

---

(١) بمعنى غلّفتها .

(*) وانظر حديثاً مفصلا حول المؤلفات في كتب اللغات ومنهجها وروايتها ونصوصها ونقدها متناً وسنداً في مقالنا (من الآثار اللغوية المفقودة في ضوء المنهج الوصفي) وذلك بمجلة المجمع اللغوي بالقاهرة ج ٢٧ .

(٢) المزهر : ١/٢٣٤ .

(٣) الفهرست : ١٣٦ .

ب) القاسم بن معن (١٧٥ هـ) وقد نسب إليه السيوطي مصنفاً باسم « كتاب النوادر »[١] .

جـ) يونس بن حبيب (١٨٢ هـ) وله « كتاب النوادر » كما جاء في الفهرست[٢] .

د) أبو مالك عمرو بن كركرة : مولى بني سعد . ذكر له أبو الطيب[٣] ، وابن دريد[٤] كتاب النوادر .

هـ) الكسائي (١٨٩ هـ) له « كتاب النوادر » ذكره ابن النديم[٥] ، والسيوطي[٦] وذكر له القفطي : كتاب النوادر الأوسط ، وكتاب النوادر الكبير[٧] . وزاد ياقوت له : كتاب النوادر الأصغر[٨] .

و) أبو شبل العقيلي (١٩٣ هـ) : له « كتاب النوادر » ، ذكره ابن النديم[٩] .

ز) أبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي (٢٠٢ هـ) عزا له الأزهري[١٠] ، وابن النديم[١١] ، والسيوطي[١٢] ، مصنفاً باسم « كتاب النوادر » .

ح) قطرب (محمد بن المستنير ٢٠٦ هـ) «كتاب النوادر» ذكره: ابن النديم[١٣]، وياقوت[١٤]، والقفطي[١٥] ، والسيوطي[١٦] .

---

(١) البغية : ٣٨١ .
(٢) ٦٩ .
(٣) مراتب النحويين : ٤٠ .
(٤) الجمهرة : ٣/٤٥٥ .
(٥) الفهرست : ١٣٦ ، ١٠٤ .
(٦) المزهر : ١/٩٦ .
(٧) إنباه الرواة : ٢/٢٧١ .
(٨) معجم الأدباء : ١٢/٢٠٣ .
(٩) الفهرست : ٧٤ .
(١٠) مقدمة تهذيب اللغة: ٧٨ .
(١١) الفهرست: ١٣٦ .
(١٢) البغية : ٤١٥ .
(١٣) الفهرست : ٨٤ .
(١٤) معجم الأدباء : ١٩/٥٣ .
(١٥) إنباه الرواة : ٣/٢٢٠ .
(١٦) البغية : ١٠٤ .

، أبو عمرو الشيباني (٢٠٦ هـ) له « كتاب النوادر » ذكره: أبو الطيب[١]، والأزهري[٢] ، وابن النديم[٣] ، والسيوطي[٤] .

، الفراء (٢٠٧ هـ) عزا له الأزهري[٥] ، وصاحب الفهرست[٦] ، وصاحب[٧] البغية مؤلفاً باسم « كتاب النوادر » .

، أبو عبيدة (٢١٠ هـ) « كتاب النوادر » ذكر في مقدمة تهذيب[٨] اللغة للأزهري .

، الأصمعي (٢١٦ هـ) « كتاب النوادر » ذكره الأزهري[٩]، وابن النديم[١٠]، والسيوطي[١١]، كما عزا له صاحب البغية[١٢] مؤلفاً باسم « نوادر الأعراب » .

، أبو زياد الكلابي (٢١٥ هـ) — ذكر له ابن النديم « كتاب النوادر »[١٣] .

، أبو زيد الأنصاري (٢١٥ هـ) له « كتاب النوادر » ذكره الأزهري في مقدمة تهذيبه[١٤]، والسيوطي[١٥] في مزهره .

، الأخفش سعيد بن سعدة (٢١٥ هـ) عزا له الأزهري كتاباً في « النوادر »[١٦] .

---

(١) مراتب النحويين : ١٩ .

(٢) مقدمة تهذيب اللغة : ٧٨ .

(٣) الفهرست : ١٣٦ .

(٤) المزهر : ٩٦/١ .

(٥) مقدمة تهذيب اللغة : ٧٨ .

(٦) ١٣٦ .

(٧) ٤١١ .

(٨) ٧٧ .

(٩) مقدمة تهذيب اللغة : ٧٧ .

(١٠) الفهرست : ١٣٦ .

(١١) البغية : ٣١٤ .

(١٢) ٣١٤ .

(١٣) الفهرست : ٧٣ .

(١٤) ٧٨ .

(١٥) ٩٦/١ .

(١٦) مقدمة تهذيب اللغة : ٧٨ .

ع) أبو مسحل (القرن الثالث) ذكر له ابن النديم « كتاب النوادر »[١] .

ف) اللحياني (القرن الثالث) وقدعزا له صاحب الفهرست[٢]، ومعجم الأدباء[٣]، والقفطي[٤] والبغية[٥]، مصنفاً في « النوادر » . وقال عنه الفراء « هو أحفظ الناس للنوادر »[٦] .

ص) عبدالله بن سعيد الأموي (القرن الثالث) ذكر له ابن النديم[٧]، والقفطي[٨] والسيوطي[٩] كتاب النوادر .

ق) ابن الأعرابي (٢٣١ هـ) عزا له الأزهري كتابـاً في النوادر[١٠]، وذكر له صاحب[١١] الفهرست، ومعجم الأدباء[١٢]، وانباه الرواة[١٣] مصنفاً باسم « نوادر بني فقعس » كما ألف في « نوادر[١٤] الزبيريين » .

د) ابن السكيت (٢٤٤ هـ) ذكر له الأزهري في مقدمة التهذيب[١٥] ، وابن النديم[١٦] في الفهرست كتاب النوادر .

ش) ابن دريد (٣٢١ هـ) أسند إليه في الجمهرة[١٧] ، والفهرست[١٨] « كتاب النوادر » .

---

(١) الفهرست : ٧٥ . وقد طبعه أخيراً المجمع العلمي بدمشق ط الترقي ١٩٦١ .
(٢) ٧٨ .
(٣) ١٤/١٠٧ .
(٤) إنباه الرواة : ٢/٢٥٥ .
(٥) ٣٤٦ .
(٦) إنباه الرواة : ٢/٢٥٥ .
(٧) الفهرست : ١٣٦ .
(٨) إنباه الرواة : ٢/١٢٠ .
(٩) المزهر : ٢/٤١٠ .
(١٠) مقدمة تهذيب اللغة : ٧٨ .
(١١) ابن النديم : ١٣٦ .
(١٢) ١٨/١٩٦ .
(١٣) ٣/١٣١ .
(١٤) معجم الأدباء : ١٨/١٩٦ .
(١٥) ٧٨ .
(١٦) ١١٤ ، ١٣٦ .
(١٧) ٣/٤٤٩ .
(١٨) ١٣٦ .

نصوص من كتب النوادر تبين منهجها ، وصلاتها باللهجات :

وجل هذه الكتب السالفة تعدّ مفقودة ، ولا نعرف عنها إلا أسماء مؤلفيها ، ولما كان المهم في دراستنا الوقوف على طريقة تأليفها أو منهجها في معالجة اللغات ، فقد حاولت البحث عن بعض نقول منها في كتب العربية فعثرت على كثير من هذه النقول ، أكتفي منها بما يأتي :

١ ـ ما ذكره السيوطي في المزهر من اقتباسات من نوادر يونس بن حبيب (١٨٢ هـ) والتي تعد مفقودة ـ ويهمنا في الحديث عنها ما يخصّ اللهجات فهو يبدؤها بموازنة بين لهجة الحجاز وتميم في الألفاظ والصّيغ ، ويمكن أن نخطط لها منهجاً على مستويات :

أ) كالمستوى الصوتي كقوله « أهل الحجاز يقولون خمس عشرة خفيفة لا يحركون الشين ، وتميم تثقل وتكسر الشين ، ومنهم من يفتحها »[١] .

ب) والمستوى الصرفي كقوله : أهل الحجاز يبطش (بكسر الطاء) وتميم يبطش (بضمها)[٢] . وكقوله « أهل الحجاز جونة ، وتميم : جؤنة بالهمز »[٣] .

كما يضرب أمثلة لظواهر أخرى كالمعاقبة كقوله « أهل الحجاز القنية ، وتميم القنوة »[٤] . أو فعل وأفعل « أهل الحجاز لاته عن وجهه ، وتميم ألاته »[٥] .

ويلاحظ على منهج يونس في دراسة اللهجات في كتابه النوادر ـ كما اقتبس منه السيوطي ـ أنه لم يشر للمستوى الإعرابي ، ولا المستوى الدلالي أو المعنوي ، كما أنه لم يستشهد على صيغ اللهجات بشواهد شعرية ، بل يذكر الصيغة مجردة عند الحجاز ، ثم يناظر لها بصيغة عند تميم كما تقدم ، كما أن تعرضه للهجات كان في دائرة الحجاز وتميم ، فلم يتناول الظواهر اللهجية في القبائل العربية الأخرى ، كما يلاحظ على هذه الاقتباسات اللهجية أنها مهملة التحقيق حيث يقول « أهل الحجاز الحصاد ، وتميم الحصاد »[٦] بدون إشارة لضبط الحروف ، مع أن « الكسر للحجاز ،

---

(١) المزهر : ٢/٢٧٥ .

(٢) المزهر : ٢/٢٧٥ .

(٣) المرجع السابق : ٢/٢٧٦ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) المزهر : ٢/٢٧٦ .

(٦) المرجع السابق .

والفتح لنجد[1] وتميم » . وبلغت المقابلات بين الحجاز وتميم في الصيغ سبعاً وعشرين مرة . أغلبها يدور على اختلاف الحركات .

٢ – كما وردت عدة اقتباسات من « نوادر » أبي محمد اليزيدي (٢٠٢ هـ) أشار إليها السيوطي ، واللهجات التي تعرض لها اليزيدي تسير في المستويات والمنهج التي سارت عليه نوادر يونس السابقة ، فهي تتعرض للصيغ بين الحجاز وتميم دون غيرهما من قبائل العرب ، وتتعرض للخلافات :

أ) الحركية في الأسماء كقوله « أهل الحجاز : الشفع والوتر (بفتح الواو) وتميم بكسرها »[2] .

ب) والأفعال كقوله « أهل الحجاز : برأت من المرض ، وتميم : برئت »[3] .

جـ) القلب كقوله « أهل الحجاز : لعمري ، وتميم[4] رعملي » .

د) والتذكير والتأنيث كقوله « أهل الحجاز : هي التمر وهي البر ، وهي الشعير ، وهي الذهب ، وهي البسر ، وتميم تذكر هذا كله »[5] .

ويلاحظ على موازنات اليزيدي أنه يهتم بالضبط في الصيغ أحياناً عندما يقول : وتميم تكسر الجميع ، أو أهل الحجاز تقوله « بالفتح »[6] مما لا نجد نظيره في نوادر يونس ، وأحياناً أخرى يهمل في ضبط الصيغ كقوله : « أهل الحجاز : غرفت الماء غرفة ، وتميم غرفة » هكذا مهملة الضبط ، وجريرة هذا تقع على المؤلف والمحقق على السواء ، وأرى أنها بفتح الغين المعجمة لتميم ، لأن أبا عمرو بن العلاء[7] قرأ بها وهو تميمي ، ثم هي بالفتح أميل الى الانسجام – الأمر الذي تهدف إليه قبائل تميم ، كما يلاحظ أن حديثه عن تلك الصيغ التي بين الحجاز وتميم – قد خلا من الشواهد ، إذ يسردها سرداً ، وقد بلغت الخلافات اللهجية عنده بين الحجاز وتميم ستة عشر أكثرها يدور حول اختلاف الجانب الحركي .

---

(١) البحر : ٣٣٤/٤ .
(٢) المزهر : ٢٧٧/٢ .
(٣) المزهر : ٢٧٦/٢ .
(٤) المزهر : ٢٧٧/٢ .
(٥) المزهر : ٢٧٧/٢ .
(٦) المزهر : ٢٧٧/٢ .
(٧) النشر : ٢٣٠/٢ .

٣ — ويجدر بي أن أشير الى كتاب أبي زيد (في النوادر)[١] وهو مطبوع ، ولا يهمني فيه إلا تناوله الصيغ اللهجية للقبائل ، وأرجح أن اللهجات الواردة في « النوادر » سمعها أبو زيد بنفسه عن العرب لقوله « ما كان فيه من قصيد أو لغات فهو سماعي[٢] من العرب» فملاحظة أبي زيد للغات العرب — كانت ملاحظة مباشرة ، موثقة بالسماع والضبط ، وبالكتاب ستة أبواب للنوادر ، ويتناول في هذه الأبواب صيغاً وأنماطاً من الألفاظ لا تسير في فلك اللغة الفصحى[٣] ، ثم لا رابط بين هذه الصيغ التي تتوالى في أبواب النوادر وكتاب أبي زيد هذا وان سماه كتاب النوادر إلا أن لهجات القبائل برزت فيه بروزاً ملموساً ، ولهذا قمت برسم لوحات إحصائية تبين لهجات القبائل فيه[٤] وهي تشير الى النتائج التالية :

١ — أن أبا زيد كان شديد الاهتمام بعزو اللهجات الى قبائلها ، حتى أن ابن دريد في جمهرته نقل بابين من اللغات عن أبي زيد[٥] .

٢ — شدة الصلة بين كتب النوادر ، وبين كتب اللغات ، مما يشير الى وحدة المنهج بين الفنين ، ومما يرجح هذه الصلة أن الذين ألفوا في كتب النوادر — هم أنفسهم ألفوا في كتب اللغات ، كيونس ، والفراء ، وأبي عبيدة ، وأبي زيد ، والأصمعي ، وابن دريد ، وأبي عمرو الشيباني ، فإذا أضفنا الى هذا تلك النقول التي جاءتنا عن كتب النوادر السابقة — وكلها تشير الى تردد أسماء القبائل ولهجاتها ازددنا يقيناً بتشابك التأليف وتقارب المنهج بين كتب اللغات ، وكتب النوادر ، حتى وجدنا مولفاً كالفراء يجمع بين الفنين ، ويولف مصنفاً باسم « كتاب النوادر[٦] واللغات » على أن جل هذه الكتب — وان فقدت — وهي المصادر الأولى ، إلا أنها تركت ظلالها في التراث العربي الذي بين أيدينا ، والذي يعتبر مصدراً ثانوياً للهجات القبائل .

---

(١) بالمطبعة الكاثوليكية في بيروت : ١٨٩٤ م .

(٢) نوادر أبي زيد : ٢ .

(٣) انظر ٨١ وما بعدها ، ١٦٩ وما بعدها .

(٤) انظر اللوحة الإحصائية رقم (أ) بعد ص

(٥) الجمهرة : ٤٧٢/٣ ، ٤٨٤ .

(٦) المزهر : ٩٦/١ .

٤ – المؤلفات تحت اسم « دواوين القبائل وأشعارها » أو كتب القبائل :

وأشهر من جمع دواوين القبائل أبو عمرو الشيباني ، وفي إنباه الرواة ٢٢١/١ « أنه جمع شعر نيف وثمانين قبيلة ، وساق ابن النديم في الفهرست ص ٢٣٢ أسماء ستة وعشرين ديواناً من دواوين القبائل ، كما ذكر الآمدي في الموتلف والمختلف ستين ديواناً لستين قبيلة (انظر مصادر الشعر الجاهلي ٥٤٩ ناصر الأسد) . ويظهر أن دواوين القبائل وكتبها كانت سجلاً حافلاً بأخبار القبيلة ونسبها وحروبها ولغاتها ، يقول بشر بن أبي خازم :

"وجدنا في كتاب بني تميم ..." (المفضليات ٣٣٤ ط الثالثة) وقد حملت هذه الكتب وتلك الدواوين بذوراً لهجية مثل :

١ – جاء في المخصص س ١٦ ص ١٥٢ يقال : امرأة جبان ، وجبانة والجمع جبناء ، وقد جاء في (شعر هذيل) أجبان .

٢ – حشك القوم على مياههم حشكاً بفتح الشين – اجتمعوا ، عن ثعلب ، وخص بذلك بني سليم ، كأنه إنما فسر بذلك شعراً من (أشعارهم) اللسان ٢٩٤/١٢ .

٣ – وجاء في الفهرست ص ١٢٣ أن أبا سعيد السكري عمل أشعار جماعة من الفحول ، وقطعة من القبائل منها (أشعار اللصوص)، وقد حاولت العثور على نقل خارجي من « كتاب أخبار اللصوص وأشعارها ، فوجدت أن أبا زكريا التبريزي في شرح ديوان الحماسة ج ١ ص ٢١٢ روى عن السكري أخباراً تتصل باللصوص وأشعارها جاء فيها « فنتنحش عنها » أي : نبحث ، وهي لغة طائية .

وكذلك حمل الأثر الباقي من دواوين القبائل – بعد أن عصفت بها الأعاصير – سمات لهجية كثيرة ، كديوان الهذليين ، إلا أن شراح الديوان قد لجوا وانحرفوا عن المنهج السديد :

أ) فحملوا بعض الكلمات حملاً وأكرهوها إكراهاً على أن تكون لهجة للقبيلة ، فقد رأوا أن (أطرقا) في قول أبي ذؤيب :

على أطرقا باليات الخيا م إلّا الثمام وإلا العصى

جمع طريق في لغة هذيل . الديوان ٦٥/١ ، لكنني أرجح أن الكلمة لا شأن لها بلهجة هذيل ، وأنها كما جاء في اللسان (أطرق) اسم موضع ، وفي التهذيب اسم مكان ، وفي

معجم ما استعجم (أطرقا) موضع بالحجاز ، ومما يوكد ذلك ما جاء في معجم البلدان (٢٨٦/١ ط السعادة) من قول عبدالله بن أمية المخزومي :

وإني زعـــيم أن تسيروا وتهربوا   وأن تتركوا الظهرانَ تعوي ثعالبهُ
وأن تتركوا مـــاء بجزعة أطرقا   وأن تسلكوا أي الأراك أطايبهُ

فالظهران والأراك اسما مكان ، واقتران (أطرقا) بهما يؤكد أنها اسم مكان أيضاً .

ب) كما اضطربت الدلالة بين أيديهم ، لأن شراح ديوان هذيل لم يستشيروا رجال القبيلة أنفسهم ، فقول أبي ذؤيب في الديوان ٧٩/١ :

تدلّى عليهـــا بين سبّ وخيطة   بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها

(ديوان الأدب ورقة ٣١٣ ، المزهر ٢٥١/١ ، اللسان ٤٤١/١ ، الجمهرة ٢٣٣/٢) يشير الى أن : الخيطة – الوتد بلغة هذيل ، والسبّ بلغة هذيل – الحبل .

وذكر أبو عبيدة ما يخالف هذا في بيت الهذلي ، وفسر الخيطة – بالحبل ، والسبّ – بالوتد (الجمهرة ٣٢/١) .

جـ) كما وقع الخلاف بينهم في تفسير اللهجة : (فالضّحضاح) بلغة هذيل – الكثير ولا يعرفها غيرهم (اللسان (ضحضح) والمخصص س ٩ ص ١٣١ ، والجمهرة ١٥١/٣) .

والعجيب أنها وردت في ديوان الهذليين ٤٨/١ في شعر أبي ذؤيب وفُسرت على أنهــا (جماعة إبل قليلة) !

د) ان أكثر شعر القبيلة جاءنا عن رواة أغلبهم من غير هذيل ، ولهـــذا أصابه التحريف والتبديل :

جاء في الديوان ٦٠/١ في قول أبي ذؤيب :

بأسفل ذات الدّبر أفرد خشفُها   فقد ولهت يومين فهيَ خـــلوج

وفي رواية (جحشها) مكان (خشفها) ، والجحش في لغة هذيل بمعنى (الخشف) وهو ولد الظبية إذا قوي ، وفي اللسان (جحش) : والجحش أيضاً الصبي بلغة هذيل . فمرة (الخشف) وأخرى : الجحش ، وثالثة: الجحش في لغة هذيل بمعنى الخشف، ورابعة : الجحش : الصبي بلغة هذيل ! وانظر مقالنا بمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة (ج ٢٨) .

٥ ـ لغة الاحصاء :

ولقد قمت بعمل لوحات إحصائية في بعض التصانيف الثانوية العربية لأرى الى أي حد يتردد صدى أسماء القبائل العربية تلك التي عُزيت لها لهجات خاصة بها . وقد اخترت من هذه المصنفات ما يمثل الفنون المختلفة فاخترت من كتب النحو : كتابين :

أولهما : شرح مفصل الزمخشري (٥٣٨ هـ) لابن يعيش[١] (٦٤٣ هـ) .

ثانيهما : خزانة الأدب ، ولب لباب لسان العرب ـ لعبد القادر البغدادي (١٠٩٣ هـ)[٢] .

كما اخترت من كتب اللغة كتابين أيضاً :

أولهما : إصلاح المنطق لابن السكيت[٣] (٢٤٦ هـ) ، وثانيهما : لسان العرب لابن منظور[٤] (٦٨٠ هـ) .

واخترت من كتب القراءات صنفين :

أولاً : القراءات الشاذة : ويمثلها :

١ ـ (كتاب شواذ القرآن) لابن خالويه[٥] .

٢ ـ (كتاب المحتسب في شواذ القراءات) لابن جني[٦] .

ثانياً : القراءات السبعية : ويمثلها : (كتاب إبراز المعاني من حرز الأماني) لأبي شامة[٧] . (٦٦٥ هـ) .

ويلاحظ على الإحصائيات في كتب القراءات ما يلي :

١ ـ أن ابن خالويه قد فاته أن يصرح بأسماء بعض اللهجات العربية : كهذيل ، وعقيل ، والحجاز ،

---

(١) انظر اللوحة الإحصائية رقم (ب)

(٢) انظر اللوحة الإحصائية رقم (جـ)

(٣) انظر اللوحة الإحصائية رقم (د) .

(٤) انظر اللوحة الإحصائية رقم (هـ) .

(٥) انظر اللوحة الإحصائية رقم (و) .

(٦) انظر اللوحة الإحصائية رقم (ز) .

(٧) انظر اللوحة الإحصائية رقم (ح)

وأزد السراة ، وضبة ، وقيس ، ووَهْبيل (فخذ من النخع) بينا ذكر هـــذه اللهجات صاحب المحتسب .

٢ - كما أن ابن جنى في محتسبه قد أهمل لهجات لم يصرح فيها بأسماء بعض القبائل العربية كلهجة : المدينة ، وبكر بن وائل ، وبني عامر ، ونجران ، وربيعة ، واليمن ، وعكل ، وقضاعة ، وكلاب ، وكلب . بينا ابن خالويه قد صرح بأسمائها .

٣ - وبفحص كتب القراءات الشاذة رأيت أنها كثيراً ما كانت تهمل عزو القراءات القرآنية الى قبائلها ، أو لهجاتها ، ويظهر هذا من فحص الكتابين السابقين في قراءات الشواذ :

أ) ففي قوله تعالى « ونَحشُره يوم القيـــامة أعمى »[١] قرئت بجزم الراء والهاء[٢] - بينا أثبتها لغة لبني كلاب وعقيل[٣] .

ب) كما قرىء « هذه بضاعتُنا ردت إلينا »[٤] بكسر الراء[٥] ، بينا التحقيق أثبتها لغـــة لضبة[٦] .

جـ) وقرىء قوله تعـــالى « يَسألونَكَ عَنِ السّاعة[٧] أيّان مرساها » بكسر الهمزة[٨] ، والتحقيق أثبت أنها لغة سليم[٩] ، ومما يؤكد هذا[١٠] أن قارئاً منهم قرأ بها .

---

(١) سورة طه : آية ١٢٤ .
(٢) شواذ ابن خالويه : ٩٠ .
(٣) البحر : ٢٨٧/٦ .
(٤) سورة يوسف : آية ٦٥ .
(٥) شواذ ابن خالويه : ٦٤ .
(٦) البحر : ٣٢٣/٥ .
(٧) سورة الأعراف : ١٨٧ .
(٨) شواذ ابن خالويه : ٤٨ .
(٩) البحر : ٤٣٤/٤ .
(١٠) البحر : ٤١٩/٤ .

د) كما قرىء قوله تعالى « أفعيينا[1] بالخلق الأول» بتشديد الياء[2] الأولى ، وأثبت أنها لغة لبعض بكر بن وائل[3] .

فهذه القراءات السابقة – وغيرها كثير كما ثبت من فحصي لهذا الكتاب – قد أهمـــل ابن خالويه عزوها الى أصولها أو قبائلها ، وما وقع فيه ابن خالويه ، تردى فيه ابن جنى ، إذ كثيراً ما يقول في محتسبه : وبعض العرب[4] ، ومن العرب[5] ، وهي لغة[6] ، أو لغات[7] ، وأحيانا يحكم على اللهجة كقوله : لغة مرذولة[8] ، أو لغة فاشية[9] ، أو أقوى اللغات[10] ، ولكنه مع هذا لا يعزوها الى قبيلها .

٤ – إن دراسة القراءات القرآنية تمثل بحق الحقل البكر الذي تكمن فيـــه اللهجات العربية ، لأنها مصدر حي أصيل نابع من دقة التلقين والتلقي ، وحسن الضبط وإتقان الرواية .

وانتقيت من كتب الأدب العامة : الأمالي (لأبي علي القالي[11] : ٣٥٦ هـ) . كما اخترت من كتب شروح الأشعار (شرح ديوان الحماسة للمرزوقي[12] (٤٢١ هـ) .

وقد آثرت في تلك الإحصائية أن أحرص على تسجيل عدد ورود لهجات القبائل في كل من تلك الكتب .

---

(١) سورة ق : ١٥ .
(٢) شواذ ابن خالويه : ١٤٤ .
(٣) البحر : ١٩٤/٨ .
(٤) المحتسب : ٦٥/١ .
(٥) المحتسب : ٦٧/١ ، ٦٨ .
(٦) المحتسب : ٧٧/١ ، ١٩٧ .
(٧) ٧٧/١ ، ٣٢ .
(٨) ١١٠/١ .
(٩) ٤٢٩/١ .
(١٠) ٤٢٩/١ .
(١١) انظر اللوحة الإحصائية رقم (ط)
(١٢) انظر الإحصائية (ي)

فإذا أدرنا هذه الإحصائيات على ناحية أخرى – وهي أننا لا نريد منها تسجيل عدد لهجات القبائل المختلفة كما تقدم، ولكننا نريد منها إحصاء الرواة الذين كانوا مصدراً لرواية هذه اللهجات المعزوة والمسندة الى قبائلها – حتى يمكن أن نستشف منها مَن مِن الرواة كان مكثراً في عزو اللهجات الى قبائلها، ومن منهم كان مقلاً.

وقد اخترت لهذا كتابي: المخصص لابن سيده[1] (٤٥٨ هـ) وهمع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطي[2] (٩١١).

ويستنتج من إحصائية المخصص والهمع ما يلي:

١ – أننا نستطيع أن نستشف من هذين المصدرين (المخصص والهمع) ظلاً لمصنفات هؤلاء الرواة – المفقودة – في لغات القرآن، ولغات القبائل.

٢ – أن رواة اللهجات في هذين الكتابين لم يكونوا من مدرسة واحدة، بل منهم البصريون النحويون كأبي زيد، والخليل، وسيبويه، وابن جني، ويونس، وأبي حاتم، والسيرافي، وقطرب، وأبي الخطاب، وأبي العباس المبرد.

والبصريون اللغويون: كابن دريد، والأصمعي.

كما كان منهم الكوفيون النحويون: كالفراء.

والكوفيون اللغويون: كأبي عبيد، وابن السكيت، واللحياني، والمفضل الضبي.

كما كان من روات اللهجات – من خلط بين مذهب البصريين والكوفيين: كأبي حنيفة[3]، وابن مالك[4].

---

(١) انظر اللوحة الإحصائية رقم (ك)

(٢) انظر اللوحة الإحصائية رقم (ل)

(٣) قال عنه ابن النديم (وهو ممن خلط المذهبين: الفهرست: ١٢٢، وانباه الرواة: ٤١/١).

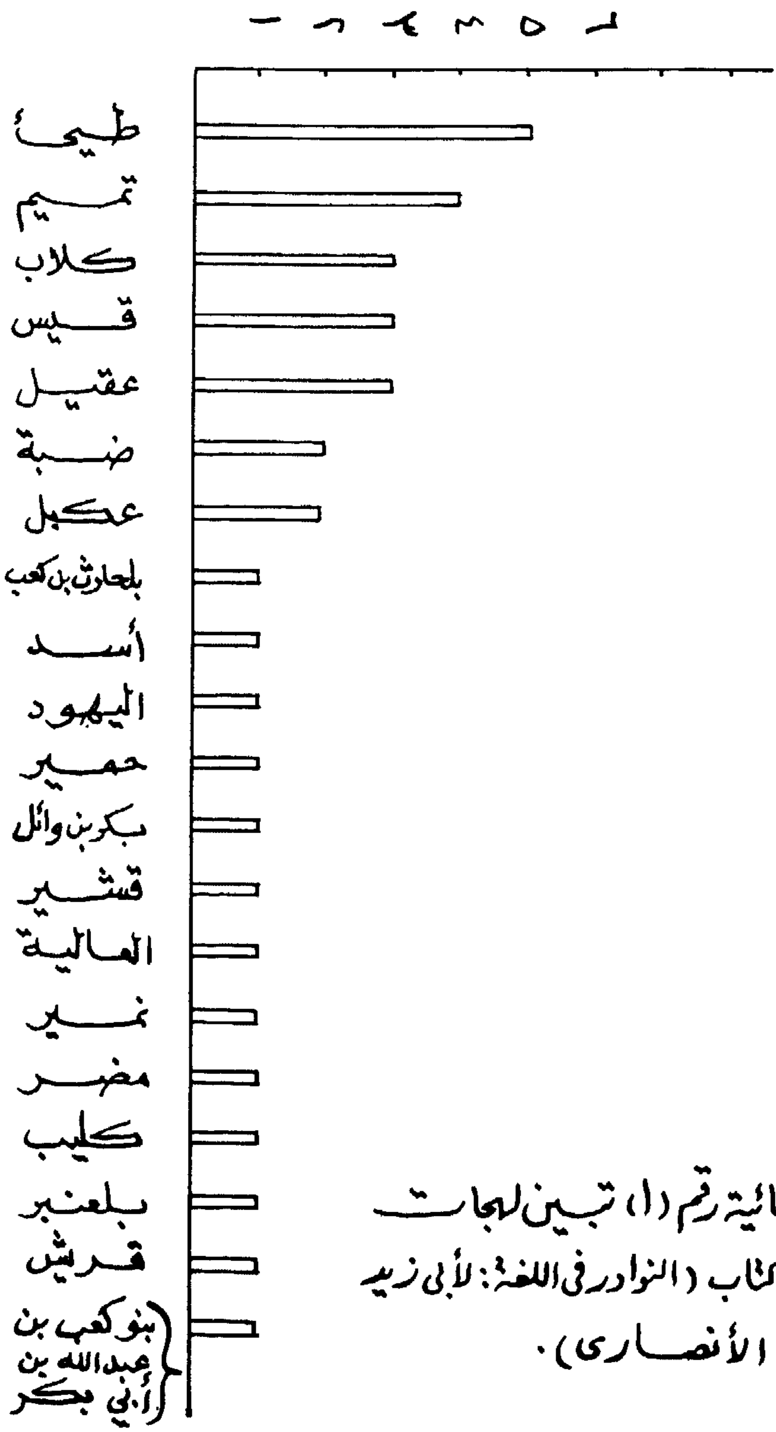
(٤) قال عنه السيوطي (وقد سلك طريقاً وسطاً بين البصريين والكوفيين: الاقتراح: ٨٦).

كما كان من رواة اللهجات أيضاً قراء كوفيون : كالكسائي ، وأبي بكر بن مقسم[1] . وقراء بصريون : كأبي عمرو بن العلاء .

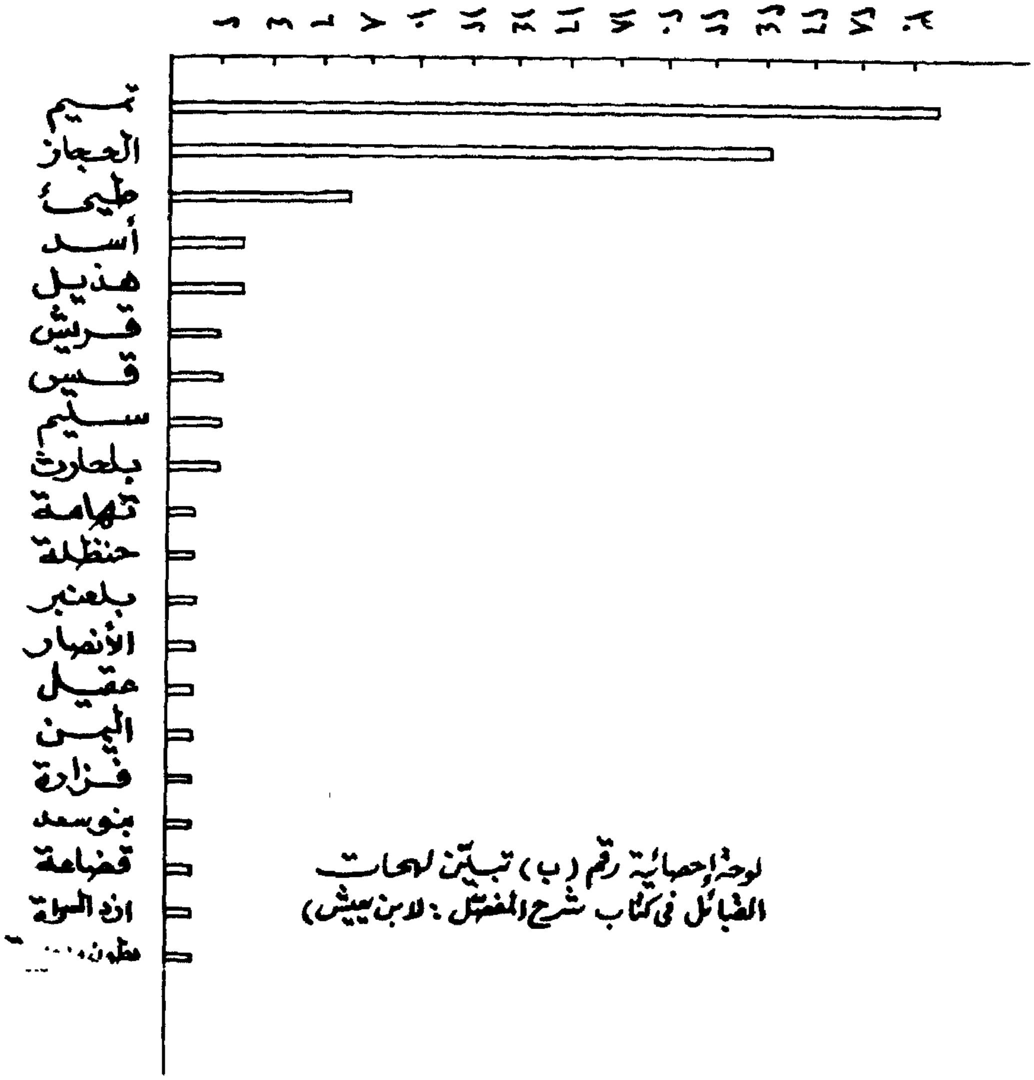
ولم يكن الأمر مقصوراً على رواية اللهجات من المشارقة ، بل شاركهم في ذلك المغاربة .

٣ – بمقارنة أسماء هؤلاء الرواة في المرجعين السابقين – نجد أن أسماءهم تتفق مع أسماء الذين ألفوا في لغات القرآن ، ولغات القبائل ، وكتب النوادر تقريباً – مما يؤكد بأن جميع هذه المؤلفات كانت تدور في فلك واحد ، بل يكاد منهجها أيضاً يكون واحداً – وقد سبقت نقول منها تشير الى ذلك .

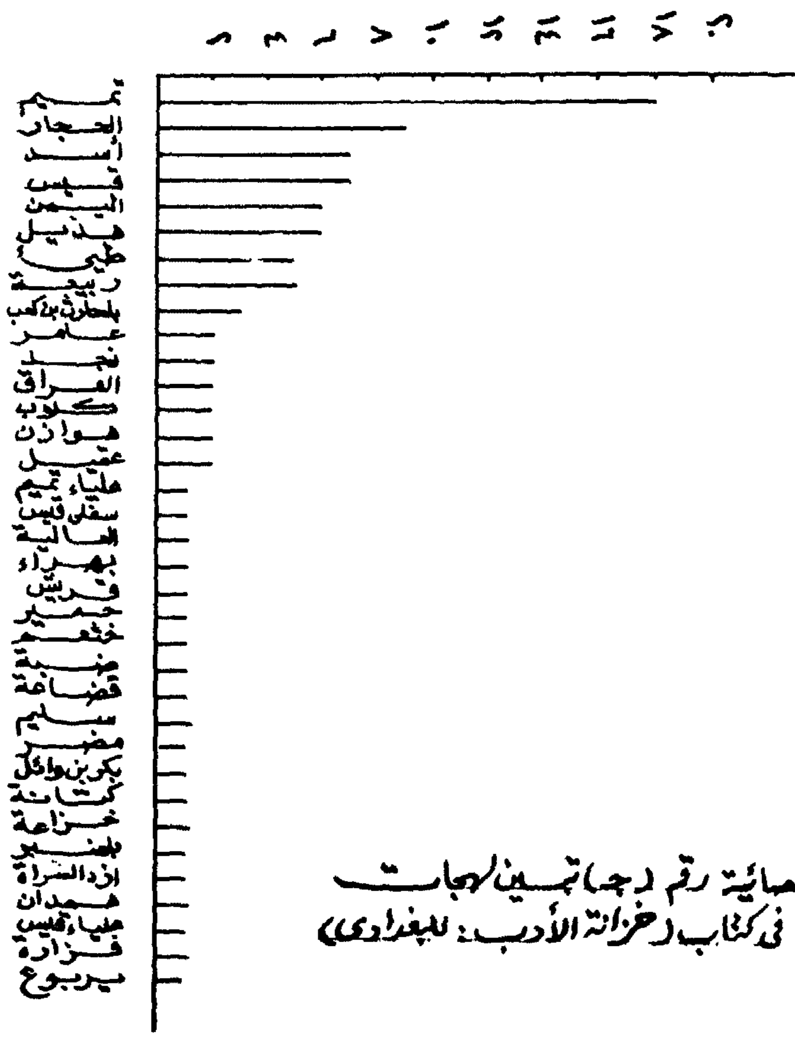
(١) قال عنه ابن النديم « أحد القراء بمدينة السلام توفي سنة ٣٦٢ هـ: الفهرست : ٥٥ » ، وقال عنه السيوطي « وكان أحفظهم لنحو الكوفيين : البغية : ٣٦ » .



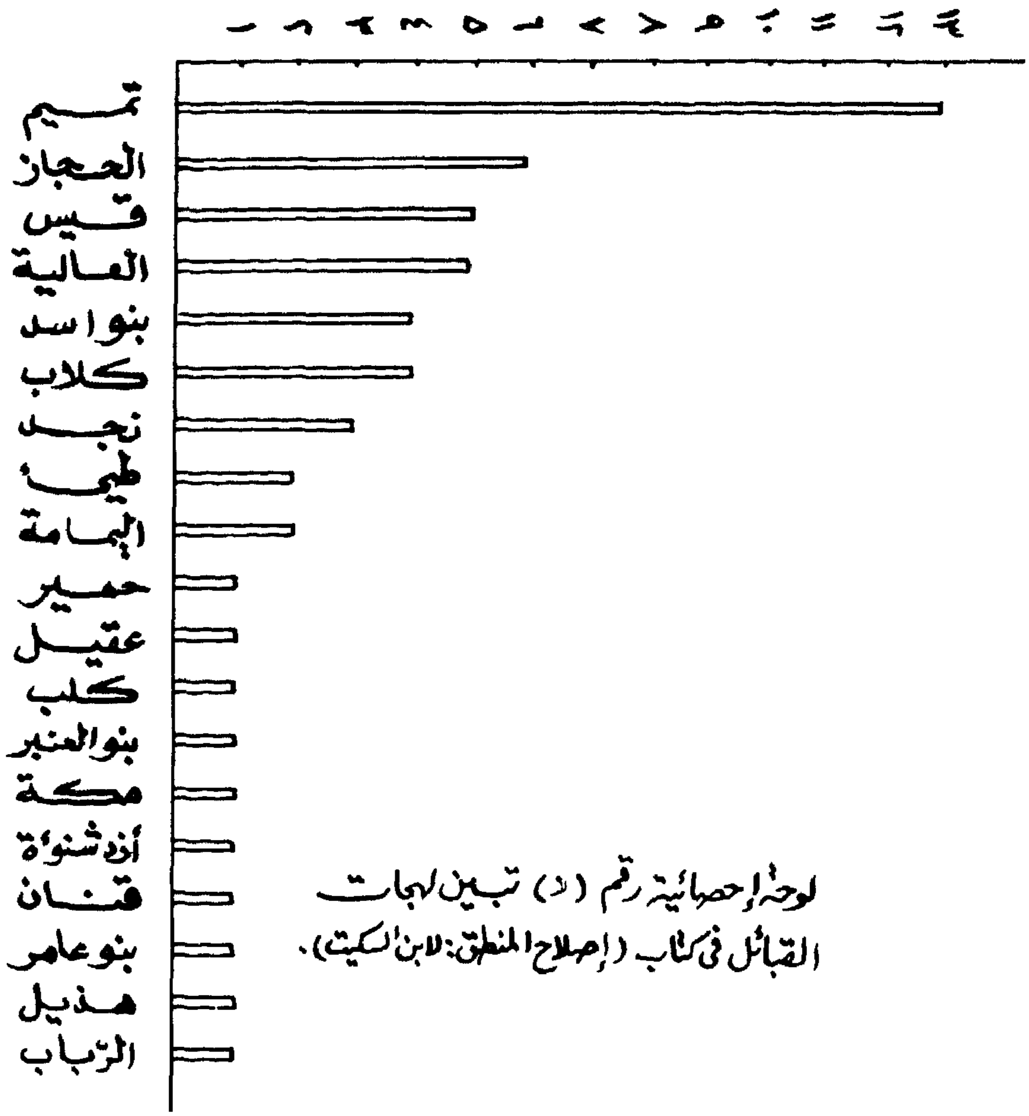
لوحة إحصائية رقم (١) تبين لهجات القبائل فى كتاب (النوادر فى اللغة: لأبى زيد الأنصارى).



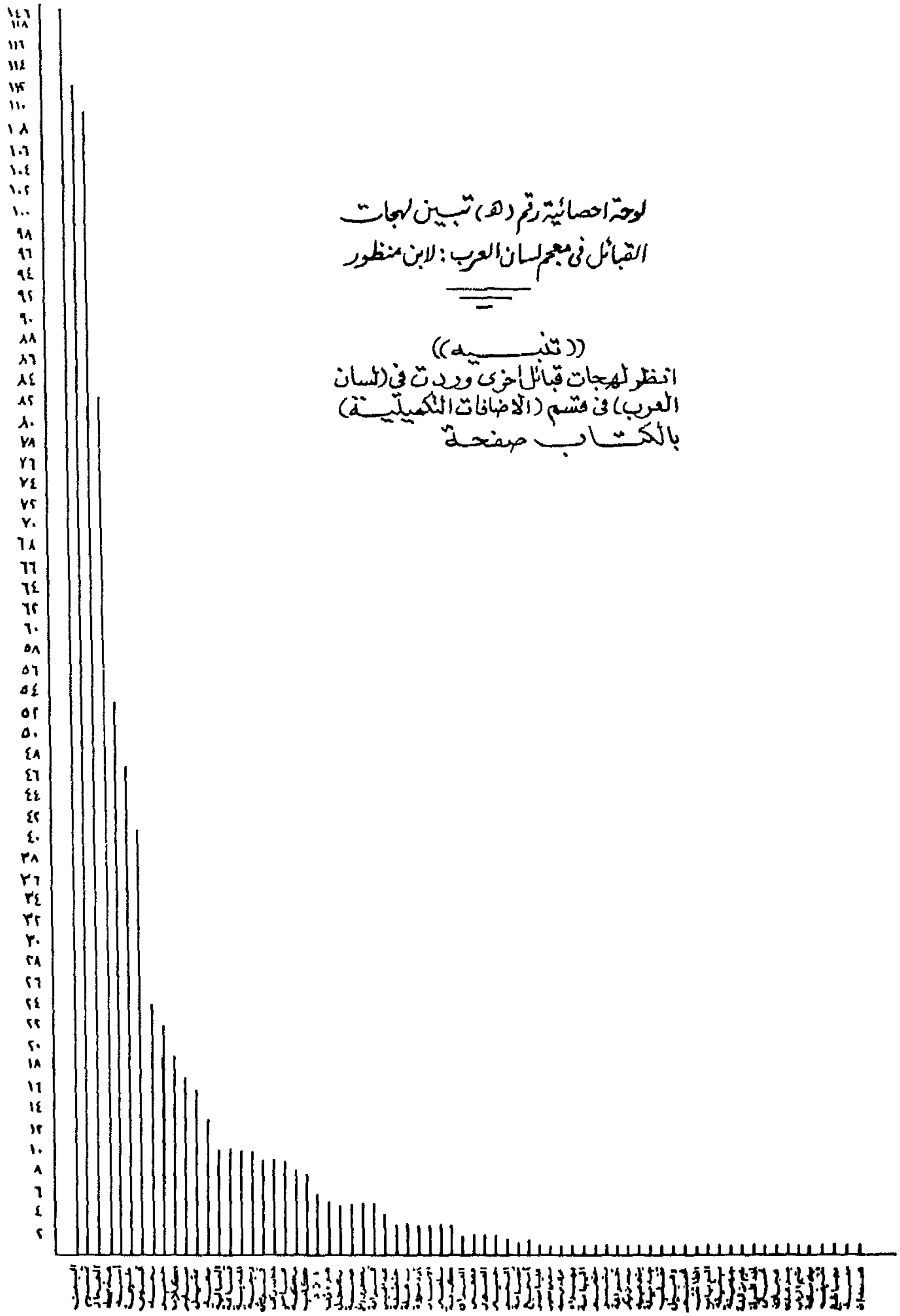
لوحة إحصائية رقم (ب) تبين لهجات
القبائل في كتاب شرح المفصل : لابن يعيش)



لوحة احصائية رقم (ج) تبين لهجات
القبائل في كتاب (خزانة الأدب) للبغدادي

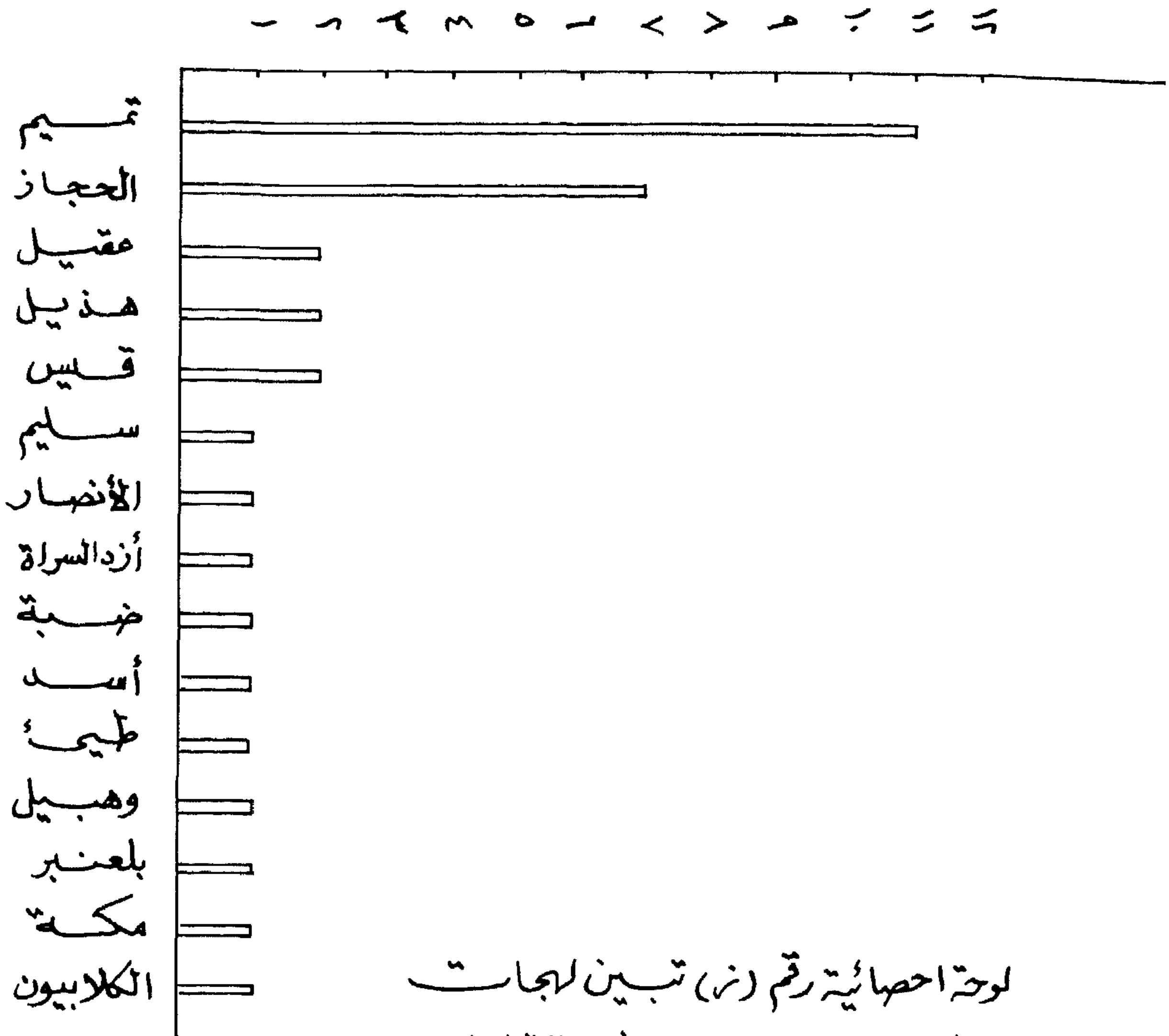


لوحة إحصائية رقم (لا) تبين لهجات
القبائل في كتاب (إصلاح المنطق: لابن السكيت).


لوحة احصائية رقم (هـ) تبين لهجات
القبائل فى معجم لسان العرب : لابن منظور
((تنبيـــــه))
انظر لهجات قبائل اخرى وردت فى (لسان
العرب) فى قسم (الاضافات التكميليـــة)
بالكتـــاب صفحة



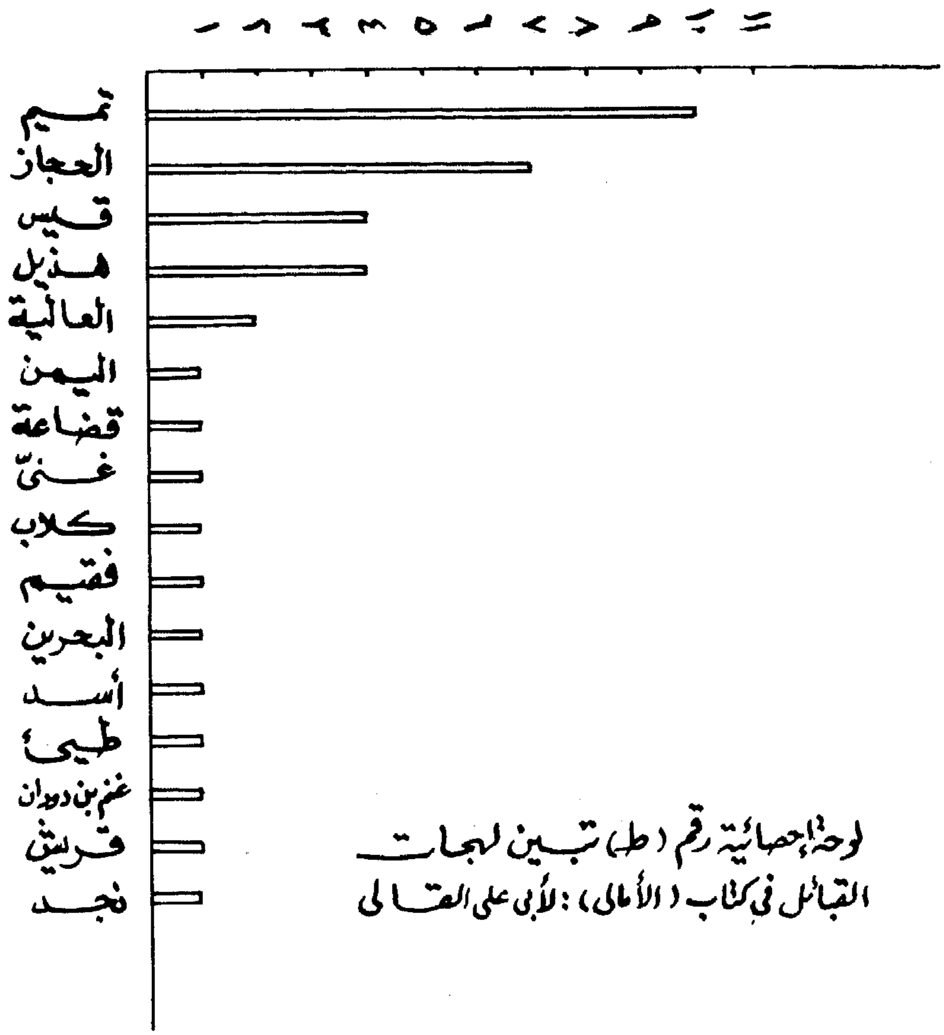
لوحة إحصائية رقم (و) تبين لهجات القبائل في كتاب (مختصر شواذ القرآن: لابن خالويه).



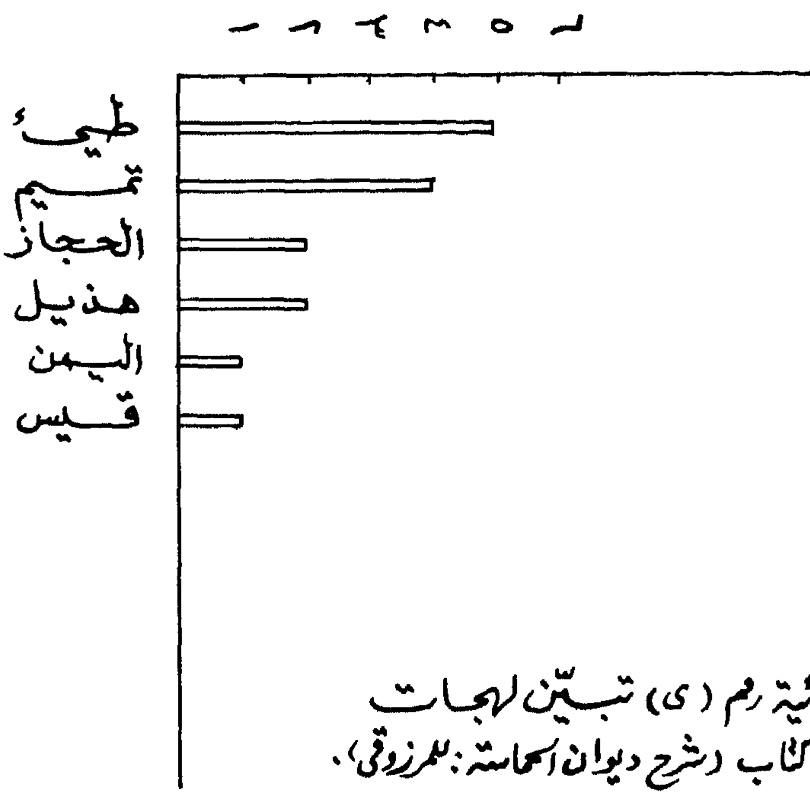
لوحة احصائية رقم (٧) تبين لهجات القبائل في كتاب (المحتسب في شواذ القراءات لابن جنّي).



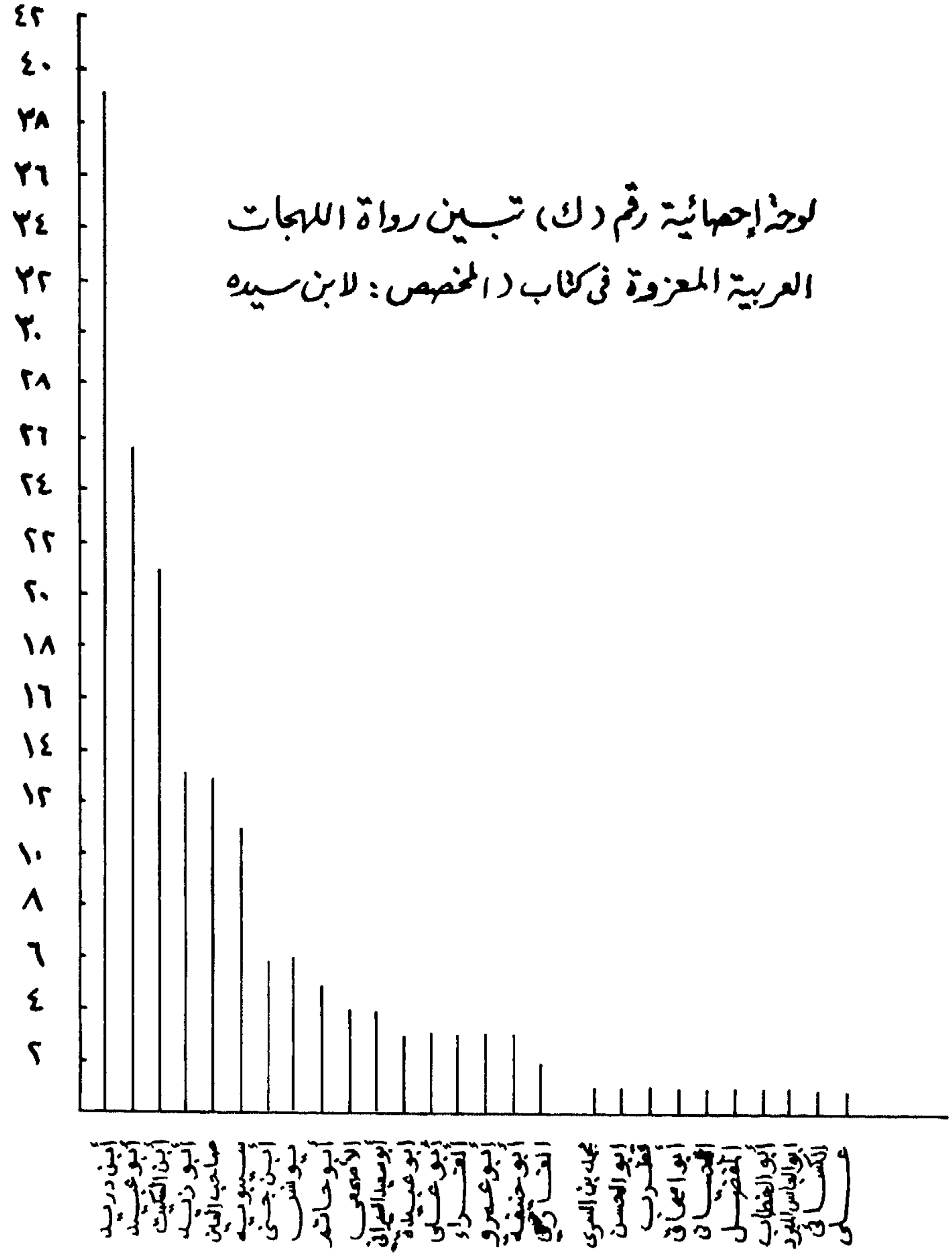
لوحة إحصائية رقم (ح) تبين لهجات القبائل في كتاب (إبراز المعاني: لأبي شامة).



لوحة إحصائية رقم (ط) تبين لهجات
القبائل في كتاب (الأمالي) لأبي علي القالي



لوحة إحصائية رقم (ى) تبين لهجات
القبائل في كتاب «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي».


لوحة إحصائية رقم (ك) تبين رواة اللهجات
العربية المعزوة في كتاب (المخصص) لابن سيده
٤٢
٤٠
٣٨
٣٦
٣٤
٣٢
٣٠
٢٨
٢٦
٢٤
٢٢
٢٠
١٨
١٦
١٤
١٢
١٠
٨
٦
٤
٢



لوحة إحصائية رقم (ل) تبين رواة اللهجات العربية المعزوة في كتاب (الهمع: للسيوطي).

ملاحظات ونقد :

وتشمل ملاحظات على المصنفات العربية السابقة والموضحة باللوحات الإحصائية في كتب النحو واللغة والقراءات ، وكتب الأدب العامة ، وكتب شروح الأشعار ، وهي :

١ – أن هذه المصنفات تعزو لهجات القبائل الى بيئات جغرافية شاسعة : كاليمن ، والحجاز ، واليمامة ، ونجد ، والعالية ، وأحياناً كانت تنكمش الرقعة الجغرافية حتى تتحدد معالمها كالعزو الى عالية تميم[١] ، أو سفلى قيس[٢] ، أو عليا مضر وسفلاها، أو لغة أهل الغور[٣]، أو لغة أهل الجوف[٤] .

٢ – كما تعزوها حيناً الى مجموعات قبلية وأحلاف مثل : الرباب ، فقد كونوا حلفاً يشتمل على خمس قبائل وهي : ضبّة ونور وعكل وتيم وعدي – وسموا جميعاً باسم الرباب[٥] ، لأنهم أدخلوا أيديهم في رب وتحالفوا عليه[٦] . وهوازن التي يرجح أنها كانت في الأصل حلفاً ضم جملة قبائل[٧] .

وكما عزيت اللهجات الى الرباب وهوازن عزيت كذلك الى «خثعم» وقد ذهب (ليفي ديلا فيدا) في المعلمة الإسلامية الى أن خثعماً ليست قبيلة في الأصل وإنما هي حلف تألف من قبائل متعددة تجمعها مصالح مشتركة[٨] .

٣ – كما كان العزو يشمل حيناً آخر أكبر وحدة سياسية في اصطلاح النسابين كالعزو الى مضر أو عدنان ، وأحياناً أخرى يشمل أصغر وحدة سياسية كالعزو للهجات البطون والفروع والأحياء : كلهجات بني الهجيم ، وزبيد ، وحيدان وكلب وهما بطنان من قضاعة ، ونبهان وهي بطن من طيىء ، وكعب بن ربيعة وهي بطن من عامر بن صعصعة .

---

(١) عالية تميم : فيها بنو عمرو بن تميم ، وهم بنو الهجيم والعنبر ومازن : اللسان : ٣٢٦/١٩ .
(٢) سفلى قيس : هم بطونها المتفرعة منها والتي تسكن نجداً مجاورة لتميم : كعقيل وغنى .
(٣) انظر : الفائق للزمخشري : ١٩٨/٣ - ١٩٩ .
(٤) الجمهرة : ٣٠٢/٣ .
(٥) معجم كحالة : ٤١٥/٢ .
(٦) اللسان : ٣٨٨/١ .
(٧) تاريخ العرب : ٣٢١/٤ جواد علي .
(٨) المرجع السابق : ٢٦٣/٤ .

٤ – وقد وجدت بعض هذه الكتب يعزو لهجات القبائل الى الحواضر – كلهجة مكة، والمدينة، والطائف وخيبر والعراق .

٥ – كما شاهدنا بعض المصادر قد تفردت بأسماء لهجات عربية لم تشاركها فيها مصادر أخرى، فابن دريد قد تفرد بذكر « لغة زهران »[١] وهم بطن من شنوءة[٢]، ولغة الشّرى[٣]، وهم بطن من زهران بن كعب[٤]، كما تفرد أبو حيان بلغة بني الصّعدات[٥]، والفراء بلغة (بني إنسان) في معانيه ٢/١٠٧ وهي قبيلة عربية . انظر (نهاية الأرب ص ٨٨) .

وتفرد ابن السكيت بنقله عن الفراء لغة القناني[٦] – وهو منسوب الى قنان بطن من بلحارث بن كعب[٧]، كما تفرد الخليل بذكر لهجة الخفاجيين[٨]، والخفاجيون من بني عقيل[٩]، كما تفرد ابن منظور بذكر لهجة أهل بثينة[١٠]، وكانوا يسكنون هضبة على طريق السفر بين البحرين والبصرة[١١] .

٦ – يكثر عدد اللهجات كثرة غامرة – إذا عزيت الى القبائل المشهورة كالحجاز وتميم، بينما تخبو وتضعف إذا عزيت الى القبائل المغمورة .

٧ – كما لوحظ أن بعض أجزاء الجزيرة العربية كان مستودعاً لنشر لهجات من نوع خاص، ويظهر ذلك في كثرة ما جاء عن أهل المدينة والطائف من مفردات لهجية وافرة اختصت بها النخل والكرم، وعللت هذا باشتهار هذين المكانين بهذين النوعين، ولهذا رأينا صورة النخلة على عملتهم النقدية (تاريخ العرب ٨/١٨٥ جواد علي) . كما سجل القرآن ذلك في

---

(١) اشتقاق ابن دريد : ٢٩٧ وستنفلد .
(٢) معجم كحالة : ٢/٤٨٢، نهاية الأرب للقلقشندي : ٢٧٤ .
(٣) اشتقاق ابن دريد : ٣٩٩ وستنفلد .
(٤) معجم كحالة : ٢/٥٩٠ .
(٥) البحر المحيط : ١/٢١٨، ٢٢٥ .
(٦) إصلاح المنطق : ٨٩ .
(٧) اللسان : ١٧/٢٢٩، معجم كحالة : ٣/٩٦٦ .
(٨) العين للخليل : ١١٦ بغداد .
(٩) نهاية الأرب للقلقشندي : ٢٤٦ .
(١٠) اللسان : ١٨/٣١٨ .
(١١) انظر معجم البلدان، والتاج في تلك المادة .

قوله تعالى « ما قطعتم من لينة أو تركتموها » [الحشر آية ٥] وهي النخلة بلغة الأوس (كتاب اللغات في القرآن ص ٤٨) . كما لوحظ أن هذه المفردات لما هاجرت من أماكنها الأصلية أصابها انحراف صوتي ودلالي ؛ لأنهـــا انتقلت الى بيئة جديدة . انظر : اللسان ٩٨/١٩ . كتاب النخل للأصمعي ٦٥ – ٧١ . وكتاب الكرم للأصمعي ٧٥ – ٧٦ .

٨ – يلاحظ على ديوان الحماسة شرح المرزوقي أن لهجات طيىء قد زادت عن غيرها بل فاقت الحجاز وتميم وذلك حدث عجيب ، وأعلل هذا بأن أبا تمام قد اختار أكثر شعراء الحماسة من طيىء ، ولهذا كانت لهجاتها أكثر من غيرها من القبائل .

٩ – على أن الرقعة الجغرافية والمناخ الفكري كثيراً ما يحددان اللهجات كما وكيفا ، ومن ذلك أن لهجات اليمن بلغ عددها ٣١ لهجة ، وحمير ١١ لهجة وذلك في كتاب « منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم ... » الذي ألفه نشوان الحميري . على حين لم يسجل للحجاز إلا لهجة واحدة ، كما لم يسجل لقبيلة تميم شيئاً ، على الرغم من المكانة السامية لكل من الحجاز وتميم ، والسبب أن المؤلف يمنى حميري متأثر بالعاطفة القبلية ، وما قيـــل عن نشوان الحميري يقـــال عن : الهمداني في : إكليله ، وابن دريد في : جمهرته ، حيث فاقت لهجات اليمن عندهما غيرها من اللهجات ؛ لأنهما من اليمن أيضاً .

١٠ – لغات القبائل والأماكن الآتية إلى الرسم البياني في (لسان العرب)

وهي :

لغات : نجران — هجر (اللسان ٧٩/١١) . أهل السّواد (سوادية) . عُمانية . بنو مُضَرِّس (اللسان ٧٦/١) . عَمَّان . دبير (الدبيريون) . لغة أهل الغرب . وادي القرى . خفاجة . بحرانية (البحرانيون) . حوران . يربوع . الصّمان . الجوف . مدين . النَّخَع . اليهود (اللسان ٤١/١٧) . البصرة . الكوفة . الشام . بغداد .

هذا : ولم نذكر في الأحصاء كثيرا من لغات المدن الأخرى .

كلغة مصر التي وردت (باللسان ٣/ ٤٩٠ ، ٣٨/١٥ ، ٢٢٤/١٧ ، ٣٤٧) ولغة إفريقية (اللسان ١٦٠/١٥) . أو لغة النبط (اللسان ٣٧٥/١٥) واللغات غير العربية كلغات : القبط (اللسان ٢٢٠/١٧) أو لغات اليونان (اللسان ٨١/٨) . أو اللغات العبرانية (اللسان ١٠٨/٨) . وهراة (اللسان ٣٦١/٨) . والبربر (اللسان ٤٣١/٦) . وخراسان (اللسان ٧/٤) . وحوران .

لأن مثل هذا يحتاج إلى دراسة حاصة . نرجو أن نقوم بها إن شاء الله .

ثانياً : نظرة علماء العربية إلى اللهجات من خلال مؤلفاتهم ورواياتهم

أولاً : اللهجات بين البصريين والكوفيين :

نقل السيوطي عن أبي نصر الفارابي ما يفيد أن الرواة لم يأخذوا في الاعتبار لهجات قبائل كثيرة ثم أخذ يعدد هذه القبائل فيقول « وبالجملة[1] فإنه لم يؤخذ عن حضري قــط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم ، فــإنه لم يؤخذ :

١ – لا من لخم ولا من جذام ، لأنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط .

٢ – ولا من قضاعة ولا من غسان ولا من إياد ، فإنهم كانوا مجاورين لأهــل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرءون في صلاتهم بغير العربية .

٣ – ولا من تغلب ولا النمر ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية .

٤ – ولا من بكر ، لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس .

٥ – ولا من عبد القيس لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند والفرس .

٦ – ولا من أزد عمان لأنهم كانوا مخالطين للهند والفرس .

٧ – ولا من أهل اليمن أصلاً لمخالطتهم للهند والحبشة .

٨ – ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة .

٩ – ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم .

١٠ – ولا من حاضرة الحجاز ...

وبهذا يكون علماء العربية قد ضيقوا المنافذ حين حصروا أخذ اللغة عن « قيس وتميم وأسد،

(١) الاقتراح : ١٩ – ٢٠ ، المزهر : ١/٢١١ – ٢١٢ .

فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر مـــا أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين »[١] . وهذه القبائل التي اعتمد عليها في الأخذ هي قل من كثر وغيض من فيض ، وهي لا تمثل العربية تمثيلاً كاملاً ، وإلا فأين هي من العرب المنتشرة في أرجاء الجزيرة العربية ؟ قد تكون حجتهم الحرص الشديد على سلامة اللغة وخوفهم من تسرب اللحن إليها ولكن يقف في سبيل ذلك أن اللحن وجد بين قبائل العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ثم إننا إذا اعتبرنا كل تعبير لهجي عن اللغة المتكلمة لحناً — فما كان أكثر اللحن الذي دخل على العربية الفصحى قبل الإسلام وبعده ، لأن العرب ، وإن كان لهم قبيـــل الإسلام لغة أدبية موحدة — فقد كانت لهم لهجات للتخاطب ، ومن العبث أن يظن ان الفصحى ظلت بعيدة عن آثار هذه اللهجات ، فهي مختلطة بها ، مؤثرة ومتأثرة آخذة منهـــا ومعطية ، ولهذا خانهم التوفيق عندما بتروا هذه اللهجات بحجة أنها لهجات سوقية ، مع أنها كثيراً مـــا تفيدنا في حل مشكلات الفصحى وتساعدنا في فهم العربية ، وعندما حددوا الأخذ عن قبائل معينة ، كان استقراؤهم محصوراً في نطاق ضيق ، وملاحظتهم في فهم العربية محدودة ، ولو أنهم وسعوا الأخذ عن القبائل العربية — لتفتحت أمامنا طرق جديدة في تاريخ عربيتنا ولكان منهجهم منهجاً تسجيليـّاً يسجل الظواهر اللهجية المختلفة .

وإذا كان أحد أئمة العربية[٢] يعترف في صراحة بأننا لم يصلنا من العربية إلا النزر اليسير « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »[٣] فمـــاذا يبقى من هذه العربية إذن بعد ما عزلوا وبتروا جميع القبائل التي رفضوا الأخذ عنها .

قد تكون حجتهم أن لهجات تلك القبائل غير فصيحة ، لأنهم كانوا يجاورون الأمم حولهم ، فهم مختلطون بالأجانب . ولكن يقف في سبيلهم أيضاً أنهم اعتبروا أن قريشاً « أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما في النفس »[٤] كما يرى ابن فارس « أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة »[٥] مع أن قريشاً هذه كانت لها جولات خارجية اتصلت فيها بالقبائل المختلفة ، وبالأمم الأجنبية ، يدل

---

(١) الاقتراح : ١٩ .

(٢) هو أبو عمرو بن العلاء المازني التميمي : أحد القراء السبعة : توفي ١٥٤ ﻫ : طبقات القراء : ١/٢٨٨ .

(٣) الاقتراح : ٢٣ .

(٤) المزهر : ١/٢١١ ، الاقتراح : ١٩ .

(٥) الصاحبي : ٢٣ ، المزهر : ١/٢١٠ .

على هـــذا رحلاتهم التجارية في الشتاء والصيف كما في القرآن ، فاتصال قريش بالأمم المجاورة لم يمنــع أن تكون لهجتها فصيحة – بل أفصح العرب كما يقولون ، ولهذا لا أقبل رفض لهجات هذه القبائل لهذا السبب ، ولسببين آخرين :

أولهما : أن لغات هذه القبائل التي رفض الرواة الأخذ عنها أراها متمثلة في القرآن الكريم فلغة غسان وردت في القرآن أربع مرات[1] ، ولغة أزْدِ عُمان[2] ، ولغة بني حنيفة ثـــلاث مرات[3] ، ولغة خزاعة مرتين[4] ، ولغة لخم مرتين أيضاً[5] كما ورد عن ابن عبـــاس أن من القبائل التي ورد القرآن بلغتها – لغة ثقيف[6] وعن عمر « لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف » وقول عثمان « اجعلوا المصلى من هذيل ، والكاتب من ثقيف »[7] كما ثبت أن القرآن بعضه بلغة جذام[8] ، وبعضه بلغة اليمن[9] ، وبعضه بلغة قضاعة[10] ، وبعضه بلغة اليمامة[11]، وبعضه بلغة النمر[12] ، كل ما في الأمر أن بعض اللهجات أسعد به من بعض وأكثر نصيباً.ومن هذه الروايات أرى أن لهجات هذه القبائل فصيحة – على عكس ما رأى علماء العربية لأنهـــا موجودة في القرآن ، ولهـــذا أطعن في مقياس الفصاحة الذي وضعه رواة العربية ووزنوا به لهجات العرب جميعاً .

ثانيهما : أن بعضاً من أئمة العربية قد استشهد بلهجات هذه القبائل ، ومنهم ابن مالك حيث اعتمد على لغات لخم وخزاعة وقضاعة[13] .

---

(١) كتاب اللغات في القرآن الصفحات : ٢٧ ، ٢٨ و ٣١ ، ٤٨ وانظر الإتقان ١/١٣٦ .

(٢) كتاب اللغات : ٤٢ .

(٣) كتاب اللغات ٢٥ ، ٤٠ ، ٤٤ وانظر الإتقان : ١/١٣٦ .

(٤) كتاب اللغات : ٢١ ، ٢٤ وانظر الإتقان : ١/١٣٦ .

(٥) كتاب اللغات : ٢٧ ، ٣٤ وانظر الإتقان : ١/١٣٦ .

(٦) الإتقان : ١/٤٨ ، كتاب اللغات : ٢٨ .

(٧) المزهر : ١/٢١١ .

(٨) إتقان : ١/١٣٦ .

(٩) إتقان : ١/٤٩ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، المزهر : ١/٢١١ .

(١٠) إتقان : ١/٥٠ .

(١١) إتقان : ١/١٣٦ .

(١٢) إتقان : ١/١٣٦ .

(١٣) اقتراح : ٢٠ .

وقد يكون اعتماد علماء العربية على القبائل التي أخذوا عنها – أنها بدوية وهم دائماً يربطون بين الفصاحة والبداوة . ولكنني أرى أن بداوة اللهجة لا يعني أنها هي الفصحى دون غيرها ، لأن سمة الفصاحة لم يستأثر بها البدو وحدهم فقد قرر ابن بسام أنه كثيراً ما سمع من الاعراب ألفاظاً مستكرهة قبيحة[1] .

كما ان النظرة تغيرت كثيراً بالنسبة الى لغة البدو « حيث لم تعد تحوط البداوة بذلك الإطار البديع من الكلف والشغف »[2] .

والدليل على ذلك ما رواه ابن جنى « وقد كان طرأ علينا أحد من يدعي الفصاحة البدوية » ... فتلقينا أكثر كلامه بالقبول له ، وميزناه تمييزاً حسن في النفوس موقعه الى أن أنشدني يوماً شعراً لنفسه يقول في بعض قوافيه « أشئوها وأدأؤها بوزن أشععها وأدععها – فجمع بين الهمزتين كما ترى » ويعقب ابن جنى على رواية هذا الأعرابي البدوي بقوله « وهذا ما لا يبيحه قياس ، ولا ورد بمثله سماع »[3] فمع أن هذا الرجل أعرابي بدوي ، إلا أن هذا لم يشفع له حيث امتنع ابن جنى عن التلقي عنه ، بعد أن نال من فصاحته ، فالفصاحة إذن ليست مقصورة على البدو وحدهم بدليل قول ابن جنى ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم ، ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم – لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر »[4] فالقول بأن لغة البدو أفصح من غيرها من لهجات الحضر قول ينقصه البرهان ، ولا يثبت أمام الواقع « ومن العبث أن نبحث عن المثل الأعلى للكمال اللغوي في نوع من اللغات دون سواها ، فما قصرت لغة عن خدمة من لديه فكرة يريد التعبير عنها »[5] .

ومقياس الفصاحة كما أراه لا يتصل بالبداوة والحضارة ، لأننا رأينا فيما تقدم بدواً فسدت لهجاتهم ، وإنما يجب أن يكون المقياس هو الوثوق من سلامة لغة المحتج به بدوياً كان أم حضرياً ، وإذا كان ابن جنى أجاز الأخذ عن العربي لو انفرد بشيء لا تعرفه قبيلته ولا غيرها ما دام غير

---

(١) العربية : ١٦٣ فوك .

(٢) العربية : ١٦٣ فوك .

(٣) الخصائص : ٦/٢ دار الكتب .

(٤) الخصائص : ٥/٢ دار الكتب ، الاقتراح ٢٤ .

(٥) دلالة الألفاظ : ١٥ دكتور مراد كامل .

منهم فلنا أن نقبله منه « لأنه إما أن يكون شيئاً أخذه عمن ينطق بلغة قديمة لم يشارك في سماع ذلك منه ... وإما أن يكون شيئاً ارتجله »[1] .

فما بالك بلهجة قبيلة بأسرها أو جمع من القبائل ، ولو قد سمعوا ما يراه ابن جني من حديثه عن « اختلاف اللغات وكلها حجة »[2] أو قوله « وكيف تصرفت الحال » فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطيء »[3] وهتاف أبي حيان « كل ما كان لغـــة لقبيلة قيس عليه »[4] — لسجلوا لهجات القبائل جميعها حفاظاً على تاريخ أمة ، ومجـــد شعب ، ومستودع حضارة .

وربما كان اختيارهم لتلك القائمة التي احتجوا بكلامها على أساس أنها القبائل الفصيحة ، أو الأدخل في الفصاحة ، أو التي بنيت عليها الفصحى ، ولكنني ألمح خلافاً عريضاً قد حدث بين الرواة بشأن أي القبائل أفصح ، ومن ذلك :

١ — أن « جرماً » فصحاء العرب[5] . وقد ساق لها المبرد قصّة تؤيد أنها أفصح الناس[6] .

٢ — وعن الخليل : أفصح العرب نصر قعين أو قعين نصر[7] .

٣ — ما رواه أبو عمرو « من أن أفصح الشعراء ألسناً وأعربهم — أهل السروات ، وهن ثلاث وهي الجبال المطلة على تهامة ممـــا يلي اليمن ، فأولها : هذيل ... ثم سراة الأزد — أزد شنوءة »[8] .

٤ — أفصح الناس عليا تميم وسفلى قيس[9] .

---

(١) الخصائص : ٢/٢٤ دار الكتب .

(٢) الخصائص : ٢/١٠ دار الكتب ، الاقتراح : ٢٤ .

(٣) الخصائص : ٢/١٢ دار الكتب ، الاقتراح ٧٨ .

(٤) المزهر : ١/٢٥٨ .

(٥) الفائق للزمخشري : ٢/٤٥٩ .

(٦) كامل المبرد : ١/٣٧١ ، مفصل الزمخشري ٣٣٣ ، شرح السيرافي ٥/٤٦٨ وقارن بما ورد في الخزانة : ٤/٥٩٥ - ٥٩٦، ودرة الغواص : ١١٤ ط الجوائب .

(٧) كتاب العين : ٨٨ ط بغداد ، اللسان : ١٧/٣٦٥ .

(٨) المزهر : ٢/٤٨٣ .

(٩) المزهر : ٢/٤٨٣ .

٥ ـ أفصح الناس سافلة العالية ، وعالية السافلة ، يعني عجز هوازن[١] .

٦ ـ ثقيف ، وذلك لما سمع من عمر بن الخطاب « لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف »[٢] .

٧ ـ وخزاعة أعرب الناس[٣] .

٨ ـ وهذيل ـ حيث يرى المقدسي أن هذيلاً[٤] أفصح لغات العرب .

ومثل هذا الخلاف الشديد في أي اللهجات أفصح ـ لا يطمئننا على قائمة الفارابي لأنها تتعارض مع هذه الروايات ، على أن قائمة الفارابي تحمل في ثناياها تعصباً للقبائل المشهورة ذائعة الصيت في المجتمع العربي ، بدليل أن القبائل المغمورة والتي لم ترزق حظاً من الشهرة لم يأخذوا عنها ، والدنيا إذا أقبلت على قوم أعطتهم محاسن غيرهم .

وأرجح أن علماء البصرة كانت عندهم حساسية لغير قائمة الفارابي ، وتلك الحساسية تجلت واضحة في عقول البصريين عندما رأت بعض الدوائر العلمية الممثلة في رجال الكوفة أن تتوسع في الأخذ فأدخلت قبائل استنكفت الدوائر البصرية أن تأخذ عنها ، فقد أورد ابن النديم في أخبار الرياشي البصري أنه قال « إنما أخذنا اللغة من حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، وهؤلاء (يقصد الكوفيين) أخذوا اللغة من أهل السواد أكلة الكواميخ والشواريز »[٥] كما وجدنا تلك الحساسية تظهر بوضوح وتتحول الى هجوم عنيف في وجه الكسائي زعيم المدرسة الكوفية ، فقد ذكر محمد بن يزيد عن المازني عن أبي زيد قوله « قدم الكسائي البصرة ، فأخذ عن أبي عمرو ويونس وعيسى بن عمر علماً كثيراً صحيحاً ثم خرج الى بغداد فقدم أعراب الحطمة فأخذ عنهم شيئاً فاسداً فخلط هذا بذاك فأفسده »[٦] وهذه التهم التي يوجهها البصريون الى علماء الكوفة لاسيما الكسائي لا دليل عليها ، لأن الكسائي رأى أن تلك القبائل لا يصح إغفالها، لأن أصحابها عرب

---

(١) المزهر : ٤٨٣/٢ .

(٢) الصاحبي : ٢٨ .

(٣) اللسان : ١٠٤/١٢ .

(٤) أحسن التقاسيم : ٩٧/١ .

(٥) الفهرست : ٩٢ ، أخبار النحويين البصريين : ٦٨ (الكامخ : أدم يؤكل لتشهي الطعام والشواريز جمع شيراز وهو اللبن الرائب .

(٦) أخبار النحويين البصريين : ٤٤ ترجمة أبي زيد ، معجم الأدباء : ترجمة الكسائي .

يعيشون على أرض عربية ، ويتكلمون لغة عربية، ولله در ابن منظور حيث قال « كل من سكن بلاد العرب وجزيرتها ونطق بلسان أهلها ، فهم عرب يمنهم ومعدهم »[1] وقد ثبت أن الكسائي لم يقصر جمعه على تلك القبائل ، بل جاء في البغية أنه « خرج الى البصرة فلقي الخليل وجلس في حلقته ... ثم قال للخليل : من أين أخذت علمك هذا ؟ فقال : من بوادي الحجاز ونجد وتهامة فخرج ورجع وقد أنفد خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ ، فقدم البصرة فوجد الخليل قد مات وفي موضعه يونس فجرت بينهما مسائل أقر له فيها يونس وصدره في موضعه »[2] ويقول أبو زيد الأنصاري « ما جربت على الكسائي كذبة قط »[3] وهذه الحساسية السديدة والتهم الموجهة الى رجال الكوفة من علماء البصرة منشؤها العصبية — قاتلها الله ! فإنها تعمي البصائر وتعصب الأنظار .

والحق أن الكوفيين أشد احتراماً لما ورد عن لهجات القبائل فلم يهملوا شيئاً ، ولهذا كان رجال الكوفة لمّاحين لطبيعة اللغة وفهمها فهماً أصيلاً ، لأن كل لهجة تمثل حقلاً لغوياً لا يصح إهداره أو الحيف عليه ، ولا شك أن أي لهجة من تلك اللهجات المغمورة قد أمدت الفصحى بروافد غنية أضافت الى متنها إضافات في الدلالة والمستوى الصرفي والصوتي ، ولهذا انتصر الكسائي على سيبويه في المناظرة التي وقعت بينهما وشايعت قبائل العرب الكسائي، لأن الكوفيين وعلى رأسهم زعيم مدرستهم قد توسعوا في الأخذ عن مصادر أسقطها البصريون . يوضح هذا ما جاء عن الأزهري من أن « الغالب على الكسائي اللغات »[4] كا وصف الكسائي بأنه « أعلم من أبي زيد بكثير — بالعربية واللغات »[5] ولن يضير هذه القبائل التي لم يأخذ عنها البصريون مخالفة لهجاتها للهجة قريش ، لأن « الناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء »[6] ولهذا أرجح أن أخذ العربية عن تلك القبائل التي استحقرها العرب أولى من تلك الزيادات التي زيدت في لغة العرب وحملت عليها حملاً — وهي منها براء[7] .

(١) اللسان : ٢/٧٧ .

(٢) البغية : ٣٣٦ .

(٣) ضحى الإسلام : ٢/٣٠٧ .

(٤) مقدمة تهذيب اللغة : ٥٢ .

(٥) معجم الأدباء : ١٢/١٨٩ .

(٦) الخصائص : ٢/١٢ .

(٧) انظر : صيغاً في كتاب « الأيام والليالي والشهور » للفراء : ٣ ، ١٠ .

والحق أن موقف الكوفيين هذا قد دفعهم الى الاعتداد بالقراءات ، لأن القراءات ما هي إلا وجوه من الخلاف بين لهجات القبائل، بعكس البصريين الذين أخضعوها لأصولهم، وصنعتهم، حتى رموا كثيراً منها بالشذوذ والغلط واللحن « بل ربما حكموا على القراءة بالوهى ، وعلى القارىء بالوهم »[١] .

هذا وقد ظهرت معارضات النحاة البصريين للهجات القبائل في عدة أضرب منها :

١ – طعنهم في القراءات القرآنية – والتي تمثل لهجات عربية :

أ) ففي قوله تعالى « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتموني من قبل »[٢] قرأ حمزة بكسر الياء ، ووافقه الأعمش كما أجازها الفراء ، وأبو عمرو بن العلاء[٣] ، وهي لغة بني يربوع[٤] ، إذ الكسر عندهم مطرد في الياء المضاف إليها جمع المذكر السالم في حالة الوصل ، وقد قال القاسم بن معن عن هذه القراءة (إنها صواب)[٥] ، (وكان ممن هذا ثقة بصيراً)[٦] ، وقال عنها الأخفش « ما سمعت هذا من أحد من العرب ولا من النحويين »[٧] ، كما وصفها الزجاج بأنها « عند جميع النحويين رديئة مرذولة »[٨] ، وأنكرها كذلك[٩] أبو حاتم ، ورماها الزمخشري بالضعف»[١٠] ، وزاد في إضعافها وتوهينها بأن الشاهد الشعري عليها لرجل مجهول ، والحق أن الشاهد للأغلب العجلي ورآه أبو شامة في أول ديوانه[١١] ، ويرى المعري (إجماع أصحاب العربية على كراهة هذه القراءة[١٢] ، كما يرى أن أبا عمرو ما أجاز هذه

---

(١) الإنصاف : المسألة : ٦٠ .

(٢) إبراهيم : آية ٢٢ .

(٣) النشر : ٢/٢٩٨ ، الإتحاف : ٢٧٢ .

(٤) الخزانة : ٢/٢٥٨

(٥) النشر : ٢/٢٩٩ .

(٦) إبراز المعاني : ٣٦٩ .

(٧) البحر : ٥/٤١٩ .

(٨) الخزانة : ٢/٢٥٩ ، إبراز المعاني : ٣٦٩ ، البحر : ٥/٤١٩ .

(٩) البحر : ٥/٤٢٠ ، الدر اللقيط : ٥/٤١٩ .

(١٠) الخزانة : ٢/٢٥٩ .

(١١) حاشية زين الدين على التصريح : ٢/٦٠ .

(١٢) التصريح : ٢/٦٠ .

القراءة إلا متهزئاً[1]»، وكأنه يشير بذلك الى ما جاء عن أبي عمرو عندما سئل «إن أصحاب النحو يلحنوننا فيها، فقال: هي جائزة»[2].

وأستنبط من هذا العرض أن البصريين أنكروا هذه القراءة، إذ أن الأخفش والزجاج، وأبا حاتم والمبرد، والزمخشري على مذهب البصريين، أما القاسم بن معن فهو من رؤساء النحويين الكوفيين[3]، ولهذا أجاز القراءة بها، كما أجازها أبو عمرو بن العلاء، لأنه إمام في القراءة، والمجيزون على حق لأن هذه القراءة صحت سماعاً، كما أنها صحت قياساً، إذ الياء كسرت اتباعاً للكسرة التي بعدها في (بمصرخيّ إني) واللسان فيها يعمل من موضع واحد، ووجه واحد، ففيها الانسجام وتقريب الأصوات بعضها من بعض، وذلك ما يميل إليه البدو أمثال بني يربوع.

ب) كما قرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع وغيره قوله تعالى «وإذ قلنا للملائكةُ اسجُدوا»[4] بضم التاء – (وحكى أنها لغة أزد شنوءة)[5]. وقال عنها الزجاج «هذا غلط من أبي جعفر»[6] كما خطأها الفارسي[7]، ولم يجزها الزمخشري[8] «لأن حركة الإعراب عنده لا يصح أن تستهلك لحركة الاتباع»[9]. ولكن أرجح أن العربية تحرص على الانسجام الصوتي والإتباع حرصها على الاعراب، ولهذا «رواها الكسائي»[10] ووجهها أن التاء ضمت إتباعاً لحركة الجيم، ولو لم يتبعوا لخرج اللسان من كسر الى ضم، والعرب تكره ذلك.

وأرى من ذلك أن الزجاج، والفارسي، والزمخشري وكلهم بصريون – قد غلطوا أبا جعفر – أحد القراء المشاهير الذين أخذوا القرآن عرضاً عن عبدالله بن عباس، ثم هو شيخ نافع

---

(١) الغفران للمعري دار المعارف: ٢٣٩ – ٢٤٠.
(٢) إبراز المعاني: ٣٧٠.
(٣) البحر: ٥/٤٢٠.
(٤) سورة البقرة: آية ٣٤.
(٥) النشر: ٢/٢١٠ – ٢١١
(٦) البحر: ١/١٥٢.
(٧) المرجع السابق.
(٨) النشر: ٢/٢١١.
(٩) البحر: ١/١٥٢.
(١٠) النشر: ٢/٢١١.

ابن أبي نعيم أحد القراء السبعة ، ثم هو لم ينفرد بهذه القراءة ، بل قرأ بها غيره ، وشاركه فيها الكسائي الكوفي ، وإذا ثبتت لهجة عربية فلا ينبغي أن يخطأ القارىء بها أو يغلط .

ومما يتصل بحركة الانسجام هذه قراءة الحسن (الحمدِ لِله) بكسر الدال واللام ، وقراءة ابن أبي عبلة (الحمدُ لُله) بضم الدال واللام[1] ، وهما قراءتان لأهل البدو[2] ، وقد عزيت القراءة الأولى لتميم وبعض غطفان[3] ، كما عزيت الثانية لربيعة[4] وقد ذهب البصريون الى أنهما قراءتان شاذتان في الاستعمال ضعيفتان في القياس[5] كما وسمها الزجاج (البصري) بقوله « ولا يلتفت الى هذه اللغة ولا يعبأ بها »[6] .

كما حكى الصفار عن علي بن سليمان (الأخفش) أنه عقب على تلك القراءة بقوله « لا يجوز من هذين شيء عند البصريين » يقصد « الحمدِ لِله » و « الحمدُ لُله »[7] .

والحق أن هذه الحركات المنسجمة وان تعارضت مع الإعراب في حالة كسر الدال إلا أن لها وجهاً مقبولاً ، إذ إن هذا التركيب لما كثر تداوله عند العرب جعل هذا التركيب مثل الكلمة الواحدة ، ولا شك أن الكلمة الواحدة يستثقل فيها الانتقال من ضمة يتلوها كسرة أو العكس ، فآثروا الكسرتين حينئذ ، مع أن الحمد مبتدأ مرفوع ، كما ضموا اللام إتباعاً للدال في القراءة الثانية .

وقد اجتهد الكوفيون في توثيق هاتين القراءتين ، لاسيما وقد نسبتا لهجة لبعض القبائل .

جـ) وردت عدة قراءات لآيات كريمة ، وكلها تفيد التقاء الساكنين على غير حدّه ، منها :

١ - « أمّن لا يهدّي إلّا أن يُهدَى »[8] .

---

(١) الإنصاف مسألة : ١٠٧ .
(٢) معاني القرآن : للفراء : ٣/١ دار الكتب .
(٣) الإتحاف : ٢٢ .
(٤) نزهة الألباء : ٣٦٤ .
(٥) المحتسب : ١٠/١ تيمور ، الإنصاف : ٣٣٨/٢ .
(٦) اللسان : ١٣٣/٤ .
(٧) نزهة الألباء : ٣٦٤ .
(٨) سورة يونس : آية ٣٥ .

٢ — « إنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ »[١] .

٣ — « إنْ تُبْدوا الصَّدَقاتِ فنِعِمَّا هِي »[٢] .

٤ — « تَأخُذُهم وَهُم يَخِصِّمون »[٣] .

٥ — « لا تَعَدُّوا في السَّبْت »[٤] .

٦ — كما ورد في الأثر « نعما المال الصالح »[٥] .

فقد قرأ أهل المدينة «بتسكين الهاء وتشديد الدال، فجمعوا بين ساكنين» في الآية الأولى[٦]، كما ذكر الشمس بن الجزري أن العراقيين والمشرقين قد رووا الإسكان ؛ أي إسكان[٧] العين مع تشديد الميم في الآيتين الثانية والثالثة والأثر ، وبهذا قرأ أبو جعفر وشيبة، ونافع وعاصم ، وأبو عمرو[٨] ، كما قرأ أبو جعفر أيضاً في الآية الرابعة بإسكان الخاء وتشديد الصاد[٩] ، وبإسكان العين مع تشديد الدال[١٠] في الآية الخامسة .

ولقد ساق أبو شامة ما يفيد بأن التقاء الساكنين في مثل ذلك إنما هو لغة النبي ﷺ[١١]، كما أيد ذلك صاحب البحر[١٢] . « والتقاء الساكنين على غير حده أجـــازه الكوفيون »[١٣] ومن

---

(١) سورة النساء : آية ٥٨ .
(٢) سورة البقرة : آية ٢٧١ .
(٣) سورة يس : آية ٤٩ .
(٤) سورة النساء : آية ١٥٤ .
(٥) اللسان : ٦٧/١٦ ، الإتحاف : ٢٧ ، النشر : ٢٣٦/٢ .
(٦) تفسير الطبري : ٨٧/١٥ .
(٧) النشر : ٢٣٦/٢ .
(٨) اللسان : ٦٧/١٦ .
(٩) الإتحاف : ٣٦٥ .
(١٠) النشر : ٢٥٣/٢ .
(١١) إبراز المعاني : ٢٦٢ .
(١٢) البحر : ٣٢٤/٢ .
(١٣) القراءات واللهجات: ١٧٦ .

الواضح أن تلك القراءات التي تثبت التقاء الساكنين إنما وردت عن طريق القراء موصولة بسندها ، فإذا نظرنا الى جانب النحاة البصريين فسنرى اتهامات شنيعة لتلك القراءة منها .

١ — ما ساقه ابن منظور من أن الزجاج اتهم القراءة مرة بقوله « ليست بمضبوطة »[١] وأخرى بأنها « شاذة »[٢] ، وقال عنها ثالثة بأنها ردية[٣] .

٢ — وعقب أبو علي على من قرأ بها بقوله « بأن قوله لم يكن مستقيماً عند النحويين ، لأنه جمع بين ساكنين ، الأول منهما ليس بمد ولين »[٤] .

٣ — كما وصف محمد بن يزيد أحد مؤيديها بقوله « وهو من عجيب اختياراته »[٥] وجميع هؤلاء الطاعنين فيها من نحويّ البصرة ، أما الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام فقد أيدها[٦] . وهو كوفي ، كما أيدها القراء ومنهم الداني بقوله « إن الإخفاء أقيس ، والإسكان آثر »[٧] .

وإنما آثرت لهجة النبي ﷺ وقريش التقاء الساكنين ، لأن التقاءهما دليل على الأداء الكامل ، وإعطاء الصوت حقه دون أن يطغي عليه مجاوره بالحذف أو التأثير وتلك صفة من صفات الحضر الممثلين في قريش .

والحق أن تتبع كتب القراءات[٨] توقفنا على كثير من القراءات القرآنية — التي تمثل لهجات عربية — تلك التي تجهم لها البصريون ، ووقفوا منها موقف المعارضة لأنها خالفت أصولهم وقواعدهم ، فحاولوا تأويلها أو رفضها ، ولهذا كان استقراؤهم ناقصاً حين اعتمدوا في الأخذ عن القبائل المشهورة فقط واصطدمت قواعدهم بقراءات القرآن تلك التي تمثل لهجات عربية مشهورة ومغمورة . وموقف البصريين هذا الموقف من القراءات — وهي تستند على ما بين اللهجات من

(١) اللسان : ١٦/٦٧ .
(٢) اللسان : ٢٠/٢٣٠ .
(٣) البحر : ٢/٣٢٤ .
(٤) إبراز المعاني : ٢٦٢ .
(٥) المرجع السابق .
(٦) المرجع السابق نفسه .
(٧) الإتحاف : ١٩٦ ، النشر : ٢/٢٥٣ .
(٨) انظر في ذلك البحر : ٧/٤٩٥ ، حاشية الخضري على ابن عقيل : ١/٧٢ ، إبراز المعاني : ٢٣١ ، الخصائص : ١/٧٥ ط الهلال ، البحر : ١/٢٠٦ ، شرح درة الغواص : ٦٤ ، البحر : ٢/٤٩٩ ، وانظر هذا الكتاب « باب الوقف » ، وكذلك باب « الإعراب في الأفعال » .

خلاف — انحراف عن المنهج السليم ، لأنهم ضيعوا علينا كثيراً من الدراسات في الجانب اللغوي ، وحجروا واسعاً وضيقوا ، وماذا عليهم لو جعلوا قواعدهم مرنة تتقبل المأثور المروى من القراءات ، أو عدلوها واتخذوا شواهد لها من القراءات ، على أن إجماع النحاة البصريين ليس حجة — مع مخالفة القراء لهم ، لأن من القراء جماعة من أكابر النحويين ، ثم ولو قدر أن القراء ليس فيهم نحوي ، فإنهم ناقلون لهذه اللغة ، وهم مشاركون للنحويين في نقل اللغة ، فلا يكون إجماع النحويين حجة دونهم ، والقراء أولى ، لأن القراءة متواترة وما نقله النحويون آحاد[١] .

وكان أبو حيان على حق عندما أعلن كلمته ثائراً « ولسنا متعبدين بقول نحاة البصرة! »[٢]، « وإن لسان العرب ليس محصوراً فيما نقله البصريون فقط ، والقراءات لا تجيء على ما علمه البصريون ونقلوه »[٣] ، بل « القراءة سنة متبعة »[٤] ولا مدخل للقياس فيها . وعلى عكس هذا نجد مدرسة الكوفة ، فقد اعتبرت القراءات مصدراً للتشريع اللغوي ، إذ عنيت الكوفة منذ تمصيرها برواية القراءات ، لأنها كانت مهبط القراء ، ودراساتهم تعتمد على النقل ، وتعتز بالرواية والتلقين ، وكان بعض الأئمة يرى أن اختلاف القراءات ينبني على ما بين لهجات القبائل من خلاف فرأى أن كلا من القراء « قد ذهب في إعراب ما انفرد به من حرفه مذهباً من مذاهب العربية لا يدفع ، وقصد من القياس وجهاً لا يمنع ، فوافق باللفظ والحكاية ، طريق النقل والرواية »[٥] .

٢ — إنكارهم روايات تمثل لهجات عربية :

أ) فقد أنكر الأصمعي (البصري) أوقفت الدار والدابة بالألف ، وذكر أن الكلام (وقفت) بغير ألف ، وما أنكره لهجة تميمية[٦] ، كما أنكر (أفتن) ، مع أنها جاءت في قراءة قرآنية ، وشاهد للأعشى ، وأنها لهجية تميمية[٧] أيضاً ، كما رفض (أباع) مع ورودها

---

(١) الإتحاف : ٢٧ .
(٢) البحر المحيط : ١٥٩/٣ .
(٣) البحر : ٣٦٢/٢ - ٣٦٣ .
(٤) إبراز المعاني : ٣٨٣ .
(٥) الحجة في قراءات الأئمة السبعة لابن خالويه : ورقة رقم ١ مخطوط .
(٦) المصباح : ١٠٣٨/٢ .
(٧) اللسان : ١٩٤/١٧ .

لهجة لجماعة من جرم فصحاء[1] . ورفض (زوجة) وقال هي زوج[2] ، وما أنكره لهجة تميمية[3] . كما أنكر صيغاً لهجية كثيرة[4] ، وقد يرجع هذا التزمت والتشدد الى فقره في حياته من جهة ، ومن جهة أخرى أنه كان من المضيقين في الأخـــذ عن القبائل فحجر واسعاً ، ولهذا كثيراً ما نسمع صيغاً لهجية يعقب عليها بقولهم « ولم يعرفها الأصمعي »[5] ولو أن البصريين كانت عندهم حاسة علمية تاريخية ، فجمعوا لهجات القبائل كلهـا — ولم يضيقوا الأخذ عن لهجات القبائل مع صحة عربيتها وثبوت روايتها — لوقفنا على الخطوط الكبرى ، والمعالم البارزة في نشأة اللهجات وتاريخها من جهة ، ولمـــا غلطوا العرب[6] في قولهم من جهة أخرى ، وغاب عنهم أن للعربي مذاهب كثيرة في القول .

ب) وحكى الكسائي[7] والفراء[8] (وهما كوفيان) لهجتين لعبد القيس في المضعف (أردّ) وفي غيره (اسل زيدا) مع أن أحداً من البصريين[9] لم يحك عنهم ذلك .

جـ) كما حكى الفراء عن الكسائي أن بني يربوع وبني عقيل يقولون : حلي مصووغ ، ومسك مدووف ، وثوب مصوون ، وفرس مقوود ، وقول مقوول — وأما البصريون فلا يعرفون هذا[10] .

د) ورفض الحريري (البصري) قولهم « فلان يستاهل الإكرام ، وهو مستاهل للإنعام » ثم عقب على الرفض بقوله « ولم تسمع هاتان اللفظتان في كلام العرب ، ولا صوب التلفظ بهما

---

(١) الجمهرة : ٤٣٦/٣ .
(٢) الخصائص : ٢٩٥/٣ .
(٣) كتاب التذكير والتأنيث للسجستاني : خط تيمور .
(٤) الاقتضاب : ٤٣ ، معجم مقاييس اللغة : ٢٢٢/١ وما بعدها .
(٥) المخصص : ٥٨/١٥ .
(٦) انظر : الخصائص : ٢٧٣/٣ .
(٧) التصريح : ٤٠١/٢ .
(٨) ليس في كلام العرب : ١٢ .
(٩) التصريح : ٤٠١/٢ .
(١٠) الاقتضاب : ٢٧٥ ابن السيد .

أحد من أعلام الأدب »[1] لكن جاء في اللسان عن الأزهري أنه سمع ما أنكره الحريري من أعرابي فصيح من أسد[2] .

كما خطأ كلمة (أرياح) وصوابها عنده (هبت الأرواح)[3] لكن حكاها اللحياني (وهو كوفي) ، كما عزاها السهيلي لغة لبني أسد[4] .

وكثيراً ما كان يرفض الحريري (البصري) كثيراً من لهجات القبائل لتزمته ولهذا رد الخفاجي كثيراً من تخطئة الحريري .

فقد خطأ ولحن (فلان أشرّ من فلان) والصواب (شرّ) ،[5] مع أن (أشر) وردت في الكلام الفصيح، وفي صحيح البخاري[6] ، وجاءت عليها قراءة قرآنية[7]، كما حكيت (أي الصيغة المرفوضة عند الحريري) لغة بني عامر[8] .

هـ) وقد يقف في سبيلنا أن الكسائي (الكوفي) قد خطأ ولحن صيغاً وردت في كتابه « ما تلحن فيه العوام »[9] ، وهذه الصيغ التي رماها باللحن تمثل لغات قبائل عربية،وأسوق من كتابه السابق بعض الأمثلة :

١ – يرى الكسائي أن « عجزت عن الشيء ، بفتح الجيم »[10] هي الاستعمال اللغوي الصحيح . لكن حكى ابن القطاع الصقلي (٥١٠ هـ) أن الفراء عزاها بكسر الجيم لغة لبعض قيس[11] .

---

(١) درة الغواص : ٧ .

(٢) اللسان : ١٣/٣٠ .

(٣) الدرّة : ٢٣ .

(٤) شرح الدرة : ٦٦ .

(٥) الدرة : ٢٣ .

(٦) شرح الدرة : ٦٤ .

(٧) شواذ القرآن لابن خالويه : ١٤٧ .

(٨) المصباح : ١/٢٨٦ .

(٩) ومنها نسختان مخطوطتان : الأولى في برلين ونشرها بروكلمان . والثانية في خزانة جامع بومباي نشرها عبد العزيز اليمني الراجكوتي الأثري الهندي وطبعت بالسلفية : ١٣٤٤ .

(١٠) ما تلحن فيه العوام : ٢٤ .

(١١) كتاب الأفعال : ٢/٣٤٠ .

٢ – كما يرى الكسائي أيضاً أن الصواب « غصصت بالطعام » بكسر الصاد[١] ، بينما ثبت الفتح لغة في الرباب[٢] .

٣ – ويرى الصواب أن « تقول : عندي منا دهن ومنوان وأمناء[٣] كثيرة » ويقول ابن سيده « ويقال : مَنٌّ والجمع أمنان تميمية »[٤] وفي اللسان « وبنو تميم يقولون : هو مَنٌّ ومنّان وأمنان »[٥] .

٤ – ويرى الصواب أن يقال : « عليّ ثياب جدد بضم الدال »[٦] مع أنها وردت بالفتح لغة لبعض تميم وكلب[٧] ، وعلل الأشموني للفتح فقال « واستثقل بعض التميميين والكلبيين ضم عين فعل في المضاعف وجعلوا مكانها فتحة فقالوا : جدد وذلل[٨] . وقد سمع أبو زيد صيغ الفتح من ضبة[٩] . ولا أدري كيف لحنها الكسائي مع أن أبا السمال قرأ بها[١٠] .

فمما سبق يتضح أن الكوفيين كانوا يتجهمون للهجات القبائل العربية كالبصريين وهذا يخالف ما نسير عليه ويقف في سبيلنا ، ولكن تزول هذه الشبهة سريعاً عندما يظهر أن (كتاب ما تلحن فيه العوام المنسوب للكسائي) ذلك الذي سقت منه موقف الكسائي من اللهجات لم تصح نسبته إليه ، لأن ما في الكتاب لا يلائم ما رواه اللغويون عن الكسائي في معاجم اللغة ، ولهذا أثار الأستاذ الميمني شكًّا في نسبة هذا الكتاب الى الكسائي[١١] .

فإذا أضفنا الى ما تقدم ما جاء عن الأزهري من أن « الغالب على الكسائي اللغات »[١٢] وأنه

---

(١) ما تلحن فيه العوام : ٢٨ .

(٢) أفعال ابن القطاع : ٢/٤٣٣ .

(٣) ما تلحن فيه العوام : ٥٦ .

(٤) المخصص : ١٥/١٧٤ .

(٥) اللسان : ٢٠/١٦٧ .

(٦) ما تلحن فيه العوام : ٤٤ .

(٧) البحر : ٧/٣٠٩ .

(٨) الأشموني : ٤/١٣٠ .

(٩) نوادر أبي زيد مسائية : ٢٤٠ .

(١٠) البحر : ٧/٣٠٩ .

(١١) مقدمة الميمني لكتاب الكسائي : ٢٢ .

(١٢) مقدمة تهذيب اللغة للأزهري : ٥٢ .

« أعلم من أبي زيد بكثير – بالعربية واللغات »[1] ازددنا يقيناً بأنه لا يتجهم للهجات القبائل، ولا يقف منها هذا الموقف.

٣ – تصنيف للأحكام التي يصدرونها على اللهجات :

فقد نعت البصريون لهجـــات القبائل بأوصاف مختلفة، فسيبويه (١٨٣ هـ) ينعت كسر الكاف في (فيكم وبكما) « بأنها رديئة جدًّا »[2] وهي لناس من بكر بن وائل، وأرى أنـــه يتمثل فيها التجانس الصوتي كاملاً. كما نقل سيبويه عن الخليل واصفاً لهجة عربية بقوله « وهذه لغة ضعيفة »[3] ولكن سيبويه إذا اتجه الى لهجة الحجاز – نجده يتعصب لها ويخلع عليها أوصاف المدح والاطراء كقوله « والإدغام أحسن، والبيان عربي حجازي »[4]، أو « عربي حسن »[5] أو « وهي الحجازية الجيدة »[6] أو « اللغة الحجازية هي اللغة الأولى القدمى »[7]، كما نسمع منه مدحاً للهجتهم ولكن من نوع آخر كقوله « العرب الذين ترضى عربيتهم، أو الموثوق بعربيتهم، أو فصحاء العرب »[8]، كما ينعت الأخفش (٢٢١ هـ) لهجـــة عربية بقوله « وهي خبيثة »[9] وكذلك السيرافي (٣٨٥ هـ) ينعت بقوله « وهي لغة رديئة »[10] وأبو الفتح ابن جنى (٣٩٢ هـ) يصف بقوله «وهي لغة مرذولة»[11] كما سموا بعض اللهجات بأنها « شر اللغات[12]، أو أنها لغـــة

---

(١) معجم الأدباء : ١٨٩/١٢ .

(٢) الهمع : ٥٩/١ .

(٣) شرح التصريح : ٤٠٢/٢ .

(٤) الكتاب : ٤٠٧/٢ .

(٥) الكتاب : ٤١٢/٢ .

(٦) الكتاب : ٤٢٩/٢ .

(٧) اللسان : ٢٧٦/٥ .

(٨) العربية يوهان فك : ٥١ .

(٩) شرح الشافية : ٢٤٧/٢ .

(١٠) شرح الشافية : ٢٤٦/٢ .

(١١) المحتسب : ١١٠/١ خط تيمور .

(١٢) الخزانة : ٢٣٥/١ .

سوء [1] ، أو تميمية قبيحة [2] ، أو لا خير فيها [3] .

ويصف الهمداني (٣٣٤ هـ) بعض اللهجات – عند حديثه عن العلاقات اللغوية في جنوبي الجزيرة العربية ، كلهجة « عدن » بأنها مولدة رديئة ، وفي بعضهم نوك وحماقة [4] ، كما يصف بعض أصحاب اللهجات بأنهم غتم يشاركون العجم [5] . وأحياناً يصف اللهجة بأن فيها تعقداً ، أو قحة متعقدة [6] . كما يصف المقدسي (٣٧٥ هـ) لسان الأحقاف بأنه (وحش) [7] ويسم عربية العراق بأنها حسنة فاسدة [8] ، أو أن لسان هراة لا يصلح إلا للكفيف [9] ، كما يصف اللهجة أحياناً بأن فيها انغلاقاً [10] ، أو لسانهم فيه حلاوة أو عجلة [11] ، أو في كلامهم طنين [12] .

كما أن الحريري (٥١٦ هـ) يسم أسلوباً يمثل لهجة عربية بقوله « وهو ما لا يعبأ به ولا يقاس عليه » [13] .

كما أن أبا شامة (٦٦٥ هـ) يقول معقباً على إحدى اللغات « لا تعجبني تلك اللغة ، لأنها ليست لغة أهل الحجاز [14] كما نجد بعض المحدثين يصف لهجة يمنية صحيحة بقوله « وهذه لغة لا ينبغي أن يلتفت إليها ، فإن اللغة اليمانية فيها أشياء منكرة خارجة عن المقاييس » [15] .

---

(١) المزهر : ٢٢٥/١ .

(٢) المزهر : ٢٢٤/١ .

(٣) المزهر : ٢٢٥/١ .

(٤) صفة جزيرة العرب : للهمداني : ١٣٤ تحقيق بليهد النجدي .

(٥) صفة جزيرة العرب : ١٣٥ .

(٦) المرجع السابق .

(٧) أحسن التقاسيم للمقدسي : ٩٧ .

(٨) المرجع السابق : ١٢٨ .

(٩) المرجع السابق : ٣٣٥/٢ .

(١٠) المرجع السابق .

(١١) المرجع السابق : ٣٦٨/٢ .

(١٢) المرجع السابق : ٤١٨/٢ .

(١٣) الدرة : ٣٥ .

(١٤) إبراز المعاني : ٤٨٨ .

(١٥) ما تلحن فيه العامة للكسائي : ٣٥ هامش .

ونظرة هؤلاء الضيقة لاسيا رجال البصرة منهم،جعلتهم يقيسون هذه اللهجات التي وصفوها بمقياس اللغة الفصحى ، ولهذا حكموا عليها بهذه الأحكام القاسية ونعتوها بتلك الأوصاف ، وغاب عنهم أن كل لهجة عربية ، لها مقاييسها الخاصة ، ومنطقها الخاص ، كما أن الأصل في اللهجات هو الرواية والنقل ، لا القياس والعقل ، ولكنهم لجوا في القياس ، واتباع التأويلات البعيدة ، والتوجيهات المتكلفة ، وفي هذا يقول دي بور « ولهذا سمي نحاة البصرة « أهل المنطق » تمييزاً لهم عن نحاة الكوفة »[١] .

على أننا نرفض الأحكام القاسية السابقة تلك التي أصدرها النحاة على اللهجات، ولعل السبب في خلع الأوصاف السابقة اللاذعة على اللهجات أن النحاة – وهم أصحاب هذه الأوصاف – كانوا أصحاب معايير ومقاييس ، حاولوا إخضاع اللهجات مع اختلاف مشاربها ومنازعها لها ، فلما فلتت هذه اللهجات من أحكامهم وموازينهم وتقنينهم ، رموها بما سبق من رداءة ، وسوء ، وخبث ، وقبح .

والمفروض أن أصحاب كل لهجة عربية كانوا يراعون مستوى صوابيًّا اجتماعيًّا عندما يتكلمون ، وهذا المستوى يختلف باختلاف المجتمعات ، وعلى أساس هذا المستوى يكون الحكم بالصحة والخطأ ، والمجتمع وحده هو الذي يصدر مثل هذه الأحكام ، أو يخلع هذه الصفات على أفراده ، وهذا المستوى الصوابي « فكرة لا تتصل باللغة فحسب ، وإنما تتناول كل ناحية من نواحي النشاط الاجتماعي »[٢] .

وكان الأولون من علماء العربية عندما يثيرون أمثلة يسيرة من اللهجات يخلعون عليها أوصافاً وأحكاماً لا تخضع لمقياس اجتماعي – بل لمجموعة من القوانين الموضوعة والنظم .

والسبب في اضطراب مقياس الخطأ والصواب في أيدي النحاة يرجع الى الاختلاف في تحديد هذا المقياس ، ففي الأخذ عن القبائل مثلاً أخذ البصريون عن قيس وتميم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين فقط ، لكن الكوفيين وسعوا الدائرة وأخذوا عن قبائل لم يرض البصريون أن يأخذوا عنها – ولهذا اختلف المقياس في يدهم واختلف الحكم لهذا بالصحة والخطأ ، ورأينا البصريين يسمون لهجات عربية بالضعف والشذوذ ، بينما الكوفيون ارتضوها وتوسعوا في قبول كثير مما أنكره غيرهم ، حتى رأيناهم فريقين – فريق متشدد متعصب ، وفريق موسع غير

---

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام : ٣٨ ترجمة أبي ريدة .

(٢) اللغة بين المعيارية والوصفية : ٥٧ ، دكتور تمام حسان .

مضيق ، ولهذا نجد إنكار كثير من البصريين للهجات العربية كالأصمعي [1] فإنه كان يتشدد ، ويفسر مثلَ هذا قولُ الجواليقي في صدر التكملة : « واعتمدت الفصيح من اللغات دون غيره ، فإن ورد شيء مما منعته في بعض النوادر فطرح لقلته ورداءته » [2] ، والجواليقي في مذهبه هذا كالحريري البصري المتزمت ، حيث كان ينقد ما خرج عن الفصاحة ويصفه باللحن – مع أن له وجهاً من الصواب والصحة ، وأنه لغة جماعة من العرب .

وكما أهمل البصريون الاعتداد بلهجات القبائل العربية كما سبق سار على نهجهم أكثر علماء العربية ممن خلط بين المذهبين البصري والكوفي ، وسأشير الآن الى شيء من ذلك .

ثانياً : مدى ظهور لهجات القبائل في مؤلفات البغداديين :

وسأتناول بالبحث عالمين من علماء العربية ممن خلط بين المذهبين الكوفي والبصري وموقفهما من لهجات القبائل .

أولهما : أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣ – ٢٧٦) .

وثانيهما : أحمد بن فارس (٣٩٥ ﻫ) .

أما الأول وهو ابن قتيبة فقد كان ممن خلط بين المذهبين كما رأى ابن النديم [3] ، ويرى المستشرق هاول Howell في كتابه النحو العربي أن ابن قتيبة هو الذي حمل عبء مزج المذهبين وإنشاء المدرسة البغدادية [4] . وقد كان متشدداً متزمتاً في اللغة ومما يؤكد ذلك أنه احتضن مذهب الأصمعي المتطرف في تنقية اللغة [5] . بل جعل نفسه مدافعاً عن هذا المذهب ، وكان يؤرقه ما يسمعه من انحرافات لغوية في المجتمع العربي – ولهذا ألف كتابه (أدب الكاتب) ليقوم الألسنة ، ويعيد العربية الى سالف عهدها . وهذا المنهج يفرض عليه أن يهمل لهجات القبائل في كتابه السالف إذ إن لهجات القبائل – وهي طرق منحرفة عن الفصحى يجب عليه أن يتحاشاها ، لأنها تتعارض مع غرضه وهدفه ، ولهذا رأيناه يلحن صيغاً ، ويحكم عليها بالعامية ، بينما هي لهجات لقبائل عربية :

---

(١) الأخطاء اللغوية : ٧/١ .

(٢) تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة : ٥ .

(٣) الفهرست : ١٢١ .

(٤) ابن قتيبة : ١٦٩ في أعلام العرب : ٢٢ .

(٥) يوهان فك : ٩١ .

١ – فلكة المغزل – بفتح الفاء « لا غير » والعامة تكسر ذلك [١] ، لكن ورد الكسر في نوادر يونس وأنه لغة الحجاز [٢] .

٢ – ما جاء في باب (ما لا يهمز والعوام تهمزه) ، « وتدت الوتد أتده [٣] وتداً » ، بينما ورد عن ابن دريد أن الصيغة السابقة لتميم ، وما أنكره وهو : « أوتده ايتاداً » لهجة لأهل الحجاز [٤] !

٣ – كما أنكر صيغاً كثيرة ورماها باللحن ، وما أنكر استعماله وارد صحيح [٥] .

كما نراه كثيراً ما يهمل عزو الصيغ الى قبائلها ، ومن ذلك :

١ – عرضت له الغول تعرض عرضاً – (بوزن علم يعلم) ، وغيرها عرض يعرض عرضاً (بوزن ضرب يضرب)[٦] بينما التحقيق أثبت أن الصيغة الأولى للحجاز ، والثانية لتميم [٧] .

٢ – « إسوة وأسوة ، ومرية ومرية ، وغلظة وغلظة – بالكسر والضم »[٨] ، والتحقيق أثبت أن الكسر للحجاز ، والضم لتميم[٩] .

٣ – « أتيته وأتوته أتياً وأتوا »[١٠] والتحقيق أثبت أن الواوية لهذيل[١١] .

---

(١) أدب الكاتب : ٣٠٠ .

(٢) الاقتضاب : ٢٠٥ .

(٣) أدب الكاتب : ٢٨٨

(٤) الاشتقاق : ٦٨ ط وستنفلد .

(٥) انظر أدب الكاتب : ٢٩٣ وقارنه بالاقتضاب : ١٩٧ – ١٩٨ ، أدب الكاتب : ٢٩٣ ، وقارنه بالاقتضاب : ١٩٧ .

(٦) أدب الكاتب : ٢٦٢ .

(٧) المزهر : ٢/٢٧٦ ، الاقتضاب : ١٨١ .

(٨) أدب الكاتب : ٤٢٤ .

(٩) المزهر : ٢/٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(١٠) أدب الكاتب : ٣٦٤ .

(١١) ديوان الهذليين : ١/١٦٥ .

٤ – « عدوة الوادي وعدوته بالكسر والضم »[١] والتحقيق أن الضم لقريش والكسر لقيس[٢] .

وفي كل باب من أبواب كتابه نجد إهمال العزو في كل صفحة من صفحاته بل في كل كلمة من كلماته[٣] .

أما الثاني فهو أحمد بن فارس (متوفي ٣٩٥ هـ) وهو ممن خلط المذهبين[٤] كسابقه ، ولم يعن بلهجات القبائل أيضاً ، ومما يؤكد ذلك أنه أهمل عزو الصيغ الى قبائلها ، فمن ذلك :

١ – « الفغفغاني : القصاب[٥] . والتحقيق أثبت أنها لغة لهذيل »[٦] .

٢ – الهدى والهدي – بالتخفيف والتشديد – ما أهدى من النعم الى الحرم[٧] . والتحقيق أن التشديد لغة تميم[٨] . والتخفيف لغة قريش[٩] .

٣ – تفكهون ، وتفكنون[١٠] والتحقيق أنه بالهاء لغة أزد شنوءة ، وبالنون لبني تميم[١١] .

٤ – ذوى العود يذوى . . . وربما قالوا ذأى يذأى[١٢] . والتحقيق أثبت أن الأولى لأهل نجد

---

(١) أدب الكاتب : ٤٣٤ .

(٢) المصباح : ٦٠٧/٢ .

(٣) انظر أدب الكاتب : ٣٣٥ ، ٣٧٦ ، ٤١٩ ، ٤٦٤ ، وانظر باب البدل من هذا الكتاب

(٤) الفهرست : ١٢٥ .

(٥) معجم مقاييس اللغة : ٤٤١/٤ .

(٦) كتاب العين : ٣٢ ، الجمهرة : ١٥٩/١ ، اللسان : ١٢٦/١٠ وفي هذه المصادر وردت بالعين لا بالغين المعجمة ، وفي ديوان الهذليين : ٥٥/٢ وردت « الفعْفَعي » في شعر صخر الغي ، ومعناها : الخفيف – وهذا مثال لما أصاب اللهجات من تصحيف وتشويه .

(٧) معجم مقاييس اللغة : ٤٣/٦ .

(٨) البحر : ٦٠/٢ .

(٩) البحر : ٩٨/٨ .

(١٠) المقاييس : ٤٤٦/٤ .

(١١) إبدال أبي الطيب : ٤٠٩/٢ .

(١٢) المقاييس : ٣٦٣/٢ .

والثانية لغة الحجاز [1] ، كما أهمل العزو في كتابه الصاحبي أيضاً [2] وقد ظهرت معارضته للهجات القبائل في صور منها :

١ – الشك في كثير منها [3] .

٢ – رميه ابن دريد بالتدليس عندما يعزو لليمن ، وقوله يسخر من ذلك : « ولا نقول لأئمتنا إلا جميلا » [4] .

٣ – وقد يسم بعض اللهجات العربية تارة بالقبح [5] ، وأخرى بأنها شيء لا يعول [6] عليه ، أو يثير حول اللهجة جوًّا من الشك كقوله « على أنهم يقولون « الصِّنارة بلغة اليمن : الأذن » [7] ، أو « الشبص : الخشونة ، وليس هو بشيء » [8] على أن الكلمة وردت في الجمهرة منسوبة لهجةً لليمن [9] ، أو قوله بعد أن ذكر المجعجعة « فهذا لا وجه للشغل به ، ومما لا يدري ما هو » [10] وقوله بعد أن ذكر الغمغمة أيضاً «ان هذه الحكايات لا تكاد يكون لها قياس» [11] .

وهكذا نرى علمـــاء بغداد يتجهمون للهجات القبائل حتى إن الأزهري (٢٨٢ – ٣٧٠) أنكر لهجة هذلية ، وطعن في نصر بن سيار [12] ، ووسمه بأنه ليس حجة [13] لأنه رواها .

وقد يعلل موقف الأزهري هذا بأنه لما وقع أسيراً لبث أكثر من خمس عشرة سنة في قبيـلة هوازن ، وفيها جماعة من أسد وتميم – أخذ خلالها اللغة من أفواه العرب الأقحاح .

---

(١) المزهر : ٢١٥/١ .
(٢) انظر الصاحبي : ١٩ ، ٢٠ ، ٨٠ ، ١٧٢ .
(٣) المقاييس : ٢٨٥/٢ .
(٤) المقاييس : ٣٠٧/٤ .
(٥) المقاييس : ٥١/١ .
(٦) المقاييس : ٣٥٣/١ .
(٧) المقاييس : ٣١٣/٣ .
(٨) المقاييس : ٢٤١/٣ .
(٩) الجمهرة : ٢٩١/١ .
(١٠) المقاييس : ٢٩/٤ .
(١١) المقاييس : ٣٧٨/٤ .
(١٢) اللسان: ٤٠٠/١ .
(١٣) كتاب السماع والقياس لأحمد تيمور : ٤٣ .

وإذا كنا قد أشرنا الى موقف بعض علماء العربية من لهجات القبائل في المشرق ، فأجدر بنا أن نتوجه الى المغرب الإسلامي — لنرى موقف علمائه منها .

ثالثاً : نظرة علماء العربية في المغرب الاسلامي الى لهجات القبائل :

وسأشير الى موقف رجلين في دوائر الأندلس :

أولهما : جمال الدين أبو عبدالله الطائي الجياني الأندلسي (٦٠٠ — ٦٧٢) [١] ويقول عنه السيوطي « وأما اللغة فكان إليه المنتهى في الإكثار من نقل غريبها والاطلاع على وحشيها ... وأما النحو والتصريف فكان فيهما بحراً لا يجاري ، وحبْراً لا يباري ، وأما أشعار العرب التي يستشهد بها على اللغة والنحو — فكانت الأئمة الأعلام يتحيرون فيه ويتعجبون من أين يأتي بها » [٢] وسأتناول من مؤلفاته الكثيرة التي عددها له العلماء مؤلفاً واحداً أبين فيه مدى ظهور لهجات القبائل ، والمنهج الذي اختطه لذلك ، والمؤلف مخطوط منظوم يسمى :

الكافية الشافية — وتقع في ثلاثة وسبعين وسبعمائة وألفي بيت من بحر الرّجز وقد حشد ابن مالك فيها إشارات لهجية هامة ، كما آثر غالباً أن يذكر اسم القبيلة مع ذكر السمة اللهجية لها — على الرغم من صعوبة ذلك في النظم وقد تتبعت إحصائياً ما ورد فيها من لهجات القبائل ويتبين أنه قد عزا **لهذيل** كقوله :

وما كبيضة وجوْزة فعن هذيل افتح ولغيرهم سكن [٣]

وإلى **سليم** كقوله :

والقول مطلقاً كظن عملا عند سليم وعلى ذا حملا [٤]

وإلى **طيء** كقوله :

بنحو راضَى وبنَتْ في راضِي وبُنيت لطيء تراضِي [٥]

---

(١) البغية : ٥٣ .

(٢) البغية : ٥٣ .

(٣) الكافية : ورقة ١١٦ مخطوط بدار الكتب ٢٣٩ نحو .

(٤) الكافية ورقة : ٣٨ .

(٥) الكافية ورقة : ١٥٠ .

وإلى **خثعم** كقوله :

عن خثعم فذو وذات صرفا   في عرفهم كبعض ذى يوم ٍ قفا [1]

وإلى **قيس وفقعس** كقوله :

وأعربت قيس لدن وفقعس   اعراب حيثُ عنهم مقتبس [2]

وإلى **ربيعة والأزد** كقوله :

كذا لدى ربيعة المنوّن   في نصبٍ أو في غيره يسَكَّنُ
والأزد مدًّا تبدل التنوين ِمنْ   جنس التحرك الذي به قرنْ [3]

كما عزا إلى **الحجاز** [4] **وتميم** ، **ونجد** [5] . وإلى **لخم** كقوله :

وصح وقف لخم ٍ بالنقل الى   محرك وغيرها لن ينقلا [6]

ويظهر منهجه من أنه كثيراً ما يحدد اسم القبيلة كما سبق ، وأحياناً أخرى لا يذكرها بـل يستعيض عنها بما يأتي :

أ) « **ببعض الفصحاء** » كقوله :

وواوا أو همزا أو اليا من ألِف   أبدلَ بعض الفصحاء إذ يقف [7]

ب) أو **بالندرة كقوله** :

ونادر تثليث ميم مغزل [8]

جـ) أو **بعض العرب** كقوله :

---

(١) الكافية ورقة : ٣٨ .
(٢) الكافية ورقة : ٥٤ .
(٣) المرجع السابق : ١٣٧ .
(٤) انظر الكافية ورقة : ١٢ ، ٢٠ ، ٤٠ ، ٥٧ ، ٧٣ ، ٨٩ ، ١٠٥ .
(٥) الكافية ورقة : ١٠٩ .
(٦) المرجع السابق : ١٣٨ .
(٧) المرجع السابق : ١٣٧ .
(٨) المرجع السابق : ١٦٢ .

وكيف كي صارت لدى بعض العرب   والفعل بعدهـــا ارتفاعه وجب [1]

د) أو يكتفي بشاهد يوضح لهجة القبيلة كقوله :

وبإن الذين مـــع عبادا   أمثالـكم تلفي لذا اعتضادا [2]

فإنه يشير الى ما جاء في المحتسب من قراءة سعيد بن جبير « إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم « بنصب عبادا » حيث عملت إن – النافية عمل ليس في لغة أهـــل العالية [3] .

هـ) أو يذكر كلمة (لغة) كقوله :

وقد تـــلي علامة كمضمر   في لغة كانطلقوا بنو السّري [4]

ويبدو أن ابن مالك كان يتوسع أيضاً في الأخذ عن القبائل، لاسيا تلك التي رفض البصريون أن يأخذوا عنها ، فقد اعتمد على لغات لخم وجذام وغسان [5] . وهذه القبائل لم يأخذ عنهـــا البصريون بينما أخذ الكوفيون بلهجاتهم ، وهذا ما يجعل ابن مالك يسير في ركاب الكوفيين، إذ أن لغات القبائل عندهم كلها حجة ، وما دامت هذه القبائل عربية فهي حجـــة في الاستشهاد والأخذ بلهجاتها ، ومما يؤكد نظرة ابن مالك السابقة أنه كان يأخذ بالقراءات ويحتج بها ولهـا فقد جوز تشديد النون من « اللذان واللتان » كما جوز التشديد مع الياء أيضاً حيث قال «والنون إن تشدد فلا ملامة » [6] .

والتشديد مذهب الكوفيين بينما رفضه البصريون [7] ، وابن مالك يرتكز على جواز ذلـــك بقراءة « ربنا أرنا اللذينّ » بتشديد النون وقد ورد التشديد لهجة تميم وقيس [8] . وكأن ابن مالك،

---

(١) المرجع السابق : ٩٣ .
(٢) الكافية ورقة : ٢٠
(٣) الهمع : ١/١٢٤ وما بعدها .
(٤) الكافية ورقة : ٣٨ .
(٥) الاقتراح : ٢٤ .
(٦) الألفية : باب الموصول .
(٧) البحر المحيط : ٧/١٩٥ .
(٨) التصريح : ١/١٣٢ .

في أخذه بالقراءات التي تمثل لهجات عربية ، يؤمن بأن اللهجات تمثل حقلاً خصيباً – لا يمكن إغفاله ما دام ينبض بالحركة والحياة ، يوضح هذا ما جاء في البغية من أنه « كان إماماً في القراءات وعللها »[1] كما رد على النحويين المتقدمين الذين يعيبون على حمزة وابن عامر قراءات بعيدة في العربية[2] . ووثق بعض اللهجات العربية – بما جاء في الحديث كلهجة طيء وأزد شنوءة حيث ألحقتا بالفعل علامة التثنية والجمع مع ذكر الفاعل الظاهر بعده ، فعضدها ابن مالك بقوله ﷺ « يتعاقبون فيكم ملائكة »[3] وكان ابن مالك على حق أيضاً عندما استشهد بالحديث على الرغم من معارضة كثير من رجال العربية في ذلك[4] . ومثل كافية ابن مالك نجد ألفية أخرى في النحو للمختار ابن بونة (ط أولى الحسينية المصرية ١٣٢٧ هـ) كمل بها ألفية ابن مالك ، وابن بونة يمثل المغرب الإسلامي (موريتاني) ، وقد ظهرت لهجات القبائل في ألفيته ظهوراً غامراً ، ومنهجه في إيرادها يتضح فيما يلي :

١ – أحياناً يذكر اسم القبيلة كقوله ص ٣٦٥ :

وإن ترنّم التميميونا   فمدة الروى يثبتونا

٢ – وأحياناً يذكر لهجة القبيلة ثم يمثل لها كقوله ص ٨١ :

لفعلها عند تميم ترك   في نحو ليس الطيب إلا المسكُ

٣ – وقد لا يذكر اسم القبيلة صراحة ، لكنه يستعيض عنها بإشارة :

أ) كقوله (بعضهم) ص ٣٩٨ وهي إشارة الى لهجة تميم ، أو الى لهجة الحجاز ص ٣٦٣ .

ب) أو (نادراً) ص ٣٨٨ .

جـ) أو (عند بعض العرب) ص ٣٩٣ .

د) أو (فيه وجهان) ص ٣٢٤ ، أو (وقد يقال) ص ٣٠٣ ، أو (ربما) ص ٤٦ ، أو (وقد رَوَى) ص ٤١ .

---

(١) البغية : ٥٣ .

(٢) الاقتراح : ٧ .

(٣) شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح : ١٩٢ .

(٤) انظر خزانة الأدب : المقدمة .

٤ ــ أو يحدد اللهجة عن طريق وضعها من غير تصريح بها ، كإشارته الى لهجـــة كلب وعذرة وكعب ص ٤٠٢ ، وهذيل ص ٣٨٢ ، وسُلَيْم ص ٢٨٩ ، ويربوع ص ١٩٦ ، وعقيـــل وكلاب ص ٢٥ .

٥ ــ أو يعبر أحياناً عن اللهجة بالضرورة والاختيار ص ٢٨ .

ثانيهما : الإمام أثير الدين أبو حيان الأندلسي الغرناطي (٦٥٤ ــ ٧٤٥ هـ) نحوي عصره ، ولغويه ومفسره ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه ، وقد عدد له السيوطي كتباً كثيرة[١] اخترت منها كتاباً واحداً لأستشف منه موقفه من اللهجات ومنهجه فيه وهو « البحر المحيط » وقـــد آثرت عقد موازنة ثلاثية بين كتاب البحر المحيط لأبي حيان، وكتاب الكشاف عن حقائـــق غوامض التنزيل للزمخشري ، وجامـــع البيان عن تأويل آي القرآن لمحمد بن جرير الطبري ــ وهذه الكتب الثلاثة تتحد في الموضوع وهي أنها تدور في فلك تفسير القرآن الكريم ، وكتب التفسير تمثل مصادر أولى للهجات القبائل ، ومكان الموازنة في هذه الكتب تشمل سورة فاتحة الكتاب والبقرة الى قوله تعالى « تلك الرسل » وإليك عرض هذه الموازنة :

(١) البغية : ١٢٢ .

اسم السورة	الآية	نوع اللهجة	جامع البيان للطبري	الكشاف	البحر المحيط
الفاتحة	مالك يوم الدين آية ٤	الضبط الحركي	لم ينسبها ٥٠/١	لم ينسبها ٩/١	عزاها الى بكر بن وائل ٢٠/١
»	نستعين آية ٥	»	» ٥٣/١	» ١٠/١	بفتح النون للحجاز، وبكسرها لغة قيس وتميم وأسد وربيعة وهذيل ٢٣/١ – ٢٤
»	الصراط المستقيم آية ٦	اختلاف الحروف	» ٥٧/١	لغة قريش ١٢/١	الصاد لغة قريش وإشمامها زاياً لغة قيس – والزاي لغة عذرة وكعب وبني القين ٢٥/١
»	» » »	التذكير والتأنيث	» ٥٧/١	لم ينسبها ١٢/١	أهل الحجاز يؤنثون الصراط، وبنو تميم يذكرون : ٢٥/١
البقرة	هدى للمتقين آية ٢	التذكير والتأنيث	لم ينسبها ٧٦/١	لم ينسبها ٢٨/١	بنو أسد يؤنثونه ٣٣/١
البقرة	لا ريب فيه	الذكر والحذف	» »	حذف الخبر كثير عند أهل الحجاز ٢٨/١	إذا علم خبر « لا » لم تلفظ به بنو تميم، وكثر حذفه عند الحجاز ٣٧/١
البقرة	سواءٌ عليهم أأنذرتهم/آية ٦	التسهيل والهمز	لم ينسبها ٨٦/١	لم ينسبها ٣٦/١	تخفيف الهمزة وجعلها واواً لغة الحجاز : ٤٥/١
»	» » »	»	» ٨٦/١	» ٣٧/١	تميم تخفف الهمزتين، أهل الحجاز

اسم السورة	الآية	نوع اللهجة	جامع البيان للطبري	الكشاف	البحر المحيط
					لا يجمعون بينهما للتخفيف ١/٤٧ ، « فيدخلون ألفاً بين الهمزتين ثم يلينون الثانية »
البقرة	وما هم بمؤمنين آية ٨	الزيادة والحذف	لم ينسبها ١/٩١	لم ينسبها ١/٤٢	أكثر لسان أهل الحجاز جر الخبر بالباء ، وتزاد الباء أيضاً في لغة تميم خلافاً لمن منع ذلك ١/٥٥
البقرة	وإذا قيل لهم آية ١١	اختلاف الحروف	لم ينسبها ١/٩٧	لم ينسبها ١/٤٧	قيل – لغة قريش ومجاوريهم من بني كنانة . قُول – لغة كثير من قيس وعقيل ومن جاورهم وعامة بني أسد . قُولْ – لغة لهذيل وبني دُبَيْر : ١/٦٠ – ٦١
البقرة	إنّا معْكم آية ١٤	الضبط الحركي	لم ينسبها ١/١٠١	لم ينسبها ١/٥٠	مع تسكينها قبل حركة لغة ربيعة وغنم، وإذا قلت مع الرجل أو مع ابنه، فالفتح لغة عامة العرب . والكسر لغة ربيعة : ١/٦٢

البحر المحيط	الكشاف	جامع البيان للطبري	نوع اللهجة	الآية	اسم السورة
البحر ، ٦٩/١ النهر الماد .					
الإمالة في تميم ، والفتح لغة قريش : ٧١/١	» ٥٢/١	» ١٠٦/١	الإمالة والفتح	أولئك الذين اشتروا الضّلالة بالهدى . آية ١٦	البقرة
الجنس الذي ميز واحده بتاء يؤنثه الحجازيون، ويذكره التميميون وأهل نجد . ٨٣/١	» ٥٩/١	» ١١٤/١	التذكير والتأنيث	أو كصيّب من السماء . آية ١٩	البقرة
بعض بني أسد يقولون «هذا إبهام» والتأنيث أجود . ٨٤/١	» ٦١/١	» ١١٩/١	التأنيث والتذكير	يجعلون أصابعهم في آذانهم	البقرة
الصاقعة — لغة بني تميم : ٨٤/١ — ٨٦	» ٦٤/١	» ١١٩/١	التقديم والتأخير	من الصواعق . آية ١٩	
الكسر في طاء الماضي لغة قريش، وقرأ بعض أهل المدينة يَخْطِّف . ٨٩/١ — ٩٠ .	» ٦٥/١	» ١٢٣/١	الضبط الحركي	يَكَادُ البرق يخطف أبصارهم آية ٢٠	البقرة
ضم الهاء لغة بني مالك من بني أسد . ٩٣/١ .	» ٦٨/١	» ١٢٤/١	الضبط الحركي	يا أيها الناس آية ٢١	البقرة
الجر « بلعلّ » لغة عقيل : ٩٣/١	لم ينسبها ٧٠/١	لم ينسبها ١٢٥/١	الإعراب	لعلكم تتقون . آية ٢١	البقرة

اسم السورة	الآية	نوع اللهجة	جامع البيان للطبري	الكشاف	البحر المحيط
البقرة	وبشّر الذين آمنوا. آية ٢٥	التشديد والتخفيف	» ١٣٢/١	» ٧٨/١	التشديد وهي اللغة العليا ، ولغة أهل تهامـــة التخفيف ١٠٩/١
البقرة	ولهم فيها أزواج. آية ٢٥	التذكير والتأنيث	» ١٣٦/١	» ٨٢/١	زوج لغة الحجــاز وزوجة لغـــة تميم وكثير من قيس وأهل نجـد/ البحر ١٠٩/١
البقرة	لا يستحيي أن يضرب. آية ٢٦	الحذف والزيادة	» ١٣٧/١	» ٨٥/١	بياءين لغة الحجاز والماضي استحيا ، بياء واحدة لغة تميم والماضي استحى . ١٢٠/١ – ١٢١
البقرة	» »	الإعراب	» ١٣٧/١	» ٨٥/١	الجزم « بأن » لغة لبني صباح ١١٨/١
البقرة	فأما الذين . . . فيعلمون . . . وأما الذين. آية ٢٦	اختلاف الحروف	» ١٤٠/١	» ٨٨/١	« أما » أبدل بنو تميم الميم الأولى ياء « أيما » ١١٩/١
البقرة	هو الذي خلق لكم ، آية ٢٩	التشديد والتخفيف	» ١٤٥/١	» ٩١/١	هو – شددتهاهمدان وسكنتها أسد وقيس : ١٣٣/١
البقرة	أنبئوني بأسماء هؤلاء . آية ٣١	الممدود والمقصور	» ١٥٩/١	» ٩٤/١	المد في أولاء لغـة الحجاز، والقصرلغة تميم ، وبعض قيس وأسد : ١٣٨/١

البحر المحيط	الكشاف	جامع البيان للطبري	نوع اللهجة	الآية	اسم السورة
أنتى : بنو سليم يفتحونها بعد القول بدون شرط ١/١٤٠	لم ينسبها ١/٩٣	لم ينسبها ١/١٥٦	الضبط الحركي	وإذ قال ربكَ للملائكة إني جاعلٌ. آية ٣٠	البقرة
بضم التاء نقل أنها لغة أزد شنؤة/البحر ١/١٥٢ والنهر ١/١٥٢	« ١/٩٥	« ١/١٧٧	« «	وإذ قلنا للملائكة اسْجُدوا. آية ٣٤	البقرة
تميم تسكن العين. ١/١٥٥، النهر الماد ١/١٥٦	« ١/٩٥	« ١/١٨٢	« «	وكُلا مِنْهَا رَغَداً. آية ٣٥	البقرة
إعرابها لغة بني فقعس ١/١٥٥	« ١/٩٥	« ١/١٨٢	الإعراب	حيثُ شئتما آية ٣٥	البقرة
لغة هذيل البحر : ١/١٦٩	لغة هذيل ١/٩٧	« ١/١٩٥	التصحيح والإعلال	فمن تبع هدايَ آية ٣٨	البقرة
أهل الحجاز « أوفيت » وأهل نجد يقولون «وفيت» ١/١٧٢	لم ينسبها ١/٩٧	« ١/١٩٨	فعل وأفعل	وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم. آية ٤٠	البقرة
« عتى » لغة هذيل ١/٢٠٤	« ١/١٠٥	« ١/٢٢٩	اختلاف الحروف	حتى نَرَى الله جهرة. آية ٥٥	البقرة
لغة تميم يرأى وأرئي ١/٢٠٤	« ١/١٠٥	« ١/٢٢٩	«	نَرى الله جهرة. آية ٥٥	البقرة
السلوى : العسل بلغة كنانة ١/٢٠٥	« ١/١٠٦	« ١/٢٣٣ – ٢٣٤	الدلالة	المنّ والسّلوى : آية ٥٧	البقرة
لغة تميم تسكين بارئكم ١/٢٠٦	« ١/١٠٥	« ١/٢٢٦	الضبط الحركي	فتوبوا الى بارئكم. آية ٥٤	البقرة

اسم السورة	الآية	نوع اللهجة	جامع البيان للطبري	الكشاف	البحر المحيط
البقرة	فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء ، آية ٥٩	الضبط الحركي	» ٢٤٢/١	» ١٠٧/١	الرجز بضم الراء لغة بني الصعدات ، وقرىء بها: ٢١٨/١
البقرة	فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً. آية ٦٠	الضبط الحركي	لم ينسبها ٢٤٣/١	لم ينسبها ١٠٨/١	إسكان الشين لغة الحجاز ، وبكسرها لغة تميم : ٢١٨/١ ، ٢٢٩
البقرة	مِنْ بَقْلِها وقثائها وفومها وعَدَسِها وبصلها . آية ٦١	الدلالة	الفوم الحنطة بلسان بني هاشم ٢٤٧/١	» ١٠٨/١	الفوم : السنبلة بلغة أسد : ٢١٩/١
البقرة	فادْع لنا آية ٦١	الضبط الحركي	لم ينسبها ٢٤٥/١	» ١٠٨/١	لغة بني عامر ـ فادعِ ـ بكسر العين ٢٣٢/١
البقرة	خذوا ما آتيناكم بقوة . آية ٦٣	التصحيح والإعلال	» ٢٥٨/١	» ١١٠/١	طيء تقول « قوى » يفتحون العين والفاء مفتوحة فتنقلب ألفاً : ٢٣٩/١ – ٢٤٠
البقرة	خِزْيٌ في الحياة الدّنيا . آية ٨٥	اختلاف الحروف	» ٣١٨/١	» ١٢٠/١	الدنيا مؤنثة مقصورة تكتب بالألف لغة نجد وتميم خاصة . إلا أن أهل الحجاز وبني أسد يلحقونها ونظائرها بالمصادر ذوات الواو فيقولون ـ دنوى ـ ٢٨٢/١
البقرة	وقفينا من بعده	الضبط الحركي	» ٣١٩/١	» ١٢٠/١	تسكين عينه لغة

اسم السورة	الآية	نوع اللهجة	جامع البيان للطبري	الكشاف	البحر المحيط
	بالرّسل. آية ٨٧				الحجاز والتحريك لغة تميم ٢٩٩/١[1]
البقرة	من كان عدوًّا لله وجبريل وميكال آية ٩٨	اختلاف الحروف	جبريل كقنديل لغة الحجاز. جبرئيل كعنتريس لغة تميم وقيس وكثير من نجد.	لم ينسبها ١٢٦/١	جبريل كقنديل لغة جبرئيل كعنتريس لغة تميم وقيس وكثير من نجد.
	من كانَ عدوًّا لله.. ... وجبريل وميكال. آية ٩٨	الضبط الحركي	جَبرين وجِبرين لغة أسد. ميكال لغة الحجاز ٣٤٦/١		جَبرين وجِبرين لغة أسد. ميكال لغة الحجاز: ٣١٨/١
البقرة	وما الله بغافل عما تعلمون. آية ٧٤	الزيادة والحذف	لم ينسبها ١٥/٢	لم ينسبها ١١٦/١	قول بأن الباء لا تدخل في خبر المبتدأ بعد ما التميمية وهو مذهب الفارسي في أحد قوليه والزمخشري وقول بجواز جره بالباء وهو الصحيح. أما دخول الباء في خبر ما الحجازية فكثير: ٢٦٧/١
البقرة	فَمَنْ شَهِدَ مِنكم الشهر فليصمه آية ١٨٥	الضبط الحركي	لم ينسبها ٨٥/٢	لم ينسبها ١٧٢/١	فتح لام الأمر لغة بني سليم ٤١/٢

(١) أخطأ أبو حيان في هذا، كما أخطأ الألوسي في تفسيره: ٢٨٦/١، والعكس هو الصحيح.

اسم السورة	الآية	نوع اللهجة	جامع البيان للطبري	الكشاف	البحر المحيط
البقرة	لا تضار والدة بولدها. آية ٢٣٣	الادغام والاظهار	» ٣٠٦/٢	» ٢١٢/١	الإظهار لغة أهـــل الحجاز ، والادغام لغة تميم : ٣٥٣/٢
البقرة	فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى.. حتى يبلغ الهديُ محِلّه. آية ١٩٦	التخفيف والتشديد	» ١٢٣/٢، ١٢٨	» ١٨١/١	الهدى بالتشديد لغة تميم . البحر: ٦٠/٢، والتخفيف لغة قريش: البحر ٩٨/٨ .
البقرة	وبعولتهن أحقُ بردّهن/آية ٢٢٨	الضبط الحركي	» ٢٧٣/٢	» ٢٠٧/١	بسكون التاء لغة تميم: ١٨٨/٢
البقرة	هلْ عَسَيْتم إن كتُب عليكم القتال. آية ٢٤٦	الضبط الحركي	» ٣٧٦/٢	» ٢٢٢/١	أهل الحجاز يكسرون السين من عسى مـــع المضمر خـــاصة : ٢٥٥/٢

واستنتج من هذه المقارنة :

١ — كثرة اللهجات المعزوة الى قبائلها في البحر المحيط كثرة غامرة ، بينما أهمل أمر اللهجات في كتابي الطبري والزمخشري .

٢ — أرجح أن منهج كل كتاب من هذه الكتب هو الذي حـــدد ظهورَ اللهجات في كتاب واختفائها في آخر — فالطبري سلفي يهتم بالإفاضة في الروايات في تفسيره ، ولهذا لم تترك له فراغاً لظهور لهجات القبائل .

أما منهج الزمخشري في كتابه فيهدف الى إثبات الإعجاز القرآني عن طريق بيان أوجـه البلاغة ، وهذا المنهج متسلط عليه ، ولهذا عنى بالبلاغة فلم تترك له فراغاً لظهور لهجات القبائل أيضاً .

أما أبو حيان فكان يقصد في كتابه الى القراءات والنحو ، واللهجات وثيقة الصـــلة بكل منها ، إذ القراءات تعتمد في أوجه خلافها على ما بين اللهجات من فروق وخلاف، كما أن لهجات القبائل ما هي إلا نحو من نحو اللغة الفصحى وطريق منه .

٣ — كما نعلل ظهور اللهجات عند أبي حيان بأن الرجل كان معنياً بالتأليف في اللغات الأخرى غير العربية ، يؤيد ذلك ما جاء في البغية من أنه ألف في « منطق الخرس في لسان الفرس» و « الإدراك للسان الأتراك » و « نور الغبش في لسان الحبش » و « زهو الملـــك في نحو الترك »[١] وأرجح أن اللسان في تأليفه معناه اللغة ، والقرآن الكريم لم يستعمل غير كلمة اللسان ، « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه »[٢]، « واختلاف ألسنتكم »[٣] فالرجل له كلف بالتأليف في اللغات واللهجات بدليل أنه تحدث عن أداة التعريف في بعض الألسنة واللغات الأخرى[٤] ، وقد نضح هذا الكلف في تفسيره حين عقب على مـــا روي عن ابن عباس والحسن أن معنى (طه) يا رجل — عقب فقال معناها « بالنبطية وقيل بالحبشية ، وقيل بالعبرانية ، وقيل لغة يمنية في عك ، وقيل في عكل ، كما نقل عن الكلبي :

---

(١) البغية ٣٢٢

(٢) سورة إبراهيم : آية ٤ .

(٣) سورة الروم : آية ٢٢ .

(٤) ارتشاف الضرب : ورقة : ١٣٣ خط ٦٠٦\\دار الكتب .

« لو قلت في عك يا رجل ، لم تجب حتى تقول: طه »[١] . وأحتفظ لنفسي بالشك في تعقيب أبي حيان السابق لاسيما إسناده ذلك الى اللغة العبرية ، كما يخالجني الشك أيضاً عندما نقـل ابن الأنباري[٢] عن بعض المفسرين أن (طه) معناها (يا رجل) بالسريانية ، إذ لم يرد في العبرية ولا في السريانية ما يؤيد كلام أبي حيان .

٤ ـ وكان أبو حيان يحتج للهجات العربية فمن ذلك :

أ) ما روى عن أبي عمرو من جواز حـذف حركة الإعراب مستدلاً بقراءة (بارئكم) ، (وبعولتهن) بالتسكين ، وقد طعن في هذه القراءة النحاة : سيبويه وابن جني والمبرد ، وقالوا بأن قراءة أبي عمرو لحن ـ ويرى أبو حيان أن مـا ذهب إليه المبرد وأعوانه من النحاة ليس بشيء ، لأن أبا عمرو لم يقرأ إلا بأثر عن الرسول ﷺ ، وقد ثبت نقل أبي عمرو وأن الإسكان منقول محكى عن تميم[٣] وإذا ثبتت لهجة عربية فلا ينبغي أن يخطأ بها القارىء أو يغلّط ، ولهذا يرى أبو حيان أن القراءات جاءت على لغـة العرب قياسها وشاذها[٤] .

ب) وردت عدة قراءات قرآنية أجازت حذف الحركة أو اختلاسها في حالة الوصل ، منهـا « يؤدّه إليك »[٥] ، « نؤته منها »[٦] ، « ونحشره يوم القيامة »[٧] .

فقد قرئت باختلاس حركة الهاء وإسكانها[٨] ، وقد عزى السكون والاختلاس الى عقيـل وكلاب[٩] ـ ولم يعترف البصريون كعادتهم بهذه القراءات التي صورت لهجات عربية ، فزعم

---

(١) البحر : ٢٢٤/٦ .

(٢) الأضداد : ٣٥٤ .

(٣) انظر البحر : ٢٠٦/٢ ـ ١٨٨ ، الخصائص : ٧٥/١ ط الهلال ، الهمع : ٥٤/١ .

(٤) البحر : ٤٩٣/٨ .

(٥) سورة آل عمران : آية ٧٥ .

(٦) سورة آل عمران : ١٤٥ .

(٧) سورة طه : آية ١٢٤ .

(٨) البحر : ٤٩٩/٢ .

(٩) البحر : ٥٠٢/٨ .

الزجاج وابن السراج أن القراءة غلط بيّن ، ورأى سيبويه أنها ضرورة[1] . وزكى أبو حيان القراءة وأن ما ذهب إليه أبو إسحق من أن الإسكان غلط ليس بشيء ، إذ هي قراءة في السبعة وهي متواترة وكفى أنها منقولة عن إمام البصريين أبي عمرو بن العلاء فإنه عربي صريح وسامع لغة وإمام في النحو ، ثم أراد أن يدعم القراءة فنقل أنها صورت لهجة عقيل وكلاب[2] .

٥ – أما الزمخشري فكان دائب الطعن في القراءات القرآنية – والتي تمثل لهجات عربية . ويرميها باللحن تارة[3] ، وبالغلظ أخرى[4] ، وبالخطأ الفاحش أحياناً[5] ، وقد يرجع طعنه هذا الى أنه كان معتزلياً ، والمعتزلة تجنح للقياس والعقل لا للرواية والنقل ، ولهذا لم تظهر اللهجات في مؤلفه ، لأن اللهجات سماع ونقل ، ولهذا طالما ضاق به أبو حيان وعلق على تجهمه للقراءات بقوله « وهذا على عادته في نسبته الخطأ الى القراء[6] وقوله وجسارته هذه « أي ابن عطية » لا تليق إلا بالمعتزلة كالزمخشري فإنه كثيراً ما يطعن في نقل القراء وقراءتهم[7] . كما وصفه بالضعف في العربية وسوء ظنه بالأئمة (وأعجب لعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض (ابن عامر) قراءة متواترة ، وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً[8] .

٦ – أن الغرب الإسلامي كان لا يطعن في اللهجات بل يرويها وينقلها كما رأينا عند ابن مالك وأبي حيان ، لأنها كثيراً ما تعتمد على قراءات قرآنية «والمدرسة الأندلسية تميل الى النزعة الأثرية في الاحتجاج للقراءة »[9] تلك التي تمثل لهجات عربية ، وطريقها طريق النقل والأثر ، لا القياس والنظر .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) البحر : ٤٩٩/٢ .

(٣) القراءات واللهجات : ١٧٥ .

(٤) المرجع السابق : ١٣٤ .

(٥) البحر : ٣٦١/٢ .

(٦) البحر : ٣١٤/٥ .

(٧) البحر : ١٥٩/٣ .

(٨) البحر : ٢٢٩/٤ .

(٩) أبو علي الفارسي : ٤٣٠ دكتور عبد الفتاح شلبي .

ولهذا كان بالأندلس أئمة في القراءة كمكي بن أبي طالب القيسي (٣٥٥ – ٤٣٧ هـ) والداني (٣٧٠ – ٤٤٤ هـ) والشاطبي (٥٣٨هـ) وابن مالك (٦٠٠ – ٦٧٢ هـ) وأبي حيان (٦٥٤ – ٧٥٤ هـ) ولهذا اهتموا بكل ما يحيط بالقرآن الكريم ، من قراءات وغيرها ، وكان من هذا الاهتمام أيضاً بيان مصادر القرآن اللغوية ، ونسبة ما أخذ القرآن من ألفاظ كل قبيلة . ولعل السبب أيضاً في أن علماء الأندلس اهتموا باللهجات أكثر من المشارقة حيث ظهرت اللهجات في مؤلفاتهم ظهوراً غامراً ، أنه لما كانت ثقافة الأندلس مصدرها من الشرق جعل الأندلسيون يحسون بما يسمى (مركب النقص) فحاولوا أن يعوضوا ذلك بتأكيد تفوقهم ونبوغهم ، ولهذا رد الأندلس جميله في موجات موجهة الى الشرق مفعمة بتفكير جديد مصبوغ بالصبغة الأندلسية ، وليس أدل على هذا من أن ابن سيده الأندلسي قد بلغ عدد القبائل التي عزا إليها في معجمه بعد إحصائية قمت بها في « المخصص » بأسفاره كلها بلغت تسعاً وثلاثين قبيلة[1] ، بينما بلغت القبائل في معجم « الجمهرة » لابن دريد – واحداً وثلاثين قبيلة[2] . وفي « لسان العرب » بأجزائه العشرين بلغ عدد القبائل العربية المعزو إليها واحداً وسبعين قبيلة[3] ، وابن منظور ولد ونشأ في طرابلس الغرب وولي القضاء فيها[4] فهو يمثل الغرب الإسلامي . كما بلغ عدد اللهجات التي عزا إليها أبو حيان الأندلسي في تفسيره كله بأجزائه الثانية – أربعاً وستين قبيلة[5] ، ومن هذه المقارنات نضع يدنا على كثرة لهجات القبائل وظهورها ظهوراً كاثراً في مؤلفات الغرب الإسلامي .

ويجدر الآن أن نلقي ضوءاً على عصر النحاة المتأخرين المشهورين بالجمع لنرى موقفهم من اللهجات أيضاً .

رابعاً – عصر النحاة المتأخرين :

وأقصد بهم هؤلاء الذين جمعوا وألموا بأطراف المباحث النحوية وأوجه الخلاف في مسائلها ،

---

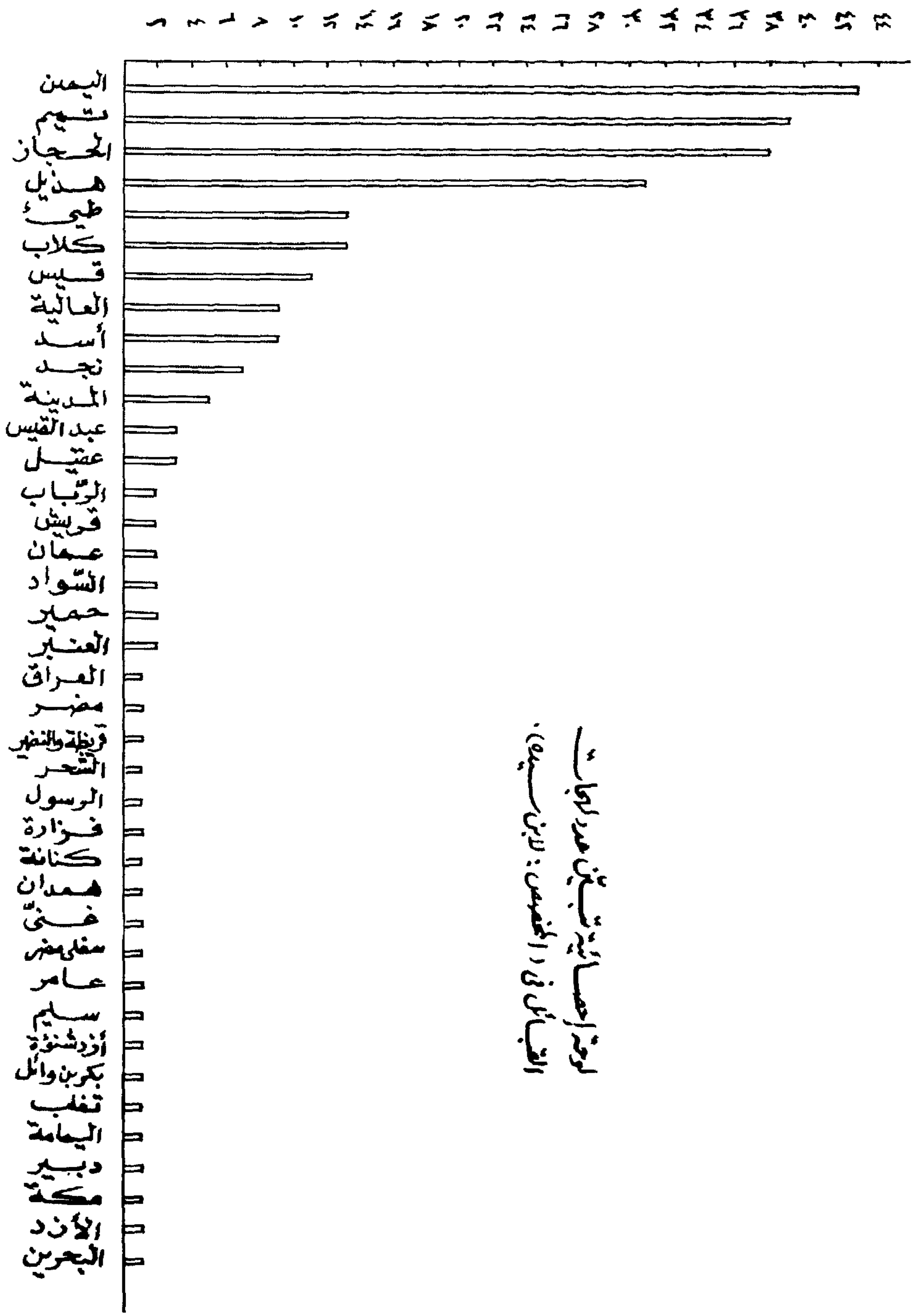
(١) انظر اللوحة الاحصائية .

(٢) أضفت على إحصائية الجمهرة : لهجة ضبّة وجرم لم يحصهما محقق الجمهرة ، كما حذفت من إحصائيته ما لا يتصل بلهجات القبائل العربية .

(٣) انظر فيما تقدم لوحة إحصائية رقم هـ .

(٤) الأعلام : ٣٢٩/٧ ط ٢ ، البغية : ٩٠٦ .

(٥) انظر : إحصائية لكتاب البحر المحيط « الباب الثاني الفصل الأول من هذا الكتاب



لوحة إحصائية تبين عدد لغات القبائل في المخصص لابن سيده.

وحشدوا الآراء اللغوية ، ولم يكن لهم من فضل إلا أنهم جمعوا المادة العلمية التي تضمنتها الكتب النحوية في مراحلها المختلفة .

وسيتناول الحديث ثلاثة من هؤلاء المتأخرين المشهورين بالجمع اللغوي :

أولها : خالد زين الدين الأزهري . **وثانيها** : عبد الرحمن جـــلال الدين السيوطي . **وثالثها** : علي نور الدين الأشموني .

أ) الشيخ خالد الأزهري « متوفي ٩٠٥ هـ » وكان وقاداً بالأزهر ، وصنف مؤلفات كثيرة منها : التصريح على التوضيح ، وشرح الأزهرية ، والآجرومية ، وشرح قواعد الاعراب لابن هشام ، وسأشير الى اللهجات في مؤلف واحد منها وهو : شرح التصريح .

وقد قمت بإحصائية في الكتاب باحثاً عن لهجات القبائل فوجدته ذكر واحداً وثلاثين قبيلة جمعتها ورتبتها حسب إسناد أكثر اللهجات إليها : تميم[١] . الحجاز[٢] . أسد[٣] . قيس[٤] . طيء[٥]. ربيعة[٦] . هذيل[٧] . عُقَيْل[٨] . بَلْحَارث بن كعب[٩]. عامر[١٠] . العالية[١١] . فَزَارة[١٢] . سُلَيْم[١٣] . أسد شنوءة[١٤] . قُضَاعــة[١٥] . خَثْعَم[١٦] . بكر بن

---

(١) التصريح : ١/٦٨ ، ١/٧٧ ، ١/١٩٩ ، ١/٢٠٩ .

(٢) المرجع السابق : ٢/٢٨٥ ، ٣٤٢ ، ٤٠١ .

(٣) التصريح : ٢/١٩٦ ، ١/٢٥٨ .

(٤) المرجع السابق : ١/٣٦ ، ١٣٢ .

(٥) المرجع السابق : ١/١٣٧ .

(٦) المرجع السابق : ٢/٤٨ ، ٢٠٨ .

(٧) المرجع السابق : ٢/٢ .

(٨) المرجع السابق : ١/٢١٣ .

(٩) المرجع السابق : ١/١٣٢ .

(١٠) المرجع السابق: ١/٧٧ .

(١١) المرجع السابق: ١/٢٠١ .

(١٢) المرجع السابق: ١/٢٥٨ .

(١٣) المرجع السابق: ١/٢٦٢ .

(١٤) المرجع السابق : ١/٢٧٥ .

(١٥) التصريح : ١/٣٦١ .

(١٦) المرجع السابق : ١/١٢٧ .

وائل[١] . قريش[٢] . ضَبَّة[٣] . كنانة[٤] . حِمْيَر[٥] . فَقْعَس[٦] « من أسد » . دُبَيْر[٧] « من أسد » . غَنِيّ[٨] . غَنْم[٩] . بنو مالك[١٠] « من أسد » . سعـــد[١١] . كعب[١٢] . نُمَيْر[١٣] . يَرْبُوع[١٤] . زُبَيْد[١٥] .

ويلاحظ على منهجه :

١ – أن تسجيل اللهجات عنده كان ثانويًّا ، كأن يتكلم عن لام الابتداء بعد « ان » المكسورة ثم يقول : « وتسمى اللام المزحلقة بالقاف والفاء » ، وبنو تميم يقولون « زحلوقة بالقاف ، وأهل العالية زحلوفة بالفاء »[١٦] .

٢ – أنه كثيراً ما يهمل عزو اللهجات كقوله « ومن العرب »[١٧] أو ينقل ما حكاه سيبويه عن بعض العرب »[١٨] أو عن يونس « بعض العرب الموثوق بهم »[١٩] .

---

(١) المرجع السابق : ٤٠٢/٢ .
(٢) المرجع السابق : ٢٩٤/١ .
(٣) المرجع السابق : ٢٩٥/١ .
(٤) ٦٨/١ .
(٥) المرجع السابق : ١٤٩/١ .
(٦) المرجع السابق : ٢٩٥/١ .
(٧) المرجع السابق : ٢٩٥/١ .
(٨) المرجع السابق : ٢١/٢ .
(٩) المرجع السابق : ٤٨/٢ .
(١٠) المرجع السابق: ١٧٤/٢ .
(١١) ٣٤١/٢ .
(١٢) ٤٠٢/٢ .
(١٣) المرجع السابق .
(١٤) ٦٠/٢ .
(١٥) ٢٩/٢ .
(١٦) ٢٢١/١ .
(١٧) ٦٧/١ .
(١٨) ١١٠/١ .
(١٩) ٣٥٥/١ .

٣ – أن اللهجات عنده لم تخضع لتنظيم أو دراسة فهي مبعثرة في أمكنة مختلفة من مؤلفه .

ب) جلال الدين السيوطي (متوفي ٩١١ هـ) وقد عد له بروكلمان ٤١٥ مصنفاً بين مطبوع ومخطوط ، وعدد له الشعراني في ذيل طبقاته ٤٦٠ مؤلفاً[١] ، وكتبه مفخرة من مفاخر التأليف والتصنيف منها : الاتقان في علوم القرآن، والمزهر في علوم اللغة، وهمع الهوامع، والأشباه والنظائر ، والاقتراح في أصول النحو .

وسأشير الى اللهجات في مؤلفين مختلفين من مؤلفاته **أولهما** : نحوي وهو **همع الهوامع** ، **وثانيهما** : لغوي وهو « **المزهر** » .

١ – همع الهوامع شرح جمع الجوامع ، وهو من الكتب الجامعة قال عنه السيوطي في المقدمة « وبعد فإن لنا مؤلفاً في العربية جمع أدناها وأقصاها ، وكتاباً لم يغادر من وسائلها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » . وقد قمت بإحصائية لهذا الكتاب الجامع فوجدته عزا فيه لهجات لست وثلاثين قبيلة جمعتها ورتبتها على حسب ورود أكثر القبائل وهي ·

تميم[٢] ، والحجاز[٣] ، وطيء[٤] ، وأسد[٥] ، وسُليم[٦] ، وقيس[٧] ، وهذيل[٨] ، وكنانة[٩] ، وربيعة[١٠] ، وفزارة[١١] ، وعامر[١٢] ، وعقيل[١٣] ، وخثعم[١٤] ، وبكر بن

(١) المزهر : ٢/٦٥٩ .
(٢) همع الهوامع : ١/٦٠ ، ٢٢٥ .
(٣) الهمع : ١/١٤٦ ، ٢/٢٢٧ .
(٤) الهمع : ٢/١٦٤ .
(٥) الهمع : ١/٦١ ، ١٢٥ .
(٦) الهمع : ١/١٥٨ .
(٧) الهمع : ٢/٢٠٠ .
(٨) الهمع : ٢/٢٣ ، ٣٤ .
(٩) الهمع : ١/٤٠ .
(١٠) ١/٢١٧ .
(١١) الهمع : ٢/٧٩ .
(١٢) الهمع : ١/٤٧ .
(١٣) الهمع : ٢/٣٣ .
(١٤) ١/١٩٧ .

وائل[1] ، وهَمْدان[2] ، وعُكْل[3] ، واليمن[4] ، والعنبر[5] ، وبَلْحَارث[6] بن كعب، وعلياء[7] قيس ، والهجيم[8] ، واليمامة[9] ، وحِمْير[10] ، والعالية[11] ، وأسْد[12] شنوءة ، وقضاعة[13] ، وفَقْعَس[14] ، ومرادة[15] ، وعذرة[16] ، ولغة القرآن[17] ، وخزاعة[18] ، وصُباح[19] ، ونجد[20] ، وأسْد السَّرى[21] ، ولخم[22] ، وزُبَيْنة[23] .

ويلاحظ على منهجه :

١ - أنه كثيراً ما يعزو اللهجات لقبيل مبهم من العرب كقوله « لغة عن بعض العرب »[24]

---

(١) الهمع : ٤٠/١ .
(٢) ٤٠/١ .
(٣) الهمع : ٢١٦/١ .
(٤) ٢٣/٢ .
(٥) ٤٠/٢ .
(٦) ٤٠/١ .
(٧) ٤٧/١ .
(٨) ٤٠/١ .
(٩) ٤٠/٢ .
(١٠) ٧٩/١ .
(١١) ١٢٤/١ .
(١٢) ١٦٠/١ .
(١٣) ٢٣١/١ .
(١٤) ٢١٢/١ .
(١٥) ٤٠/١ .
(١٦) ٤٠/١ .
(١٧) ٨٥/٢ .
(١٨) ٣٣/٢ .
(١٩) ٣/٢ .
(٢٠) ٢٠٤/٢ .
(٢١) ٢٠٥/٢ .
(٢٢) ٢٠٨/٢ .
(٢٣) ٤٠/١ .
(٢٤) ٤٦/١ .

أو « لقوم من العرب »[١] وهو ينهج منهج المتقدمين في ذلك كسيبويه[٢] والسيرافي[٣] .

٢ ـ وأحياناً يعزو الى جزء القبيلة كقوله « أكثر بني تميم »[٤] ، « وأكثر أهـــل اليمن »[٥] ، « وبطون من ربيعة »[٦] .

٣ ـ كما يصدر أحكاماً على بعض اللهجات كقوله : « وهي رديئة جداً »[٧] أو « نادرة جداً »[٨] أو « فصيحة »[٩] أو « أغرب اللغات »[١٠] أو « أشهرها »[١١] أو « لغية »[١٢] .

٤ ـ وأحياناً يذكر ما في الكلمة الواحدة من لغات حتى تبلغ أربعين لغة[١٣] .

٥ ـ كما أن لهجات القبائل عنده تتبعثر على هامش البحث ، ولا يتبع فيها نظاماً موحداً .

٦ ـ أما كتابه الآخر المزهر فقد قلّ فيه ذكر القبائل المعزو إليها عن الهمع فبلغت أربعـــاً وعشرين قبيلة ، بينما في الهمع وصلت ستاً وثلاثين قبيلة .

ويلاحظ على الهمع أنه وردت به قبائل لم ترد في المزهر وهي :

كنانة ، والعنبر ، وبلحارث بن كعب ، وعلياء قيس ، والهجيم ، واليمامـــة ، وربيعة ، وفزارة ، وخثعم ، وبكر بن وائل ، وفقعس ، وزبيد ، وهَمْدان ، ومزادة ، وعـــذرة ، وعكل ، ولغة القرآن ، وخزاعة ، وصُباح ، وأزد السّرى ، ولـَخْم .

---

(١) ١/١٣١ .
(٢) انظر : ابن يعيش : ١٠/١٤٠ .
(٣) شرح السيرافي : ٥/٤١٣ خط .
(٤) الهمع : ١/٢٩ .
(٥) الهمع : ٢/٢٠٤ .
(٦) الهمع : ١/٤٠ .
(٧) ١/٥٩ .
(٨) ٢/٧ .
(٩) ١/٥٣ .
(١٠) ٢/٤٠ .
(١١) ٢/٥٣ .
(١٢) الهمع : ١/١٩٧ .
(١٣) الهمع : ٢/١٠٦ .

كما أن المزهر وردت به قبائل لم ترد في الهمع وهي :

قريش ، ضبّة ، كلاب ، البحرين ، نزار ، عبد القيس ، هوازن ، الأنصار ، مكة .

ويلاحظ على منهج المزهر بصفة عامة :

١ — أنه يهتم بإيراد الكلمات المفردة وعزوها الى قبائلها كقوله :

السبّ بلغة هذيل : الحبل[١] . والسكر يسمى المبرت بلغة أهل اليمن[٢] . والبلّ ، المباح لغة يمانية[٣] . والكابول — الكرّ ، الذي يصعد به على النخل لغة أسدية[٤] ، والخزومة : البقرة بلغة هذيل[٥] ، ويلاحظ على هذه الكلمات أنها منعزلة عن السياق الذي يوضحها ، وهو في هذا كالمدرسة اللغوية فإن اهتمامها كان بالكلمات المفردة ، أما في كتابه الهمع فكان جل اهتمامه موجهاً الى أبيات الشواهد لاسيما تلك التي حملت بذوراً لهجية .

٢ — وأنه كثيراً ما يكتفي بأن الكلمة وردت في « بعض اللغات »[٦] وهو في هذا ينقل عن ابن دريد وابن سيده وابن منظور[٧] .

٣ — كما نسمع أحكاماً على بعض اللغات كقوله :

لغة ضعيفة[٨] أو رديئة[٩] ، أو رديئة مذمومة[١٠] ، أو لغة متروكة[١١] . وهو ينقل هذه الأحكام عن قدامى اللغويين كأبي زيد والأصمعي وأصحاب الموسوعات والمعاجم .

---

(١) المزهر : ٢٥١/١ .

(٢) المزهر : ٢٨٤/١ .

(٣) المزهر : ٤١٩/١ .

(٤) المزهر : ١٢٤/٢ .

(٥) المزهر : ١٢٩/٢ .

(٦) المزهر : ٢١٦/١ وما بعدها .

(٧) انظر : اشتقاق ابن دريد : ١٠٥ وستنفلد ، والمخصص س ١٥ ص ٢٥ ، س ٥ ص ٣٠ ، ١٠٦ ، اللسان : ٢٨٣/١٩ ، ٤٠٦/١٠ ، ٢٤٧/٧ .

(٨) المزهر : ٢١٤/١ .

(٩) المزهر : ٢٦٦/١ .

(١٠) المزهر : ٢٢١/١ — ٢٢٦ .

(١١) المزهر : ٢١٩/٢ .

٤ ـ كما أن أكثر لهجات الحجاز وتميم[2] قد نقلها عن يونس بن حبيب[3] وأبي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي[1] ، وهذا يؤكد أن السيوطي كان متبعاً لا مبتدعاً في جمع اللهجات .

جـ) هو أبو الحسن علي نور الدين بن محمد الأشموني (توفي ٩٣٩ هـ) وله مؤلفات كثيرة أشهرها شرحه على ألفية ابن مالك ، وهو أغزر شروح الألفية كما أنه حشد فيه آراء المتقدمين من علماء العربية وسأتناول ما ورد في كتابه من لهجات القبائل العربية .

وقد قمت بإحصائية لهذا الكتاب فوجدته عزا فيه لهجات لخمس وعشرين قبيلة جمعتها ورتبتها على حسب ورود أكثر القبائل وهي :

تميم[2] . الحجاز[3] . طيء[4] . ربيعة[5] . قيس[6] . أسد[7] . هذيل[8] . سُليم[9] . أسْد شنوءة[10] . بكر بن وائل[11] . بَلْحارث بن كعب[12] . عامر[13] . عُقيل[14] . فزارة[15] . قريش[16] .

---

(١) المزهر : ٢٧٥/٢ - ٢٧٧ .
(٢) الأشموني : ٧٨/١ ، ٢٦٧ .
(٣) الأشموني : ٢٤٧/١ ، ٢٦٨/٣ .
(٤) ٢١٤/٤ .
(٥) ١٠١/١ .
(٦) ٢٦٤/٢ .
(٧) ٢٣٤/٣ .
(٨) ١١٨/٤ .
(٩) ١٢/٤ .
(١٠) ٤٨/٢ .
(١١) ٣٥١/٤ .
(١٢) ٧٩/١ .
(١٣) ٣٤١/٤ .
(١٤) ٢٠٤/٢ .
(١٥) ١١٤/٤ .
(١٦) ٨٤/١ .

لخم[١] . فقعس[٢] . دُبَيْر[٣] . غنم[٤] . كعب[٥] . نُمير[٦] . اليمن[٧] . صُباح[٨] . كلب[٩] . قُضَاعة[١٠] .

والمنهج الذي اتبعه في اشاراته الى اللهجات هو كمنهج السابقين له تقريباً :

١ – فيعزو عن ابن مالك لغة لبعض العرب[١١] .

٢ – أو يعزو لجزء من القبيلة (كبعض طيء)[١٢] أو (بعض بني صباح)[١٣] .

٣ – أو يعزو اللغة لكثير من العرب ثم يحدد بعض قبائلهم[١٤] .

٤ – وكثيراً ما يحكي عن الخليل[١٥] ، وسيبويه[١٦] والفراء ، واللحياني[١٧] ، ويونس[١٨] ، وابن سيده[١٩] .

---

(١) ٢١١/٤ .
(٢) ٦٣/٢ .
(٣) ٦٣/٢ .
(٤) ٢٦٥/٢ .
(٥) ٣٥٣/٤ .
(٦) ٣٥٣/٤ .
(٧) ٢٧٧/٤ .
(٨) ٢٨٤/٣ .
(٩) ١٣٠/٤ .
(١٠) ٢٨٢/٤ .
(١١) الأشموني : ٣٣٣/٤ ، ١١٧ ، ٢٨٦/٣ .
(١٢) الأشموني : ١٥٨/١ ، ٢٠٦/٤ .
(١٣) الأشموني : ٢٨٤/٣ .
(١٤) المرجع السابق : ٢١٢/٤ .
(١٥) الأشموني : ١٥٨/٣ .
(١٦) الأشموني : ٧١/٤ ، ٢٢٧ .
(١٧) المرجع السابق : ٨/٤ .
(١٨) المرجع السابق : ١٥٦/٣ .
(١٩) المرجع السابق : ١٢٩/٤ .

٥ - كما أنه قد يحكي نقل اللغات ولا يسند الحكاية الى مصدرها بل يكتفي بقوله: «ونقل بعضهم أنها لغة طيء» [١] وأحياناً يحددها بسماع الراوي الحكاية عن قبيلة عربية كقوله «وسمع الأخفش من ناس من عقيل» [٢].

٦ - كما نسمع منه أحكاماً على بعض اللهجات، بالرداءة حيناً والفصاحة حيناً آخر، وهو في ذلك يحكي آراء السابقين ويقلدهم.

٧ - كما أن اللهجات عنده كانت تظهر على هامش الدراسة ولهذا لم تخضع لدراسة أو تنظيم.

٨ - وكان يأخذ اللهجات حيناً من مصدر مكتوب، وحيناً آخر من مصدر شفوي.

تعقيب :

يتضح مما سبق أن السيوطي قد عزا في الهمع الى ست وثلاثين قبيلة، وأن الأزهري قد عزا في تصريحه الى واحد وثلاثين قبيلة، وأن الأشموني قد عزا الى خمس وعشرين قبيلة، كما أن السيوطي في المزهر عزا الى أربع وعشرين قبيلة، فيكون الهمع أكثرها عزواً ثم التصريح فالأشموني ثم المزهر.

وقد أدرت هذه الإحصائية على وجه آخر فحاولت حصر ورود عدد ما جاء معزواً الى القبيلة الواحدة في هذه الكتب، وأخذت منها لهجة تميم والحجاز، وأزد شنؤة وغنى. وكانت الإحصائية كما يأتي :

---

(١) المرجع السابق : ٢١٤/٤.

(٢) المرجع السابق : ٢٠٢/٤.

اسم الكتاب	اسم القبيلة	عدد ورودها	اسم القبيلة	عدد ورودها	اسم القبيلة	عدد ورودها	اسم القبيلة	عدد ورودها
الهمع	تميم	٢٨	الحجاز	٢٤	أزْدَ شَنُوْة	١	غَنِيّ	—
شرح التصريح	«	٢٧	«	٢٠	«	٢	«	١
المزهر	«	٥٨	«	٤٩	«	٢	«	—
الأشموني	«	٢٧	«	٢٠	«	٢	«	—

وفي ضوء هذه الإحصائية يتضح ما يلي :

١ – أن ورود لهجات القبائل عند المتأخرين الجامعين لأطراف المباحث النحوية قد قفزت عندهم الى حد أنها زادت على ما جاء به سيبويه ، لأن عدد القبائل التي عزا إليها سيبويه في كتابه بلغت ١٥ قبيلة[١] ، بينا في الهمع ٣٦ قبيلة ، وفي التصريح ٣١ قبيلة ، وفي الأشموني ٢٥ قبيلة .

٢ – كما تشير المقارنة الى قوة اللغة التميمية في الكتب السابقة ،حتى كادت تفوق اللغة الحجازية ، مما يدل على قوتها في المجتمع العربي الجاهلي ، ومما يؤكد هذا ما جاء عن ابن حزم في وصف تميم من أنهم « قاعدة من أكبر قواعد العرب »[٢] ، « وأمنع قبائل العرب »[٣] إذ كانت الوحدات الحربية التي تحركت شرقاً نحو فارس ثم خراسان ثم الى افريقية غرباً – يغلب عليها النسب التميمي – فإذا أضفنا الى ذلك أن تميماً – لما لها من نفوذ وصولة – كانت تتولى القضاء في الأسواق العربية[٤] – عرفنا سرّ بروز لهجاتها في المحيط العربي،ومما يقوي

(١) انظر إحصائية لهجات القبائل في كتاب سيبويه في الفصل الأول من الباب الثاني من هذا الكتاب

(٢) جمهرة أنساب العرب : ١٩٦ .

(٣) معجم كحالة : ١/١٣٠ .

(٤) نهاية الأرب للقلقشندي : ٤٦٤ .

هذا ما جاء في حديث [1] رسول الله ﷺ من أنه ورد عليه الوفود فأقرّ الأخماس[2] كل خمس على لغته ، فكان أعرب القوم تميم .

٣ – أن القبائل المغمورة لم تحظ من علماء العربية بتسجيل كلماتها ولكنهم أهدروا حقها في الحياة فأهملوها ! والكلمات كالإنسان تَشْقى وتَسْعد ، يؤيد هذا ما سجلوه لغني وأزد شنوءة .

٤ – أنهم لم يستقرئوا جميع لهجات القبائل ، بل فلتت منهم أكثر القبائل وربما تركوها عامدين ... لأنها في نظرهم أقل من أن يحسب لها حساب أو تقدير .

(١) الفاضل للمبرد ١١٣ دار الكتب .

(٢) يريد أخماس البصرة : وهي : العالية . وبكر بن وائل ، وتميم وعبد القيس ، والأزد .

الباب الثالث

المستوى الصوتي ويشمل :

علم الأصوات العام (Phonetics)

وعلم الأصوات التنظيمي ، أو علم التشكيل الصوتي (Phonology)

الفصل الأول

دراسة حركية الكلمة

وتشمل :

أولاً : دراسة حركات عين الكلمة في لهجات القبائل :

معلوم أن الثلاثي المجرد له الأوزان الآتية : فَعَل ، فعِل ، فعُل بفتح العين وكسرها وضمها ، ولكن لوحظ أن الصيغتين الأخيرتين تعتورهما تغيرات عدة لاسيا في الأوزان الصرفية ، والقصد من هذه التغيرات هو التخفيف وتوفير الجهد الذي تنزع إليه القبائل العربية في أثناء كلامها ، وأمثال ذلك ما نجده في :

١ — فعِل : بكسر العين سواء كانت اسماً أو فعلا حيث ينطق بها (فعْل) بتسكين العين مثل: علِم تقول فيها : علْم ، وفي كتف : كتْف ، وفي فخذ : فخْذ ويظهر أن هذه التغيرات أو التفريعات تختص بلهجة تميم ، على حين أبقتها لهجة الحجاز على حالها بدون تفريع ، يقول الرضى « وجميع هذه التفريعات في كلام بني تميم ، وأما أهل الحجاز فلا يغيرون البناء ولا يفرعون »[1] وعزاه سيبويه « الى بكر بن وائل وأناس كثير من تميم »[2] وبالاستقراء وجد أن صيغة : (فعِل) بكسر العين يتفرع عنها ما يلي :

أ) تسكين العين : مثل فعْل .

ب) تسكينها بعد نقل حركتها الى الفاء فتصير (فِعْل) نحو : شهد ، فخذ في حلقي العين ، وكتف ، وكبر في غير الحلقي .

جـ) التفريع الثالث : فِعِل: بكسرتين وهذا التفريع يختص بما كان حلقي العين نحو ضِحِك . هذه هي تفريعات (فعِل) بكسر العين .

ونبدأ ب (أ) فعِل : بكسر العين وتفريعها الى فعْل بسكون العين :

---

(١) شرح الشافية : ابن الحاجب : ١/٤٠ ط حجازي .

(٢) سيبويه : ٢/٢٥٧ .

ولما كانت النصوص القرآنية ، وغيرها هي سبيلنا في إثبات كل قضية فإليك ما يلي :

١ – كلمة على وزن نبقة وهي الفصحى وهي لغة الحجاز ، وبها جاء التنزيل ، وكلمة على وزن (سدرة) ، وعلى وزن (تمرة) وهما لغتا تميم[١] . ويقول المصباح بأن « الكلمة » تخفف على لغة بني تميم[٢] . وفي قوله تعالى : «قل يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء »[٣] قرئت كلمة – على وزن ضربة ، وكِلمة على وزن (سِدرة)[٤] .

٢ – وفي الآية « وكأيّنْ مِنْ نبيٍّ قاتل مَعَهُ رِبّيُونَ كثير ، فَمَا وَهَنُوا[٥] لِمَا أصَابَهُمْ » . قرأ عكرمة وأبو السمال : وهنوا بإسكان الهاء[٦] .

٣ – يرى الأزهري أن (الوسمة) بكسر السين وهو كلام العرب – وعزى كسر السين الى لغة الحجاز[٧] ، وقال الجوهري تسكينها لغة[٨] . ولا شك أن التسكين تفريع عن الكسر وأرجح أن التسكين لتميم .

٤ – في قوله تعالى : « وإن كانَ ذُو عُسْرة فَنَظِرَةٌ الى مَيْسَرَة »[٩] قرأ أبو رجاء ومجاهد والحسن وغيرهم بسكون الظاء – وهي لغة تميمية[١٠] – كما عزاها في المحتسب الى تميم[١١] . ولا شك أن هذا التسكين في الظاء للتخفيف من نظرة – بكسر الظاء .

٥ – وما رواه ابن السكيت من أنه سمع أعرابيًّا من بني تميم يقول : « نَعْم »[١٢] وقرأ ابن

---

(١) ابن هشام : شذور الذهب : ١٣/١ ، وحاشية عبادة على الشذور : ١٣/١ .

(٢) المصباح : ٨٣١/٢ ، شرح المفصل : ابن يعيش : ١٩/١ ، اللسان : ٤٢٨/١٥ .

(٣) سورة آل عمران : آية ٦٤ .

(٤) البحر : ٤٤٧/٢ : ٤٨٢ .

(٥) آل عمران : آية ١٤٦ .

(٦) البحر : ٧٤/٣ .

(٧) المصباح : ١٠٢٤/٢ .

(٨) اللسان : ١٢٣/١٦ .

(٩) سورة البقرة : آية ٢٨٠ .

(١٠) ٣٤٠/٢ من البحر المحيط ، ومختصر شواذ القرآن لابن خالويه : ١٧ .

(١١) المحتسب : ابن جني : ١٦٤/١ مخطوطة بالتيمورية رقم ٣٧٩ تفسير تيمور .

(١٢) إصلاح المنطق : ١٠٥ .

وثاب قوله تعالى « سلامٌ عليكم بما صبرتم فَنَعْمَ عُقْبَى الدّار »[1] بفتح النون وسكون العين ، قال أبو حيان « وتخفيف فعل لغة تميمية »[2] .

ويظهر أن هذا التخفيف لم يكن خاصاً بتميم بل شمل كثيراً من المناطق العربية ، فكانت بكر بن وائل تخفف مثل هذا، فقد ذكر سيبويه في كتابه « أن من العرب من يقول : نَعْمَ الرجل – في نِعم – كان أصله : نَعِم ثم خفف بإسكان الكسرة على لغة بكر بن وائل[3] ، ومما يزيد هذا الدليل قوة ما روي عن أبي هريرة وعاصم الجحدري في قراءتها « مَلْكُ يوم الدين »[4] في مالك يوم الدين[5] على الصفة المشبهة، وقد قرأ بها أيضاً عبد الوارث عن أبي عمرو[6] ، كما عزيت هذه القراءة في مكان آخر لربيعة ، واستشهد لها بقول الأعشى :

فقال للمَلْك أطلق منهم مائة   وَسْلا من القول مخفوضاً وما رفعا[7]

وإذا كانت الظاهرة واحدة في بكر بن وائل وربيعة ، فذلك لأن العلاقة النسبية بينهما قائمة ، إذ إن بكراً هذه كما رأت كتب الأنساب – بطن من ربيعة[8] .

والأمثلة السابقة فيها تفرعت الصيغة (فَعِل) الى (فَعْل) بسكون العين .

ب) فَعِل : بكسر العين وتفريعها الى فِعْل بكسر الفاء ، وسكون العين : – وقد تتفرع صيغة (فَعِل) بكسر العين الى (فِعْل) بسكونها ، وذلك في لهجة تميم ، ومن ذلك :

١ – وذلك قوله تعالى « بئسما اشتروا به أنفسهم »[9] فأصل بِئْس : بَئِس من البؤس، سكنت همزتها ، ثم نقلت حركتها الى الباء ، كما قيل : لكبد : كِبْد .

---

(١) سورة الرعد : آية ٢٤ .

(٢) البحر المحيط : ٣٨٧/٥ .

(٣) اللسان : ٦٦/١٦ .

(٤) البحر : ٢٠/١ .

(٥) سورة الفاتحة : آية ٤ .

(٦) مختصر شواذ القرآن لابن خالويه : ١ .

(٧) الاشتقاق : ١٧ ، وستنفلد .

(٨) نهاية الأرب : القلقشندي : ١٧٨ .

(٩) سورة البقرة : آية ٩٠ .

قال الطبري في تفسيره « وهي من لغة الذين ينقلون حركة العين من فَعِل الى الفاء إذا كانت عين الفعل أحد حروف الحلق الستة — وذلك فيما يقال لغة فاشية في تميم »[1] .

٢ — وقرأ الجمهور قوله تعالى «سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»[2] بكسر النون وسكون العين وهي أكثر استعمالا[3] ، وأصلها : نَعِم ، فسكنت العين ثم نقلت حركتها الى النون قبلها فصارت (نِعْم) .

٣ — وفي المخصص أنه سمع من العرب من يقول « وَرِك ، ووِرْك ، وكَتِف وكِتْف[4] ، ولَعِب ولِعْب[5] .

والغرض من هذا التفريع المعزو الى تميم هو كراهة الانتقال من الأخف الى الأثقل ، ولهذا آثرت تميم تسكين العين في هذا كله ، والسكون أخف من الحركة .

وقد تتفرع صيغة : فَعِل الى فِعِل ، بكسر الفاء والعين وهذا التفريع لا يكون إلا في الحلقي العين .

جـ) فَعِل : بفتح الفاء وكسر العين وتفريعها الى فِعِل : بكسر الفاء والعين .

وهذا التفريع لا يكون إلا في الحلقي العين كنِعْم وبِئْس : فتقول فيها على التفريع نعم وبئس ، بكسر الفاء والعين في كل منها والأصل فيها ، نَعِمَ وبَئِس ، بفتح فكسر ، وقد عزا صاحب التوضيح الصيغتين نعم وبئس ، بكسر الحرفين الأولين الى تميم حيث قال « وكسرهما عند بني تميم ، ولا يجيز الحجازيون فيها إلا الأصل »[6] ، وقد ساق سيبويه عدة صيغ على فِعِل : بكسر الفاء والعين منها : رجل لِعِب : بكسر الفاء والعين ، ورجل مِحِك ، وهو ماضغ لهم : بكسر الفاء والعين ، وهذا رجل وِعِك[7] .

---

(١) تفسير الطبري : ٢/٢٣٨ دار المعارف .

(٢) سورة الرعد : آية ٢٤ .

(٣) البحر : ٥/٣٨٧ .

(٤) المخصص : سفر ١٤ : ص ٢٢١ .

(٥) تفسير الطبري : ٢/٣٣٨ دار المعارف .

(٦) التصريح والتوضيح : ٢/٩٥ .

(٧) كتاب سيبويه : ٢/٢٠٥ ، شرح السيرافي على سيبويه : ٥/٣١٣ مخطوط بالتيمورية .

ولقد علل الرضى هذا التفريع في تلك الصيغة فقال « وإنما جعلوا ما قبل الحلقى تابعاً له في الحركة ، مع أن حق الحلقى أن يفتح نفسه أو ما قبله كما في « يدمَع » لثقل الحلقى وخفة الفتحة، فأتبع فاؤه لعينه في الكسر[١] . وعلل سيبويه لهذا التفريع بأن حرف الحلق لا يناسبه إلا الفتح ، ولم تفتح العين الحلقية هنا خوفاً من أن تلتبس صيغة (فعَل) بفتح العين مع صيغة (فعل) بكسرها ، فلما لزمت العين الكسر ، وهي حرف حلق ، وفي ذلك شيء من الثقل أتبعوا الفاء العين ليحدث نوع من التخفيف بالميل من كسرة الى كسرة ، وذلك لأن اللسان يعمل في جهة واحدة ، فيكون العمل من وجه واحد[٢] .

٢ ـ فَعُل : بفتح الفاء وضم العين وتفريعها الى فَعْل : بفتح الفاء وسكون العين :

وقد جاء التفريع فيها بسكون العين تخفيفاً ولا يكون ذلك إلا عند بني تميم . وأمثلة ذلك : . ما قرىء به في قوله تعالى : « كَبُرْتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أفواههم »[٣] بسكون الباء في (كبر) ـ وعزاها أبو حيان الى تميم[٤] كما قرأ أبو السمال قوله تعالى : « وَحَسُنَ أولئك رفيقاً »[٥] بسكون السين ـ وعزاها أبو حيان الى تميم كذلك[٦] ، ونسب ابن خالويه في البديع هذه القراءة الى قعنب[٧] .

على حين أن لغة الحجاز لا تفرع في تلك الصيغة ، فقد قرأ الجمهور الآية السابقة « وحَسُنَ » بفتح الفاء وضم العين وهي الأصل ، قال أبو حيان : وهي لغة الحجاز[٨] ، ويظهر أن التفريع في تلك الصيغة لم يكن خاصًّا بتميم وحدها ـ فقد شمل بقاعاً أخرى من الجزيرة العربية ، ومما يؤيد هذا ما جاء عن سيبويه من أن التسكين في العين لغة بكر بن وائل ، وأناس كثير من تميم ،

---

(١) شرح الشافية : ١/٤٠ .

(٢) كتاب سيبويه : ٢/٢٥٥ ، وانظر : المخصص لابن سيده : سفر ١٤ ص ٢١٣ .

(٣) الكهف : ٥ .

(٤) البحر : ٦/٩٧ .

(٥) النساء : ٦٩ .

(٦) البحر : ٣/٢٨٩ .

(٧) مختصر شواذ القرآن : ابن خالويه : ٢٧ .

(٨) البحر : ٣/٢٨٩ ، الدر اللقيط : ٣/٢٩٠ .

ومثّل لذلك بقوله : « عَضُد في عَضُد وفي كَرُم الرجل : كَرْم »[1] بفتح فسكون ، وقد وجدنا صدى للهجة بكر بن وائل في كتاب الله أذكر منها :

أ) قال تعالى « حتى إذا ضاقَتْ عَلَيْهم الأرضُ بِمَا رَحُبَتْ »[2] .

قرأ زيد بن علي « بما رحْبت » بسكون الحاء[3] .

ب) وقال تعالى « كبرت كلمة تخرج من أفواههم »[4] .

فقد قرىء (كبْرت) بسكون الباء – وهي لغة تميم[5] .

ويجوز في هذا التفريع أي صيغة « فَعُل » أن تنقل ضمة عينه الى فائه فيكون على وزن (فُعْل) بضم الفاء وتسكين العين – وعليها قرىء قوله تعالى « وحسن أولئك رفيقاً »[6] « وحسن » بضم الحاء وسكون السين ، والذي حدث في تلك الصيغة : أن حركة السين وهي الضمة ، نقلت الى الحاء قبلها – وقد عزا هذه الصيغة المنقولة حركتها – أبو حيان « الى لغة بعض قيس »[7] – ويظهر أن النقل في الحركة هنا لا يصح إلا إذا لحنا معنى التعجب فيها ، لأن التغيير في اللفظ بالنقل صحبه معنى آخر زائد وهو التعجب ، وهذا معنى كلام الرضى « من أن فَعُل – الذي فيه معنى التعجب يقال فيه فعل »[8] بسكون العين وضم الفاء .

واستشهد لذلك بقول الأخطل :

« وحُبَّ بِها مَقْتولة حين تُقتلُ »

ولعل ذلك دلالة على نقله الى معنى التعجب[9] .

---

(١) الكتاب : ٢/٢٥٧

(٢) التوبة : آية ١١٨ .

(٣) البحر : ٥/٢٤ .

(٤) الكهف : ٥ .

(٥) البحر : ٦/٩٧ .

(٦) النساء : ٦٩ .

(٧) البحر : ٣/٢٨٩ .

(٨) شرح الشافية لابن الحاجب : ١/٤٣ .

(٩) شرح الشافية : ١/٤٣ .

وأصل : حُبَّ : حَبِبَ – بفتح العين ، ثم حول الى فَعُل : بضم العين لإرادة المدح والتعجب فصار « حَبُبَ » بضم العين ، ثم نقلت العين الى الفاء بعد حذف حركتها فصار : حُبَّ بضم ففتح .

وفي نسبة البيت السابق الى الأخطل دليل يفيدنا في قضيتنا ، وهو أن هذا التفريع في الصيغ لم يكن في تميم فقط ، ولكنه شمل أجزاء كبرى من الجزيرة العربية – فالأخطل هذا من تغلب ، وتغلب وبكر ابنا وائل من ربيعة . وفي الكامل للمبرد نجد شيئاً من التفريع في صيغة فعل بضم العين ، وتحويلها الى فَعْل بسكونها .

من ذلك قول عمران بن حطان :

مِن الأزْد إن الأزد أكرم معشرٍ   يمانية طابوا إذا نُسِبَ البَشَرْ[1]

ويعقب المبرد على البيت السابق بقوله : وينشد :

(يمانية قرْبوا إذا نُسِبَ البشر) بسكون الراء .

يريد : قَرُبوا – بضم الراء . قال المبرد : « وهذا جائز في كل شيء مضموم أو مكسور إذا لم يكن من حركات الإعراب : تقول في الأسماء : في فَخِذ : فخْذ وفي عضُد : عضْد بسكون العين ، وتقول في الأفعال : كرم عبدالله بسكون العين أي كرم »[2] ، وقول المبرد « وهذا جائز ... » دليل على أن هذا ليس بابه الضرورة ، بل يكون في سعة الكلام .

وإنما كان القصد من هذا التفريع – هو التخفيف ، لأن النطق بصيغة : فَعْل بسكون العين أخف من صيغة فعل: أي بضم العين، ولا شك أن السكون أخف من الضم، ولو لم يسكنوا العين وتركوها على الضم ، لترتب عليه أن اللسان ينتقل من الأخف وهي الفتحة – الى الأثقل منه – وهي الضمة، ولهذا سكنت الضمة في تفريعه، لأن السكون أخف . ويظهر أن التسكين كما كان في الكلمة الواحدة عند تميم ، شمل الكلمتين أيضاً، ويظهر هذا في غير المتصل بأن تكون الكسرة أو الضمة ليست في وسط الكلمة – كما تقدم من الأمثلة – بل ينظر إليها بجانب كلمة أخرى ، ومن هذا أنهم يسكنون هاء – هو وهي ، إذا سبقها واو ، أو فاء ، أو لام ، وقد وردت بعض القراءات على ذلك : منها قوله تعالى « وَهْو بكلّ شيءٍ عليم »[3] ، « وإن

(١) الكامل : ٢/١١١ ط حجازي ١٣٦٥ هـ
(٢) الكامل للمبرد : ٢/١١٤ .
(٣) البقرة : ٢٩ .

« وإنْ تخفوها وتؤتوها الفقراءَ فهو خيرٌ لكم »[1] ، «وإن الدار الآخرةَ لَهِي
فقد قرأ قراء عديدون بسكون الهـاء من الآيات السابقة ، منهم أبو عمرو وا
جعفر[3] ، وعزا صاحب الإتحاف هذا التسكين الى نجد ، كما نسب التحريك فيها ا

والسبب في هذا التسكين عند نجد أو تميم أن (فَهُوَ) على وزن (فعل) فـ
نسكن عَضُدَ — فتكون (عَضْد) ، جاز تسكين الهاء من (فهو) التي بوزن (
العين فتصير (فهو) ، (وهو) ، بسكونها وهذا إن دل فإنما يدل على أن التسك
شاملاً في تميم في الأسماء والأفعال .

ومما جاء من التفريع على تلك الصيغة قوله تعالى « فَخَرّ عليهم السّقف »[5]
القاف وهي قراءة الجمهور ، وقد عزاها أبو حيان الى تميم[6] وهي مخففة من « ا
العين ، كما عزا صاحب البحر صيغة « عَضْدا » في قوله تعالى : « وما كنت مُتّ
عضداً »[7] الى تميم[8] ، وبهـذه اللغة قرأ عيسى[9] ، وفي المصباح عزيت الى تـ
وائل[10] على حين وقد عزا ابن منظور ناقلاً عن أبي زيد أن صيغة « العَضُد والعَجُز
في لغة تهامة »[11] وفي المصباح أن تلك الصيغة السابقة معزوة الى الحجاز[12] ، وهذ
التفريع لم يكن في الحجاز ، ويشير الى معنى آخر وهو أن اللهجات كان بعضها يحا
في نظر اللغويين والرواة ، فالصيغة عزيت في كتاب الى تهامة ، وفي كتاب آخر ا

(١) البقرة : ٢٧١ .

(٢) العنكبوت : ٦٤ .

(٣) إتحاف فضلاء البشر : ١٣٢ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) النحل : آية ٢٦ .

(٦) البحر : ٥/٤٨٥ .

(٧) الكهف : آية ٥١ .

(٨) البحر : ٦/١٣٧ .

(٩) مختصر شواذ القرآن ابن خالويه : ٨٠ .

(١٠) المصباح : ٢/٦٣٥ .

(١١) اللسان : ٤/٢٨٣ .

(١٢) المصباح : ٢/٦٣٥ .

شك أن الصيغة الأصلية هي : عَضُد – بفتح فضم – ثم حدث فيها التخفيف فسكنت الضاد ، فصارت : عضْد : بسكون الضاد – وأما نطقها في تهامة عُضُد : بضمتين فهي صورة متطورة عن الأصل ، ولأنها أخف من عَضُد – واللغة في سيرها تميل الى السهولة ، وقد سبق أن جاءت القراءات في تلك الكلمة في لهجة تميم وبكر بن وائل ، أما لهجة تهامة أو الحجاز فقد قرأ بها الحسن في قوله تعالى « وما كنت متخذ المضلين عضداً » بضمتين[1] .

٣ – تفريع : « فُعِل » بضم الفاء وكسر العين الى « فُعْل » بسكون العين :

وهذا الضرب خاص بالفعل المبني للمجهول ، ومن المعلوم أن الفعل في الماضي يُضم أوله ويكسر ما قبل آخره في البناء للمجهول، لكنه يحول الى صيغة تفريعية أخرى عند تميم وبكر ابن وائل وتغلب – وهي صيغة : « فُعْل » بضم الفاء وسكون العين ويمكن أن نورد الشواهد الآتية لهذه الظاهرة :

١ – عزا سيبويه الى أبي النجم قوله : (لو عُصْرَ منه البانُ والمسْكُ انعصر)[2] . بضم العين وسكون الصاد – وأصلها : عُصِر – بالبناء المجهول .

٢ – ورد في كتاب المخصص استشهاده بقول الشاعر : (ونُفْخوا في مدائنهم فطاروا)[3] . بسكون الفاء ، ولم يعز البيت الى قائل ، وفي نسخة السيرافي المخطوطة[4] على سيبويه عزى هذا البيت الى القطامي ، وكذلك في اللسان مادة (ن ف خ)[5] .

٣ – جاء في كتاب « العققة والبررة » ما نسب الى معبد بن قرط العبدي في هجاء أمه من قوله :

تلتهم الوسقَ مشدوداً أشظته ... كأنما وجهها قد سفْعَ بالنار[6]

بسكون الفاء – في « سفع » .

(١) المصباح : ٦٣٥/٢ .

(٢) الكتاب لسيبويه : ٢٠٨/٢ ، شرح الشافية : ٤٣/١ ، التصريح على التوضيح : ١٩٤/١ ، المخصص : س ١٤ ص ٢٢٠ .

(٣) المخصص : س ١٤ ص ٢٢٠ .

(٤) السيرافي على سيبويه : ٣٢٤/٥ تيمور خط .

(٥) وفي ديوان القطامي المطبوع سنة ١٩٦٠ ص ١٤٣ « ونُحتوا » .

(٦) كتاب العققة والبررة : لأبي عبيد معمر بن المثنى : ٣٦٥ من نوادر المخطوطات رقم ٧ ط أولى ، لجنة التأليف والترجمة : ١٣٧٣ – ١٩٥٤ تحقيق عبد السلام هارون .

وإذا بحثنا في كتب الطبقات والأنساب وجدنا أن أبا النجم صاحب البيت الأول من بكر ابن وائل[1] من بني عجل . وأن القطامي : هو عمير بن شيم من بني تغلب[2] ، فيكون هذا التفريع من « فُعِل » الى « فُعْل » في بكر بن وائل ، وفي « تغلب » الذي هو أخو بكر ، كما يطرد هذا التفريع عند تميم أيضاً[3] .

وعلى الرغم من أن التفريع هذا في تميم إلا أن الرضى المحقق – أخطأ عندما نسب أبا النجم – الى تميم[4] في بيته السالف – ولعل هذا النسب الخاطىء جاء له من شبهة مؤداها : أن هذا التفريع عند تميم أيضاً .

ويمكن أن تعلل صيغة التفريع السابقة بأنهم كرهوا في « فُعِل » الكسرة بعد الضمة ، فسكنوا هذه الكسرة حتى لا ينتقل اللسان الى الثقل ، وعلل صاحب المخصص هذا ناقلاً عن سيبويه قوله « كرهوا في « عُصِر » الكسرة بعد الضمة ، كما يكرهون الواو مع الياء في مواضع ، ومع هذا انه بناء ليس من كلامهم إلا في هذا الموضع من الفعل فكرهوا أن يحولوا ألسنتهم الى الاستثقال »[5] .

وإذا التفتنا الى كتاب الله – التمسنا في قراءته شواهد لهذا التفريع الذي جاء على لهجة تميم ، وبكر ، وتغلب :

١ – قرأ أبو السمال قوله تعالى « وَلُعِنُوا بما قالوا »[6] بسكون العين ، ولقد حسنت قراءة أبي السمال لأن الكسرة وقعت بين ضمتين[7] .

٢ – كما قرأ مسلمة بن محارب « جزاءً لمن كانَ كُفِر »[8] بإسكان العين في « كفر » .

---

(١) الشعر والشعراء : ٢٣٢ ط المعاهد ، المخصص : س ١٤ ص ٢٢٠ .

(٢) الشعر والشعراء : ٢٧٧ ط المعاهد .

(٣) شرح السيرافي على سيبويه : ٣٢٣/٥ ، كتاب سيبويه : ٢٥٧/٢ – ٢٥٨ .

(٤) شرح الشافية ٤٣/١ ، وانظر الهامش .

(٥) المخصص : س ١٤ ص ٢٢٠ .

(٦) المائدة : ٦٧ .

(٧) البحر : ٥٢٣/٣ .

(٨) سورة القمر : آية ١٤ .

٣ – وجاء في شرح السيرافي مَثل من أمثال العرب وهو : لم يُحرمْ من فُصْدَ له[١] . بإسكان الصاد وأصلها : فُصِدَ – بالبناء للمجهول ، ولكن جاءت صورتها بالسكون في المثل – وهي ولا شك صيغة تفريعية من المبنى للمجهول .

تلك هي أهم التفريعات وكلها في تميم ومن لف لفهم من بكر بن وائل وتغلب وربيعة ، أما صيغة (فَعَل) بفتح الفاء والعين فلا تفريع فيها ، لأن الفتح خفيف فلا داعي للخروج عنه ، قال سيبويه « وأما ما توالت فيه الفتحتان ، فإنهم لا يسكنون منه ، فلا يقولون في جمل (بفتح الميم) جمل (بسكونها)»[٢] . وأرى أن سيبويه والسيرافي قد جانبهما الصواب[٣] .

إسكان حركة الاعراب :

وتسكين حركة الإعراب للتخفيف ظاهرة تميمية ، وقد نقلها القراء عن أبي عمرو بن العلاء، ولها شواهد عدة في القراءات ، والمنثور من كلام العرب ، والشعر ، فمن ذلك قوله تعالى « فتوبوا الى بارئكم »[٤] فقد قرأ الجمهور بظهور حركة الإعراب في «بارئكم» كما روي عن بعضهم اختلاس تلك الحركة[٥] ، وروي عن أبي عمرو الإسكان، وذلك إجراء للمنفصل من كلمتين مجرى المتصل من كلمة ، فإنه يجوز تسكين مثل « إبل » فأجرى المكسوران في « بارئكم » مجرى (إبِل)[٦] بكسرتين .

وكقوله تعالى « وبعولتهن أحق بردهن »[٧] فقرأ مسلمة بن محارب بسكون التاء[٨] . وربما كان ذلك فراراً من كثرة الحركات . ومما جاء من إسكان حركة الإعراب قوله تعالى : «ينصركم»

---

(١) شرح السيرافي : ٣٢٣/٥ مخطوط .

(٢) شرح السيرافي على سيبويه : ٤١٦/٥ خط بالتيمورية ، الكتاب : ٢٠٨/٢ ، ٢٨١/٢ .

(٣) فقد خفف المفتوحَ بعضُ القراء : انظر : المحتسب : ٣٠٧/١ أقول : وهم على حق إذ السكون أخف من الفتح، ولأن السكون يختصر المقاطع ، وبذلك يوفر المجهود . وعلى ذلك قراءة أبي السّمّال وأبي المتوكل وأبي الجوزاء « الجمل » بفتح الجيم وإسكان الميم وذلك في قوله تعالى « حتى يلجَ الجمل » الأعراف : ٤٠ .

(٤) البقرة : آية ٥٤ .

(٥) البحر : ٢٠٦/١ .

(٦) النشر : ٢١٢/٢ - ٢١٣ .

(٧) البقرة : آية ٢٢٨ .

(٨) البحر : ١٨٨/٢ ، ومختصر شواذ القرآن : ابن خالويه : ١٤ .

في آل عمران والملك ، « ويأمركم » ، «ويأمرهم» ، «وتأمرهم» ، «ويشعركم»[١] ، «ويعلمهم» [٢]
فهذه الآيات جميعها قرئت بالإسكان على حذف حركة الإعراب ، « وذكر أبو عمرو أن ذلك ل
تميم »[٣] كما أن ظهور حركة الإعراب فيما سبق لغة أهل الحجاز ، ذكر ذلك في المحتسب [٤]
ابن جنى .

تعقيب :

١ – أرى مما سبق في إسكان حركة البنية ، وحركة الإعراب – أنه من خصائص تميم ، و
جاورها كبكر بن وائل ، وتغلب ومن لف لفها .

٢ – وأن لهجات الحجاز تحتفظ بالصيغ دون حذف أو تغيير ، فالصيغ ثابتة .

٣ – أن هذا التفريع في قبائل تميم وغيرها – تطور عن الصيغ الحجازية الثابتة .

٤ – أن ظاهرة حذف الحركات تتلاءم وتميم البدوية ، حيث إنهم يميلون الى السرعة في النط
الذي ينتهي الى الاقتصاد في الجهد العضلي، ولا شك أن حذف الحركات فيه تيسير واقتصا
وهو ما يهدف إليه البدوي – بعكس الحجاز المتحضرة التي تهدف الى إعطاء كل صو
حقه من الوضوح والبيان .

ودليل ذلك ما جاء في الخبر « نزل القرآن بالتفخيم » وقد اختلفت الأئمة في معنى هـ
الحديث، فبعضهم يرى أنه نزل بذلك[٥]، ثم رخص في الإمالة وبعضهم شرحه بأن المقصود : أ
يقرأ على قراءة الرجال ، لا يخضع الصوت فيه ككلام النساء ، وآخرون بأن المقصود منه : أ
نزل بالشدة والغلظة على المشركين ، وبعضهم يرى أن المراد بالتفخيم : تحريك أوساط الك
بالضم والكسر دون إسكانها[٦] ، وأرجح أن هذا المعنى الأخير هو المقصود دون غيره ، لأن
يرى أن معنى التفخيم نزوله بالشدة والغلظة على المشركين – مردود ، لأن القرآن الكريم كما تز

(١) سورة الأنعام : آية ١٠٩ .
(٢) سورة آل عمران : آية ١٦٤ .
(٣) البحر : ١٨٨/٢ .
(٤) المحتسب : ابن جنى : ١١٤/١ مخطوط بالتيمورية .
(٥) لعله يقصد « الفتحة الصريحة » .
(٦) الإتقان : للسيوطي : ٩٥/١ .

بالغلظة نزل كذلك بالرحمة والرأفة ، والذي يؤيد ما أرجحه مـــا ورد عن أبي عبيدة من قوله « أهل الحجاز يفخمون الكلام كله »[١] ، وكأن المقصود هو نطق الحركات كاملة دون الجور عليها بالتسكين ، وتلك سمة حجازية .

وهناك استثناء من تلك القاعدة العامة ، وهو أن أهل الحجاز يسكنون الشين من (عشرة) فيقولون « إحدى عشرة » بينما تميم تقول ذلك بالكسر . وهذا عكس ما نعرفه عنهما ، لأن المعروف أن تميماً تسكن العين من فَعِل وفَعَلة ، والحجاز يحركون ذلك ، ووردت نصوص تؤيد ذلك ، منها :

قوله تعالى : « فانفجرتْ مِنْهُ اثْنَتَا عشرة عيناً »[٢] فقد نسب أبو حيان إسكان الشين الى الحجاز ، وكسرها الى تميم[٣] . وعن ابن خالويه – أن كسر الشين قراءة الأعمش[٤] . كما قرأ ابن وثاب قوله تعالى « وقطّعناهم اثنتي عشرة أسْبَاطاً أمماً »[٥] بكسر الشين وهي في تمـــيم ، والجمهور بالإسكان وهي لغة الحجاز[٦] ، وفي نوادر يونس «أن تميماً تثقل عشرة، وتكسر الشين. وأهل الحجاز لا يحركون »[٧] .

وقد يعلل لكل من اللهجتين حيث خالفتا معتاد لغتهما ، وذلك أن المشهور عن الحجازيين تحريك الثاني من الثلاثي إذا كان مضموماً أو مكسوراً – وأمـــا تميم فتسكن ذلك – وسبب المخالفة في العدد أنه قد نقضت في كثير منه العادات من ذلك قولهم في الواحد : واحد وأحد ، فلما صاروا منه الى العدد قالوا : إحدى عشرة – فبنوه على فعلى ، ومنه اقتصارهم من ثلثمائة الى تسعمائة على أن أضافوه الى الواحد ، ولم يقولوا ثلاث مئات ولا أربع مئين[٨] . ويرى ابن جنى « أن العدد موضع يحدث معه ترك الأصول »[٩] ولهذا تركت كل من اللهجتين لهجتها الى لهجة

(١) الإتقان : ١/٩٥ .
(٢) سورة البقرة : آية ٦٠ .
(٣) البحر : ١/٢١٨ .
(٤) مختصر شواذ القرآن : ٥ – ٦ .
(٥) سورة الأعراف : آية ١٦٠ .
(٦) البحر : ٤/٤٠٦ .
(٧) المزهر : ٢/٢٧٥ .
(٨) شرح المفصل لابن يعيش : ٦/٢٧ .
(٩) المحتسب : ابن جنى : ١/٣٢٥ – ٣٢٦ . مخطوط بالتيمورية .

أخرى ، فأسكن من كان يحرك ، وحرك من كان يسكن . والمقارنة مع بقية اللغات السامية في هذا اللفظ تثبت أن اللفظ في السامية الأم لم يكن فيه حركة بعد العين، ففي العبرية هو

ومعنى هذا أن لهجة الحجاز على الأصل ، بينا (عشرة) بالكسر في تميم من قبيل اجتلاب الحركة ، وهو ما يسمى بالقلقلة[1] .

٥ – يلاحظ أن هذا التحول الداخلي الحركي في الكلمة في ضوء ما سبق من الأمثلة ،كان سبباً في ثراء لهجات القبائل فأتاح لها فيضاً غامراً من كثرة الوجوه، وتولد الصيغ، ومرونة الانتقال من صيغة الى أخرى . فقراءة حفص « مالك يوم الدين » الفاتحة ٤ ، غير قراءة أبي هريرة وعاصم الجحدري « ملْك » بسكون اللام ، وهما غير قراءة الحسن وابن يعمر وعلي بن أبي طالب « ملك يوم الدين » فعلاً ماضياً ونصب ما بعده (البحر ٢٠/١ وانظر : ابن خالويه ١) إذ الأولى : اسم فاعل ، والثانية صفة مشبهة والثالثة فعل ماضٍ .

وقفـــة :

ولكن يظهر أن القبائل الشرقية – كتميم وبكر وربيعة وأسد وقيس وعقيل وغيرها من قبائل الشرق – لم تكن على درجة واحدة من الميل الى تسكين البنية ، بل تتفاوت كل قبيلة عن الأخرى في ميلها الى تسكين وسط الكلمة – تفاوتاً قليلاً – أمكنني أن ألاحظه ، وأن أسجل تفاوته بين هذه القبائل الشرقية ، وإن كانت السمة الغالبة عليهم جميعـــاً هي ميلهم الى التسكين .

١ – فأسد وإن كانت تجنح الى إسكان البنية – إلا أنها في بعض الأحيان تخالف ذلك ، فمن ذلك ما جاء في شرح السيرافي على سيبويه من أن « فعل » بضم الفاء وسكون العين تضم بنو أسد عينه إتباعاً لأوله ، فإذا كان بضمتين «فعل» تسكنه تميم[2] . وفي قوله تعالى « ويأمُرون النّاسَ بالبخل »[3] فقد عزا الفراء : التثقيل في « البخل » الى أسد[4] ، ومراده التثقيل أي النطق بالحركات كاملة ، أي أن أسداً تنطق بالصيغة مكتملة ، على حين عزا التخفيف الى تميم ، والمراد بالتخفيف التسكين ، لأن التسكين أخف على اللسان من غيره على حين

(١) رابين : ٩٨ .
(٢) شرح السيرافي على سيبويه : ٦/٥ .
(٣) النساء : آية ٣٧ .
(٤) البحر : ٢٤٧/٣ .

نطقت الحجاز كأسد[1] : أي باكتمال الحركات ، وأما بكر بن وائل فسارت سير تميم في التسكين ، قال ابن خالويه : بالبخل — (بفتح فسكون) لغة بكر بن وائل[2] ، وعلى هذه اللغات جميعاً قرأ القراء كما في البحر[3] .

٢ — وفي كنز الحفاظ أن الفراء حكى عن بني أسد قولهم : هل رأيت عُيَناً[4] ؟ بفتح العين والياء في معنى : أحداً . وبعض العرب يقول : ما بها عيْن بسكون الياء .

٣ — وجاء في اللسان أن بني أسد تقول : في أسنانه حفَر[5] . بفتح العين ، والحفر ما يلزق بالأسنان ، بينما غيرهم يقول : حفر . بسكون العين .

فالسمة الغالبة في هذه النصوص لبني أسد أنها آثرت الحركات على السكون ، وإنما قلت في هذه النصوص فقط، لأن المأثور عنها حذف الحركة مثل قراءة «نذراً» في المرسلات ، «وعرفاً» فيها أيضاً ، « وخبراً » في الكهف ، فالإسكان كما ذكر صاحب الإتحاف لغة تميم وأسد وعامة قيس ، والضم لغة الحجاز[6] ، وأرجح أن الأصل الضم في هذه الأمثلة ، وأسكن تخفيفاً . فمن النصوص نرى أن أسداً كانت تتردد في حذف الحركات ، أي أنها كانت حيناً تحذف ، وأحياناً لا تحذف . وليس هذا اضطراباً في الظاهرة — بل يسهل علينا تعليل ذلك: أن أسداً من القبائل الكبرى ذات البطون الكثيرة ، والعمائر المتعددة ، فيمكن أن نعزو صيغ حذف الحركات الى قبائلها المتاخمة لتميم ، كما أن الصيغ المكتملة الحركات الى قبائلها التي تنحدر الى ما يقارب البيئات الحجازية ، تلك التي كانت تحرص على اكتمال الحركات ، إلا أن حذف الحركات في أسد أكثر من اكتمال الحركات،لأن قبائلها كانت أكثرها في المنطقة الشرقية والوسطى من الجزيرة العربية تلك التي كانت تؤثر حذف الحركات .

٢ — أما قيس فقد تقدم أنها أحياناً تسير في ركاب تميم وبكر بن وائل في حذف الحركات القصيرة ، ولكن لا نعدم أن نرى بعض الروايات التي تنسب إليها اكتمال الحركات،مثل ما

(١) البحر : ٣/٢٤٧ .
(٢) مختصر شواذ القرآن : ابن خالويه : ٢٦ .
(٣) البحر : ٣/٢٤٦ .
(٤) كنز الحفاظ : ٢٧٣ .
(٥) اللسان : ٥/٢٨١ .
(٦) الإتحاف : ١٤٣ .

بضمتين ، وعزا الأصمعي هذه الصيغة الى الحجاز وهذيل[1] ، وفي معجم البلدان أنهـا لغة هذيل خاصة[2] . وعلى أي حال فسواء كانت اللهجة هي لهجة الحجاز وهذيل ، أم هذيل وحدها فإنها تؤيد ما نذهب إليه من أن الحجاز وما جاورها من هذيل وبطون قيس – كانت لا تحذف الحركات القصيرة .

وأما تميم وبكر بن وائل وقبائل ربيعة ، وأكثر قبائل أسد ، وعـامة قبائل قيس المتاخمة لتميم – فإنها كانت جميعاً تجنح الى حذف الحركات القصيرة ، ولعل هذا يتفق مع طبيعة البدو في السرعة في نطق الكلمة ، ولهـذا جانب الصواب الأستاذ عبد الوهاب حمودة في كتابه « القراءات واللهجات »[3] حيث ذكر أن تسكين العين في «رُسْل» لغة أهل الحجاز ، والتحريك لغة بني تميم ، ويبدو أن الدكتور شوقي ضيف مال الى ما رآه الأستاذ عبـد الوهاب حمودة أيضاً[4] .

وقد وقع أبو حيان نفسه في هذا الخطأ عند تفسيره لقوله تعالى « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعـده بالرسل »[5] حيث ذكر أن قراءة الجمهور – بالرُسُل – بضم السين ، كما قرأ الحسن ويحيى بن يعمر بتسكينها[6] . ثم قال أبو حيان « وتسكين عينه لغة أهـل الحجاز – والتحريك لغة بني تميم »[7] .

وقد نرى حذف الحركات تارة واكتمالها تارة أخرى في اللغات السامية أيضاً ، كما رأينـا في لهجات القبائل ، ففي الأكادية UZNU بينما هي في العبرية Ozen[8] باكتمال الحركة ، على حين نجدها في العربية : أذُن – باكتمال الحركة تارة وبحذفها تارة أخرى ، وذلك في قراءة نافع (والأذْن بالأذْن) المائدة ٤٥ . ونافع حجازي وقد خالف بيئته التي لا تسكن .

---

(١) اللسان : ٤/٤٢٥ .

(٢) معجم البلدان : ٨/٢٥٢ ياقوت .

(٣) ص ٣٧ ، ط أولى .

(٤) تاريخ الأدب العربي : ١/١٢٦ دكتور شوقي ضيف ط أولى المعارف .

(٥) سورة البقرة : آية ٨٧ .

(٦) البحر : ١/٢٩١ .

(٧) البحر : ١/٢٩٧ .

(٨) برجشترامر : ٤٤ التطور النحوي .

ثانياً : دراسة الحركات في فاء الكلمة بين لهجات القبائل العربية :

أ) بين الضم في البدو والكسر في الحضر :

مالت اللهجة التميمية والبيئات البدوية الأخرى كأسد وبكر بن وائل وقيس عيلان الى إيثار الضم ، بينا آثرت الحجازية وغيرها من الحضر كقريش الكسر ، وأدلة ذلك :

أ) ما جاء عن اليزيدي في المزهر من أن تميماً تضم أوائل : عُدوة، عُشوة، أُسوة ، قُدوة[١] . وقرأ أبو عمرو وابن كثير « بالعِدوة الدنيا » ، بكسر العين ، والباقون بضمها[٢] . والضم أعرب اللغتين عن أبي عبيد[٣] . وذكر اليزيدي أن الكسر لغة الحجاز[٤] . وقرأ عاصم والأعمش « أُسوة » في الأحزاب وموضعي الممتحنة – بضم الهمزة وهي لغة قيس وتميم ، والباقون بكسرها لغة الحجاز[٥] .

ب) وقال يونس في نوادره « أهــل الحجاز يقولون : مِرية ، وتميم بالضم »[٦] . وقرأ الجمهور « مرية »[٧] – بكسر الميم لغة الحجاز – وقرأ السلمى والحسن بضمها – وهي لغة تميم[٨] ، وأسد .

جـ) وفي (رُضوان) بضم الراء لغة قيس وتميم[٩] ، وذكر أبو شامة « أن الضم لبني تمــيم ، والكسر لأهل الحجاز »[١٠] ، وقرىء « ورضوان من الله »[١١] بضم الراء وهي لغة تميم

---

(١) المزهر : ٢/٢٧٧ .

(٢) إرشاد المريد على إبراز المعاني : ٣٣٤ .

(٣) إبراز المعاني : ٣٣٤ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) الإتحاف : ٣٥٤ .

(٦) المزهر : ٢/٢٧٦ .

(٧) سورة هود : آية ١٧ .

(٨) البحر : ٥/٢١١ ، مختصر شواذ القرآن : ابن خالويه : ٥٩ ، الإتحاف : ٢٥٥ .

(٩) المصباح : ١/٣٥٢ .

(١٠) إبراز المعاني : ٢٦٧ .

(١١) آل عمران : آية ١٥ .

وبكر وقيس عيلان[1] . وقد تكون حجة مَنْ كسر أنه مصدر، والأصل فيه رضيت رضى ، ثم زيدت الألف والنون فردت الياء الى أصلها ، وحجة مَنْ ضم أنه فرق بين الاسم والمصدر . وقد نرى أن بعض من قرأ في هذه الآية الكريمة بالضمة - قرأ بالكسر في قوله تعالى « من اتبّع رضوانه » وقد تكفل بالرد عن هذا ابن خالويه حيث قال « إنما أتى باللغتين ليعلمك جوازهما »[2] .

د) (صُنوان) بالضم لتميم وقيس، وبالكسر لأهل الحجاز[3] . وفي المحتسب أن عبد الرحمن السلمي : قرأ بالضم ، وقراءة الناس صنوان - بالكسر[4] .

هـ) وعزيت (سِخريًّا) بالكسر الى قريش ، وبالضم الى تميم[5] ، في قوله تعالى : « اتخذناهم سخرياً »[6] .

و) كما عزيت (قنوان) بالكسر للحجاز، وبالضم لقيس[7] ، كما عزا اللسان، « قنيان » بالضم الى تميم وضبة[8] - ونسب الى كلب : قنيان - بالكسر[9] . ويلاحظ أن قبيلة كلب آثرت الكسر لأنها قبيلة حضرية ، إذ انها عاشت على حدود الشام على الطريق الذي كان يسلكه الحجازيون في تجارتهم مع بلاد الشام ، فبيئتهم ليست إلا امتداداً طبيعياً للبيئة الحجازية[10] .

ز) ما روي عن ابن السكيت عن أبي زيد أنه ذكر أن الكلابيين يقولون : شواظ من نار -

---

(١) البحر : ٣٩٨/٢ .

(٢) الحجة لابن خالويه : ورقة ٢٣ خط .

(٣) البحر : ٣٥٧/٥ .

(٤) المحتسب : ٢/٢ مخطوط بالتيمورية .

(٥) كتاب اللغات في القرآن : ٤٣ .

(٦) سورة ص : آية ٦٣ .

(٧) المصباح : ٧٩٨/٢ .

(٨) اللسان : ٦٧/٢٠ .

(٩) اللسان : ٦٧/٢٠ .

(١٠) اللهجات العربية : ٨٥ ط ٢ ، تاريخ العرب : ١٦٩/٤ جواد علي .

بالكسر ، وغيرهم يقول : « شُواظ بالضم »[1] . كما ذكر ابن سيده في مخصصه[2] هذا النص نفسه عن ابن السكيت .

والكلابيون جزء منهم متأثر بالحجاز – وهم الذين سكنوا في جهات المدينة المنورة ، ثم كانت لهم حضارة وملك الشام – فهم حضر[3] ، ولهذا آثروا الكسر ، بينما غيرهم من البدو آثروا الضم ، ولهذا نرى ابن كثير وابن محيصن يقرءان – بكسر الشين ، والباقون بضمها[4] ، وتحدثنا كتب الطبقات أن ابن كثير – مكي[5] ، وأن ابن محيصن[6] من قريش ، ولهذا لا نعجب إذا قرءا بالكسر – فهم يمثلون لهجتهم الحضرية التي تجنح الى الكسر .

ح) نقل ابن السكيت عن الفراء أنه قال: رِفقة ورُفْقَة – لغة قيس وتميم[7] . وفي المخصص: قالوا : رفقة ورفقة لغة قيس[8] ، وربما يوضح النصوصَ السابقة ما جاء في اللسان « من أن قيساً تقول : رِفقة : بالكسر ، وتميم : رُفقة : بالضم[9] . كما يؤيد ذلك ما جاء في المصباح[10] ، وما استشهد به البغدادي من قول عمرو بن أحمر :

أنشأتُ أسألُه عن حالِ رفقته فقال حيٌّ فإن الركب قد ذهبا[11]

وصاحب البيت من باهلة ، وتحدثنا كتب الأنساب أنها باهلة من أعصر ، وأعصر هذه من قيس عيلان[12] لذلك أرجح أن « رفقته » في البيت السابق يجب أن تكون مكسورة الراء – استناداً لما سبق من أن قيساً : تكسر . ويرى ابن بري أن جمع رُفقة : بالضم رِفاق كعُلبة

(١) إصلاح المنطق : ١٠٦ .
(٢) المخصص : سفر ١٥ ص ٨٦ .
(٣) في اللهجات العربية : ٨٧ ط ٢ .
(٤) الإتحاف : ٤٠٦ .
(٥) طبقات القراء لابن الجزري : ٤٤٣/١ .
(٦) طبقات القراء : ١٦٧/٢ .
(٧) إصلاح المنطق : ١١٥ .
(٨) المخصص : س ١٥ ص ٩٢ .
(٩) اللسان : ٤١٠/١١ .
(١٠) ٣٥٩/١ .
(١١) خزانة الأدب : ٣٦/٣ .
(١٢) نهاية الأرب : القلقشندي : ١٧٠ .

وعِلاب[1] . وأن جمع رِفقة : بالكسر رفق مثل سدرة وسدر[2] . وقــد أشار الكسائي الى الصيغتين المكسورة والمضمومة ولكنه أهمل عزوهما[3] : وربمــا يقف في طريقنا أن قيساً من القبائل البدوية ، فكيف آثرت الكسر هنا ، مع أن حقها أن تنطق ذلك بالضم – وردُّ تلك الشبهة أننا لا نسلم أن قيساً – التي عزى إليها الكسر هنا بدوية كلها ، ولا حضرية كلها كذلك ، لأنها شعب عظيم بدليل أن اسمها غلب على سائر العدنانية « حتى جعل في المثل في مقابل عرب اليمن قاطبة : فيقال : قيس ويمن »[4] . وإذا كان كذلك فأرجح أن الكسر المنسوب إليها في تلك الكلمة – يجب أن يحمل على بعض قبائلها المتحضرة التي جاورت الحجاز ، وهي قبائــل كثيرة كبعض هوازن وفزارة وغطفان ، وأما بقية قبائل قيس الضاربة في بوادي نجــد فإنها تنطقها بالضم – كتميم .

ط) كما وردت « قبلاً » بضم القاف والباء من قوله تعالى « وحشرنا[5] عليهم كل شيء قبلاً » ، « أو يأتيهم العذاب قبلاً »[6] وعزى الضم لتميم ، والكسر لكنانة[7] . وكنانة حضرية ، ولقد قرأ بلهجة تميم عاصم ، وحمزة والكسائي[8] ، وجميعهم كوفيون – متأثرون بلهجات تميم تلك التي كانت عن كثب من ديارهم .

ي) والحق أن أمثلة كثيرة مما تحت يدنا مؤداها أن الكسر معزو لقبائل الحضر منها :

أ) أن سليماً تكسر همزة إيان – وتكسرها على أنها لغتهم – جاء عن أبي حيان « ومــا يشعرون أيان يبعثون » قرأ السلمي : إيان بكسر الهمزة[9] . وجاءت مثل هذه القراءة عنه في المحتسب[10] . كما أنهم كسروا الهمزة في قوله تعالى : « يسألونَكَ عَنِ السّاعةِ

---

(1) اللسان : ١١/٤١٠ .
(2) المصباح : ١/٣٠٩ .
(3) ما تلحن فيه العامة للكسائي : ٢٣ .
(4) معجم كحاله : ٣/٩٧١ .
(5) الأنعام : آية ١١١ .
(6) الكهف : آية : ٥٥ .
(7) كتاب اللغات في القرآن : ٢٦ .
(8) الإتحاف : ٢٩٢ .
(9) البحر : ٧/٩٢ .
(10) المحتسب لابن جني : ١/٣٣٥ خط .

أيّان مُرْسَاها »[1] ، وقد قرأ بالكسر السلمي[2]، كما جاءت قراءة له مشابهة لذلك في شواذ القرآن [3] ، والقارىء الذي قرأ بالكسر هو أبو عبد الرحمن السُّلَمي – وهو من قبيلة سليم ، قرأ على لهجة قومه ، ومما يؤيد ذلك ما جاء في الهمع « وكسر همزة (إيان) لغة لسليم » [4] ، وقال عنها الأشموني « وهي شاذة » [5] .

ب) كما أثر الكسر عن سليم أيضاً وذلك فيما رواه ابن مالك عنهم من أنهم يكسرون ميم مذ ومنذ [6] . وجاء في اللسان « حكى عن بني سليم : ما رأيته مِنذ ست » بكسر الميم[7] .

وسُلَيْم هذه كانت تسكن عن كثب من خيبر [8] ، ويقع بعض ديارها في منطقة الحجاز ويثرب كما كانت صلاتها وثيقة بقريش [9] – فهي حضرية لذلك ؛ ولأن ديارها كانت في منطقة تهيمن على طرق التجارة .

تعقيب :

وليس القول بأن هذه القبيلة تؤثر الضم مثلاً ، وأن أخرى تؤثر الكسر بالأمر السّهل ، بل لا بد لذلك من قوانين صوتية غالبية تسير عليها كثيراً ، وتشذ عنها قليلاً كما سنرى – وكما رأينا ، لأنه كثيراً ما يعترض بحثنا روايات مضطربة متنافرة في كثير من الأحوال ، ويجد الانسان صعوبات جمة في استخلاص الحقيقة فمن ذلك :

أ) ما جاء في المصباح في كلمة « الوتر » إذ قال : « الوِتر » الفرد ، والوتر : التّحل –

(١) الأعراف : آية ١٨٧ .

(٢) البحر : ٤/٤٣٤ .

(٣) شواذ القرآن : ابن خالويه : ٤٨ .

(٤) الهمع : ٢/٥٧ .

(٥) الأشموني : ٤/١٢ .

(٦) الهمع : ١/٢١٦ .

(٧) اللسان : ٥/٤٧ .

(٨) نهاية الأرب : القلقشندي : ٢٩٥ .

(٩) تاريخ العرب : ٤/١٧٦ جواد علي .

بالكسر فيها لتميم ، وبفتح العدد ، وكسر الذحل لأهل العالية ، وبالعكس وهو فتح الذحل ، وكسر العدد لأهل الحجاز »[١] .

ب) وجاء في المزهر عن اليزيدي في نوادره : الحجاز : الشّفع والوتر (بفتح الواو) ، وتميم : الوتر ، بكسر الواو[٢] .

جـ) وجاء في اللسان عدة روايات ألخصها فيما يأتي :

١ – رواية عن اللحياني : أهل الحجاز يسمون الفرد : الوتر (بفتح الواو) وأهل نجد يكسرون. وفي رواية أخرى عنه (وتميم وأهل نجد يكسرون)[٣] .

٢ – رواية عن يونس : أهـــل العالية يقولون : الوِتْرُ في العدد ، والوتر (بالفتح) في الذّحل . وقال أيضاً وتميم تقول : وتر (بالكسر) في العدد والذحل[٤] .

٣ – رواية عن الجوهري : الوتر بالكسر : الفرد، والوتر بالفتح الذحل – هذه لغة أهل العالية، فأما لغة الحجاز ، فبالضد منهم ، وأما تميم فبالكسر فيهما[٥] .

د) وجاءت هذه الكلمة في مكانين من أمالي القالي .

أ) الوتر : بمعنى الفرد ، يفتح في لغة الحجاز، ويكسر في لغة تميم وأسد وقيس – وفي الذحل، بكسر الواو لا غير[٦] .

ب) جاء عن الأصمعي : أن أهل الحجاز يفتحون الواو في الوتر – بمعنى الفرد ويكسرونها في الذحل ، ومن تحتهم من قيس وتميم – يسوونها في الكسر[٧] .

هـ) وفي جمهرة ابن دريد : أن كسر الواو في الوتر – بمعنى الفرد لغة حجازية ، وفتحها نجدية ،

---

(١) المصباح : ٢/١٠٠٢ .
(٢) المزهر : ٢/٢٧٧ .
(٣) اللسان : ٧/١٣٥ – ١٣٦ .
(٤) اللسان : ٧/١٣٥ – ١٣٦ .
(٥) المرجع السابق .
(٦) أمالي القالي : ١/١٣ .
(٧) أمالي القالي : ١/٢٣٤ .

والوتر الترة – بكسر الواو لا غير[١] . وعلق مصحح الجمهرة على الوتر بمعنى الترة بقوله « وقد أجاز الفتح قوم وهو لغة ، فلا معنى للإنكار »[٢] . ونظراً لأن هذه المادة وردت في القرآن الكريم ، فلا بد من استشارة كتب القراء فيها ، وقد اخترت لهذا، كتاب الحجة لابن خالويه ، ومفردة قراءة أبي عمرو ، وإبراز المعاني لأبي شامة ، والبحر المحيط لأبي حيان .

أ) فيرى ابن خالويه أن الوتر بمعنى الفرد – يفتح عند أهل الحجاز ، ويكسر عند تميم ، فأما من الترة والذحل – فبالكسر لا غير[٣] .

ب) ذكر صاحب إبراز المعاني ناقلاً عن مكي وغيره : أن الفتح لغة أهل الحجاز ، والكسر لغة تميم في الوتر بمعنى الفرد[٤] .

جـ) وفي البحر المحيط ذكر أن الوتر في العدد – بفتح الواو لغة قريش[٥] .

د) وفي مفردة قراءة أبي عمرو : إذا كان الوتر – بمعنى الفرد – فلهجة قريش تجنح الى فتح الواو[٦] . وبمقارنة هذه الروايات في الكتب المختلفة يتضح :

١ – أن لهجة قريش كلهجة الحجاز (وذلك بمقارنة ما جاء في مفردة أبي عمرو ، والبحر المحيط بما جاء في الحجة لابن خالويه واللسان) فكلا اللهجتين القرشية والحجازية آثرتا الفتح في الوتر إذا كان بمعنى العدد ، كما آثرتا الكسر في الوتر – إذا كان بمعنى الذحل ، ولهذا يظهر لنا خطأ رواية المصباح حيث جعلت الكسر في العدد ، والفتح في الذحل ، لأهل الحجاز ، كما أخطأ صاحب الجمهرة حين نسب الكسر في العدد لأهل الحجاز ، لأنهم يفتحون فيه .

٢ – أن تميماً آثرت الكسر في الوتر – إذا كان بمعنى العدد والذحل جميعاً (ويظهر ذلك بمقارنة ما جاء في اللسان في رواية يونس ، وبما جاء فيه في رواية الجوهري ، وبما جاء في الحجة عن

(١) الجمهرة : ٢/١٤ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) الحجة لابن خالويه : ورقة ١٦٥ مخطوط بدار الكتب .
(٤) إبراز المعاني : ٤٩٥ .
(٥) البحر : ٨/٤٦٧ .
(٦) مفردة قراءة أبي عمرو – خط ورقة : ٧٩ .

ابن خالويه) ، ولهذا يظهر لنا خطأ الجمهرة حيث عزت الفتح في العدد – لأهل نجد ، لأن نجداً تكسر في العدد والذحل جميعاً .

٣ – أن رواية « كتاب القالي » أفادتنا أن قيساً وأسداً سارتا مع تميم في إيثارها الكسر في الوتر بمعنى الذحل والعدد جميعاً .

٤ – أن أهل العالية سارت في طريق مخالف لأهل الحجاز ، لأنها آثرت : الكسر في العدد ، والفتح في الذحل ، وذلك بمقارنة ما جاء عن يونس والجوهري في اللسان ، ويظهر أيضاً خطأ صاحب المصباح حيث عكس : فنسب الفتح في العدد ، والكسر في الذحل لأهل العالية .

٥ – وتكون الخلاصة الصحيحة لهذه الروايات المضطربة المتنافرة في ضوء المقارنات السابقة هي:

أ) أن تميماً وأسداً وقيساً – يكسرون الوتر : إذا كان بمعنى العدد والذحل جميعاً .

ب) أهل الحجاز ومعهم قريش يفتحون الوتر : إذا كان بمعنى العدد ، ويكسرونه في الذحل .

ج) أهل العالية على عكس الحجاز ، يكسرون الوتر : إذا كان بمعنى العدد ، ويفتحونه في الذحل .

ومما يؤيدني في هذه الخلاصة أن حمزة والكسائي[١] قرءا قوله تعالى : « والشَّفْع والوتر » بكسر الواو ، بينما قرأ نافع وابن كثير بالفتح[٢] ، وهذه القراءة تعتبر سنداً كبيراً فيما ذهبت إليه من إيثار تميم : الكسر ، وإيثار الحجاز الفتح في العدد ، وذلك لأن حمزة والكسائي كلاهما كوفي ، والقراء الكوفيون استمدوا نماذج قراءتهم من بيئتهم العراقية ، وكانت قبائل تميم تلاصق هذه البيئات ، لأن البيئة العراقية تأثرت بقبائل وسط الجزيرة وشرقيها »[٣] ولا شك أن تميماً كانت تتناثر ديارها في شرق الجزيرة ، لهذا ظهرت لهجتها على لسان حمزة والكسائي .

كما ظهرت لهجة الحجاز على لسان نافع وابن كثير وكلاهما حجازي – إذ أن نافعاً كان قارىء

(١) الإتحاف : ٤٣٨ .

(٢) اللسان : ٧/١٣٥ – ١٣٦ .

(٣) في اللهجات العربية : ٦٣ ط ٢ .

المدينة[1] ، وابن كثير كان قارىء مكة[2] ، ولهذا استندنا الى تخطئة رواية المصباح تلك التي عزت الى الحجاز الكسر في الفرد ، وخطأ رواية الجمهرة تلك التي عزت فيها الكسر في الفرد للحجاز ، والفتح في العدد لنجد ، ونجد – كانت تسكنها تميم وأسد وقيس – تلك التي آثرت الكسر في تلك الصيغة .

والآن وبعد أن فحصت هذه الروايات ، ورجحت بعضها – أعود فأعلل لها :

فلهجة الحجاز اختارت الفتح في العدد مثل « الشفع والوتر » ، لأنها أرادت أن تطابق بين لفظ الشفع ولفظ الوتر ، ولو نطقت اللهجة الحجازية بالكسر في الوتر ما حصل التطابق بينه وبين كلمة « الشفع » . وأما تميم فسبب إيثارها الكسر – أنها نظرت الى المعنى ، فالشفع معناه الزوج والوتر معناه : الفرد ، فمعنى الكلمتين مختلف ، فآثرت اختلافها في الحركات – فجاءت الكلمة الوتر مكسورة مخالفة الفتحة في الشفع لاختلافها في المعنى ، ويمكن أن نعلل أيضاً لإيثار تميم وأسد وقيس الكسر في الوتر بأن الواو من الحروف المستقلة ، وتلك الحروف تؤثر الكسرة على غيرها من الحركات .

هذا ويلاحظ أن الحجاز فرق بين الوتر بمعنى الفرد ، والوتر في الذحل ، وكذلك لهجة العالية حيث سارت على عكس الحجاز – بالحركة ، ففي الحجاز الواو مفتوحة في الفرد ، ومكسورة في الذحل ، وفي العالية مكسورة في العدد ، مفتوحة في الذحل – فالتزمت كل من اللهجتين المغايرة في الشكل تبعاً للمغايرة في المعنى ، ولا شك أننا نلمس ذلك في اللغة العربية ، فكلمة « الضعف » إذا كانت الضاد مضمومة ، تختلف معناها عنها لو كانت مفتوحة ، ولهذا يقول صاحب المصباح « المفتوح » في الرأي ، والمضموم في الجسد[3] ، ولا شك أن المغايرة لعبت دوراً كبيراً في تاريخ الحياة العربية اللغوية .

ب – بين الضم في البدو والفتح في الحضر[4] :

كما نجد أن اللهجات التميمية مالت الى الضم في مقابل الحجازية التي تجنح الى الفتح ، ومن

---

(١) طبقات القراء : ٣٣٠/٢ .

(٢) طبقات القراء : ٤٤٣/١ .

(٣) المصباح : ٥٢٢/١ .

(٤) مما يحسن عرضه للتقابل بين حركتي الضم والفتح – أن أبا عمرو بن العلاء كان يتستر خوفاً من الحجاج أن يبطش به ، قال أبو عمرو : فخرجت في الغلس أريد التنقل من الموضع الذي كنت فيه الى غيره ، فسمعت منشداً ينشد :

=

ذلك : القرح : بالفتح بلغة الحجاز ، وبالضم : لغة تميم [1] ، وذلك في قوله تعالى « إن يَمْسَسْكُم قرح » [2] فقرئت بالوجهين . كما نسب صاحب المصباح « المفتوح للحجاز » [3] ، وكما ورد أن (مثلة) بالفتح لغة الحجاز ، وبالضم لغة تميم [4] ، ولهذا قرأ ابن وثاب بضم الميم وسكون الثـــاء ، وابن مصرف بفتح الميم وسكون الثاء [5] ، وعزيت (غلظة) بالفتح لغة الحجاز ، وبالضم لغـــة تميم [6] ، وبهذا قرأ (وليجدوا فيكم غلظة) [7] بالفتح — الأعمش والمفضل عن عاصم ، وعزاها أبو حيان للحجاز ، كما قرأ السلمي وابن أبي عبلة بضمها ، وعزاها أبو حيان لتميم [8] ، ونسب المصباح (الزّعم) بالفتح للحجاز [9] ، وفي ابن خالويه « فقالوا هذا لله بزعمهم » بضم الزاي [10] ، وقيل الفتح في المصدر ، والضم في الاسم [11] ، وعزى الضم لأسد [12] ، وجاء في سورة الأنعام « انْظُرُوا الى ثمره » [13] الفتح بلغة كنانة ، وبالضم لغة تميم [14] ، والرواة كثيراً ما يخلطون بين لهجتي الحجاز وكنانة ، كما خلطوا بين الحجاز وقريش .

وباستعراض ما سبق عنّ لنا أن تميماً والبيئات البدوية تؤثر الضم ، لأنها بدوية « ولأن

= ربّما تكرهُ النّفوسُ من الأمر له فَرجة كحلّ العقال

وسمعت عجوزاً تقول : مات الحجاج ، فما أدرى بأيهما كنت أسرّ ، أبقول المنشد « فرجة » بالفتح ، أم بقول العجوز : مات الحجاج ؟ طبقات الزبيدي : ٢٩ .

(١) كتاب اللغات في القرآن : ٢٣ .

(٢) سورة آل عمران : ١٤٠ .

(٣) المصباح : ٧٦٣/٢ .

(٤) البحر : ٣٥٨/٥ .

(٥) البحر : ٣٦٦/٥ ، وانظر المحتسب لابن جنى : ٦/٢ - ٨ مخطوط بالتيمورية .

(٦) البحر : ١١٥/٥ .

(٧) سورة التوبة : آية ١٢٣ .

(٨) البحر : ١١٥/٥ ، مختصر شواذ القرآن : ٥٥ - ٥٦ .

(٩) المصباح : ٣٨٧/١ مادة « زعم » .

(١٠) مختصر شواذ القرآن : ٤١ .

(١١) أبو حيان : ٢٢٧/٤ .

(١٢) المصباح : ٣٨٧/١ .

(١٣) سورة الأنعام : آية ٩٩ .

(١٤) كتاب اللغات في القران : ٢٦ .

الضم مظهر من مظاهر الخشونة البدوية »[1] ، كما رجح الدكتور أنيس « أن الصيغة المشتملة على الضم تنتمي الى بيئة بدوية ، وأن المشتملة على الكسر تنتمي الى بيئة حضرية »[2] ولكن يقف في سبيل ذلك بعض الروايات التي عزى الضم فيها الى الحجاز مقابل الفتح التي جنحت إليه تميم .

ج – بين الضم للحجاز ، والفتح لتميم :

وتلك أهم الروايات :

١ – الضّعف – بالفتح لغة تميم ، وبالضم لغة الحجاز[3] ، وفي قوله تعالى « آلآن خفّف اللهُ عنكم وَعَلِمَ أنّ فيكم ضعفاً »[4] قرأ الحرميان والعربيان والكسائي ... ضعفاً بالضم . وحمزة وعاصم بفتح الضاد وسكون العين[5] .

٢ – وعضد بضمتين – لغة الحجاز ، وعضد : بسكون الضاد – لغة تميم وبكر[6] ، وجاءت عليها القراءات في قوله تعالى « وما كنتُ مُتّخذ المضلّين عضداً »[7] .

٣ – وفي ديوان الأدب المخطوط للفارابي : أن الزُهو – بالضم لغة الحجاز ، في الزّهو[8] .
ويقال ذلك : للبلح إذا ظهرت فيه الحمرة[9] ، كما عزيت صيغة الضم للحجاز في اللسان[10] .

٤ – وفي معاني القرآن أن الجهد – والوجد – بالضم لغة الحجاز ، ولغة غيرهم بالفتح[11] ، وفي شواذ القرآن أن الأعرج وعطاء ومجاهد قرءوا (لا يَجِدُون جهدهم) بالفتح[12] .

---

(١) في اللهجات العربية : ٨١ ط ٢ .
(٢) في اللهجات العربية : ٨٢ .
(٣) البحر : ٥١٨/٤ .
(٤) سورة الأنفال : اية ٦٦ .
(٥) البحر المحيط : ٥١٨ .
(٦) المصباح : ٦٣٥/٢ .
(٧) الكهف : اية ٥١ .
(٨) ديوان الأدب للفارابي : ورقة ٣٥٢ مخطوط لغة تيمور ٣٨٣ .
(٩) البلغة في شذور اللغة : ٦٧ بيروت .
(١٠) لسان العرب: ٨٢/١٩ .
(١١) معاني القران للفراء : ٤٤٧/١ ط دار الكتب .
(١٢) شواذ القران: ابن خالويه: ٥٤ .

٥ – وفي الأضداد أن : العقر – بالضم لغة الحجاز ، ونجد تقول ذلك : بالفتح ولا شك أن نجداً – تشمل تميماً وغيرها من قبائل البدو .

وقال مالك الهذلي :

كرهت العَقر عَقر بني شليل إذا هبّت لقارئها الرياح [١]

والعقر : أصل الدار ، كما عزيت الصيغة مثل ذلك في كتاب الرحل [٢] .

واستدل لها ابن منظور بقول النبي ﷺ « خير المال العقر » [٣] . وهي هنا لا بد أن تكون بالضم ، لأن الرسول حجازي .

وربما أن السبب في أن تميماً وغيرها من البدو خالفت عادتها فنطقت مثل ذلك : بالفتح ؛ لأن الأمثلة السابقة بها حرف حلق ، وحروف الحلق تؤثر الفتحة ، وقد لاحظ ذلك سيبويه [٤] ، والسر في ذلك أن كل أصوات الحلق بعد صدورها من مخرجها الحلقي ، تحتـــاج الى إتساع في مجراها بالفم ، فليس هناك ما يعوق هذا المجرى في زوايا الفم ، ولهذا ناسبها من أصوات اللين أكثرها اتساعاً ، وتلك هي الفتحة [٥] ، ولهذا إذا التفتنا الى القرآن العظيم أمكننا أن نعثر على قراءات تؤيد هذا المذهب وسأعرض جانباً منها :

١ – قرأ سهل بن شعيب النهمي قوله تعالى « أَرِنا اللهَ جَهَرة » [٦] وقوله تعالى : « زَهَرة الحياة الدنيا » [٧] بفتح الهاء في الآيتين [٨] .

٢ – جاء في البديع أن أبا السّمال قرأ « إن يَمْسَسْكم قَرَح » [٩] بفتحتين [١٠] .

---

(١) الأضداد : ابن الأنباري : ٢٣ الحسينية .

(٢) البلغة في شذور اللغة : ١٢٨ بيروت .

(٣) اللسان : ٦/٢٧٥ .

(٤) الكتاب : ٢/٢٥٥ .

(٥) في اللهجات العربية : ١٥٨ ، المنصف : ١/١١٥ .

(٦) النساء : ١٥٣ ، البقرة : ٥٥ .

(٧) سورة طه : اية ١٣١ .

(٨) المحتسب لابن جنى : ١/٧٧ خط بمكتبة أحمد تيمور .

(٩) س ٣ : ١٤٠ .

(١٠) مختصر شواذ القران : ٢٢ لابن خالويه .

٣ – كما وردت قراءة في المحتسب وهي : « ومن الضأن اثنين »[١] بفتح الهمزة . وقر
« كدأب آل فرعون » بفتح الهمزة أيضاً[٢] .

وإذا ما حققنا النظر في هذه القراءات وجدنا أن حرف . الحلق بها جاء مفتوحاً
الترتيب في الآيات :

الهاء ، والحاء ، والهمزة ، فدل هذا على أن حرف الحلق يؤثر الفتحة – أما في
فقد آثر حرف الحلق وهو الحاء – فتح الحرف الذي يليه وهو « الراء » – كما أن حر
فتح الحرف الذي قبله في مثل : يسنَح ، يسفَح ، يسمَح .

والبصريون يذهبون أن مثل هذا لغات : قرْح وقرَح : كالْحَلْب والحلَب ، ولا
الحلق في هذا الفتح ، ولا شك أن الصواب جانبهم ، ولهذا نرى ابن جني يخالفهم مع
بصري – وانحاز الى المذهب البغدادي ذلك الذي يرى أن حرف الحلق هو الذي ج
– وقال ابن جني في ذلك « ولا قرابة بيني وبين البصريين لكنها بيني وبين الحق –
لله »[٣] . ومخالفة ابن جني مذهب البصريين كما سبق ؛ سببها أنه كان معتزلياً ، والمعتز
الجانب التحرري في الفكر الإسلامي ، وهو في العربية أشبه بأبي حنيفة في الفقه .

ونرى أن « عُقَيْلا » كانت دائماً تؤثر الفتح مع حرف الحلق قال ابن جني « رأ
من عقيل لا أحصيهم يحرك ذلك وهو قول بعضهم : نَحَوه – بفتح الحاء – يريد : [٤]
وكان الشجري[٥] يقول : أنا مَحَموم : بفتح الحاء ، وقال مرة : وقد رسم له الطبيب
التفاح ويرمي بثفله ، فلم يفعل ذلك وأنكره الطبيب عليه فقال : والله لقد كنت أ
وعلَيَّتَه تَغَذو – بفتح الغين ، وقال ابن جني : سمعت جماعة منهم : وقد قيل لهم
أقيمت لكم أنزالكم من الخبز قالوا : فاللحَم : يريدون : اللحْم[٦] . وما جـــاء عن

---

(١) سورة الأنعام : اية ١٤٣ ، والمحتسب : ٢٨٥/١ تيمور .
(٢) البحر : ٣٨٩/٢ .
(٣) المحتسب : ١٩٧/١ خط في مكتبة تيمور .
(٤) المحتسب : ١٩٧/١ .
(٥) هو أبو عبدالله محمد بن العساف العقيلي : الخصائص : ١٥/١ هامش .
(٦) المحتسب : ٧٧/١ خط في مكتبة تيمور .

قولهم (الطعْم) وهو ما يشتهي من الطعام ، وليس للغث طعم (والطَّعَم) بفتحتين لغة كلابية [1] .

ومثل ما رأيناه في تلك القبائل من أن حروف الحلق عندهم تؤثر الفتح – نرى مثله في العبرية ، فالفعل חָזַק بمعنى قوّى – كان ينبغي أن يكون مضارعه – قياساً على مضارع الثلاثي الصحيح יִחְזַק بتسكين الحاء ، ولكنها تؤثر الفتح لحرف الحلق وهو الحاء فيقولون : יֶחֱזַק

ولنا من كلام « عقيل » وغيرهم ما يؤيد قضيتنا – فعقيل – التي تفتح لحرف الحلق – مثلها مثل تميم في البداوة – وهي الأخرى فتحت لحرف الحلق – فكأن البيئات البدوية تلتزم هذا النمط من الفتح في حرف الحلق .

وكما يفتح لحرف الحلق يفتح كذلك لحروف الاستعلاء وهي : (ص ض ط ظ غ خ ق) ولا شك أن الحروف المستعلية لها صفة القوة ، إذ فيها يعلو اللسان الى الحنك أطبقت أو لم تطبق ، ولهذا آثرت الفتحة لخفتها ، ويمكن أن نجد ما يؤيد ذلك من اللهجات القديمة جاء عن أبي زيد « أنه سمع بعض العجلانيين يقول : هذا سَطَر – بفتح موضع الفاء والعين » [2] – بينما تنطق تلك الصيغة بسكون الطاء في لغة الجمهور . وجاء ما يشبه هذا النص في المصباح إلا أنه قال : « في لغة بني عجل » [3] واستشهد ابن السكيت للصيغة المفتوحة بقول جرير :

من شاء بايعته مالي وخلعته ما تكمل التيْم في ديوانهم سَطَرا [4]

بفتح الطاء .

تعقيب :

١ – ومما يزيدني تمسكاً بهذا ما ورد في إصلاح المنطق من أن النّحد والنُّحد « والرفغ والرّفغ»

(١) المصباح : ٢/٥٦٩ .
(٢) نوادر أبي زيد : ٨٥ .
(٣) المصباح : ١/٤٢٢ .
(٤) إصلاح المنطق : ابن السكيت : ٩٥ - ٩٦ .

لتميم الفتح ، والضم لأهل العالية [١] ، ((والمراد بها هنا الحجاز)) ، بدليل أن المصباح عزا الضم للحجاز [٢] . كما ذكر صاحب المخصص ما يفيد هذا [٣] .

٢ – وفي مخطوطة أبي القاسم بن سلام : أنــــه عزا الصرع : بالفتح لتميم [٤] ، كما عزا ابن سيده : الكسر لقيس ، والفتح لتميم [٥] .

وكل هذا يشير الى أن تميماً ومن لف لفها من قبائل البدو تؤثر الفتح إذا مـــا وجد حرف الحلق . والأمثلة السابقة :

مثل : اللحد ، الرفغ ، الصرع – اشتملت على حرف الحلق ، كما أنه يلاحظ أن لهجة تميم وغيرها من البدو تتأثر بمجاورة الأصوات – إذ أنها تأثرت بوجود حرف الحلق في تلك الأمثلة ، بعكس لهجة الحجاز ولهجات الحضر ، كما أرجح أن كلتا الصيغتين الحضرية والبدوية كانتا تستعملان في زمن واحد ، ولكن في بيئتين مختلفتين .

٣ – وكما ورد الإسكان في عين الكلمة ولامها ، وفتح في فائها نادراً ، وذلـــك في قراءة مسلمة « هَلَ أْتَى على الإنسان » بفتح اللام وسكون الهمزة . ويرى بعض المحدثين أن الروايات لم تعطنا سوى هذا المثال لهذه الظاهرة ، ومن أجل هذا لا ينهض أن يكون أساساً لبحث واضح المعالم . (أنظر دراسة صوتية في القراءات الشاذة للدكتور عبد الصبور شاهين) .

ثالثاً : المماثلة في الحركات Vowel - Harmony :

قبل أن ننسبه الى أي قبيلة يحسن أن نعرض بعضاً من النصوص حتى نتعرف على القبائل التي تميل إليه أو التي لا تميل . والانسجام ظاهرة عامة في جميع اللغات ، ولقد لاحظه المتقدمون وعلى رأسهم سيبويه ت ١٨٠ هـ ، وكان يسمي هذه الظاهرة بـ (المضارعة) ويقصد بها تقريب الأصوات المتجاورة : الكتاب ٤٢٦/٢ . ومنهم ابن جني ت ٣٩٢ هـ حيث ذكره بأنه « تقريب

---

(١) إصلاح المنطق : ٩٠ .
(٢) المصباح : ٣٠٧/١ مادة « الرفغ » .
(٣) المخصص : سفر ١٥ ص ٧٦ .
(٤) الغريب المصنف : لأبي عبيد القاسم : ص ٢٣١ مخطوطة بدار الكتب رقم ١٢١ .
(٥) المخصص : سفر ١٥ ص ٧٤ .

صوت من صوت »[1] وسماه مرة أخرى في كتابه (المنصف) « بالتجنيس » . وكان ابن جني بارعاً في خلق هذا الاسم لظاهرة الانسجام ، بل هو في نظرنا أصح من غيره ، وقد ضرب ابن جني عدة أمثلة يلمح فيها هذا التقريب فمن ذلك :

« الحمدُ ُلله» والحمدِ لِله »[2] بتغليب الحرف المتقدم على المتأخر كما في المثال الأول، أو العكس كما في المثال الثاني ، كما عدّ تقريب الصوت من الصوت مع حروف الحلق نحو « شِعير ، وبِعير ، ورِغيف »[3] ومن التقريب مـــا ذكره الشجري « زِئير الأسد يريد : الزئير »[4] ، كما أن من التقريب أو الانسجام في الحركات قولهم « منتن – بكسر الميم والتاء »[5] وأصلها منتن – بضم الميم وكسر التاء ، وحكى أبو زيد عن العرب أنه قيل « الجنة لمن خاف وِعيد الله »[6] بكسر الواو والعين . وفي جميع تلك الأمثلة غلّب الحرف المتأخر على المتقدم .

ويظهر أن السر في ميل العربية الى هذا التقريب أو الانسجام أو المماثلة : Assimilation وكلها أسماء متقاربة – أن اللغة نشأت شفوية – لم تقيد بقيود الكتابة ، واكتفى فيها أول الأمر – بالسماع والنطق ، ومتى اقتصر أمر اللغة على السماع وعلى النطق وعلى الانشاد – فلا بد أن تعنى كل العناية بهذا الانسجام[7] ، أو التقريب الصوتي الذي ظهر في الأمثلة السابقة ، وعلى كثير من أبواب العربية كالإدغام ، والإبدال ، والإمالة ، والقوافي[8] .

ويمكن أن ندرس ظاهرة المماثلة على المستويات الآتية :

أولاً : الانسجام في كلمة :

١ – ويكون في الأسماء ، ويمكن أن نرى أمثلة لذلك فيما يأتي :

أ) ما روي عن أهل الحجاز من أنهم يقولون : سكارى وكسالى وغيارى – بالضم ، وبنو تميم

---

(١) الخصائص : ١/٥٣١ ط الهلال .
(٢) الخصائص : ١/٥٣٥ ط الهلال .
(٣) المخصص : س ١٤ ص ٢١٣ ، شرح السيرافي : ٣١٢/٥ مخطوط بالتيمورية .
(٤) الخصائص : ١/٥٣٥ ط الهلال .
(٥) المخصص : س ١١ ص ٢٠٦ ، الخصائص : ١/٥٣٥ ط الهلال .
(٦) الخصائص : ١/٥٣٥ ، ط الهلال .
(٧) في الدراسات القرانية : ٢٦٧ دكتور شابي ط نهضة مصر .
(٨) من أوائل من أشار الى ظاهرة المماثلة أو التقريب من المحدثين « دانيال جونز » اللغوي الإنجليزي في كتابه An out Line of english Phonetics ومن علماء العرب : الدكتور أنيس في كتابه : الأصوات اللغوية .

يفتحون [1] . وفي شواذ القرآن : أن عيسى قرأ : « وإذا قاموا الى الصَّلاةِ قاموا كسالى » بالفتح ، وعزيت لتميم وأسد [2] ، كما عزا أبو حيان الضم للحجاز وبها قرأ الجمهور [3] .

ب) ما روي عن عامة قيس وتميم وأسد يقولون للناقة حين الوضع « مخضت » بكسر الميم والخاء [4] . بينما غيرهم يقولونها بفتح الميم .

جـ) وفي كتاب التذكير والتأنيث للسجستاني : أنه يقال في الضأن : الضَّين — وفي لغة تميم : الضِّين — بكسر الضاد [5] .

د) ما ذكره اليزيدي في نوادره من أن أهل الحجاز يقولون : ولدته لِتَمام — بفتح التاء [6] ، وتميم تكسر .

هـ) كما عزيت صيغة (منتن) بالكسر الى تميم ، وبالضم في الحجاز حكاها ابن سيده [7] . وقد جاءت في الخصائص مهملة العزو [8] .

و) وقرأ أبو عمرو « مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمِلكنا » بكسر الميم [9] . والذي يظهر من هذا العرض أن تميماً وقيساً وأسداً مالت الى ظاهرة الانسجام ، وعلى العكس منها لهجة الحجاز ، وأرجح أن القبائل التي تشبه تميماً في البداوة مالت هي الأخرى الى ظاهرة الانسجام بدليل :

أ) ما جاء عن طيء من أنها تقول : « السؤدُد » [10] بضم الدال الأولى في السؤدَد — بفتحها —

---

(١) إصلاح المنطق : ١٣٢ .
(٢) مختصر شواذ القران : ٢٦ ابن خالويه .
(٣) البحر : ٣/٣٧٧ .
(٤) اللسان : ٩ : ٩٥ .
(٥) التذكير والتأنيث : ص ١٢ رقم ٢٦٤ السجستاني .
(٦) المزهر : ٢/٢٧٧ .
(٧) المخصص : ابن سيده : س ١١ ص ٢٠٦ .
(٨) الخصائص : ١/٥٣٥ ط الهلال .
(٩) مفردة قراءة أبي عمرو : ٥٨ خط .
(١٠) اشتقاق ابن دريد : ١٣٠ وستنفلد .

حتى تنسجم الضمة مع الضمة . وقد جاءت رواية مشابهة عن الأزهري[1] ، وابن منظور[2] .

ب) روي عن عامري أنه يقول : عنقر – بضم القاف – وغيره يقولها : بفتح القاف[3] .

جـ) ما جاء عن أعرابي من عقيل من أنه يقول « فكاك الرقبة » بفتح الفاء وغيره يقولها : بكسرها .

د) التذنوب واحدته تذنوبة – وجاء عن الفراء أن بني أسد تقوله : تذنوب . بضم التاء والنون – وغير بني أسد : بفتح التاء[4] .

فالسمة الغالبة على تلك القبائل – هي السمة البدوية ، ولهذا آثرت الانسجام في الصِّيَغ السابقة كما أثر عن تميم كذلك ، لاشتراكهم في البيئة البدوية .

٢ – أو يكون في الأفعال :

أ) جاء في الكامل أن تميماً تقول : فرَّغ يفرَّغ – بوزن فعَل يفعَل – بفتح العين فيهما ، بينما قريش تقوله على وزن : فعَل يفعُل – بفتح العين في الماضي وضمها في المضارع[5] .

ب) والمشهور في قبائل الحجاز أن أسماء الأفعال التي على وزن فعال – تبنى على الكسر ، وعن أبي حيان : أن أسداً تبنيها على الفتح[6] .

وأرجح أن أسداً آثرت البناء على الفتح للانسجام مع ما قبلها ، كما أرجح أن لهجة أسد التي حدث فيها مراعاة الانسجام أحدث من لهجة الحجاز .

فتميم وأسد – وهما بدويتان آثرتا الانسجام – دون قريش – وهي في بيئة متحضرة .

٣ – أو يكون في الظروف :

---

(١) اللسان : ٢١٣/٤ .
(٢) اللسان : ٢٨٩/٦ .
(٣) اللسان : ٢٨٩/٦ .
(٤) اللسان : ٣٧٦/١ .
(٥) الكامل للمبرد : ١٦/١ .
(٦) التذييل والتكميل : ٢٩/٥ مصور بجامعة القاهرة .

فقد جاء في اللسان عن الكسائي أنه سمع في بني يربوع ، وطهية من يقول « حيث » بنصب الثاء على كل حال في الخفض والنصب والرفع [1] وأرجح أن النصب على الثاء جاء لينسجم مع فتحة الحاء قبلها .

فإذا ورد أن تميماً تقول « حوث » [2] بضم الثاء ، فأرجح أنها آثرت الانسجام ؛ لأن الواو أصلها امتداد للضم ، فكأنهم جانسوا بين الواو والضمة .

وهذه القبائل التي آثرت الانسجام — كطهية ويربوع جميعهم من البدو .

٤ — أو يكون الانسجام في الضمائر :

وذلك كقراءة ابن عامر « وتوبوا الى الله جميعاً أيّه المؤمنون » [3] بضم الهاء [4] ، وقد عزا أبو حيان هذه اللهجة الى بني مالك [5] ، كما عزاها الفراء الى بني أسد [6] . ولا منافاة ، إذ أن بني مالك من بني أسد [7] ولا أرى وجهاً لهذه اللهجة إلا أن بني مالك — وهم بدو — حركوا الهاء بالضم لتنسجم مع حركة ما قبلها .

أما قبائل الحضر فكانت لا تميل الى الانسجام في مثل هذه الضمائر وذلك :

أ) قراءة سلام قوله تعالى (نؤتِهُ منها) [8] بضم الهاء ، وعزاها أبو الفتح الى لغة الحجاز [9] ، كما عزاها أبو حيان الى الحجاز [10] .

---

(١) اللسان : ٢/٤٤٥ .

(٢) اللسان : ٢/٤٤٦ .

(٣) سورة النور : اية ٣١ .

(٤) البحر : ٦/٤٥٠ ، النهر الماد : ٦/٤٤٥ .

(٥) البحر : ١/٩٣ .

(٦) إبراز المعاني : ٢٠٠ .

(٧) التصريح : ٢/١٧٤ .

(٨) سورة الشورى : آية ٢٠ .

(٩) المحتسب : ٢/٣١٢ مخطوط بالتيمورية .

(١٠) البحر : ٧/٥١٤ .

ب) وقرأ حفص « وما أنسانيهُ إلا الشيْطان » و « بما عاهد عليهُ اللهَ » و « قـــال لأهلهُ امكثوا »[١] .

وكان ابن شهاب الزهري يضم تلك الهاء في جميع القرآن ، ومـــا ذاك إلا لأنه مدني حجازي[٢] .

ج) وسمع الكسائي شيخاً من هوازن يقول : « عليهُ مـــال » وكان يقول « عليهُم وفيهُم وبهُم »[٣] .

وهوازن وان كانت قيسية — إلا أن بعضها قد سكن[٤] منطقة الحجاز ، وكانت لها صلات بمكة والطائف[٥] ؛ ولهذا سارت في ركب الحجاز ، في عدم الانسجام .

وأصل هاء الغائب الضم : كضربه ، وله ، وعنده . وتكسر بعد الكسرة نحو « مرّبهِ » وبعد الياء الساكنة نحو « فيهِ وعليهِ » ، ويقول السيوطي « وكسرها في الصورتين المذكورتين لغة غير الحجاز ، أما الحجازيون فلغتهم ضم هاء الغائب مطلقاً »[٦] ويظهر أن الحجازيين نطقوا بالضمير مضموماً ، لأن هـــذا الضمير المجرور في الأصل هو المرفوع المنفصل ، فأصل : بِهِ : بـ هُو فأبقته الحجاز على أصله ، ولذلك قال سيبويه « وأهـــل الحجاز يقولون : مررت بِهُو قبل ، ولد يهُومال — ويقرءون « فخسفنا بِهُو وبداره هُو الأرض »[٧] . وتشبع في لهجات الجزيرة بالسودان هذه الظاهرة الحجازية[٨] ، مما يؤكد أن أصلهم قد هاجر إليهـــا من الجزيرة العربية — لاسيما المنطقة الحجازية . على أننا نشاهد أحياناً أن بعض لهجات القبائـــل قطعت مرحلة طويلة على طريق (المماثلة) أكثر مما قطعته الفصحى . وذلك أن لهجة ناس من ربيعة وهم بنو كلب — كانوا يكسرون ضمير الغائب الجمع فيقولون « منهم . عنهم . بينهم » بكسر الهاء ؛

(١) الهمع : للسيوطي : ١/٥٨ - ٥٩ .
(٢) كتاب سيبويه : ٢/٢٩٤ .
(٣) اللسان : ٢/٣٦٨ .
(٤) تاريخ العرب : ٤/٣٢١ جواد علي .
(٥) معجم كحالة : ٣/١٢٣١ .
(٦) الهمع : ١/٥٨ .
(٧) الكتاب : ٢/٢٩٤ .
(٨) من لهجات الجزيرة بالسودان : ٩٨ خط .

(انظر : المزهر ٢٢٢/١ . والكتاب ٢٩٤/٢ لسيبويه . وشرح السيرافي على سيبويه ٤٦٢/٥ ، مقدمة شرح القاموس) فإذا كانت لهجة هؤلاء (منهم) بكسر الميم والهاء والميم فهي أكثر تطوراً من الفصحى التي تقول (منهم) بكسر الميم وضمّ الهاء .

ثانياً : الانسجام في كلمتين :

١ – ويكون في : التقاء الساكنين :

أ) ويمكن أن نلمح ذلك في الروايات العربية ، إذ جاء عن بعض العرب أنهم يقولون « اخشوا القوم » بفتح الواو ، فأرجح أن تلك الفتحة إنما جاءت لتنسجم مع الفتحة قبلها ، وعليها قراءة « أولئك الذين اشتروا الضلالة » بفتح الواو [١] .

كما يمكن أن نلمح هذا الانسجام فيما إذا وقعت الميم بعد ضم كقوله تعالى: « أولئك يَلْعَنُهم الله » [٢] ، وقوله « وأنتم الأعلون » [٣] بضم الميم للانسجام مع ما قبلها وذلك تأثر تقدمي ، وقد يكون تأثراً رجعيّاً كما إذا وقع بعد ثاني الساكنين ما كان مضموماً في الأصل ، كقراءة بعضهم « وقالت اخْرُج عليهن » [٤] – فالقارىء أتبع ضمة التاء في قالت – ضمة الراء في – اخرج [٥] ، إذ ليس بينهما حاجز إلا حرف ساكن .

ب) كما حكى اللحياني عن طيء أنهم يقولون « اطلبوا من الرحمن » [٦] بكسر الميم والنون ، وتعلل لهجتهم بكسر النون على أصل التقاء الساكنين وإتباعاً لكسرة الميم .

وعلى لهجتهم في الانسجام حكى أبو عمرو عن أهل نجران « بَرَاءَةٌ مِن اللهِ » بكسر النون [٧] .

٢ – كما جاء في غير التقاء الساكنين ، فمن ذلك :

---

(١) الهمع : ٢٠٠/٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٥٩ .

(٣) آل عمران : ١٣٩ .

(٤) سورة يوسف : آية ٣١ .

(٥) ابن يعيش : ١٢٧/٩ ، سيبويه : ٢٧٥/٢ .

(٦) اللسان : ٣١١/١٧ .

(٧) مختصر شواذ القرآن : ١ ، لابن خالويه ، المحتسب : ٣٥٢/١ مخطوط .

أ) ما جاء عن العرب « أخذه ما حدُث وما قدُم »[1] وإنما ضمت الدال من حدث حين قرن بقدم ، لأجل انسجام النسق الصوتي ، حفاظاً على الموازنة ، وأصل حدث – على وزن فعل بفتح العين ، ومن ذلـــك قراءة النخعي « وحير عين » بقلب الواو ياء وجرهما ، في « وحور عين » (البحر ٢٠٦/٨) وقد جاءت الصيغة نتيجة كسر الحاء .

ب) وقد حكى الأخفش أن بعض أسد يقولون « فِإنّهم لا يُكَذّبونك »[2] بكسر الفـــاء والهمزة[3] – كما أنهم يقرءون « وِإنا ظننا »[4] بكسر الواو والهمزة[5] ، كما كانوا يقرءون « وإذا حلَلْتُم فِاصطادوا »[6] بكسر الفاء .

والذي يلاحظ في هذه القراءات عامل الانسجام القوي – الذي آثرته لهجة أسد – وهي بدوية – ففي الآية الأخيرة – تأثرت الفاء بكسرة همزة الوصل – فكسرت مثلها مراعاة لتمام النسق الصوتي .

ومن هذا العرض نلمح ميل القبائل البدوية الى تقريب الأصوات بعضها من بعض ، لضرب من التشاكل ومراعاة لظاهرة الانسجام ، وكأن العلة في الانسجام عندهم أن اللسان يعمل في الحرفين عملاً واحداً فلهجة البدو متطورة وفي تطورها تجنح الى الانسجام ، بينما نجـــد القبائل المتحضرة كالحجاز ومن سار سيرها قد بالغوا مبالغة شديدة في عدم تقريب الحركات بعضها من بعض ، لأن لهجتهم محافظة وعوامل التطور عندهم ليست لها نفس القوة عند البدويين .

---

(١) درة الغواص : ٣٠ .
(٢) سورة الأنعام : آية ٣٣ .
(٣) مختصر شواذ القرآن : ٣٠ .
(٤) سورة الجن : آية ٥ ، ١٢ .
(٥) مختصر شواذ القرآن : ٣٠ ابن خالويه .
(٦) سورة المائدة : آية ٢ ، وهي قراءة أبي واقد وأبي الجرّاح . انظر مختصر شواذ القرآن : ٣٠ .

الفصل الثاني

ظاهرة التقريب في الأصوات وتشمل :
أولاً : الامالة ، ثانياً : الادغام

أولاً : الامالة والفتح بين لهجات القبائل :

تعريفها : هو تقريب الألف نحو الياء ، والفتحة التي قبلها نحو الكسرة ، ولهـــذا فهي من المظاهر الصوتية التي يدعو إليها تقريب الصوت من الصوت .

وقد أشار ابن جني إليها عند حديثه عن الحركات والتقريب إشارة عابرة حيث قال : واعلم أنك قد تجد هذه المضارعة وهذا التقارب بين الحروف ، فقد تجده أيضاً بـــين الحركات ، حتى إنك تجد الفتحة مشوبة بشيء من الكسرة أو الضمة منحواً بها إليها ، وتجـد الكسرة أيضاً مشوبة بشيء من الضمة ، والضمة مشوبة بطرف من الكسرة[1] « أما القسم الأول في حديث ابن جني فهو المشهور عند إطلاق الإمالة ، وقد مثل ابن جني لتلك الإمالة ، بفتحة عين عابد ، وعارف ، وذلك أن الإمالة إنما هي أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة ، فتميل الألف التي بعدهـــا نحو الياء ، والعلة لذلك كما رآها ابن جني « لضرب من تجانس الصوت »[2] .

ويفهم من نص ابن جني السابق أنواع الإمالة ، وهي ولا شك كانت شائعة على ألسنة القبائل العربية ، ولكن ابن جني أهمل عزوها كعادته ، فترك ثغرة كبيرة في المحيط اللهجي ، ومـــا ذكره ابن جني في نصه السابق يشير الى الحركات المتفرعة عن الحركات الأصلية التي هي الفتحة والكسرة والضمة .

الامالة والانسجام الصوتي :

ظاهرة الانسجام الصوتي من الظواهر البارزة في فقه اللغة العربية ، وفي غيرها من لغـــات

---

(١) سر الصناعة : ١/٥٨ ط الحلبي .
(٢) سر الصناعة : ١/٥٨ ط الحلبي .

العالم ، فإذا ما اشتملت كلمة ما على بعض الحركات المتباينة نراها تتطور ، وفي أثنا هذا التطور تحاول تقريب تلك الحركات المختلفة فيها وكثيراً ما يكون هذا الانسجام الصوتي على حساب الإعراب نفسه ، ومن ذلك :

(وقال اضرب السّاقين إمّكَ هابل)[1] .

فقد كسر الميم في أمك إتباعاً لكسر الهمزة وهذا إخلال بإعراب المبتدأ في سبيل الانسجام الصوتي ، وروى : « وقال اضربِ الساقينُ أُمُّكَ هابل » .

بضم النون في (الساقين) إتباعاً لهمزة أمك – وفي تلك الرواية أخلّ بالإعراب أيضاً لتقريب الصوت من الصوت . وجميع هذا يسمى بالانسجام الصوتي ، ولا شك أن الانسجام الصوتي فيه اقتصاد للجهد العضلي ، وهذا الاقتصاد يميل الانسان إليه من غير تعمد ، فإذا ما ذكر ابن خالويه أن عيسى قرأ : « وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى » بالفتح[2] ، وأن ابن قتيبة تحدث عن « رئِي » بكسر الأول والثاني في « رَئِي » بفتح الأول وكسر الثاني[3] . وأن أبا السمال قرأ « أحلت لكم بهيمة الأنعام » بكسر الباء في بهيمة[4] ، علمنا أن الصيغ السابقة قد مالت الى الانسجام الصوتي ، فالانسجام ظاهر في « كسالى » بالفتح ، وفي «رئي» بكسر الأول والثاني ، وفي « بهيمة » بكسر الأول والثاني ، ويترتب على هذا الانسجام الاقتصاد في الجهد العضلي ، وقد لمح ذلك سيبويه وعلله بقوله « ليكون عمل اللسان من وجه واحد »[5] كما لحظ ذلك بعض المحدثين واستشهد بما قاله سيبويه على تلك الظاهرة ، فقد عقد والتر ربمان Walter Ripman لذلك فصلا ذكر فيه الانسجام ، وكثيراً من وجوه تأثير الحروف على بعضها[6] . وما الإمالة إلا من هذا الضرب من الانسجام والتقريب ، لأن الهدف منها كما يقول ابن يعيش « تقريب الأصوات بعضها من بعض لضرب من التشاكل »[7] ففي الإمالة تقريب الألف من الياء ، لأن الألف تطلب من الفم أعلاه ، والكسرة تطلب أسفله ، فتنافرا ، ولهذا جنحت

(١) الخصائص : ١٤٥/٢ ط دار الكتب .

(٢) مختصر شواذ القرآن : ٢٦ .

(٣) أدب الكاتب : ٢٩٠ .

(٤) مختصر شواذ القرآن : ٣١ .

(٥) كتاب سيبويه : ١٥٩/٢ ، شرح السيرافي على سيبويه : ٣٢٨/٥ مخطوط بالتيمورية .

(٦) الخليل الفراهيدي : ١٣٩ .

(٧) شرح المفصل : ٥٤/٩ .

الفتحة نحو الكسرة ، والألف نحو الياء ، وبهذا زال الثقل وحلّ محله الانسجام والتماثل . وكان ابن جني يرى شبهاً بين الإدغام والإمالة ، من ناحية تقريب الأصوات فهو يقول: « وأما الإدغام الأصغر ، فهو تقريب الحرف من الحرف وإدناؤه منه — وهو ضروب، فمن ذلك الإمالة »[1] وما الإمالة إلا تقريب الصوت من الصوت ، وقد ضرب سيبويه مثلاً لهذا التقريب في الإدغام حيث ذكر أنهم قربوا في الإدغام — الصاد من الزاي حين قالوا : « صدْر » فجعلوها بين الصاد والزاي لالتماس الخفة »[2] ويقول أبو سعيد في تعليل هذا التقارب في هذا المثال « أن الصاد مهموسة ، والدال مجهورة ، والصاد مطبقة مستعلية ، وليست الدال كذلك والصاد رخوة ، والدال شديدة ، والصاد من حروف الصفير ، وليست الدال منها ، فلهذا التباين استثقلوا تحقيق الصاد وبعدها الدال ، فاختاروا حرفاً من مخرج الصاد يوافق الدال في بعض ما خالفتها الصاد فيه ، وذلك الحرف الزاي ، لأن الزاي مجهورة مثل الدال ، وليست بمستعلية ولا مطبقة كما أن الدال كذلك »[3] .

وكان أبو سعيد يرى هذا الشبه بين الإدغام والإمالة حيث يقول « وكذلك (أي مثل التقريب في الإدغام) قربوا الألف من الياء في الإمالة »[4] .

وفي الأمثلة الثلاثة التي سقتها سابقاً وهي : كسالى : بالفتح ، ورئي : بكسرتين ، وبهيمة بكسرتين في أولها كذلك — قد عزيت الى تميم . بل كثير جداً من الصيغ المنسجمة قد عزيت الى تميم أيضاً ، فكأن الانسجام أولى بتميم ومن لف لفها من قبائل البدو ، وإذا كانت الإمالة هي نوع من الانسجام كما قررنا — فلا غرابة في أن عزت كتب القراءات واللغة الإمالة الى تميم وأمثالها ، وأدلة ذلك .

القبائل المميلة :

١ — في شرح الشافية أن الإمالة ليست لغة جميع العرب ، وأهل الحجاز ، لا يميلون وأشدهم حرصاً عليها بنو تميم »[5] .

---

(١) الخصائص : ٥٣٣/١ ط الهلال .

(٢) سيبويه : ٢/٢٠٩ .

(٣) شرح السيرافي على سيبويه : ٣٢٨/٥ مخطوط : تيمور .

(٤) شرح السيرافي على سيبويه : ٣٢٨/٥ مخطوط في تيمور .

(٥) شرح الشافية : ٤/٣ .

٢ – وفي شرح المفصل « وعامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس يسرون الى الكسر »[١] ولعله يريد بالكسر : الإمالة ، وكانوا يطلقون عليها أيضاً : الترخيم ، والروم ، والبطح ، والاضجاع[٢] . ومثل ذلك العزو : جاء عن الأشموني[٣] ، والبحر المحيط ، لكنه زاد « والتفخيم للحجاز »[٤] ، وكانوا يطلقون التفخيم والفتح والنصب[٥] – على ما خالف الإمالة ، كما عزاها السيوطي الى تلك القبائل السالفة[٦] ، وكذلك ابن الجزري[٧] ، وصاحب مقدمة المباني[٨] . كما عزى الفتح الى الحجاز[٩] تارة ، والى قريش تارة أخرى ، وذلك عند أبي حيان حيث نسب « الهدى » في قوله تعالى : « اشتروا الضلالة بالهدى » بالإمالة لتميم ، والفتح لقريش[١٠] ، أما القرآن الكريم فكان يراود بين الفتح والإمالة ، وقد ذكرت كتب القراءات في أصولها وفرشها شيئاً كثيراً من ذلك[١١] . بل كل من أمال أو فخم له وجه في العربية لا يدفع ، وقصد لا ينكر لأن كل من أمال أو فتح له طريق واضح في النقل والرواية ، فالحجة لمن فخم – أنه أتى بالكلام على أصله ووجهه الذي كان له ، لأن الأصل التفخيم ، والإمالة فرع عليه[١٢] ؛ وقد أمال بعض القراء أفعالاً فخمها غيرهم ، والحجة في ذلك : أنه أتى باللغتين ليعلم أن القارىء بهما غير خارج عن ألفاظ العرب ، وليس التفخيم والإمالة اختلافاً في نفس اللغة ، وإنما ذلك اختلاف في اللحن وتقدير الصوت وتزيينه ، وقد اختار كل فريق من العرب ما رآه وفق طباعه[١٣] .

---

(١) شرح المفصل : ٩ : ٥٤ .

(٢) مجلة كلية الآداب : ص ٣٢ م ١٠ ج ١ .

(٣) الأشموني : ٢٢١/٤ .

(٤) البحر : ٥٩/١ .

(٥) إبراز المعاني : ١٥٢ .

(٦) الهمع : ٢٠١/٢ .

(٧) النشر : ٣٠/٢ .

(٨) مقدمتان في علوم القرآن : ٢٢٧ – ٢٢٨ .

(٩) الأشموني : ٢٢١/٤ .

(١٠) البحر : ٧١/١ .

(١١) الإتحاف : ٧٤ .

(١٢) الحجة لابن خالويه : ورقة ٣ خلف خط بدار الكتب رقم ١٩٥٢٣ .

(١٣) مقدمتان في علوم القران : ٢٢٧ – ٢٢٨ تحقيق الدكتور جفري .

موقف الحجاز من الفتح والامالة :

ومن هذا العرض عرفنا أن البيئة الحجازية لا تميل ، بل تجنح الى الفتح ، وقد روي عن زيد ابن ثابت أنه قال « نزل القرآن بالتفخيم »[1] والمعلوم عند رجال السلف أنه نزل بلغة الحجاز – فكأن الحجاز يفخمون ، ومما يؤيد ذلك ما جاء عن أبي حيان في قوله « نحيت هذه الألفات نحو الواو على لغة أهل الحجاز »[2] وقد عد أبو حيان في ارتشاف الضرب من الحروف المتفرعة المستحسنة في ألسنة العرب « حرف بين الألف والواو ويسمى ألف التفخيم كما في الصلاة والزكاة والحياة – في لغة الحجاز وكذلك رسموها بالواو في الكتابة »[3] .

وجاء في المحتسب في تعليل كتابة (الربا) بالواو في قوله تعالى « الذين يأكلون الربا »[4] أنه فخم الألف انتحاء بها الى الواو التي الألف بدل منها على حدّ قولهم :

« الصلوة والزكوة ... وكأن القارىء بين التفخيم فقوي الصوت »[5] . وفي شرح الشافية « أن كتبهم لهذه الكلمات بالواو على هذه اللغة »[6] أي لغة الحجاز . وهذا يدل على الفتح والتفخيم عند أهل الحجاز ، فقد تأثرت الكتابة بلهجتهم وأصبحت مرآة لها ، ومن ذلك ما جاء في كتاب المصاحف عن نائل بن مطرف بن رزين بن أنس السلمي عن أبيه عن جده قال : لما ظهر الإسلام أتيت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله : ان لنا بيراً بالدّثينة قال : فكتب لي كتاباً « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ، أما بعد : فإن لهم بيراً إن كان صادقاً ، ولهم دارهم إن كان صادقاً » قال : وهجاء ، « كان » ك و ن[7] . ومن هذا النص نلمح صلة قوية بين لهجة النبي ﷺ ، وما أملاه في الكتاب، وأرى أنه لشدة تفخيم الألف في (كان) كتب واواً، فالحجازيون كما ورد في الروايات السالفة يفتحون ولا يميلون ، وأهل تميم وأسد وقيس يميلون ولا يفتحون ، ولكن عثرنا على بعض نصوص تقف في سبيل تلك القضية وتلك هي :

---

(١) مقدمتان في علوم القران : ٢٢٧ - ٢٢٨ تحقيق الدكتور جفري .

(٢) البحر : ١٧٢/٦ .

(٣) شرح الشافية : ٢٥٥/٣ ، سر الصناعة: ٥٦/١ ط الحلبي ، تاريخ الأدب : حفني ناصف: ١٣ ط الثانية .

(٤) البقرة : آية ٧٥ .

(٥) المحتسب : ١٦٢/١ - ١٦٣ مخطوط تيمور .

(٦) شرح الشافية : ٢٥٥/٣ .

(٧) المصاحف للسجستاني : ١٠٥ .

أ) جاء في البحر المحيط في قوله تعالى « لا تقصص رؤياك على إخوتك »[1] أن الكسائي قرأ بالإمالة وبغير الهمز – وهي لغة أهل الحجاز[2] .

ب) قال السيوطي « ومنهم من لم يمل إلا في مواضع قليلة – وهم أهل الحجاز »[3] فكأن أهل الحجاز أصحاب إمالة أيضاً .

جـ) قال صاحب أسرار العربية « والإمالة تختص بلغة أهل الحجاز ومن جاورهم من بني تميم وغيرهم »[4] .

د) وفي شرح السيرافي على سيبويه « ومما يميلون ألفه – كل شيء كان من بنات الياء والواو مما فيه عين ، إذا كان أول فعلت منه مكسوراً نحوا نحو الكسرة – كما نحوا نحو الياء فيما كانت ألفه في موضع الياء – وهي لغة لبعض الحجاز . ومثل السيرافي لذلك بالفعل « خاف » وأنها أمالته لأنه على وزن فَعِل ، وأصله خَوِف فلأجل الكسرة المقدرة في الألف جازت إمالته »[5] .

فكأن أهل الحجاز على شيء من الإمالة في مثل هذا .

هـ) عن زر بن حبيش قال : قرأ رجل على عبدالله بن مسعود (طه) ولم يكسر : فقال عبدالله (طه) وكسر الطاء والهاء ، فقال الرجل (طه) ولم يكسر ، فقال : عبدالله : (طه) وكسر الطاء والهاء ، فقال الرجل (طه) ولم يكسر ، فقال عبدالله (طه) وكسر – ثم قال : والله لهكذا علمني رسول الله ﷺ[6] فكأن النبي ﷺ – وهو القرشي الحجازي علّم ابن مسعود القراءة بالإمالة .

تردد القبائل المميلة بين الامالة والفتح :

وإذا رأينا أن البيئة الحجازية قد أمالت – فإننا نجد عكس ذلك ، أي أن البيئة التميمية وما يحيط بها من قبائل قيس وأسد – قد فتحت ، وأدلة ذلك :

---

(١) يوسف : آية ٥ .

(٢) البحر المحيط : ٥/٢٨٠ .

(٣) الهمع : ٢/٢٠٠ .

(٤) أسرار العربية : ابن الأنباري : ٤٠٦ ط دمشق .

(٥) شرح السيرافي على سيبويه : ٥/٣٣٤ مخطوط بالتيمورية .

(٦) النشر : ٢/٣١ ، الإتقان : ١/٩٣ .

أ) في شرح السيرافي على سيبويه عند حديثه عن الأفعال الثلاثية الواوية يقول : إذا بلغت الأسماء أربعة أحرف — أو جاوزت من بنات الواو فالإمالة مستتبة لأنها قد خرجت الى الياء — وجميع هذا لا يميله ناس كثير من تميم وغيرهم »[1] .

ب) عزا الفراء — « الفتح لعامة نجد من تميم وأسد وقيس في مثل قال وجال »[2] . أي أنهم لا يميلون في ذلك .

جـ) والدليل على أن أصحاب الإمالة وهم (تميم وأسد وقيس) يختلفون فيها ما جاء في مخطوطة السيرافي على شرح سيبويه « اعلم أنه ليس كل من أمال الألف ، وافق غيره من العرب ممن يميل ، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه ، فينصب بعض ما يميل صاحبه ، ويميل بعض ما ينصب صاحبه ، وكذلك من كان النصب من لغته ، لا يوافق غيره ممن ينصب ، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأول في الكسر »[3] وهكذا الشأن في لهجاتنا الحديثة المصرية ، فأهل (القاهرة) يقولون : جري ، مشي ، نسي بالأمالة ، وأهل (البحيرة) يفتحون هذا الضرب من الأفعال ، وترى الأمر بعكس هذا في الأسماء ، فأهل الإمالة في الأفعال (القاهرة) يفتحون في الأسماء نحو : العمَى ، والسَّمَا ، ويميله أهل (البحيرة) ، كما نرى (القاهرة) تقول : تعلمت الإنشا ، والصيف والشتا — بالفتح ، بينما أقاليم (البحيرة) تميل مثل هذا[4] .

اتساع جغرافية الامالة :

على أن الإمالة لم تكن مقصورة على تلك القبائل التي أشار إليها الأقدمون — وهي تميم وأسد وقيس — وإنما كانت ظاهرة أكثر شيوعاً مما ذكروه ، فقد كانت تنتظم معظم القبائل العربية ، وإن تفاوتت قلة وكثرة[5] ودليل ذلك ما يأتي :

١ — ما جاء في شرح ابن يعيش معزواً الى هدبة بن الخشرم :

---

(١) شرح السيرافي على سيبويه : ٣٣٣/٥ مخطوط .

(٢) ابن يعيش : ٥٤/٩ .

(٣) مخطوطة السيرافي على سيبويه : ٣٤١/٥ .

(٤) عن الشيخ محمد النجار .

(٥) في الدراسات القرآنية واللغوية : ٩٥ . دكتور شلبي .

عسى الله يغني عن بلاد بن قادر ... بمنهمر جونْ الرباب سكوبِ[1]

واستشهد به على أن الراء المكسورة – وهي من دواعي الإمالة – غلبت حرف الاستعلاء وهو القاف فأميل « قادر » وأميل على الرغم من وجود فاصل بين الراء والألف[2] ، وذلك ما يمنع الإمالة .

وهدبة بن خشرم صاحب هذا البيت يتصل نسبه كما في ديوان الحماسة الى سعد بن هذيم[3] ، وسعد هذه من قضاعة من القحطانية بدليل ما رواه صاحب الحماسة لهدبة بن خشرم من قوله :

إني مِنْ قضاعة مَن يكدها ... أكده وهْي منّي في أمانِ[4]

فالشاعر لا يريد أن ينسب نفسه الى قضاعة فقط ، وإنما هو مختص بهـــا يحميها ، ويدافع عنها ، ويرد كيد من يكيدها من أعدائها ، فكأن قضاعة كانت تميل ، وقضاعة كانت ديارها في الشحر ، ثم في نجران ، ثم في الحجاز ، ثم في الشام[5] ، وكان لهم ملك ما بين الشام والحجاز ، الى العراق الى مشارف الشام ، ويظهر أن هذه الإمالة كانت تنتقل معهم كلما ساروا وحيثما حلّوا . ففي الحجاز نرى إمالة[6] ، وفي الشام نرى إمالة[7] .

٢ – وهناك شاهد آخر يمكن أن نلتمس منه تحديداً لبعض القبائل المميلة جاء في الكتاب «بلغنا عن ابن أبي إسحق أنه سمع كثير عزة يقول « صار بمكان كذا وكذا أي بإمالة الألف في صار »[8] . فإذا رجعنا الى كتب الطبقات وجدنا كُثَيِّراً هذا من خزاعة[9] ، وخزاعة قبيلة من الأزْد من القحطانية[10]، وكانت منازلهم بأنحاء مكة في مر الظهران وما يليه . فكأن خزاعة هذه تميل ، وإذا كان قد حدث خلاف بين علماء الأنساب في أصل خزاعة

---

(١) ابن يعيش : ٦٢/٩ .
(٢) شرح الأشموني : ٢٢٩/٤ .
(٣) مختصر شرح التبريزي : ١٨٧/١ وقد أخطأ المحقق حيث نسبه الى سعد بن هذيل باللام .
(٤) مختصر شرح التبريزي : ١٨٨/١ .
(٥) معجم كحالة : ٩٥٧/٣ .
(٦) شرح السيرافي على سيبويه : ٣٣٤/٥ .
(٧) المقتطف : يناير سنة ١٩٣٢ : ص ٤٠ .
(٨) الكتاب لسيبويه : ٢٦١/٢ .
(٩) الشعر والشعراء : ١٩٨ ط المعاهد .
(١٠) معجم كحالة : ٢٣٨/١ .

أعدنانية هي أم قحطانية[1] ؟ فإن أخذنا بقحطانيتها – كان ذلك دليلا على أن الإمالة منتشرة في بلاد اليمن والدليل على ذلك ما قاله أبو بكر بن مقسم : من أن أكثر أهل اليمن يميلون ألف حتى لأن الإمالة غالبة على ألسنتهم في أكثر الكلام[2] ، وإن أخذنا بعدنانيتها كما يرى مصعب الزبيري – كان هذا دليلا على أن الإمالة في بلاد الحجاز موجودة ، ولعل أهل الإمالة في الحجاز هم أهل البادية منهم ، وأهل الفتح فيهم هم أهل قاربة .

٣ – على أننا نجد نوعاً آخر من الإمالة يختلف عما سبق ، فكما رأينا فيما سبق إمالة الفتح الى الكسر ، فإننا نرى إمالة الفتح الى الضم فيما يقوله ابن جني « وأما ألف التفخيم فهي التي تجدها بين الألف وبين الواو ، نحو قولهم : سُلام عليك ، وقُام زيد ، وعلى هذا كتبوا الصلوة ، والزكوة ، والحيوة – بالواو ، لأن الألف مالت نحو الواو »[3] . وهي كحرف o في اللغة الفرنسية ، وحكى ابن جني عن قطرب : « أن أهل اليمن يقولون : الحيوة – فهذه الواو بدل من ألف حياة ، وليست بلام الفعل من حيوْت – وكذلك يفعل أهل اليمن بكل ألف منقلبة عن واو كالصلوة[4] والزكوة ويظهر أن هذا النوع من إمالة الفتحة الى الضمة كان موجوداً في الحجاز أيضاً بدليل ما جاء في الشافية أن كتبهم لهذه الكلمات بالواو على هذه اللغة – أي لغة الحجاز[5] . ومن المعروف أيضاً أن الكتابة العربية قد أخذت من النبطية التي كانت تكتب فيها بالواو – وكذلك في الكتابات العربية الجنوبية . وقد كتبت هذه الكلمات في المصحف بالواو – والذين كتبوه من قريش ، والكتابة مرآة للهجات كاتبيه ، وهذا ما جعل الداني يقول « رسموا في كل المصاحف الألف واواً في أربعة أصول مطردة ، وأربعة أحرف متفرقة ، فالأربعة الأصول هي « الصلوة » ، « والزكوة » ، « والحيوة » ، « والربوا » حيث وقعن ، والأربعة الأحرف هي قوله : « بالغدوة »[6] و « كمشكوة »[7] و « النجوة »[8] و « منوة »[9] . فكأنهم

---

(١) معجم كحالة : ٢٣٨/١ .
(٢) همع الهوامع : للسيوطي : ٢٠٤/٣ .
(٣) سر الصناعة : ٥٦/١ ط ١ .
(٤) اللسان : ٢٣٠/١٨ .
(٥) شرح الشافية : ٢٥٥/٣ .
(٦) سورة الأنعام : ٥٢ ، الكهف : ٢٨ .
(٧) سورة النور : آية ٣٥ والمشكاة هي الكوة بلغة توافق الحبشية « كتاب اللغات في القرآن / ٣٨ » .
(٨) سورة غافر : ٤١ .
(٩) سورة النجم : ٢٠ .

توهموا لشدة التفخيم عندهم أنها واو ، فرسموها كذلك ، وأرجح أن هذا النطق كان موجوداً أيام النبي عليه السلام ، لذلك كتبت بالواو في المصحف ثم أصابهـا بعض التطور فتحولت من واو الى فتحة ممدودة ā .

ومما يدل على وجود مثل هذا في لهجات اليمن أيضاً ما يذكره بعض المستشرقين من أن الأسماء العربية المنتهية ب – وُن ، مثل ابن خلدون ، وزيدون ، وهي كلهـا لأشخاص يمني الأصل يرجح أنها أسماء منتهية بأداة التعريف اليمنية (آن) ، ثم أمالها اليمنيون على طريقتهم ، وكتبها العرب الشماليون بطبيعة الحال (ون) في إمالتهم نحو الواو[١] .

٤ – وعند هذا البيان نجد كتب العربية تصمت بعد هذا ، ولا تعطي الباحث أي بيان عن القبائل المميلة ، ولهذا أدير البحث – في جانب آخر ونجول جولة في كتب علوم القرآن علها تضيء مداخل هذا البحث ، فقد جاء في الإتقان « وفي جمال القراء عن صفوان بن عسّال أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ : « يا يحيى » فقيل له يا رسول الله ، تميل وليس هي لغة قريش ، فقال : هي لغة الأخوال بني سعد »[٢] وبنو سعد هم حضنة الرسول ﷺ ، وينتهي نسبهم الى قيس[٣] ، وثبت قبل ذلك أن قيساً من القبائل المميلة ، لهذا كانت سعد ابن بكر تؤثر الإمالة ، ومما يؤيد ذلك مـا ذكره الإمام أبو القاسم الهذلي في كتابه « الكامل » : من أن الإمالة في سعد بن بكر »[٤] ، وهذه الأدلة تخالف ما ذكره الدكتور ابراهيم أنيس في كتابه « في اللهجات العربية » من أن سعد بن بكر مالت الى الفتح[٥] . وذكر الشمس بن الجزري في كتابه منجد المقرئين عن أبي القاسم الهذلي : أن الإمالة أيضاً لغة هوازن ، وبكر بن وائل[٦] ، وهذا يناقض أيضاً رأي الدكتور إبراهيم أنيس حيث نسب الفتح الى هوازن[٧] ، ويمكن أن نلتمس نماذج للإمـالة والفتح في قراءات القراء للقرآن الكريم – تهدينا الى تحديد مناطق الإمـالة والفتح في الجزيرة العربية ، ونظرة

---

(١) رابين : ٢٩ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن : ٩٣/١ مطبعة حجازي .

(٣) نهاية الأرب : ٢٩٠ .

(٤) منجد المقرئين لابن الجزري : ٥٩ – ٦٠ .

(٥) في اللهجات العربية : ٥٠ ط ٢ .

(٦) منجد المقرئين : ٦٠ .

(٧) في اللهجات العربية : ٥٠ ط ٢ .

واحــــدة في « كتاب النشر في القراءات العشر » ترينا تردد اسم الكسائي (١٨٩ هـ) ، تردداً كثيراً في باب الإمالة ، وأنه كان مكثراً فيها ، فقد تردد اسمه في أكثر باب الإمالة من كتاب النشر[١] ، وكذلك حمزة (١٥٦ هـ) فقد عدّه صاحب الإضاءة من المكثرين في الإمالة[٢] ، فــإذا عرفنا أن هذين الشيخين عاشا في الكوفة[٣] ، والكوفة كانت مهبطاً لعدد كثير من قبائل أسد ، تلك التي أثر عنها الإمالة[٤] ، فإذا أضفنا الى ذلك أن الكسائي كان مولى بني أسد[٥] ، عرفنا أنما أمال هذان الشيخان لتأثير البيئة فيهما ، وبيئة الكوفة متأثرة بقبائل شرق الجزيرة العربية كتميم وأسد ، وبكر بن وائل – تلك التي أثر عنهـــا الامالة ، فكأن هذين القارئين مثلا لهجتها في قراءتها خير تمثيل ، وليس أدل على ذلك من أن الكسائي قد اختص بإمالة ما قبل هاء التأنيث ، « حتى قيل للكسائي : إنك تميل ما قبل هاء التأنيث ، فقال : هذا طباع العربية »[٦] قال الحافظ أبو عمرو الداني : يعني بذلك أن الإمالة هنا لغة أهل الكوفة وهي باقية فيهم الى الآن ، وهم بقية أبنـــاء العرب »[٧] وإمالة ما قبل هاء التأنيث التي اختص بها الكسائي هي ما عبر عنها سيبويه بقوله: «سمعت العرب يقولون : ضربته ضربة ، وأخذته أخذة – شبه الهاء بالألف ، فأمال ما قبلها كا يميل ما قبل الألف »[٨] فإذا أدير الحديث تجاه قراء القرآن في البيئة الحجازية رأينا ابن كثير المكي (١٢٠ هـ) ونافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم (١٥٧ هـ) ، أما ابن كثير ، فكان إمام القراءة القرآنية[٩] في مكة ، وقرأ على عبدالله بن السائب المخزومي قارىء مكة[١٠] ، فكأن البيئة التي عاش فيهـــا ابن كثير بيئة حجازية مكية ، وشيوخه الذين لقنوه أصول القراءة كانوا حجازيين كذلك . فإذا روى عنه صاحب الإضاءة « بأن ابن كثير لم يمـــل

---

(١) النشر : ٣/٣٥ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧١ ، ٨٢ .

(٢) الإضاءة في بيان أصول القراءة : ٣٨ .

(٣) طبقات القراء : ١/٥٣٥ ، ١/٢٦١ .

(٤) شرح المفصل : ٩/٥٤ .

(٥) طبقات القراء : ١/٥٣٥ .

(٦) النشر : ٢/٨٢ .

(٧) النشر : ٢/٨٢ .

(٨) الكتاب : ٢/٢٧٠ .

(٩) طبقات القراء : ١/٤٤٣ وما بعدها .

(١٠) إبراز المعاني : ٢١ .

شيئاً »[1] أي أنه كان ينحو نحو الفتح – كان معنى ذلك أنه تأثر ببيئته الحجازية التي تميل الى الفتح ، كما تأثر بشيخه الحجازي الذي قرأ عليه ، فكأن ابن كثير تمثلت لهجته التي تميل للفتح – في قراءته ، أي أن قراءته في الفتح كانت صدى للهجته .

وليس معنى هـذا أن القراء يلتزمون في قراءتهم – السمات اللهجية الشائعة في بيئتهم – فبعضهم خالفت قراءته تلك السمات اللهجية الشائعة في بيئته ، فتسهيل الهمز مثلاً من صفات اللهجات الحجازية ، ولكن ابن كثير – وهو القارىء الحجازي – حققها[2] . كما أن نافعاً المدني وهو في بيئـة تسهل الهمز كان يقرأ « النبيين » ، « والنبيون » ، « والأنبياء » ، « والنبي » ، « والنبوة » بالهمزة[3] ، ومعنى هذا أنه لا يمكن أن تتخذ دائماً – قراءات القراء – ممثلة للهجات بيآتهم ، لأنه كثيراً ما يتأثر القارىء بشيخه ، فيتبعه في أداء قراءته – ويترك القراءات الدائرة في بيئته . فأبو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ) تميمي[4] النسب ، وكان من شيوخه أيضاً عبدالله بن كثير المكي ، وعكرمة بن خالد المخزومي[5] ، كما أخذ عن شيوخ آخرين من بقاع مختلفة ، لهذا كان أبو عمرو يختار قراءته من تميم تارة ، لأنها قبيلته ، وتارة أخرى يختـار قراءته على سمت شيوخه ، فهو متأثر بالبيئة والنسب حيناً ، وبالشيوخ حيناً آخر ، وإذا كان أبو عمرو تميمي النسب – فهل سار على نهج قومه تميم في الإمالة ؟ إذا نظرنا الى أصول قراءته : وجدنا أنـه : أمال كل ألف رسمت في المصحف ياء وكان قبلها راء نحو : «اشترى» ، «وبشرى» ، «وأسرى» ، « والنصارى » ، لكنه اختلف عنه في « يا بشراي » بيوسف بين الفتح والإمالة والتقليل ، كما اختلف عنه أيضاً في تترى » بين الفتح والإمالة ، ورجح المحقق ابن الجزري فيه الفتح[6] . فهذا المثال يمكن أن يوضح لنا اتجاه أبي عمرو – والمثال يتذبذب بـين اتجاهين – الأول منهما : الإمالة – وهي لا شك لهجة قومه ، فهو متأثر بهم ، والاتجاه الثاني : الفتح – والفتح لهجـة شيوخه ومن أخذ عنهم من مكة والحجاز .

ومن هذا العرض يظهر أن القراء الكوفيين تمثلت في قراءتهم – الإمالة ، وهم متأثرون في

---

(١) الإضاءة في بيان أصول القراءة : ٣٧ .
(٢) الإضاءة في أصول القراءة : ١٥٦ .
(٣) إتحاف فضلاء البشر : ١٣٨ .
(٤) إبراز المعاني : ٢١ .
(٥) القراءات واللهجات : ٢١٦ .
(٦) الإضاءة في بيان أصول القراءة : ١١١ .

ذلك ببيئتهم – تلك التي تأثرت بلهجات تميم وأسد وبكر بن وائل ، وأما قراء الحجاز – لاسيما ابن كثير فقد جنح الى الفتح متأثراً ببيئته وشيوخه معاً ، ولا شك أن بيئته ظهر فيهـــا الفتح أكثر من الإمالة وإنما قلت ذلك ، لأن الإمالة ظهرت في البيئة الحجازية أيضاً في قراءة نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم : ١٥٧ هـ[١] ، إذ كان له راويان : أحدهما : أبو موسى عيسى بن ميناء المدني ويلقب بقالون ، والثاني : عثمان بن سعيد الملقب بورش[٢] ، وبـــين راوييه تخالف : إذ قالون يروي عن نافع الإقلال في الإمالة ، بينما ورش يروي عنه مكثراً منها »[٣] وعلى أي حال فالإمالة سواء أكانت قليـــلة أم كثيرة تردد صداها في قراءة نافع بن أبي نعيم – وهو قارىء حجازي مدني . وهذا يتفق ونقل بعض اللغويين والنحاة من أن من الحجاز من كان يميل[٤] . ومن هذا العرض يتضح أن :

فصل شرق الجزيرة عن غربها في الظواهر اللهجية ، وأن لغربها خصائص مستقلة عن شرقها ، وهو ما نادى به « رابين » وغيره ، نظرية لا تثبت أمـــام تلك الظواهر التي تتداخل بعضها ببعض ، فالشرق والغرب كلاهما مؤثر في الآخر ، ومتأثر به ، وليست هنـــاك حواجز فاصلة حاسمة بين الكتلتين بدليل مـــا تقدم من أن المميلين يفتحون ، وأن الذين يجنحون الى الفتح يميلون .

---

(١) طبقات القراء : ٢/٣٣٠ .

(٢) الإضاءة : ١٢٨ .

(٣) في الدراسات القرآنية واللغوية : ١٣٠ .

(٤) أسرار العربية : لابن الأنباري : ٤٠٦ ط دمشق .

الامالة تربط بين القبائل في داخل الجزيرة العربية وخارجها

سبق فيما تقدم أن أشرت الى أن قضاعة كانت تميل، وقد ترددت منازلها بين الشحر ونجران والحجاز ، والشام ، فهل يمكن أن نربط بين الإمالة الغامرة في سوريا وغيرها من بلاد الشام ، وبين قضاعة المميلة ، والتي كان لها يوماً من الأيام سلطان على الشام؟

ويمكن أن يكون هذا الربط سبباً من أسباب الإمالة في الشام ، كما أرجح سبباً آخر لهذه الإمالة ، وهو العلاقة القوية التي كانت بين إقليم نجد ، وإقليم الشام ، لذلك تكون لهجة نجد لها تأثير قوي في لغات القبائل التي انتجعت الشام ، « ونجد أصحاب إمالة »[1] والوطن الشامي نزلت فيه قبائل نجدية كثيرة ، يقول شكيب أرسلان : وتحار عندما ترى جميع الشام تقريباً تلفظ بالإمالة[2] ، وضرب أمثلة لذلك[3] .

كما نجد إمالة غامرة في بلاد الأندلس ، فأهل غرناطة يقولون « كِتيب » بدلاً من « كتاب» ، و « البيب » بدلاً من (الباب) وكان « كوند » المؤرخ الأسباني يكتب « هشام » هكذا « Hixem » ولا يكتبها « Hixam » . وقد أشار الى هذا ابن الخطيب[4] .

وسافر شكيب الى الأندلس مرة ، وطلب قطع ورقة السفر الى « دانية » وتلفظ بها Dania بدون إمالة ، فلم يفهموا ماذا يريد ، حتى رده أحدهم : هي Dénia لا Dania[5] .

وقد يسهل الربط بين الشام والأندلس عندما كانوا « يسمّون » غرناطة « دمشق لا لشبهها الجغرافي الشديد بدمشق – وهي بالفعل أشبه البلاد بدمشق ، بل لأن العنصر الدمشقي كان فيها غالباً »[6] ، ومما يؤكد الصلة بين القطرين أن العرب في أسبانيا كانوا على مذهب الإمام

---

(١) الهمع : ٢/٢٠٤ .

(٢) المقتطف : يناير : ص ٤٠ سنة ١٩٣٢ .

(٣) المقتطف : فبراير : ١٤٠ – ١٤١ : سنة ١٩٣٢ .

(٤) الإحاطة : ١/٣٥ .

(٥) المقتطف : يناير : ٤٢ – ٤٣ : ١٩٣٢ .

(٦) المقتطف : يناير : ٤٣ : سنة ١٩٣٢ .

الأوزاعي – إمام أهل الشام ، مما يشير الى أن السواد الأعظم من العرب الذين فتحوا أسبانيا – كانوا من أهل الشام[١] .

وإذا نظرنا الى الإمالة في وطن جديد ، كالبدو القاطنين على ساحل مربوط ، وجدناهم يميلون الى الإمالة[٢] ، ويرى القلقشندي : أن هؤلاء من بني سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان[٣] ، ويقول الحمداني : مساكنهم ببرقة مما يلي المغرب ، ومما يلي مصر[٤] ، فعالم الجغرافيا أفادنا أن بني سليم جاءوا الى مصر وبرقة ، وتاريخ النسب أفادنا أنهم من قيس عيلان ، ومصادر العربية على أن من أصحاب الامالة في القبائل العربية « قيساً »[٥] ، ولهذا لا نعجب إذا رأينا البدو القاطنين في الصحراء الغربية مما يلي مصر وبرقة – أصحاب إمالة .

ولهذا تتميز اللهجة الليبية بالامالة – وهي أشد في طرابلس « لأن قبائل سليم أقامت في جهات طرابلس زمناً »[٦] .

أما الامالة في عامية مصر فهي نادرة في لغة بني سويف ، وبعض الفيوم ، والمحلة ، وسائر البلاد التي يتكلم أهلها بالقاف الصريحة ، كما نجدها كثيرة في لغة بقية العوام في الديار المصرية[٧] .

وقد أجرى الدكتور عبد الفتاح شلبي استفتاء عاماً لمعرفة وجود الامالة أو عدمها في بلاد القطر المصري خلص من هذا الاستفتاء « بأن مدينة بلبيس من الشرقية تظهر فيها الإمالة ظهوراً غالباً ، كما أن مديريتي المنوفية والبحيرة ، وبعض أجزاء الفيوم كذلك »[٨] .

ولتعليل الامالة في هذه الأماكن – يرى صاحب البيان والإعراب : أن بطون قيس مثل نصر بن معاوية ، وبني عامر – نزلوا ببلبيس ، كما نزلها مائة أهل بيت من سليم[٩] .

---

(١) المقتطف : مارس : ٣٢٣ سنة ١٩٣٢ .
(٢) دراسة لغوية في لهجات البدو في مصر : ٣٢٨ خط بمكتبة دار العلوم .
(٣) نهاية الأرب للقلقشندي : ٢٩٤ .
(٤) معجم كحالة : ٥٤٣/٢ .
(٥) الهمع : ٢٠٤/٢ .
(٦) معجم كحالة : ٥٤٦/٢ .
(٧) مميزات لغات العرب : ٣٦ .
(٨) في الدراسات القرآنية واللغوية : ٣٠٠ د : شلبي .
(٩) البيان والإعراب : ٦٧ .

وفي صبح الأعشى « أن لواتة » – وهم من قيس على رأي – لهم بمصر بطون كثيرة ، كما قال الحمداني ... وبالمنوفية : منهم – بنو يحيى ، والسوّة ... ومنهم جماعة بالبحيرة ، وجماعة بالمنوفية[١] ، وفي معجم قبائل العرب : أن اللواتيين – من أعراب الفيوم[٢] بمصر .

والنصوص السالفة تشير الى أن بطون قيس بما فيها سليم ولواتة[٣] وغيرهم نزلوا أيام الفتح في بلبيس والمنوفية ، والبحيرة ، وبعض أجزاء الفيوم – ومن المعروف أن قيساً من القبائل المميلة – لذلك احتفظت بطونها في المنازل الجديدة التي هاجرت إليها بعد الفتح العربي – بالإمالة .

وبهذه الطريقة نستطيع أن نرد العرب في الأقطار المختلفة – الى أصلهم ما دامت طريقتهم واحدة في النطق ، ومقارنة لهجاتهم بما كانت عليها أيام سكناهم في الجزيرة العربية ، لأن لهجاتهم الحديثة تحمل بذوراً أصيلة للهجات القبائل في الجزيرة العربية .

صعوبتان تعترضان دراسة الامالة :

أ) أولاهما :

أن أكثر النصوص التي جاءتنا لتدل على الامالة عند العرب مهملة العزو الى قبائلها إهمالاً يكاد يكون تاماً : وسنقتصر على إيراد بعض تلك الشواهد :

١ – نقل سيبويه إمالة نحو « مناشيط » عن قوم من العرب لتراخي حرف الاستعلاء ... وبعض العرب : غلب حرف الاستعلاء وإن بعد[٤] .

٢ – ويقول السيوطي : ومتى اتصلت بالألف راء مفتوحة أو مضمومة – منعت الامالة نحو : راشد ، وبعض العرب يميل[٥] ... وبعض العرب يجعل الراء المكسورة مانعة من الامالة كالمفتوحة والمضمومة »[٦] .

---

(١) صبح الأعشى : ١/٣٦٤ - ٣٦٦ .

(٢) معجم كحالة : ٣/١٠١٧ .

(٣) في صبح الأعشى : ١/٣٦٤ بالثاء المثلثة ، وفي نهاية الأرب للقلقشندي : ٤١١ بالتاء المثناة « لواتة » .

(٤) الهمع : ٢/٢٠٢ .

(٥) الهمع : ٢/٢٠٢ .

(٦) الهمع : ٢/٢٠٢ .

٣ – قال سيبويه : « وقال ناس يوثق بعربيتهم : هذا باب ، وهذا مال[١] . ولم يبين من هؤلاء العرب الذين يوثق بعربيتهم . ويقول سيبويه : « وقد قال قوم : المناشيط[٢] (بالامالة) ، « وبعضهم يقول »[٣] و « سمعناهم يقولون »[٤] و « قوم أمالوا أشياء ليست فيها علة ممـا ذكرنا »[٥] و « قال ناس : رأيت عِماداً – فأمالوا للإمالة »[٦] وأكثر سيبويه من كلمة «قالوا»[٧] يقصد بعض العرب ، و « كثير من العرب »[٨] و «نقل عن بعض الحجازيين»[٩] ولم يحدد مَنْ هذا البعض ، والقبائل الحجازية كثيرة ، ونظرة واحدة الى باب الامالة في مخطوطة السيرافي على سيبويه[١٠]، أو في كتاب سيبويه نفسه[١١] ، أو شرح ابن يعيش[١٢]، وتظهر كثرة غامرة من إهمال صيغ الامالة في هذه الكتب وغيرها ، كما يظهر منها أن المؤلفين كانوا يهتمون بالكم لا الكيف ، لأن هدفهم من هذا الجمع اللغوي هو خدمة القرآن والسنة ولم يكن – في عزو اللهجات ما يخدم تلك الناحية في نظرهم .

ب) ثانيتها :

وذلك فيما إذا أردنا أن ندرس تاريخ الامالة في مجموعة من الأشعار القديمة لنتعرف على مقدار الفتح والامالة وأنواعها – فتصدمنا حقيقة مرة ، وهي أن هذه الكتابات خالية من علامات الامالة الخطية ، وبذلك تضع ثروة كبيرة ، والسبب في ذلك أن هذه اللهجات وصلتنا مكتوبة لا منطوقة ، ولا شك « أن الخط الذي كتبت به المصاحف في القرن الأول الهجري كان خالياً

(١) الكتاب : ٢/٢٦٤ .
(٢) الكتاب : ٢/٢٦٥ .
(٣) شرح السيرافي على سيبويه : ٥/٣٤٨ – ٣٤٩ وسيبويه : ٢/٢٦٦ .
(٤) شرح السيرافي على سيبويه : ٥/٣٤٨ – ٣٤٩ ، وسيبويه : ٢/٢٦٦ .
(٥) الكتاب : ٢/٢٦٣ .
(٦) الكتاب : ٢/٢٦٢ .
(٧) الكتاب : ٢/٢٦١ ، والسيرافي : ٥/٣٣٦ .
(٨) شرح السيرافي : ٥/٣٣٦ .
(٩) الأشموني : ٤/٢٢٤ .
(١٠) ٥/٣٣٤ – ٣٦٤ خط بالتيمورية .
(١١) ٢/٢٦١ وما بعدها .
(١٢) ٩/٥٣ – ٦٠ .

من النقط والشكل وعلامات الامالة »[1] ثم هذا التاريخ الطويل لعلامات الامالة فقد كانت ترسم ياء في آخر الكلمة ، أو ألفاً تحت الحرف الممال ، أو نقطة حمراء ، أو كسرة كعلامة للإمالة ، أو هذه الإشارة (·ا) ، (إ) ، أو نقطة خالية الوسط كما في المصحف المصري (١٣٣٧ هـ) ، أو كتابة كلمة (مل) فوق الحرف الممال[2] — فهذا الاختلاف في رسم علامة الامالة — مما يزيد دراستها تعقيداً .

ثانياً : الادغام والاظهار بين القبائل العربية :

ظاهرة الإدغام ، هي ظاهرة التقريب عند ابن جني ، وفي ذلك يقول : « قد ثبت أن الإدغام المألوف المعتاد — إنما هو تقريب صوت من صوت »[3] ، ويطلق عليه المحدثون من علماء اللغات المماثلة Assimilation ، وفي هذه المماثلة أو التقريب كما يراه ابن جنى ، يحدث التشابه بين الأصوات من ناحية المخرج أو الصفة لأن التماثل أو التقارب لا بد أن يشتمل على جهتين : جهة المخرج ، وجهة الصفة والادغام لا يحدث إلا بهذا ، وكأن الادغام بهذا شبيه بالامالة — إذ الامالة تقريب الفتحة نحو الكسرة ، والألف نحو الياء ، وشبيه بالإبدال أيضاً ، لأن الابدال لا يحدث إلا إذا وجدت بين الحرفين البدل والمبدل منه علاقة صوتية — كما في الادغام ، وابن جني يذكر أمثلة للإدغام الأصغر — وهو عنده : « تقريب الحرف من الحرف وإدناؤه منه من غير إدغام يكون هناك »[4] منها :

أ) أن تقع السين قبل الحرف المستعلي فيقرب منه بقلبها صاداً... وذلك كقولهم في «سُقْت» — صقت ، وفي السوق — الصوق ، وفي سبقت — صبقت ، وفي سملق وسويق : صملق وصويق ، وفي سقر — صقر[5] .

ب) ومن التقريب قولهم « سِتّ » أصلها « سِدْس »[6] فقربوا السين من الدال بأن قلبوها تاء ، فصارت : سِدْت ، فهذا تقريب لغير إدغام ، ثم إنهم فيما بعد أبدلوا الدال تاء لقربها

---

(١) في الدراسات القرآنية واللغوية : ٢٨٣ دكتور عبد الفتاح شلبي .

(٢) انظر في هذا : في الدراسات القرآنية : ٢٨٣ : دكتور شلبي .

(٣) الخصائص : ١٣٩/٢ دار الكتب .

(٤) الخصائص : ١٤١/٢ دار الكتب .

(٥) الخصائص : ١٤٢/٢ - ١٤٣ دار الكتب ، سر الصناعة : ٢٠١/١ ، ٢٢٠ .

(٦) سر الصناعة : ٢٠٩/١ .

منها إرادة للإدغام الآن ، فقالوا : ِست[1] . فالتغيير الأول للتقريب من غير إدغام ، والتغيير الثاني مقصود به الادغام .

جـ) ومن التقريب ما جاء من قول العرب في المثل : « لَمْ يُحْرَمْ مَنْ فُزْدَله » أصله ُفصِدله ، ثم أسكنت العين فصار تقديره « فصْدله » فلما سكنت الصاد فضعفت به ، وجاورت الصاد وهي مهموسة – الدال وهي مجهورة – قربت منها بأن أشمت شيئاً من لفظ الزاي المقاربة للدال بالجهر[2] .

وجميع هذه الأمثلة يلاحظ فيها تقريب الصوت من الصوت ، وهي تشبه الادغام لأن الادغام فيه تقريب صوت من صوت .

أ) بأن يتفق الحرفان مخرجاً وصفة وذلك هو التماثل كقوله تعالى : « ما سلككم في سقر »[3] فالكاف حرف مماثل لمثله ، وكأن الادغام لتكرير الكافات ، فتدغم الحرفين المتماثلين في بعضها ، والغرض من هذا ، التخفيف ، لأن التكرير ثقيل فحاولوا تخفيفه بأن يدغموا أحدهما في الآخر ، « فيضعوا ألسنتهم على مخرج الحرف المكرر وضمة واحدة ويرفعوها بالحرفين رفعة واحدة ، لئلا ينطقوا بالحرف ثم يعودوا إليه »[4] كما أن الادغام في الآية الكريمة يوافق المعنى ، لأن السلك معناه الادخال والادغام ، وإدغام الحرفين يشاكل هذا ، وفي لغة النقوش اللحيانية ما يشبه هذا[5] .

ب) أو أن يتفق الحرفان مخرجاً ويختلفا صفة وذلك هو التجانس : كالدال في التاء ، والتاء في الطاء ، والثاء في الذال . فمثال إدغام الثاء في الذال إدغاماً صغيراً قوله تعالى : « فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا »[6] فلا فرق بين الثاء والذال في « يلهث ذّلك » إلا أن الأولى مهموسة ، والثانية نظيرها المجهور ، فمتى

---

(١) الخصائص : ٢/١٤٣ دار الكتب .

(٢) الخصائص : ١/٥٣٦ الهلال : ٢/١٤٤ دار الكتب .

(٣) المدثر : آية ٤٢ .

(٤) ابن يعيش : ١٠/١٢١ .

(٥) لغات النقوش العربية الشمالية : ص ١٠ للدكتور مراد كامل .

(٦) الأعراف : آية ١٧٦ .

جهر « بالثاء » أصبحت « ذالاً » ، فيحدث الادغام في صوتين متماثلين[1] . وقراءة الآية الكريمة بالادغام بين الثاء والذال — فيها اقتصاد للجهد العضلي ، إذ يكون عمل اللسان من وجه واحد ، أو كما يقول ابن يعيش « يصيران لشدة اتصالهما كحرف واحد يرتفع اللسان عنهما رفعة واحدة »[2] وغير ذلك فالقراءة على الادغام في الآية تحقق الانسجام الصوتي .

جـ) أو أن يتقارب الحرفان مخرجاً أو صفة : كالدال مع السين والشين ، وكاللام مع الراء . فمثال إدغام الدال في السين : قوله تعالى « في الأصفاد[3] سرابيلُهم من قَطِرَان » ويتم الادغام هنا بأن تفقد الدال جهرها ، ثم ينتقل مخرجها نحو الثنايا حتى تصبح مهموسة كالسين ، وهنا يتم الادغام الكبير . ونحو قوله تعالى : « قد سألها قوم من قبلكم »[4] وهنا لا بد من همس الدال والسماح للهواء معها بالمرور لتصبح رخوة ، وبذلك تماثل السين في الهمس والرخاوة ، والادغام هنا صغير ، لأنه لا فاصل من أصوات اللين بين الحرفين ، وملاك ظاهرة الادغام أنه إذا اجتمع صوتان أحدهما مجهور والآخر مهموس ، أثر أحدهما في الآخر بحيث يصبحان مجهورين ، أو مهموسين تحقيقاً للانسجام بين الأصوات ، وتوفيراً للجهد العضلي ، إذ يغني الصوت الأول في الثاني بحيث ينطق بالصوتين صوتاً واحداً فيكون عمل اللسان من وجه واحد . والآن نعرض بعض النصوص لنتعرف على مدى شيوع الظاهرة الادغامية في مواطن القبائل العربية :

١ — ذكر المبرد أن أبا رجاء العطاردي قرأ « فاتبعوني يَحِبُّكم الله » ويلاحظ على هذه القراءة أمران :

أولاً : أنه جاء به من « حَبَبْتُ » . ثانياً : أنه أدغم في موضع الجزم ، وهو مذهب تميم وقيس وأسد وجماعة من العرب[5] ، وعلى مذهب هؤلاء نقول « ردّ يا فتى » عض يا فتى بالادغام .

---

(١) الأصوات اللغوية : ١٢٩ ط ٢ .
(٢) ابن يعيش : ١٢١/١٠ .
(٣) سورة إبراهيم : آية ٤٩ ، ٥٠ .
(٤) المائدة : آية ١٠٢ .
(٥) الكامل المبرد : ١٩٩/١ ، ٢٠٩/٢ .

أما عند الحجازيين فيجرونه على القياس الأصلي فيقولون : اردُدْ واغضض . لكن لهجة عبد القيس تتخذ لها نمطاً مغايراً للحجازيين والتميميين – إذ أنها وإن كانت تدغم كالتميميين – إلا أنها تزيد همزة وصل في أول فعل الأمر – فهم يقولون : أَرُدّ ، أَغُضّ . « ولعل بني عبد القيس قد قاسوا فعل الأمر في المضعف على الأمر من الفعل الثلاثي الصحيح الذي يلتزم فيه البدء بهمزة الوصل »[١] ومما يؤكد ذلك ما جاء عن ابن خالويه حيث يقول : ليس في كلام العرب ألف وصل دخلت على متحرك إلا في حرف واحد ، وذلك لغة عبد القيس في قولهم : « اسِلْ زيداً »[٢] . والمعروف في الفصحى أن همزة الوصل لا تدخل إلا على ساكن ليتوصل بها الى النطق بالساكن . لكن عبد القيس اتخذت سمة لهجية مخالفة ، ويرجح الدكتور أنيس أن صيغة عبد القيس في الادغام « أُردّ » مردها الى القياس الخاطىء[٣] ، وليس ذلك ببعيد فالقياس الخاطىء لعب دوراً كبيراً في صيغ العربية وتراكيبها . ومما يجب الاشارة إليه : أن رواية عبد القيس السابقة في المضعف « أُردّ » ، وفي غيره مثل « اسل زيداً » جاءت عن الكسائي[٤] ، والفراء[٥] . وهذا يؤكد أن رواية الكوفيين عن العرب في اللهجات أشمل وأوسع ، يدل على ذلك قول صاحب التصريح بعد أن ذكر رواية الكسائي عن العرب في المضعف « ولم يحك ذلك أحد من البصريين »[٦] .

٢ – قرأ أُبيّ « وإن تَصْبروا وتتقوا لا يضرّكم كيدهم شيئاً »[٧] – يضرركم – بفك الادغام ، وهي لغة أهل الحجاز ، ولغة سائر العرب الادغام في هذا كله[٨] .

وفي قوله تعالى : « لا تُضَارَّ والدةٌ بولدها »[٩] قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وغيرهم لا تضارُّ – وباقي السبعة « لا تضارَّ » وروى عن ابن عباس « لا تضارِرْ » بفك الادغام وكسر

---

(١) في اللهجات العربية : ١٣٩ .

(٢) ليس في كلام العرب : ٦٨ ابن خالويه .

(٣) في اللهجات العربية : ١٣٩ .

(٤) التصريح : ٤٠١/٢ .

(٥) ليس في كلام العرب : ١٢ .

(٦) التصريح : ٤٠١/٢ .

(٧) آل عمران : آية ١٢٠ .

(٨) البحر : ٤٣/٣ .

(٩) البقرة : آية ٢٣٣ .

الراء الأولى وسكون الثانية[1] . وفي مصحف ابن مسعود « لا تضارَرْ » بفك الادغام وفتح الراء الأولى وسكون الثانية[2] . وعزا أبو حيان : الفك للحجاز ، والادغام لتميم[3] . وفي قوله تعالى « ولا يضار كاتب ولا شهيد »[4] نسب ابن جني في المحتسب الفـــك للحجاز ، والادغام لتميم[5] . وجاء ابن خالويه بالقراءات في الآية وأهمل عزو اللهجات فيها[6] .

٣ – وجاء في النهر الماد أن الفك لغة الحجاز[7] في قوله تعـــالى « وَلْـيَسْتَعْفِفِ الذين لا يجدون[8] نكاحاً » .

٤ – وجاءت قراءات عديدة بالفك – لغة الحجاز ، وبالادغام لغة تميم أقتبس منها ما يلي :

أ) قوله تعالى « واغضضْ من صوتك »[9] وأهل نجد على الادغام (كما يقول القدامى)[*] : قال جرير : (فغضّ الطرف إنك من نمير)[10] .

ب) وقرأ الجمهور : « فلا يَغْرُرْكَ تقلّبهم في البلاد »[11] بالفك على لغة الحجاز ، وقرأ زيد بن علي وعبيد بن عمير : فلا يغرّك – بالادغام مفتوح الراء – وهي لغة تميم[12] ، وكان القراء يحتجون للإدغام والإظهار في القراءات القرآنية – فابن خالويه يحتج لمن قرأ بالاظهار في قوله تعالى (ثم اتّخَذْتم) أنه أتى بالكلمة على أصلهـــا واغتنم الثواب على كل حرف

(١) البحر : ٢/٢١٤ – ٢١٥ .
(٢) مصحف ابن مسعود : Materials. For ... Suro. II .
(٣) البحر : ٢/٢١٥ ، ٣٥٤ .
(٤) البقرة : آية ٢٨٢ .
(٥) المحتسب : ١/١٧١ خط بالتيمورية .
(٦) مختصر شواذ القرآن : ١٤ .
(٧) النهر الماد من البحر : ٦/٤٥٠ .
(٨) سورة النور : آية ٣٣ .
(٩) سورة لقمان : آية ١٩ .
(*) والنظرية الحديثة لا تقول بالإدغام في مثل هذا .
(١٠) اللسان : ٩/٦١ ، والكامل : ١/١٩٩ .
(١١) سورة غافر : آية ٤ .
(١٢) البحر : ٧/٤٤٩ .

منها[1] ، وأرى أن الادغام في هذا أوجه وأولى ، لأن الذال مخرجها من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ، وكذلك التاء مخرجها من اللسان وأصول الثنايا العليا مصعداً الى جهة الحنك ، والذي حدث أن مخرج الذال قد انتقل الى الوراء قليلاً، فصادف نطق التاء ، وتم الادغام ، ففي الادغام اقتصاد في الجهد العضلي ؛ لأن اللسان فيه يعمل من وجه واحد إذ عمله في الحرفين واحد بخلاف الإظهار ، فإن اللسان فيه ينتقل متصعداً مرة متسفلاً مرة أخرى . وإنما مال ابن خالويه في تعليل ما سبق من الإظهار ، لأن رسم المصحف على الإظهار ، فهو يحتج برسم المصحف ، وابن خالويه حينئذ سلفيّ يتبع طريق أهل الأثر ، ألا ترى الى قوله : «واغتنم الثواب على كل حرف منها» فكأنه صاد عصفورين بحجر واحد : اتباعه رسم المصحف ، وطمعه في الثواب ، إذ أن قارىء القرآن له بكل حرف – عشر حسنات ، ولا شك أن الذي يظهر في قراءته يكون أكثر حروفاً من المدغم فيها .

جـ) « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرسول »[2] ، وقوله : « ذلك بأنّهم شَاقّوا اللهَ ورسولَه ، ومن يشاقِقِ الله ورسوله فإن الله شديد العقاب »[3] ، وقوله : « ذلك بأنهم شاقّوا الله ورسوله ، ومن يشاقّ الله »[4] . فالقرآن في تلك الآيات يراود بين الفك والادغام ، أو بين لغة الحجاز وتميم .

د) قرأ زيد بن علي : « لا تَقْصُصْ رؤياك »[5] لا تقصّ – مدغماً وهي لغة تميم ، وقرأ الجمهور : بالفك على لغة الحجاز[6] .

هـ) قرأ نافع وابن عامر : « من يرتدّ منكم عن دينه »[7] – من يرتدد – بدالين ، وهي لغة الحجاز ، والباقون بواحدة مشددة – وهي لغة تميم[8] . ويظهر والله أعلم – أن رسم

---

(١) الحجة لابن خالويه : ورقة ٨ مخطوط بدار الكتب .

(٢) سورة النساء : ١١٥ .

(٣) سورة الأنفال : ١٣ .

(٤) سورة الحشر : ٤ .

(٥) يوسف : آية ٥ .

(٦) البحر : ٥/٢٨٠ .

(٧) سورة المائدة : آية ٥٤ .

(٨) البحر : ٣/٥١١ .

المصاحف كانت تحمل آثاراً للإظهار والإدغام، فمصاحف مكة والعراق كانت تكتبها دالاً[1] واحدة، وأما المصاحف المدنية والشامية فكانت ترسم ذلك دالين[2].

وفي كتاب المصاحف: أن في إمام أهل الشام وأهل الحجاز «من يرتدد منكم عن دينه» وفي إمام أهل العراق (من يرتدّ)[3]. وربما كان السر في ذلك أن يتحمل رسم المصحف — اللهجات العربية على اختلافها، وإذا تقرر أن البيئة التميمية تؤثر الادغام، والحجازية تهدف الى فك الادغام تبين أن المرزوقي جانبه الصواب حيث استشهد بقول أبي كبير الهذلي:

حملتْ به في ليلة مزؤودة ... كَرْهاً وعَقْدُ نطاقها لم يُحْلَلِ

حيث علق على البيت السابق فقال: «وأظهر التضعيف في قوله: «لم يحلل» وهو لغة تميم»[4].

فإظهار التضعيف هو في لغة الحجاز لا لغة تميم كما قال المرزوقي، والخطأ الذي تردى فيه المرزوقي — وقع فيه التبريزي[5] حيث نقل في شرح حماسة أبي تمام — مثل ما سبق أن قرره المرزوقي، والفكرة في عرض تلك النصوص القرآنية — هو أن القرآن كان يراود بين اللهجتين الحجازية والتميمية في الاظهار — والادغام حتى يكون الكتاب الكريم صفحة لغوية تجد فيه كل قبيلة من ألفاظها الخاصة بها، فتبرز تلك اللغة الموحدة الرسمية التي نجدها في القرآن — وهي للعرب جميعاً. وهاك نصوصاً في الفك والادغام من غير القرآن الكريم:

١ — ذكرت المعاجم أن: «الوتد» بكسر التاء لغة الحجاز — وهي الفصحى، بينا أهل نجد يقولون فيها: «وَدّ»[6] وجاءت رواية أخرى مثلها في كتاب الجمل[7]. وشرح

---

(١) إرشاد المريد على إبراز المعاني: ٢٥٧.

(٢) إبراز المعاني: ٢٩٧.

(٣) كتاب المصاحف: ٥٤ للسجستاني.

(٤) شرح الحماسة للمرزوقي: ٨٨/١.

(٥) شرح الحماسة التبريزي: ٨٦/١.

(٦) المصباح: ١٠٠١/٢.

(٧) الجمل: للزجاجي: ٣٨٠.

الشافية[١] ، وابن يعيش[٢] ، ومخطوطة السيرافي على سيبويه[٣] ، بدون عزو للصيغتين ، والجمهرة[٤] ، واللسان[٥] .

وقد وردت رواية مختلفة العزو عن السابقة إذ عزت صيغة (الودّ) لأبي النجم وفيها يقول :

سُبّي الحماةَ وابْهتي عليها ... فإن أتت فازدلفي إليها
ثم اقرعي بالوَدّ مرفقيها ... وركبتيها واقرعي كعْبيها[٦]

وباستشارة كتب الطبقات نجد أن أبا النجم – هو الفضل بن قدامة من عجل ، وهو بطن من بكر بن وائل[٧] ، وكان هذا الشاعر ينزل بسواد الكوفة في موضع يقال له الفِرْك[٨] . وهذا يؤكد أن الادغام كان يسيطر على مناطق شاسعة من شرق الجزيرة حتى امتد الى مشارف الكوفة وتفسير تلك الظاهرة أن تميماً أسكنت التاء ، كما أسكنوا في فخذ وعضد ثم أدغموا ، ولم يجز أن يقولوا : وتد – بسكون التاء مظهرة – لكثرة استعمال هذه اللفظة ودورانها عند العرب ، فعلل ابن جنى لتسكين حرف التاء بقوله : (ألا ترى أنك انما أسكنته لتخلطه بالثاني ، وتجذبه الى مضامّته ومماسة لفظه بلفظه بزوال الحركة التي كانت حاجزة بينه وبينه)[٩] ، ولكن هذا الادغام في (ودّ) غير مطرد لأنه ربما التبس بالمضاعف، ولهذا تردد في كتب العربية مدح الصيغة الحجازية وهي (وتد)[١٠] فيقول عنها سيبويه « بأنها الحجازية الجيدة »[١١] ويقول عنها المصباح « هي الفصحى »[١٢] .

---

(١) شرح الشافية : ٢٦٨/٣ .

(٢) شرح ابن يعيش : ١٥٢/١٠ .

(٣) السيرافي : ٥٣٧/٦ مخطوط .

(٤) ابن دريد : ٧٧/١ .

(٥) ٧٠/٤ .

(٦) الشعر والشعراء : ٥٨٩/٢ شاكر .

(٧) نهاية الأرب للقلقشندي : ٣٥٠ ، معجم كحالة : ٧٥٧/٢ .

(٨) الشعر والشعراء : ٢٣٢ تحقيق السقا .

(٩) الخصائص : ٥٣٢/١ ط الهلال ، ١٤٠/٢ دار الكتب .

(١٠) الجمل للزجاجي : ٣٨٠ والمصباح : ١٠٠١/٢ .

(١١) الكتاب : ٤٢٩/٢ .

(١٢) ١٠٠١/٢ .

٢ – لام « هل » ولام « بل »

تعرضت كتب القراءات والعربية للحديث عن إدغام لام « هل » ولام « بل » في حروف الهجاء، ولا يعنينا كثيراً هذا الحديث – إلا بقدر ما نستهدي منه الى لهجات القبائل وإبرازها. فإدغام هذه اللام فيما بعدها جرى على منازل ومراتب، وبعضها منها أقوى من بعض في الادغام.

أ) إدغام لام « هل وبل » في الراء :

ذكر سيبويه في كتابه : أن إدغام اللام في الراء أحسن[1]. وعلل ذلك بقوله : لأن الراء أقرب الحروف الى اللام، وأشبهها بها فضارعتا الحرفين اللذين يكونان من مخرج واحد[2]. فالراء كاللام في أن كلا منهما من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة، وأن كلا منهما مجهور، ويظهر أن أكثر القبائل مالت لإدغام اللام في حروف : التاء – والثاء – والراء – والزاي – والسين – والضاد – والطاء – والظاء – والنون. وإنما مالت اللام الى فنائها وذوبانها فيما بعدها، لأن اللام أكثر الأصوات الساكنة شيوعاً في العربية، لأن نسبة شيوعها حسب إحصائية ذكرها الدكتور أنيس – للقرآن الكريم ١٢٧ مرة في كل ألف من الأصوات الساكنة، بينما حرف كالزاي والطاء ٤ مرات في كل ألف، ولا شك أن الصوت الذي يكثر استعماله وتداوله يكون أكثر تطوراً من غيره، وقد نادى بهذه النظرية Vilhelm Thomsen[3]. وإنني ألمح هذه النظرية فيما يراه أحد علماء العربية وهو الفراء حيث رأى : أن الكلمة قد تحذف بعض حروفها في الرسم، ونسب الفراء هذا الحذف الى كثرة استعمال الكلمة وتداولها، فهو يعلل لحذف الألف من (بسم الله الرحمن الرحيم) وعدم حذفها من (باسم ربك) : لأنها لا تلزم هذا الاسم، ولا تكثر معه ككثرتها مع الله تبارك وتعالى، ثم يوضح رأيه معللاً فيقول « ألا ترى أنك تقول (بسم الله) عند ابتداء كل فعل تأخذ فيه » (معاني القرآن للفراء ١/٢ دار الكتب).

ومما سبق يظهر أن إدغام اللام في الراء أحسن من الاظهار، لما سبق بيانه، وأما أهل الحجاز فيميلون الى الاظهار، وقد نقل ابن يعيش عن سيبويه قوله « فإن لم تدغم (اللام في الراء) جاز، وهي لغة لأهل الحجاز، عربية جيدة »[4]، وسيبويه كثيراً ما يفضل لهجة

(١) الكتاب : ٤١٦/٢ .

(٢) ابن يعيش : ١٤١/١٠ .

(٣) الأصوات اللغوية : ١٧٢ ط ٢ .

(٤) ابن يعيش : ١٤١/١٠ .

الحجازيين على لهجة غيرهم ، فمع أن الادغام هنا أحسن من الاظهار إلا أن سيبويه يسم لهجة الاظهار بأنها « عربية جيدة » .

أما الزمخشري : فقد وصف الادغام بأنه « حسن »[١] وإذا اتجهنا الى كتاب الله نلتمس فيه سمات تلك الظاهرة نجد أن حفصاً سكت على لام (بل) سكتةً لطيفة بلا تنفس وصلا ، ويبتدىء (ران) في قوله تعالى « كلا بل ران »[٢] وكأن قراءة حفص جاءت على لغة أهل الحجاز في الاظهار .

ب) إدغام لام (هل وبل) في التاء .

والادغام جائز ، لأن العلاقة واضحة بين اللام والتاء ، لأن آخر مخرج اللام قريب من مخرجها ، وقد جاء على قراءة الادغام قوله تعالى « بَلْ تُؤْثِرون الحياةَ الدنيا » فقد قرأ حمزة والكسائي: «بتّؤثرون» بالادغام[٣] . وقوله تعالى: « قل يا أهل الكتاب هَلْ تَنْقِمون منا إلا أن آمنا بالله »[٤] فقد قرىء : « هتّنقمون منّا » ، وقوله تعالى : « هَلْ تَعْلَمُ له سَمِيًا »[٥] فقد قرىء : « هَتّعلم » والذين ترددت أسماؤهم في هذا الادغام الكسائي، وحمزة[٦] ، والقارئان كوفيان ، والكوفة متأثرة بالقبائل التي سكنت شرق الجزيرة العربية كما يقولون كتميم وأسد ، ثم إن الكسائي كان مولى لبني أسد ، تلك القبيلة التي آثرت الادغام . وقد ورد الادغام فيما أنشده سيبويه :

فذر ذا ولكن هتّعينُ مُتَيّماً على ضوء برقٍ آخر الليل ناصب[٧]

فأصل الكلمة على الاظهار (هَلْ تعين) ولكن هذا الشاعر نطقها بالادغام ، وهذا البيت كما يقول سيبويه والأعلم لمزاحم العقيلي[٨] ، فهو من بني عقيل ، وبنو عقيل من القبائل البدوية

---

(١) ابن يعيش : ١٠/١٤٠ .
(٢) سورة المطففين : آية ١٤ .
(٣) ابن يعيش : ١٠/١٤٢ .
(٤) سورة المائدة : ٥٩ .
(٥) سورة مريم : ٦٥ .
(٦) الإتحاف : ٢٨ .
(٧) ابن يعيش : ١٠/١٤١ .
(٨) كتاب سيبويه : ٢/٤١٧ .

الضاربة في صحراء نجـــد والتي كانت على صلة قوية بالقبائل المدغمة كتميم وأسد والتي تؤثر الادغام ، لهذا لا نعجب إذا روى البيت على الادغام من قبيلة بدوية كعقيل .

جـ) إدغام لام (هل وبل) في الشين :

وإدغام اللام من هل وبل – في الشين أضعف ، والعلة في ذلك مـــا بين الحرفين من بعد ، ولكن جاز الادغام فيهما لاتصال مخرجها بطرف اللسان . وقد حدث هذا الادغام فيما أنشده سيبويه :

تقول إذا أهلكت مالاً للذّة ... فُكيهة هَشّيء بكفيك لائق[1]

في هل شيء .

وقد عزا سيبويه والأعلم : البيت السابق الى طريف بن تميم العنبري[2] ، وقبيلة بلعنبر – من قبائل عمرو بن تميم[3] ، وإذا كان الادغام قد شاع في تميم فلا عجب إذا وجد في بلعنبر – وهي إحدى فروع تميم .

٣ – نقل السيوطي عن سر الصناعة : « أن المتماثلين يخفان بالادغام ، ولذلك لما أرادت بنو تميم إسكان عين « معْهم » كرهوا ذلك ، فأبدلوا الحرفين حاءين »[4] وجـــاء مثل هذا في ابن يعيش[5] ، وفي مخطوطة السيرافي على سيبويه[6] ، وشرح الرضي[7] . ودراسة هذا النص ترينا صعوبة قلب الحرف الأول وهو العين الى الثاني وهو الهاء مثل « مَهُّم » وكذلك قلب الثاني وهو الهاء الى الأول وهو العين « مَعّم » وكذلك ثقل وجود العين مع الهاء ، « لأن كل واحدة منهما مستثقلة لنزولها في الحلق فكيف بهما مجتمعين مع تنافرهما »[8] ؟ إذ العين مجهورة والهاء مهموسة .

---

(١) الكتاب : ٤١٧/٢ .

(٢) ابن يعيش : ١٤٢/١٠ ، الكتاب : ٤١٧/٢ .

(٣) نسب عدنان وقحطان : ٧ .

(٤) المزهر : ١٩٤/١ .

(٥) ابن يعيش : ١٣٧/١٠ .

(٦) ٤١٣/٢ خط بالتيمورية .

(٧) الشافية : ٢٦٦/٣ .

(٨) الشافية : ٢٦٦/٣ .

والحق أن حروف الحلق أقل الحروف تآلفاً في الكلام ، وذلك لصلابة عضلة الحلق إذا قيست بمرونة عضلة اللسان والشفتين ، فليست عضلة الحلق من المرونة بحيث تسمح باجتماع حروفه في كلمة[1] . وعلل السيرافي لهذا بقوله : « لأن التقاء حروف الحلق مستثقل »[2] فبين الهاء والعين خلاف في الهمس والرخاوة والشدة والجهر مما جعلهم يطلبون حرفاً متوسطاً بينهما وهو الحاء ، فقلبت العين حاء فصار : محْهم[3] ، وهذا تأثر رجعي شاع في اللهجات العربية[4] ، ثم حدث تطور آخر ، إذ تأثرت الهاء بالحاء تأثراً كاملاً حتى فنيت فيها فصارت « مَحُّم » وهذا تأثر تقدمي نادر الحدوث في العربية . ولذا نسب سيبويه « مَحّم — في مَعَهم ، ومحّاؤلاء — في مع هؤلاء الى تميم »[5] وعلى ذلك قرىء قوله تعالى « ألم أحَّد إليكم يا بني آدم »[6] في أعهد ، وعزيت الصيغة أحّد — لتميم ومثل تلك القراءة قولهم « دحّا محّا »[7] أي دعها معها .

٤ — ومن وجود الادغام في البيئة التميمية ما جاء عن الفراء من أنهم كانوا يقولون : في « عبد شمس التميمية (عَبَشَّمْس)[8] وكأنهم ألقوا حركة الدال على البـاء وأدغموا الدال في الشين ، وكان غيرهم يقول : « عبد شمس » من غير إدغام . ولهذا قال محمد بن حبيب : « كل شيء في العرب عبد شمس إلا (عبشّمس) ابن سعد بن زيد بن مناة بن تميم[9] . وعلى هذا فيكون القلقشندي قد أخطأ ، لأنه كتبها « عبد شمس بن سعد » بدون إدغام[10] ، وكذلك صاحب معجم قبائل العرب حيث سار على نهجه[11] . وهذا إن دل فإنما يدل على أن كتابتنا العربية لا تصور اللهجات تصويراً دقيقاً .

---

(١) الخليل الفراهيدي : ١٢٨ المخزومي .

(٢) شرح السيرافي : ٥٠٨/٦ مخطوط .

(٣) السيرافي على سيبويه : ٤١٣/٢ خط .

(٤) في اللهجات العربية : ١٢١ .

(٥) شرح السيرافي : ٥٠٧/٦ خط .

(٦) سورة يس : ٦٠ .

(٧) الكشاف : ١٨/٤ .

(٨) السيرافي على سيبويه : ٦٢٧/٦ خط في تيمور .

(٩) السيرافي على سيبويه : ٦٢٧/٦ خط في تيمور .

(١٠) نهاية الأرب : ٧٢٤/٢ .

(١١) معجم قبائل العرب : ٧٢٤/٢ كحالة .

٥ – صيغة « الافتعال » ودرجات تقريب الأصوات فيها بين القبائل العربية :

يلاحظ على تاء الافتعال أنها تتأثر بالأصوات المجاورة لهـا ، والهدف من عملية التأثير هو تيسير عملية النطق ، وقد يكون هذا التيسير بين الحرفين في صفتي الجهر والهمس ، أو بين الشدة والرخاوة ، وقد يبلغ التأثير درجة كبيرة في ذلك الصوت ، فيصيبه الضعف والوهن ثم لا يلبث أن يموت ويفنى ، شأنه شأن عالم الأحياء ، وهذه العملية لا تتم إلا وفق شروط خاصة ، كما أن درجة هذا التأثير تختلف باختلاف القبائل العربية ، ونعرض الآن دراسة لهذه الصيغة ، ومدى تباين اللهجات العربية فيها :

أ) جاء في معاني القرآن للفراء : « وسمعت بعض بني أسد يقول : قد اتّغر ، وهذه اللغة كثيرة فيهم خاصة ، وغيرهم : قد اثّغر « بالثاء »[1] ولتفسير كلام الفراء نرى أن الفعل أصله : افتعل : اثْتغر ، فاجتمع صوتان متجاوران مهموسان وهما الثاء والتاء ، والثاء صوت رخو ، ونظيره الشديد هو التاء ، وانتقال اللسان من مخرج الثاء الى مخرج التاء فيه جهد ، لأنه جمع بين عمليتين متناقضتين ، لأن النطق بالثاء يقتضي الصغير وبالتاء يقتضي الانفجار ، ووضع اللسان تختلف مع كلا الصوتين ، لهذا انتقل مخرج الثاء الى التاء حتى انحبس بالتقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا وهو مخرج التاء ، فأصبحت الثاء شديدة بعد أن كانت رخوة ، وبذلك اتحد الصوتان في الشدة والمخرج والهمس – وتماثل الصوتان كل المماثلة فتم الادغام – وأصبحت « اتّغر » بالتاء وهي لهجة أسد ، وقبيلة أسد من القبائل التي سكنت نجدا فهي بدوية ، ولهذا آثرت صوت التاء الشديد ، أما من قال في تلك الصيغة : اثّغر – بالثاء فأرجح أنها قبيلة حضرية ، والقبائل الحضرية تميل الى الأصوات الرخوة ، ولا شك أن صيغة (اتّغر) بالتاء أسهل ، لأن فيها اقتصاداً في المجهود العضلي ، إذ اللسان قد يسهل عليه أن يرتطم بالحنك والالتقاء به التقاء محكماً – وهو ما يكون مع التاء – من أن تقف حركته عند مسافة قصيرة من الحنك – كما يحدث مع الثاء ، وعلى مثل هذا يمكن أن نفهم الروايات المتخالفة التي وردت في قول لبيد :

والنّيب إن تَعر مني رِمّة خَلَقا بعد الممات فإني كنتُ أتّئِر[2]

وقد ورد في رواية أخرى « أثّئِرُ » وكتب الطبقات تخبر أن لبيداً هذا من بني عامر من قيس[3] ، وهم مدغمون .

---

(١) معاني القرآن : للفراء : ٢١٥/١ ط دار الكتب .
(٢) سر الصناعة : ١٩٠/١ .
(٣) الشعر والشعراء : ٨٨ ت السقا .

ب) ما رواه الفراء « من أنه سمع بعض بني عقيل يقول : عليك بأبوال الظباء فاصّعطها ، فإنها شفاء للطحل » [1] .

ولشرح هذه الظاهرة نقول : أصل الصيغة « افتعل » ، « اصتعط » وقد اجتمع في تلك الصيغة صوتان مهموسان : الصاد والتاء ، غير أن أحدهما مطبق والآخر مستفل فقلبت التاء الى نظيرها المطبق وهو الطاء ، فصارت الكلمة « اصطعط » ثم زاد تأثر الطاء بالصاد فصارت « اصّعط » ولهجة عقيل فيها تيسير للمجهود العضلي ، لأن عمل اللسان فيها من وجه واحد ، وعقيل من قيس — وهي ضاربة في البداوة والبدو حريصون على أن تتأثر الأصوات المتجاورة وتتفاعل حتى لا ينتقل اللسان من علو الى استفال أو عكسه ولا شك أن هذا التفاعل أدى أخيراً الى خلق صيغة أيسر ، وذلك ما تهدف إليه القبائل البدوية ، وخير من يمثلها عقيل .

جـ) كما تقلب تاء الافتعال أيضاً — إذا كانت مع الدال والذال والزاي — دالاً — فإذا أردنا أن نصوغ « افتعل » من ذكر — قلنا « اذتكر » فالذال مجهورة والتاء مهموسة فتأثرت التاء بالذال ، وانقلبت الى صوت مجهور يماثلها وهو الدال فأصبحت « اذدكر » وهذا تأثر تقدمي ، لأن الثاني تأثر بالأول ، وحدث أن أصابها تطور آخر فصارت (اذّكر) ففني الصوت الثاني في الأول ونطق بهما صوتاً واحداً كالأول ، وهذا تأثر تقدمي أيضاً [2] ، وتلك لهجة أسد كما رواها الفراء حيث يقول : « وبعض بني أسد يقول : « مذّكر » [3] ، وقد مالت بعض اللهجات الى أن فني الصوت الأول في الثاني فصارت « ادّكر » بالدال وهذا هو القياس في الإدغام إذ يقلب الأول الى الثاني . لا العكس ، ومن أجل هذا قال عنه ابن جني : « وهو الوجه » [4] وهو تأثر رجعي . أما ما جاء عن قبيلة ربيعة من قولها : « الدّكر » بالدال في « الذّكر » بالذال فهم قد توهموا أنه من « ادّكره » وهو ليس منه ، لأن « الذكر » لعبة يلعب بها الزنج والحبش ، وكأنهم ألفوا فيها هذا القلب لما رأوه في ادّكر واذّكر ، ويمكن أن يكون هذا تعليلاً لقول سيبويه معلقاً على لهجة ربيعة السابقة : وهو غلط حملهم عليه ادّكر » [5] ، ومما يؤيد ما أميل إليه من أن الكلمة عند ربيعة لم

---

(١) معاني القرآن : للفراء : ٢١٦/١ دار الكتب .

(٢) الأصوات اللغوية : ١١٥ ط ٢ .

(٣) اللسان : ٣٧٦/٥ .

(٤) المنصف : ٣٣١/٢ .

(٥) اللسان : ٣٧٦/٥ .

يحدث فيها إدغام قول الليث : « الدّكر » ليس من كلام العرب ، وربيعة تغلط في الذّكر بالذال ، فتقول : دِكر « بالدال »[1] ولعل ربيعة ورثت هذا الخلط بين الدال والذال نتيجة اتصالها بالقبائل المخالطة للسريانيين والآراميين إذ كان يكثر عندهم الخلط بين الدال والذال[2] .

ولقد كان القرآن الكريم صدى لهذه الظاهرة ، فقد جاء فيه « وادّكر بعد أمة »[3] قرأ الحسن : واذّكر — بالذال[4] . كما نلمح صداه أيضاً في مماثل لهذه الظاهرة في قوله تعالى : « وما تدّخرون في بيوتكم »[5] وأصلها « يذتخر » فلما اجتمعت الذال والتاء وهما متقاربتا المخرج ثقل إظهارهما على اللسان ، فأدغمت إحداهما في الأخرى وصيرتا دالاً مشددة ، (ومن العرب من يغلب الذال على التاء ، فيدغم التاء في الذال فتصبح « تذّخرون »)[6] ، ولكن الطبري أيد قراءة الدال بدليل قوله « لا يجوز القراءة بغيرها لتظاهر النقل من القراءة بها » ثم ظهر إيثاره لها بقوله مرة أخرى « وهي اللغة الجودى »[7] مع أن الفراء في معاني القرآن قرأ بها[8] — وهذا ان دل فإنما يدل على أن الطبري كان سلفياً ، يعتمد على الرواية والنقل ، والإجماع .

د) كما حدث تأثير آخر من نوع آخر في صيغة الافتعال السابقة ، وذلك فيما إذا كانت فاء الافتعال السابقة واواً أو ياء أصلية — فقد حدث تطور في الصيغة فبعض القبائل العربية آثرت قلب الواو أو الياء — تاء — في جميع فروع الصيغة كاسم الفاعل والمفعول — ثم تدغم تلك التاء في تاء الافتعال مثال ذلك في الواو : اتّصال ، اتّصل ، يتّصل ، متّصل به ، ومثاله في الياء :

اتسار ، واتسر ، ويتّسر ، ومتّسر ، وأصل الصيغ الواوية :

---

(١) اللسان : ٣٧٦/٥ .

(٢) الفلسفة اللغوية : ص ٦١ تحقيق د. مراد كامل .

(٣) سورة يوسف : آية ٤٥ .

(٤) إتحاف فضلاء البشر : ٢٦٥ .

(٥) آل عمران : آية ٤٩ .

(٦) تفسير الطبري : ٤٣٦/٦ - ٣٧ تحقيق شاكر .

(٧) تفسير الطبري : ٤٣٦/٦ - ٤٣٧ تحقيق شاكر .

(٨) معاني القرآن : ٢١٥/١ .

أو تصال ، واو تصل ، وموتصل، كما أن أصل الصيغ اليائية : إيتسار، وإيتسر، وميتسر، فقلبت الواو والياء تاء وادغمتا في تاء الافتعال .

وقد وصف صاحب التصريح هذه اللغة بأنها اللغة [1] الفصحى ، وكذلك نقل صاحب الجاسوس [2] عن الأشموني مثل هذا ، وقد وصفها ابن جنى في سر الصناعة بأنها : « الأكثر والأقيس ، وهي لغة الحجاز » [3] .

ولا أوافق ابن جني في أنها لغة الحجاز ، كما أن قول صاحب التصريح والأشموني بأنها هي اللغة الفصحى ، لا يعني بأنها لغة الحجاز ، لأن اللغة الفصحى شيء ، ولهجة الحجاز شيء آخر ، ويظهر أن القدامى من علماء اللغة كانوا يسمون لغة الحجاز بأنها الفصحى ، ولا أرى ذلك إلا عصبية منهم ، ولقد عثرت على شواهد لهذه اللهجة لشعراء ليسوا من شعراء الحجاز فمن ذلك :

١ ـ ما عزاه صاحب التصريح الى الأعشى :

فإنْ تَتَّعِدْني أتَّعدك بمثلها   وسوف أزيد الباقيات القوارضا

٢ ـ كما أنه عزى الى طرفة :

(فإن القوافي يَتَّلِجْن مواجاً) [4]

وإذا استشرنا كتب الطبقات عن هؤلاء الشعراء ـ أشار القلقشندي بأن الإعشى هو ميمون ابن قيس ينتهي نسبه الى بكر بن وائل [5] ، وأشار الزوزني الى أن طرفة بن العبد من ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل [6] . وأرى أن هذا لا يمكن أن يكون لضرورة الشعر ، لأن البيت لا يتأثر وزناً إذا قال : توتعدني أو تعدك ، كما أن بيت طرفة لا يتأثر وزناً لو قال : يوتلجن . فالوزن الشعري مستقيم على كلتا اللهجتين .

٣ ـ قيل للأحنف بن قيس : أي المجالس أطيب فقال : ما سافر فيه البصر ، واتّدع فيه

(١) التصريح : ٣٩١/٢ .

(٢) انظر : الجاسوس : ٥٣٥ .

(٣) سر الصناعة : ١٦٥/١ ط إدارة إحياء التراث .

(٤) التصريح : ٣٩٠/٢ - ٣٩١ .

(٥) نهاية الأرب : ٣١٩ .

(٦) شرح المعلقات : ٤٣ ـ للزوزني ط ٣ الحلبي .

البدن [1] والأحنف هذا ابن قيس أحد بني مرة بن عبيد بن الحرث بن كعب بن سعد من تميم [2] ، وهذه الأدلة الحاسمة تقطع بأن تلك اللهجة لم تكن لهجة الحجاز، بل لهجة شرق الجزيرة العربية التي تجنح للادغام ، وتأثر الأصوات ، بدليل تحقيق نسب : الأحنف التميمي ، والشاعرين البكريين . وهؤلاء جميعاً كانوا يسكنون شرق الجزيرة العربية ، ويظهر أن لهجة الحجاز كانت لا تبدل الواو والياء — تاء ، بل كان لهم مذهب آخر — إذ كانوا يبدلونها من جنس حركة ما قبلها فيقولون في الأمثلة السابقة : ياتصل ، موتصل ، ايتسر ، موتسر ، وايتعاداً ، وايتساراً . ومما يؤيد أن هذه الأخيرة لهجة الحجاز — أنها كانت ترد بكثرة في أسلوب الشافعي (رضي الله عنه) فقد ورد في « باب العلل في الأحاديث » قوله « وأخرى موتفقة ، وأخرى مختلفة : ناسخة ومنسوخة ... » [3] وقوله في باب البيان الثالث « وتختلف سننه وتاتفق » [4] وقوله في باب « الحجة في تثبيت خبر الواحد » ، « ولا نستطيع أن نزعم أن الحجة تثبت به ثبوتها بالموتصل » [5] وقوله في (باب القياس) « ايتَفَقَ المقايسون في أكثره ... » [6] .

فجميع هذه الأساليب للشافعي مستقاة من رسالته — أبدلت فيه فاء الافتعال حرفاً ليناً من جنس الحركة قبلها، ويمكن أن نوثق هذه الأساليب على أنها لهجة الحجاز داخلياً وخارجياً — فالتوثيق الداخلي أن الشافعي أملى هذا الكتاب الذي به هذه الأساليب املاء على الربيع تلميذه [7] ، فهي أساليب الشافعي نفسه ، والتوثيق الخارجي يثبت أن الشافعي قرشي حجازي، فالشافعي إذاً عندما يملي أو يتحدث فإنما يتحدث بلغته لغة أهل الحجاز .

ومما يؤسف له أن الذين حققوا رسالة الشافعي هذه ، قد حرفوا في الظواهر اللهجية التي أشرت إليها على أنها لهجة الشافعي — وحملوها على اللغة الفصحى ، فقالوا : « متّفق » ، « وتَتّفق » و « بالمتّصل » و « اتّفق » .

---

(١) الكامل للمبرد : ١٠٢/١ .
(٢) نهاية الأرب : للقلقشندي : ٢٨٦ ، الكامل : ١٠٢/١ .
(٣) الرسالة : ٢١١ للشافعي .
(٤) الرسالة : ٣١ للشافعي .
(٥) الرسالة : ٤٦٤ للشافعي .
(٦) الرسالة : ٤٧٩ ، للشافعي .
(٧) الرسالة : ١٢ ، ١٨ . للشافعي .

وجميع هذه التحريفات مخالفة لأصل الكتاب المخطوط [1] ، وهـــذا يشير الى أن السمات اللهجية كثيراً ما تهدر بيد المصححين والمحققين – حيث يحملونها ويغيرونها مسايرة للفصحى ، وبذلك يقع كثير من ضياع ظواهر اللهجات العربية على أيديهم ، فإذا ما روى الكسائي عن العرب « الطريق ياتَـسق وياتسع » [2] أي : يتّسق ويتّسع – فالمعنيّ بتلـــك الرواية عن الكسائي – لهجة الحجاز دون غيرها ، كما تقدم ، ولقول السيرافي « وبعض العرب من أهـــل الحجاز يلزم في افتعل الأصل ولا يقلب الواو تاء » [3] وعلل الشدياق للهجة الفصحى التي أبدلت فيها الواو والياء – تاء بقوله « لأنهم لو أقروها لتلاعبت بها حركات ما قبلها فكانت تكون بعد الكسرة ياء ، وبعد الفتحة ألفاً وبعد الضمة واواً ، فلما رأوا مصيرها الى تغيرها لتغير أحوال ما قبلها – أبدلوا منها حرفاً يلزم وجهاً واحداً – وهو التاء » [4] ، كما علل ابن جني لإيثار التاء بقوله : « وكانت التاء قريبة المخرج من الواو ، لأنها من أصول الثنايا ، والواو من الشفة ، ... وقد فعلوا هذا أيضاً في الياء وأجروها مجرى الواو فقالوا في افتعل من اليُبس واليُسر : اتّبس واتّسر » [5] وهذه اللهجة الفصحى ، والتي جاء عليها شعر الشعراء وحدث فيها تأثر رجعي وهو الشائع في العربية :

٦ – وكما اختلفت القبائل العربية في درجات التقريب بين الأصوات في صيغة الافتعال اختلفوا كذلك في حركة آخر الفعل الأمر المضعف ، ومضارعه المجزوم – إذا لم يتصل بها شيء :

أ) الفتح مطلقاً مثل : مُدَّ وعَضَّ وعِزَّ ، وقد عزا الأشموني تلك اللغة الى بني أسد وناس غيرهم [6] ، وقد أهمل رضي الدين [7] عزوها ، وكذلك صاحب الهمع [8] .

---

(١) انظر : الرسالة : ٤٧٩ ، وتعليق رقم ٥ للمرحوم أحمد شاكر .

(٢) سر الصناعة : ١٦٥/١ .

(٣) شرح السيرافي على سيبويه : ٥٥٦/٥ – ٥٥٧ خط بالتيمورية .

(٤) الجاسوس على القاموس : ٥٣٥ .

(٥) سر الصناعة : ١٦٤/١ .

(٦) الأشموني : ٣٥٣/٤ .

(٧) الشافية : ٢٤٣/٢ .

(٨) ٢٢٧/٢ .

ب) **والكسر مطلقاً – وهم كعب وغني** [1] ، وعزيت في الأشموني الى كعب ونمير [2] ومثل الأشموني عزاها صاحب الدرر اللوامع [3] . بينما عزاها السيرافي الى كعب وغني [4] . وفي التصريح الى كعب ونمير [5] .

جـ) الاتباع لحركة الفاء ، وهذا أكثر في كلامهم مثل : مُدُّ ، عَضَّ ، عِزِّ .

ويمكن أن يعلل الفتح الذي جاء على لغة أسد – بأنه جاء للتخفيف ، ويعلل الكسر الذي جاء لغة كعب وغني ، لأنه الأصل في التخلص من الساكنين ، أما الاتباع لحركة الفاء – فأرجح أن القبيلة التي نطقت به قبيلة تهدف الى انسجام الأصوات ، ولذا أميل الى أنها قبيلة تميم ، لأن الانسجام فيها أكثر مثل قولهم : بِعِير ، شِعير .

بقيت مسألة وهي مناقشة الخلاف في تحديد المؤثرين للكسر ، وباستشارة كتب الأنساب تهدينا بأن كعباً من عامر بن صعصعة من قيس [6] وأن نُمَيْراً كذلك من عامر بن صعصعة من قيس [7] ، وأن غنياً بطن من قيس [8] . ولهذا أرجح أن الظاهرة في تلك البطون الثلاثة ، لأنها يرجعان الى أصل واحد ، فمن عزاها الى كعب وغني ، فلأنه اكتفى بها عن أختها نمير ، ومن عزاها الى كعب ونمير – اكتفى بها عن أختها غني ، كما يلاحظ أن تلك الظاهرة تنحصر في قبائل الشرق من فتح أو كسر أو إتباع .

٧ – وكما اختلفت مذاهب العرب فيما تقدم ، اختلفت كذلك في حالة اتصال الفعل المضعف بالنون وتاء الضمير ، فاللغة الفصحى تفك الإدغام – كقولنا : رددْتُ ورددْنا وردَدْنَ وغيرها ، وهذا مذهب للعرب حجازيهم وتميمهم – وإنما وجب الفك للزوم سكون الثاني ، ولأن ما قبل الضمير البارز المرتفع لا يكون إلا ساكناً ، إلا أن بكر بن وائل – أو على

---

(١) الشافية : ٢/٢٢٧ .

(٢) ٤/٣٥٣ .

(٣) ٢/٢٤٠ .

(٤) شرح السيرافي على سيبويه : ٤/٦٨٢ خط بالتيمورية .

(٥) ٢/٤٠٢ .

(٦) نهاية الأرب : ٤٠٦ ، القلقشندي .

(٧) حاشية الصبان على الأشموني : ٤/٢٥٢ ، نهاية الأرب : ٤٣٣ القلقشندي .

(٨) تاريخ العرب : ٤/٣٢٠ جواد علي .

وجه الدقة أناساً من بكر بن وائل [1] ، يدغمون فيقولون « رُدْنَ » ويرُدْنَ ، ورُدْنَ في المضارع والماضي والأمر [2] فيحركون الثاني بالفتح للساكنين وكأنهم قدروا الإدغام قبـــل دخول النون والتاء فأبقوا اللفظ على حاله بعد دخولها ، ويرى الدكتور إبراهيم أنيس في لهجة بكر بن وائل – أن النبر فيها قد انتقل الى الأمام ، من المقطع « رَدْ » الى المقطع « دَ » [3] ولهجة بكر بن وائل هذه قد خلع عليها علماء اللغة عدة أوصاف أشهرها ما جاء عن الخليل من أنها لغة ضعيفة [4] ، وقال عنها اللسان بأنه تركيب قبيح في العربية [5] ، ورأى الشارح رضي الدين بأنه شاذ قليل [6] ، وعلق عليها صاحب التسهيل « بأنها لغية » [7] وأيّـاً ما كان من تلك الأوصاف القادحة – فهي تمثل بيئة لغوية ، وحقـــلا لهجياً – انعكست صفحته في المأثور من القرآن والسنة .

١ – أما الكتاب الكريم فقـــد قرأ ابن أبي عبلة والوليد بن مسلم والقورصي عن أبي جعفر والسمسار عن شيبة قوله عز وجل : « أفَعَيَّنا بالخلق الأول » [8] بتشديد اليـــاء من غير إشباع في الثانية – هكذا قال أبو القاسم الهذلي [9] . كما وردت رواية مثل السابقة عن ابن أبي عبلة – في شواذ القرآن لابن خالويه [10] . ولا توجيه لتلك القراءة إلا على إدغام الياء في الياء في الماضي: عيّ في عيي – فلما أدغم لحقه ضمير المتكلم من غير فك للإدغام . فتكون الصيغة « عيّنا » – وهذا شبيه بما تفعله بكر بن وائل في مثل هذا ، ولهذا عزيت في البحر المحيط إليها [11] .

---

(١) الشافية : ٢/٢٤٦ .

(٢) التصريح : ٢/٤٠٣ .

(٣) في اللهجات العربية : ١٣٩ ط ٢ .

(٤) التصريح : ٢/٤٠٣ ، الأشموني : ٤/٣٥١ – ٣٥٢ .

(٥) ٤/٢٢٠ .

(٦) شرح الشافية : ٣/٢٤٥ .

(٧) الصبان على الأشموني : ٤/٣٥١ – ٣٥٢ .

(٨) سورة ق : آية ١٥ .

(٩) البحر : ٨/١٢٣ .

(١٠) مختصر شواذ القرآن : ١٤٤ ابن خالويه .

(١١) البحر : ٨/١٢٣ .

٢ – وأما السنة فقد جاء فيها « قالوا يا رسول الله : كيف تعرض صلاتنا عليك وقد ارمّتَ »[١] وأحسن الآراء فيها أن أصلها : أرْمَمْتَ – أي (بليت) وقد صرت رميماً – فحذف إحدى الميمين ، كقولهم : ظَلْتُ – في ظَلِلت[٢] . والوجه في مَن نطق على هذا الوجه أنهم قدروا الإدغام قبل دخول التاء . وهذه اللغة في ناس من بكر بن وائل ، وقد جاء في حديث أحد ما يشبه هذا وفيه « حتى رأيت النساء يشتَدْنَ في الجبل »[٣] أي يعدون . وقد جاءت الرواية على اللغة الفصحى هكذا عن كتاب الحميدي ، وورد في كتاب البخاري رواية أخرى : يَشْتَدْنَ » بدال واحدة ، كما جاء في رواية أخرى : يُسنِدْنَ – بسين مهملة ونون[٤] – والمعنى : يصعّدن فيه . واللغة الفصحى في هذه الروايات هي يشتَدِدْنَ ، لأن ما قبل نون النساء لا يكون إلا ساكناً فيلتقي ساكنان ، فيحرك الأول ، وينفك الادغام ، وأما رواية البخاري فلا وجه لها إلا أن تحمل على لغة بكر بن وائل ، ووجهها كما قال الخليل : « أنهم قدروا الإدغام قبل دخول التاء والنون »[٥] والمقصود هنا نون النسوة .

ولا شك أن السنة تعكس كثيراً من جوانب اللهجات العربية القديمة ؛ لأن الرواة الذين رووها كثيراً ما يروون الأحاديث الشريفة فتظهر فيها آثار للهجاتهم هم ، كما في الأثرين السابقين . ويظهر أن لهجة بكر بن وائل لم تكن وحدها في هذا الطريق ، بل شاركتها قبائل أخرى ، ولكن على شكل آخر ، فبدلاً من أن تقول بكر بن وائل : رَدّتُ ، تصوغها تلك القبائل على هذا النمط أيضاً لكن بزيادة ألف بعد المدغم قبل الضمير ، جاء في شرح الشافية « وبعضهم يزيد ألفاً بعد الإدغام نحو : رَدّاتُ وردّانَ »[٦] وكأن هذه اللهجة تلتزم تسكين ما قبل هذه الضمائر – كما في الأفعال الصحيحة مثل ضربْت وكتبْت . ونقل الصبان مثل هذه اللهجة عن التسهيل بدون عزو كما في الشافية[٧] ، ولم أجد فيما تحت يدي من المصادر ما يشير الى عزو تلك

---

(١) اللسان : ١٤٥/١٥ .
(٢) اللسان : ٢٨٠/١٤ .
(٣) اللسان : ٢٢٠/٤ .
(٤) اللسان : ٢٢٠/٤ .
(٥) التصريح : ٤٠٣/٢ .
(٦) شرح الشافية : ٢٤٥/٣ .
(٧) الصبان على الأشموني : ٣٥١/٤ – ٣٥٢ .

اللهجة الى قبيلة أو عشيرة ، لكن نسبها الدكتور ابراهيم أنيس الى قيس عيلان [1] ، بدون أن يشير الى مصدرها ، ولعل تلك اللهجة هي أصل لهجتنا العامية حتى الآن حيث نقول: رَدّيت، سَدّيت . في ردّات وسدّات وكل مـا حدث أنه أميلت الفتحة نحو الكسرة ، والألف نحو الياء .

تعقيب :

ظهر من كلام علماء النحو واللغة أن الإدغام كان في تميم وقيس وأسد ، وعندما تصدينا لدراسة نصوصه ظهر أن الإدغام كان يغطي منطقة أوسع مما حددها النحاة فقد ظهر الإدغام في قبائل عقيل ، وعامر بن صعصعة ، وبني عجل ، وهم بطن من بكر بن وائل كما ظهر في بكر ابن وائل نفسها ، كما بدت سماته واضحة في بلعنبر ، وبني سعد بن زيد مناة من تميم بل سمعنا صداه في الحجاز ، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: « أيّما رجل من المسلمين سَبَبْتُه أو لَعَنْتُه أو جلدّه . . . » [2] بإدغام التاء في الدال .

كما قرأ ابن عباس بحروف من الإدغام ، وذلك في قوله تعالى : « هـل ترى من فطور » قرأها : « هَتّرى » [3] بإدغام اللام في التاء ، والنبي ﷺ وابن عباس من بيئة الحجاز . ثم في غير ذلك نرى كثيراً من قراء مكة والمدينة يقرءون بالإدغام – فنافع المدني (١٦٩ هـ) وقالون المدني راوي نافع : قرءا بإدغام الذال في التاء من (اتخذتـم وأخذتـم) كيف وقعا جمعاً أو فرداً [4] . كما أدغم ورش (١٩٧ هـ) وهو راوي نافع المدني (دال قد) في الضاد والظـاء المعجمتين نحو : فقد ضّل ، فقد ظّلم – وتاء التأنيث الساكنة في الظاء المعجمة نحو : « حرمت ظّهورهما » ، كما أدغم النون في الواو من (يسّ والقرآن) ومن (نون وّالقلم) ، وكذلك أدغم الذال في (اتخذتّم) و (أخذتّم) كيف أتيا [5] . فإذا كان الأمر كذلك عرفنا أن الإدغام كان منتشراً في أجزاء من الجزيرة العربية شرقها وغربها ، بـل كان هو اللغة الرسمية السائدة التي تلقفها القرآن الكريم من لهجات العرب ، ولهذا يقول أبو عمرو : « الإدغام كلام

---

(١) في اللهجات العربية : ١٣٩ .

(٢) اللسان : ٣/١٢٥ ط بيروت .

(٣) شرح السيرافي : باب إدغام القراء .

(٤) الإضاءة : ١٣١ .

(٥) الإضاءة : ١٤٠ .

العرب الذي يجري على ألسنتها ، ولا يحسنون غيره ،[1] وعــــدّه ابن فارس من خصائص العربية [2] ، ولهذا ترددت ظاهرة الإدغام في كثرة غامرة من آيات الكتاب الحكيم ، لأنه ظاهرة راقية تهدف الى الوصول بالكلمة الى أقصى درجات الخفة والسهولة ، ولهذا عبر هـــذا الإدغام القرون حتى وجدنا سماته في لهجاتنا الحديثة فنحن نقول : قالّك ، جعل لّك ، كما نسمع في لهجاتنا : حدّتُهم في حدثتهم ، كما قد نشأت بعض الأساليب العامية من قبـــل الإدغام ، ومن ذلك قولنا : اِش زيّـــك ، وأصل هذا : أيّ شِ زيّك – فذهب التنوين ، وكذلك حركة الإعراب ، وأبدلت الشين زاياً ، وأدغمت في الزاي .

---

(١) النشر : ١/٢٧٥ .

(٢) الصاحبي : ١٥ .

الادغام يفسر إهمال الاعراب في اللهجات الحديثة

عرفنـــا أن الإدغام الكبير يسلب الحرف الأول حركته ، ثم ينبو اللسان بهما نبوة واحدة فتصير شدة الامتزاج في السمع كالحرف الواحد ، فكأن الإدغام يزيل الإعراب كما في قوله تعالى (﴿مَالَكَ لا تأمنَّا﴾)[١] ، والأصل : تأمنُنَا – فذهبت الضمة التى هي علامة الرفع ، لأجـــل الإدغام ، وإذا ما تصفحنا كتاباً كالنشر ، أو إبراز المعاني – برزت لنا آيات عدة من كتاب الله قرئت بالادغام – أي بذهاب الاعراب ، وهذا دليل على أن العربية الفصحى كانت تهمـــل الاعراب أحياناً بدليل ما أثر عن أبي عمرو من تسكين حركة الإعراب في مثـــل « بارئكم ، يعلمْهم ، يأمرْكم ، يأمرْهم ، تأمرْهم ، يشعرْكم ، نحشرْهم ، وبعولتْهن ، ومكر السيءْ » وغيرها – بل جاء الاسكان في الشعر لغير ضرورة – ثم إننا نرى فقد الإعراب في لهجاتنا الحديثة ، بل إن كثيراً من علمائنا المحدثين قد رحلوا الى جزيرة العرب بغية التنقيب عن آثار تلك الظاهرة ، فلم يجدوا أثراً لها في كلامهم »[٢] فإذا كانت ظاهرة الإعراب قد فقدت من اللهجات الحديثة ، حتى في مكان الوحي ونزول القرآن ، ولهجاتنا الحديثة تلقفناها عبر التاريخ وورثناها عن آبائنا العرب ، فلهجاتنا موصولة بلهجاتهم ، وإذا كانت لهجاتهم تهمل الإعراب في كثرة غامرة في صور الإدغام الكبير ، « أفلا يصح اتخاذ ذلك أساساً سليماً لتفسير انتشار ضياع الاعراب في لهجاتنا الحديثة »[٣] ؟ والحق أن الإعراب ليس في حقيقته إلا ناحية متواضعة من نواحي اللغـــة »[٤] ، ولكن النحاة جعلوه هامة تلك الظواهر ، حتى عظم شأنه ، وأصبح سلاحاً في يدهم ، ولكن الشعراء ثاروا عليهم ويتجلى ذلك فيما حدث بين الفرزدق وعبدالله الحضرمي، ثم قامت المناقشات الكثيرة بين النحاة والقراء بسبب الإعراب – حتى رمى النحاة القراء بالجهل وذلـــك بسبب خروجهم عن قواعدهم وأصول إعرابهم، مع أن القراء يؤولون بقراءتهم الى العهد الذي لا يشوبه أبداً شوب من لحن ، أو دنوّ من خطأ ، والقراء في الضبط والتحري بالمكان الذي لا يجاري ، ثم ان القرآن عند نزوله لم يكن النحو العربي قد استنشق نسيم الحياة ، وإنما وجد النحو بعد ذلك ،

---

(١) سورة يوسف : آية ١١ .

(٢) من أسرار اللغة : ١٣٩ هامش الطبعة الأولى .

(٣) مجلة كلية الآداب : م ١٥ جـ ١ من مقال « للدكتور عبد الحليم النجار » .

(٤) من أسرار اللغة : ١٢٥ ط الأولى .

وعندما وضع أخذوا يخضعون نصوص القرآن واللغة لقواعدهم ولإعرابهم ، ولكن قراءة القرآن يجب أن تحكم النحو ، والنحو لا يحكم على القراءة، لاسيا وأنه كان من القراء أئمة في النحو واللغة، وجهابذة في العربية كأبي عمرو البصري (١٥٤ هـ)، وعلي بن حمزة الكسائي المخزومي (١٩٠ هـ) وغيرهما .

والخلاصة : أن انتشار الإدغام واتساع دائرته في القراءات يربط بين اللغة الفصحى كما يمثلها القرآن – حيث فقدت بعض مظاهر الإعراب بالإدغام – وبين لهجاتنا الحديثة ، تلك التي لا نلمح فيها أثراً لهذه الظواهر الإعرابية . ولا شك أن هذه النظرة تؤيد العلاقات اللهجية عبر القرون بيننا وبين آبائنا ، أو بين السالفين والخالفين . ولست مغالياً إذا قلت : إن الحقل اللغوي الذي تصوّره قراءات القرآن الكريم – ينطوي على تاريخ لغتنا ، ويمثلها تمثيلاً واقعياً أصدق من غيره .

الفصل الثالث

ظاهرة الهمز والتسهيل بين لهجات القبائل

عندما ننظر الى اللهجات العربية الحديثة في الأقطار العربية، نرى بعض هذه اللهجات تحقق الهمزة ، وبعضها الآخر يسهلها ، وهذا ولا شك يفسر لنا اختلاف القبائل العربية النـــازلة في العالم العربي ، فبعض تلك القبائل النازلة لا شك أنها كانت تحقق ، والأخرى تخفف ، أو تسهل الهمزة ، فورثنا هذه الظواهر عن أسلافنا ظاهرتي : الهمز والتسهيل، ولأجل هذا يقف الباحث موقف الشك فيما رواه موسى بن عبيدة عن نافع عن ابن عمر قال : « ما همز رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا الخلفاء – وإنما الهمز بدعة ابتدعوها من بعدهم »[1] إذ كيف يكون الهمز بدعة ، وهو سمة لهجية لا يستطيع العربي أن يتخلى عنه – لاسيما إذا كان هذا العربي من أهل التحقيق ، ثم كيف يتفق هذا الحديث مع الروايات القرآنية التي جاءت بتحقيق الهمزات في كثير من الآيات ، ومما يقدح في صحة هذا الحديث ما جـــاء عن أبي شامة – من أن موسى بن عبيدة ضعيف عند أئمة الحديث .

وقد يكون مثل هذا الحديث في الضعف ما روي أن رجلاً قال للنبي ﷺ : يا نبيء الله – بالهمز ، فقال له : لا تنبر باسمي ، أي لا تهمز »[2] فمحال أن يكلّف النبي ﷺ رجلاً أن يتنقل من لهجته الى لهجة أخرى – لما في ذلك من العنف والمشقة ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم ، فإذا أضيف الى هذا أن حمران – وهو الرجل الذي جاءنا الحديث السابق من طريقه – رافض ، بل قال عنه الذهبي « ليس بثقة »[3] داخلنا الشك في هذا الحديث ، وقد يكون الرسول ﷺ إنما كره « النبيء » بالهمزة ، لأنه يتوهم منها أنها من « نبأ من أرض الى أرض »[4] أي خرج منها ،

---

(١) الإتقان : ١/١٠٠ .

(٢) اللسان : ٧/٤٠ ، اشتقاق ابن دريد : ٢٧٣ ط وستنفلد .

(٣) الإتقان : ١/١٠٠ ، ومما يقوي ضعف هذا الحديث أنه عليه السلام قد أنشده المادح : « يا خاتم النبئاء إنك مرسل » انظر القرطبي : ١/٤٣١ .

(٤) المصباح : ٢/٤٣١ .

فقد يحمله بعض من يضمر السوء – على خروجه من مكة الى المدينة على غير وجـــه التكريم ، والنبر في الحديث السابق يرادف الهمز ، ويؤيده ما جاء عن أبي زيد من أن « أهـــل الحجاز وهذيل ، وأهل مكة والمدينة لا ينبرون ، وقف عليها عيسى بن عمر فقال : ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر ، وهم أصحاب نبر ، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا »[١] ، فالمراد بالنبر في قول عيسى بن عمر : تحقيق الهمز ، ويفسر الدكتور إبراهيم أنيس الضرورة في قـــول عيسى بن عمر بأنهم ما كانوا يهمزون إلا حين يلجئون الى اللغة النموذجية ، وفي المجال الجدي من القول فحينئذ يخرجون عن عادتهم وسليقتهم في تسهيل الهمز « فكأن الحجازيين ما كانوا يهمزون إلا حـــين يلجئون الى اللغة الأدبية »[٢] ، وذلك تفسير الاضطرار في قول عيسى السابق، ولكني ربما أجد فهماً آخر لهذا « الاضطرار » في قول عيسى ، فالشاعر قد يضطره الوزن الشعري الى أن يبدل من الحرف همزة كما ورد ذلك في قول الشاعر :

فأقسم لو لاقى هلالا وتحتـــه مِصلكُ كَـذِيب الرّدهة المتأوّب
لأدأَها كرهاً أو أصبح بيته لديه من الإعوال نوْح مسلّب

قال السيرافي على شرح سيبويه « فهمز الألف في « أداها » – لأنه لو تركها ساكنة لم يستقم البيت[٣] . ومثل الضرورة السالفة ضرورة أخرى جعلت الشاعر « كثيرا » الخزاعي يهمز في غير موضع الهمز ، قال في رثاء عبد العزيز بن مروان :

وللأرض أمّا سودها فتجلـّلـَتْ بياضاً وأمّا بيضها فاسْوَأَدّتِ[٤]

وما رواه السيرافي من قول الشاعر :

قـــد كان يذهب بالدنيا ولذتها موالىءُ ككباش العُوس سُحاحُ[٥]

فهمز الياء من « موالى » لاستقامة البيت . وخزاعة التي منها كثير تخفف الهمز ، بدليل أن « كثيراً » دخل على عبد العزيز بن مروان فأنشده شعراً ، فقال له بعض جلسائه : لحنت قال : في أي شيء ؟ قال : في قولك :

---

(١) اللسان : ١٤/١ .

(٢) مستقبل اللغة العربية المشتركة : ٦٩ .

(٣) شرح السيرافي على سيبويه : ٢٧٢/١ مخطوط بالتيمورية .

(٤) الموشح : ١٤٦ .

(٥) شرح السيرافي على سيبويه : ٢٧٢/١ مخطوط بالتيمورية .

لا أُنزر النائــــل الخليل إذا ما اعتلّ نزرُ . الظئور لم ترم

وأصل الفعل « ترأم » بالهمز ، فقال له كثير : اسكت : هذا كلام قومي . فإذا كان الشاعر وقومه يسهلون — فما الذي يدعوه الى أن يهمز ما ليس بمهموز ؟ لا شيء إلا الضرورة ، ولذلك قـــال في بيته الأسبق (فاسوأدت) . ثم إن كثيراً من القراء كانوا يقرءون بالتحقيق مرة ، وبالتسهيل أخرى ، ولم يقل أحد إنهم كانوا مضطرين عندما يحققون الهمز . فـــابن كثير وأبو عمرو ، وابن عامر ، وغيرهم يقرءون « مرجئون »[1] و « ترجئ »[2] بالهمز ، والباقون يقرءون ذلك بغير همز[3] . وقرأ عاصم « يأجوج ومأجوج »[4] بالهمز ، والباقون بغير همز[5] . ويظهر أن الهمز وان كان من خصائص التميمية ، إلا أنه لما شاع وظهر أمره ، اتخذته الفصحى شعاراً لها وأصبح الهمز ينتمي لها أكثر مما ينتمي الى مهده الأول في تميم « ولهذا يعد تحقيق الهمز من أبرز الأمور التي اقتبستها اللغة النموذجية من غير البيئة الحجازية »[6] ووجدنا الهمز حينئذ يفقد طابعه المحلي ، وينتمي الى الفصحى الأدبية ، ولهذا وجدنا أمثال نافع المدني (١٥٧) يحقق : النبيين ، والنبيون ، والنبوة ، والنبي « إذ كان يقرؤها بالهمز ، مـــع أنه في بيئة حجازية لا تهمز »[7] ! ما ذاك إلا لأن الهمز قد ملك على الناس شعورهم ، « ولهذا فإن القارىء المشهور حمزة الكوفي (١٥٦ هـ) وجد من الضروري أن يحذر الناس من المبالغة في تحقيق الهمز عند التلاوة » ، « لأن نطق الهمزة أصبح (موضة) العصر »[8] . بل كانوا يبالغون فيه ، ويهمزون ما ليس أصله الهمز ، قال صاحب الصحاح « وربما خرجت بهم فصاحتهم الى أن يهمزوا ما ليس بمهموز »[9] ومثل السيوطي لهذا بقولهم « حلأتُ السويق ، ورثأت زوجي بأبيات ، واستلأمت الحجر ، ولبّأتُ بالحج »[10] والمثال الأول : من الحلواء والثاني على التوهم ، لأنها سمعتهم يقولون :

---

(١) سورة التوبة : آية ١٠٦ .

(٢) سورة الأحزاب : ٥١ .

(٣) إتحاف فضلاء البشر : ٥٩ .

(٤) سورة الكهف : ٩٤ .

(٥) إتحاف فضلاء البشر : ٥٤ .

(٦) في اللهجات العربية : ٦٨ ط ٢ .

(٧) إتحاف فضلاء البشر : ١٣٨ .

(٨) Rabin. P. 145 .

(٩) المزهر : ١/٢٥٢ .

(١٠) المزهر : ٢/٤٩٦ .

رثأت اللبن ، فظنت أن المرثية منها ، والثالث من السِلام وهي الحجارة ، والرابع من التلبية ، وكل هذا ليس أصله الهمز . ومن العجيب أن قولهم « حلأت السويق ، ورثأت زوجي بأبيات واستلأمت الحجر ، ولبّأت بالحج » هذه الصيغ الأربع قد اختلف عزوها في كتب العربية اختلافاً شديداً ، ففي الجمهرة « ورثيت الميت أرثيه مرثية ، وهمدان تقول : رثأت الميت[1] ، ومثل هذه الرواية جاءت عن ابن دريد في المخصص[2] . وعن الفراء « سمعت امرأة من طيء تقول : رثأت زوجي بأبيات ... »[3] وعن الفراء في رواية أخرى أنه قال « سمعت امرأة من غني تقول : رثأت زوجي بأبيات ، ولبأت بالحج ، وحلأت السويق ... »[4] ، وعن ابن دريد أنه عزاها في مكان آخر من الجمهرة الى أهل اليمن[5] . فهذا النص كما نراه قد عزى مرة الى همدان ، وأخرى الى طيء ، وأحياناً الى غني ، وحيناً الى اليمن . والعلاقة النسبية واضحة بين همدان وطيء ، واليمن ، ولكن لا توجد علاقة بين تلك المجموعة وقبيلة غنيّ ، لأن غنياً من قيس[6] ، ولهذا أرجح أن استقراء اللغويين لتلك الظاهرة ، لم يكن استقراء كاملاً ، بدليل أنه جاء في اللسان « وقالت امرأة من العرب : رثأت زوجي بأبيات ... »[7] وإذا كان أصل هذه الصيغ التي جاءت مهموزة هي غير الهمز . لم تكن الصيغ المهموزة التي سمعت من هؤلاء النسوة إلا نوعاً من القياس الخاطىء[8] ، والدليل على هذا ما جاء عن الفراء « وربما غلطت العرب في الحرف إذا ضارعه آخر من الهمز ، فيهمزون غير المهموز »[9] ، ويمكن أن يكون مثل هذا ما جاء عن أبي علي في تعليل مثل هذا الخروج والشذوذ « إنما دخل هذا النحو كلامهم ، لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها ، ولا قوانين يستعصمون بها ، وإنما تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ، فربما استهواهم الشيء فزاغوا به عن القصد »[10] ، وهذا معنى قول ثعلب « وكان

---

(١) الجمهرة : ٢١٨/٣ .

(٢) ١٩٢/١٢ .

(٣) معاني القرآن للفراء : ٤٥٩/١ دار الكتب .

(٤) اللسان : ١٠/١ .

(٥) جمهرة اللغة : ٢٨٢/٣ .

(٦) نسب عدنان وقحطان : ١٠ للمبرد .

(٧) اللسان : ٧٧/١ .

(٨) من أسرار اللغة : ٣٢ ط أولى .

(٩) معاني القرآن للفراء : ٤٥٩/١ .

(١٠) المزهر : ٤٩٤/٢ .

ينبغي أن يقول : لببت »[1] في قولهم « لبأت بالحج » ويفهم منه أن القياس بغير الهمز ، وأنهم خالفوا القياس والحقيقة أن مثل هذه الصيغ كثيرة الورود في المعاجم ، ومنها مـــا جاء في اللسان : استنشأت الريح ، ذهبوا به الى قولهم نشأ السحاب ، والقياس « استنشيت »[2] وكلها ترجع الى القياس الخاطىء الذي لعب دوراً كبيراً في الحقل اللغوي ، أو الى أخطـــاء الأطفال لاسيما الذين يعيشون في بيئات منعزلة ، ولا يجدون من يصحح لهم أخطاءهم . ونشير الآن الى بعض النصوص التي تتناول الهمزة بين القبائل العربية :

أولاً : أهل التخفيف من العرب :

١ – قال يونس في نوادره « أهل الحجاز يقولون : جونة ، وتميم : جؤنة بالهمز »[3] .

٢ – عزيت كلمة « جبرئيل » كعنتريس الى تميم ، وجبريل – كقنديل الى الحجاز ، وميكال بدون همز الى الحجاز أيضاً[4] ، وفي قوله تعالى « مَنْ كان عدوّاً لله وملائكتِه ورسلِه وجبريل وميكال »[5] قرأ بالتسهيل ابن عامر وأبو عمرو ونافع ، وبالهمز – الأعمش وحمزة والكسائي[6] . ويظهر أن العرب تصرفت فيه على عادتها في تغيير الأسماء كما تصرفت في كلمة (يونس) حيث جاءت بالهمز تارة مع الكسر ، والهمز مع الضم وهي لغـــة أسد ، ولغة الحجاز فيها ترك الهمز وضم النون ، وبها قرأ الجمهور[7] في قوله تعالى « وأوحينا الى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس »[8] .

٣ – وروى أن « منساته »[9] على البدل من الهمزة – لغة الحجاز ، وهذا البدل مسموع على غير قياس . وقرأ على البدل من الهمزة – أي التسهيل نافع وأبو عمرو وأبو جعفر[10] .

---

(١) اللسان : ٢٢٨/٢ .

(٢) اللسان : ٢٢٨/٢ .

(٣) المزهر : ٧٦/٢ .

(٤) إتحاف : ١٤٤ .

(٥) سورة البقرة : آية ٩٨ .

(٦) البحر المحيط : ٣١٨/١ .

(٧) البحر : ٣٩٧/٣ .

(٨) سورة النساء : آية ١٦٣ .

(٩) سورة سبأ : آية ١٤ .

(١٠) إتحاف فضلاء البشر : ٣٥٨ .

٤ – كما ظهر التسهيل في لهجة الحجاز فيما جاء في مخطوطة الغريب المصنف عن الأصمعي أنه قال إذا قدمت بلاداً أو مكثت فيها خمسة عشر يوماً فقد ذهبت عنك قِرءة البلاد ، وأهل الحجاز يقولون : قِرةُ البلاد – بدون همز[١] ، ووردت روايات مثلها في الأضداد[٢] . وجاءت رواية أخرى في المخصص عن أبي عبيد[٣]. كما وافانا ابن الأنباري بما يشبه هذا[٤] . والذي يظهر أن الحجاز حذفت همزتها المتحركة وهي (قِرْأة) وألقتها على الساكن قبلها وهو نوع من القياس ، فصارت عندهم « قِرَة » .

٥ – ساق صاحب الجمهرة قصة مؤداها « أن قوماً[٥] من جُهَيْنَة جاءوا الى النبي ﷺ بأسير وهو يرعد من البرد فقال : أدفوه ... فذهبوا به فقتلوه » ، كما نقل ابن سيده هذا الخبر في مخصصه عن[٦] ابن دريد وسبب قتل هذا الأسير أن النبي ﷺ لم يكن من لغته الهمز، وهو يريد ﷺ أدفئوه من البرد ، فحسبوه الادفاء بمعنى القتل في لغة أهل اليمن[٧] ، ومما يؤيد ذلك رواية اللسان « والإدفاء : القتل في لغة بعض العرب »[٨] وهدف النبي ﷺ الإدفاء من الدفء وأن يدفأ بثوب مثلاً ، فحسبوه بمعنى القتل فقتلوه ! وما كان النبي يريد قتله ، بدليل رواية الزمخشري « فوداه الرسول ﷺ »[٩] . والتخفيف القياسي في تلك الكلمة أن تجعل همزتها بين بين لا أن تحذف[١٠]، ولكن النبي ﷺ حذفها، لأن الهمز ليس من لغته ، وهذا الحذف شاذ ، ونظيره ما رواه ابن سيدة من قول الفرزدق :

راحتْ بمسلمة البغـال عشية فارعيْ فزارة لا هناك المرتع[١١]

---

(١) الغريب المصنف : ٤٦٨ لأبي عبيد القاسم ... خط بدار الكتب رقم ١٢١ .
(٢) الأضداد للأصمعي : ص ٥ تحقيق هفنر .
(٣) المخصص : س ١٠ : ص ١٤٧ .
(٤) الأضداد : ٢٣ ابن الأنباري .
(٥) جمهرة ابن دريد : ٢٩١/٢ .
(٦) المخصص : ابن سيده : سفر ٦ : ص ١١٨ .
(٧) الفائق في غريب الحديث : الزمخشري : ٤٠١/١ – ٤٠٢ تحقيق أبو الفضل .
(٨) اللسان : ٧٠/١ .
(٩) الفائق في غريب الحديث : ٤٠١/١ ، النهاية : ٢٦/٢ ابن الأثير ط العثمانية .
(١٠) اللسان : ٧٠/١ .
(١١) المخصص : سفر ١٤ : ص ١٤ .

فهنا أبدل الألف من الهمزة ضرورة وكان حقها أن تجعل بين بين لأنها متحركة ، « لكنه لما لم يتزن له البيت بحرف متحرك أبدل منها الألف ضرورة »[١] ، وجعل الهمزة بين بين هو : تليين صوتها وتقريبه من حرف اللين الذي منه حركتها – كما قال السخاوي[٢] – وهمزة بين بين لا تتكون في أقصى الحلق حيث تتكون الهمزة الأصلية بل في الموضع الواقع بين الحلق وجوف الفم لذلك يطلق عليها (بين بين) أي بين الحروف الحلقية والحروف الجوفية (اوى) وصوت هذه الهمزة ضعيف جداً حتى يقال عنه – تقريب من الساكن – ومن الصعب جداً وصفه ، قال ابن يعيش (ولا يظهر سرّ هذه الهمزة ولا ينكشف حالها إلا بالمشافهة)[٣] ويتساءل بعض المحدثين[٤] : أكان ﷺ يلجأ أحياناً الى الحديث بلهجات الخطاب ، أم كان يلتزم في كلامه تلك اللغة النموذجية؟ لا شك أن النبي ﷺ قد سيطر على اللغة الأدبية النموذجية سيطرة تامة وملك زمامها حتى أصبحت له سليقة ، ولكن العظماء ينزلون أحياناً الى مستوى الناس في خطابهم ، ويخاطبونهم على قدر مستواهم اللغوي ، ولا بد أنه كان أحياناً يتكلم بلهجته القرشية ، وينسى الى حين تلك اللغة النموذجية . أو كان يكلم الأقوام عند جلوسهم بين يديه لأمورهم الدينية بلهجتهم الخاصة كما في الحديث « وان مال الله مسئول ومنطى »[٥] أي معطى ، وفي الحديث « اليد المنطية خير من اليد السفلى » وفي كتابه ﷺ لوائل « وأنطوا الثّبجَة » ، والإنطاء – الإعطاء بلغة اليمن[٦] ، وساق أبو حيان الحديث « اليد العليا المنطية واليد السفلى[٧] المنطاة » كما وردت قراءة « إنا أنْطَيْنَاكَ الكوثر » وهي قراءة مروية عن الرسول[٨] . فكان النبي إذا وفدت عليه وفود العرب ، يلتمس في حديثه مما يعرفه عن لهجاتهم ، تأليفاً لقلوبهم وزيادة في تكريمهم والاحتفاء بهم .

وكما أوقع الحديث الشريف في لبس ، حدث ما يشبهه في حديث أخرجه البخاري في باب

---

(١) ابن يعيش : ٩/١١٣ .

(٢) الإضاءة في بيان أصول القراءة : ٢٩ سنة ١٩٣٨ .

(٣) مجلة كلية الآداب : مايو سنة ١٩٤٦ : ١٣٧ من مقال للدكتور فؤاد حسانين .

(٤) في اللهجات العربية : ١٠١ دكتور إبراهيم أنيس ط ٢ .

(٥) اللسان : ٢٠/٢٠٦ .

(٦) اللسان : ٢٠/٢٠٦ .

(٧) البحر المحيط : ٨/٥١٩ .

(٨) مختصر شواذ القرآن : ١٨١ ابن خالويه ، البحر المحيط : ٨/٥١٩ ، شمس العلوم : ١٠٤ الحميري .

الأطعمة وفيه يقول أبو هريرة لعمر « أقريني » ففهمها عمر على أنها مهلة الهمز من « أقرئني »[١]، وكما ساق البغدادي نصاً لبعض العرب يقول «قريت»[٢] فلا ندري أمن القراءة أم من القرى .

٦ - يظهر أن القرشيين كانوا يميلون الى قلب الهمزة ياء، وذلك من قبيل التخفيف فكانوا يقولون « اللَّايْ » بدل « اللائي » بالهمز ، وهي اسم موصول لجمع المؤنث ، وتنطق كذلك بحذف الياء أيضاً « اللاءِ »، وكتابتها في المصحف الشريف (والـلائي[٣] يئسْنَ من المحيض)، بالهمز تثير إشكالاً ، لأن البزي وأبا عمرو قرآها بياء ساكنة بدلا من الهمزة[٤] - وذكر أبو حيان أنها لغة قريش[٥] ، وكذلك عزاها ابن الجزري[٦] ، فما دام التسهيل فيها لغة قريش ، فكان يجب أن نرى مرسومها في المصحف بدون همز ، لأن عثمان لما نسخ المصاحف آثر في رسمها لغة قريش[٧] ، وأرى تخلصاً من هذا أن نساخ المصحف كتبوها بالهمز متأثرين باللغة النموذجية الفصحى ، لأن الهمز وان كان من صفة[٨] تميم ، إلا أنه اقتحم اللغة الفصحى وأصبح من مميزاتها وخصائصها ، بل أضحى ينتمي الى الفصحى أكثر من انتسابه في قبيلته الأولى تميم ، ولهذا كان يلتزم ابن كثير - وهو القارىء المكي تحقيق الهمزة ، مع أنه في بيئة الحجاز التي تسهله[٩] ، وهذا نافع المدني كان يقرأ « النبيّين » ، « النبيّون » ، « الأنبياء » ، « النبي » ، « النبوّة » بالهمز على الأصل[١٠] ، وقولة « عيسى بن عمر : ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر»[١١]، تشير تلك العبارة الى اعتزازه بهذا النبر - الهمز - الذي ملك عليه حسه ، وكأنه صفة سامية لا يتصف بها إلا العلماء والفصحاء - أمثاله .

---

(١) Rabin. P. 145 .

(٢) خزانة الأدب : ١/٤٤٤ ، ٤/٢٤٢ .

(٣) سورة الطلاق : آية ٤ .

(٤) البحر المحيط : ٧/٢١١ .

(٥) البحر المحيط : ٧/٢١١ .

(٦) النشر : ١/٤٠٤ .

(٧) المقنع : الداني : ١١٤ دمشق ، الكلمات الحسان : ٥٠ .

(٨) كتاب سيبويه : ٢/١٦٩ ، شرح شواهد الشافية : ٤/٣٣٥ .

(٩) في اللهجات العربية : ٦٦ .

(١٠) إتحاف فضلاء البشر: ١٣٨ .

(١١) اللسان : ١/١٤ .

٧ - كما يظهر تسهيل الهمز - في إبدالها أو التخفيف منها فيما يأتي :

أ) دفاع ابن قتيبة عن أبي نواس عندما اتهم باللحن في أشياء من شعره منها قوله :

فليت ما أنت واطِ من الثرى ليَ رمسًا

وابن قتيبة لا يراه في ذلك لاحناً كما رآه غيره ، وإنما « يراه على حجة من الشعر المتقدم وعلى علة بينة من علل النحو »[١] فكثير من العرب تترك الهمز « وإن قريشاً تتركه وتبدل منه »[٢]، ومما يؤكد قول ابن قتيبة في أن قريشاً تترك الهمز ما روى عن علي رضي الله عنه : « نزل القرآن بلسان قريش ، وليسوا بأصحاب نبر »[٣] .

ب) ما روي من أن قريشاً كلّها ، ومن جاورها من قبائل العرب كهذيل وسعد بن بكر وكنانة يقولون : سورة - بغير همزة ، بينما تميم يهمزون فيقولون « سؤرة »[٤] .

ومن غريب التخفيف ما حكاه أحمد بن يحيى في خبر له مع ابن الأعرابي بحضرة سعيد بن سلم ، عن امرأة قالت لبنات لها وقد خلون الى أعرابي كان يألفهن : أفي السَّوَتَنْتُنَّه[٥] ! قال أحمد بن يحيى فقال لي ابن الأعرابي : تعال الى هنا ، اسمع ما تقول : قلت : وما في هذا ! أرادت : أفي السَّوأةِ أنْتُنَّه ! فألقت فتحة (أنتن) على كسرة الهاء ، فصارت بعد تخفيف همزة السوأة ، ما نطقت به من قبل .

جـ) ما ذكره الفراء في تفسير قوله تعالى : « قل من يكلؤكم بالليل والنهار »[٦] بأن « يكلؤكم » مهموزة ، ولو تركت همزة مثله في القرآن قلت : يكلوْكم - بواو ساكنة ، ويكلاكم - بألف ساكنة ومن جعلها واواً ساكنة قال « كلات » بألف يترك النبرة منها . ومن قال « يكلاكم » قال : كليت مثل قضيت ، وهي من لغة قريش ، وكل حسن[٧] .

---

(١) الشعر والشعراء : ٣١٩ - ٣٠ تحقيق السقا .

(٢) الشعر والشعراء : ٣١٩ تحقيق السقا ، شرح الشافية للرضي : ٣١/٣ ، ٣٢ ، شرح المفصل: ابن يعيش : ١٠٧/٩ .

(٣) شرح الشافية : ٣١/٣ - ٣٢ .

(٤) مقدمتان في علوم القرآن : ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٥) الخصائص : ١٤٢/٣ ، ١٥٠ .

(٦) سورة الأنبياء : ٤٢ .

(٧) لسان العرب : ٩٤/٢٠ .

د) ما روي عن ابن عباس « أن النبي ﷺ أتى بكتف مشوية فأكل منها فتملى ... »[1] وأصل ذلك : الهمز من الملأة – بمعنى الامتلاء ، وحذف الهمزة تسهيل[2] ومما يؤيد ذلك ما ذكره ابن دريد من أنه « ليس في لغة النبي ﷺ الهمز »[3] ، وذكر مثل ذلك ابن سيده[4] .

هـ) كما مالت لهجات قريش ومكة والنبي ﷺ الى التسهيل فيما سبق مالت كذلك لهجاتهم الى التسهيل في صيغة « سأل » فكانوا ينطقونها « سال » بغير همز وإذا تتبعنا مواطن تلك الصيغة في كتاب الله ظهر منها :

أ) قوله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع »[5] فقد قرأها نافع وابن عامر « سال » بألف[6]. كما زاد صاحب الإتحاف « أبا جعفر » فيمن قرءوا بالتسهيل[7] . ونص الزمخشري بأن ذلك لغة قريش[8] ، فهم يقولون « سلت تسال ، وهما يتسايلان » ، كما نص ابن خالويه على أن ابن عباس قرأها « سال سيل »[9] ، ورسمت في مصحف عبدالله بن مسعود « سال سال »[10] ، وهكذا رسمت أيضاً في مصحف أبي بن كعب[11] ، وكتبت في مصحف ابن عباس « سال سيل »[12] .

---

(١) المسند : ابن حنبل : ٣٢٩٣/٥ تحقيق الشيخ شاكر .

(٢) المرجع السابق : المحقق .

(٣) الجمهرة : ابن دريد : ٢٩١/٢ .

(٤) المخصص : سفر ٦ : ص ١١٨ .

(٥) سورة المعارج : آية ١ .

(٦) البحر المحيط : ٣٣٢/٨ .

(٧) إتحاف فضلاء البشر : ٤٢٣ .

(٨) البحر : ٣٣٢/٨ .

(٩) مختصر شواذ القرآن : ص ١٦١ ابن خالويه .

(١٠) Material For The History of The Text of The Qurân Jeffery . مصحف عبدالله بن مسعود : سورة ٧٠ .

(١١) المرجع السابق : مصحف أبي بن كعب .

(١٢) المرجع السابق ، مصحف ابن عباس .

ب) قوله تعالى « ولقد آتينا موسى تسع آيات بَيِّنات فاسْأل بني إسرائيل »[1] . قرأ الجمهور – فسل بني إسرائيل ، وقراءة الرسول ﷺ بغير همز – وهي لغة قريش[2] .

جـ) قال تعالى (واسْألوا اللهَ مِنْ فَضْله)[3] ، فقرأ ابن كثير والكسائي « وسلوا » بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على السين ، وذلك إذا كان أمراً للمخاطب وقبل السين واو أو فاء نحو « فسل الذين يقرءون – فسلوا أهل الذكر » .

وروى اليزيدي عن أبي عمرو أن لغة قريش « سل »[4] كما ذكر يونس في نوادره : أن أهل الحجاز يقولون : « سَلْ ربك ، وتميم اسْأل »[5] .

د) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف «وَسَلُوا الله من فضله» ، « وَسَلْ القرية »[6] ، « فاسَلِ الذين يقرءون الكتاب »[7] ، «فَسَلوهن من[8] وراء حجاب» ، ففي تلك الأمثلة حذفت الهمزة ونقلت حركتها الى ما قبلها ، كما قرأ بعض القراء غير هؤلاء السابقين[9] – بالهمز في كل ذلك . فتلك القراءات جميعاً جاءت على لغة المسهلين من العرب وهم قريش ومن جاورها ، وتحليل تلك القراءة أن مادتها من « السؤال » بالهمز أبدلت أو حولت تلك الهمزة – على غير قياس عند سيبويه ، (والقياس أن ننطق تلك الهمزة « بين بين »)[10] كما يجوز أن تكون مادتها مأخوذة من (سلت تسال) حكاها سيبويه[11] .

وقد رأى بعضهم أن قوله تعالى « سال سايل » بالتخفيف، أن ذلك من « السيلان » ويؤيده

---

(١) سورة الإسراء : آية ١٠١ .

(٢) البحر المحيط : ٦/٨٥ .

(٣) سورة النساء : آية ٣٢ .

(٤) البحر المحيط : ٣/٢٣٦ .

(٥) المزهر للسيوطي : ٢/٢٧٦ .

(٦) سورة يوسف : آية ٨٢ .

(٧) سورة يونس : آية ٩٤ .

(٨) سورة الأحزاب : آية ٥٣ .

(٩) إتحاف فضلاء البشر : ٦١ ، ٢٦٧ .

(١٠) البحر المحيط : ٨/٣٣٢ .

(١١) المخصص : سفر ١٤ : ص ١٤ ، الكامل لمبرد : ١/٣٠٠ .

قراءة ابن عباس [1] (سال سيْلٌ) ، ولذا قال زيد بن ثابت « في جهنم واد يسمى سايلا » [2] .
أما ما جاء من قول حسان [3] :

سالت هذيـــل رسول الله فاحشة ضلّت هذيل بما سالت ولم تصبِ [4]

فلا يمكن أن تكون « سال يسال » لغة في سأل بالهمز ، لأن الشاعر ليس من لغتـــه ترك الهمز [5] ، فقول حسان : سالت – البيت إنما هو على التخفيف البدلي [6] الضروري ، لأن لغته الهمز ، فسهل لضرورة الشعر ، ومثل ذلك ما عزى لبعض السهميين :

سالتاني الطـــلاقَ أنْ رأتاني قلّ مالي قد جئتما لي بنكرِ [7]

فهذا الشاعر لغته أن يهمز « سأل » ولكنه اضطر الى تحويل الهمز للضرورة الشعرية ، لا أن ذلك لهجته . ومن عجيب تلك المادة أنها جاءت بالهمز والإبدال في وقت واحد وصيغة واحدة– وعزى ذلك لبلال بن جرير :

إذا ضفتهم أو سآيلتهم وجدت بهم علّة حاضره [8]

وإنما المتبع لغويـــاً أن نقول : سائلت – بالهمزة ، أو تقول : سايلت على الإبدال من الهمزة – أما أن تجمع بينهما كما فعل بلال فذلك هو العجب ، ويزول هذا العجب عندما نسمع قول صاحب الهمع « وكأن هذه لغة الشعراء » [9] وهذا النص يشير الى أن هناك فرقاً بين لغـــة الشعر ولغة النثر في الاستعمال . وتشير النصوص السابقة الى أن تسهيل الهمز ، أو قلبها ياء ،

---

(١) مختصر شواذ القرآن : ابن خالويه : ١٦١ .
(٢) البحر المحيط : ٣٣٢/٨ .
(٣) شرح المفصل : ٩ : ١١٤ ابن يعيش .
(٤) وقد فسر المبرد سؤال هذيل هذا بقوله « وكانت هذيل سألت رسول الله « ص » أن يحل لها الزنا » الكامل المبرد : ٣٠٠/١ .
(٥) شرح ابن يعيش : ١١٤/٩ .
(٦) المخصص : ٢١٨/١٢ .
(٧) المخصص : ١٤/١٤ ، وانظر خزانة البغدادي : ٩٧/٣ والبيت فيها على صورة أخرى .
(٨) مجالس ثعلب : ٣٧٣/١ .
(٩) الهمع : ٣٧/١ .

للتخفيف ظهر في لهجة الرسول ﷺ وقريش ، وسعد بن بكر وكنانة ولهجات الحجازيين ، بل يظهر أنه شمل مناطق جغرافية أكثر من ذلك ، وأدلة هذا :

أ) ما جاء عن الغاضري : قد برئ فلان من وجعه يبرَى بَرياً — كله على التحويل وقريتَ القرآن فأنت تقرا وهو مقرٍ ، وخبيت المتاع فهو مَخبي — وقالوا : « جافلان ، وجايا ، وقد جاتِ المرأة ، والله المسول الخير ... » [١] فهذه الألفاظ التي جاءت عن غاضرة — ورد فيها البدل على غير وجهه ، والوجه في إبدالها أن يقال « قرات » بالألف وكأن غاضرة آثرت إبدال الهمزة ياء ، لأن الياء أقرب الى الألف من الواو ، ولأن اللام ياء أكثر منها واواً .

ب) كما جاء التحويل عن هذيل في قول أبي عمر الهذلي « قد توضيت » [٢] فلم يهمز . وإنما حول الهمزة ياء ، ومما يذكر أن الحسن قال يوماً لبعض جلسائه : توضيت ، فقيل له : أتلحن يا أبا سعيد ؟ فقال : إنها لغة هذيل . وعقب الرافعي على إجابته بقوله: وكان هذا الجواب أبين عن فصاحته من الفصاحة نفسها [٣] . كما ورد عن أبي عبيد : الجِيْاوة [٤] — وذكر ابن جني : هي الجواءة والجياء والجياءة ، والجِبارة — ثم قال ابن جنى — ترك الهمز لغة هذيل [٥] . ولعل أصلها : جثاء ثم خففت .

جـ) كما روي عن الأنصار كذلك قلب الهمزة ياء ويظهر هذا من قول ابن رواحة : (باسم الإله وبه بَدِينا) [٦] .

وابن رواحة هذا رضي الله عنه — أنصاري [٧] ، وأصل الفعل « بدأنا » — فلما خففت الهمزة كسرت الدال فانقلبت الهمزة ياء ، قال ابن برى : قال ابن خالويه « ليس أحد يقول : بَدِيْت بمعنى بدأت — إلا الأنصار » [٨] .

---

(١) نوادر أبي زيد : ٢٠١ .

(٢) اللسان : ١/١٤ .

(٣) تاريخ آداب العرب ج ١ للرافعي .

(٤) وهي الشيء الذي يوضع عليه القدر إن كان جلداً .

(٥) المخصص : ٥/٥٤ .

(٦) لغات مختصر ابن الحاجب : مخطوط دار الكتب ٤٧ لغة .

(٧) جمهرة اللغة : ٣/٢٠٢ .

(٨) اللسان : ١٨/٧١ .

ثانياً : أهل التحقيق من العرب :

وبالطبع ظهر تحقيق الهمزة في مناطق تختلف عن المناطق الجغرافية السابقة ، ويجب أن نعرض النصوص التي تشير الى تحقيق الهمزة أولاً – حتى يمكن أن نستدل على مناطقها في ضوء هذه النصوص وهي :

١ – ما جاء في الجمهرة من أن بني تميم يهمزون أحرفاً مما كان على وزن فعْل في موضع العين من الفعل ألف ساكنة نحو : « الفأس والرأس والكأس والرأل »[١] ، ولهذا يجب أن نكون على حذر مما جاء في المصباح « من أن بني تميم تترك الهمز لزوماً في كلمة الرأس »[٢] ، ومن التحقيق مـــا جاء في المخصص عن الفارسي « أن تميماً تهمز المئشار – وغيرهم لا يهمزه »[٣] وجاء في ابن يعيش أن الحجاج كان يهمز العألم والخأتم وهو القائل : (فخندفٌ هامــة هذا العألم) .

وعن أبي زيد أنه سمع عمرو بن عبيد يقرأ (فيومئذٍ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جأن) فظننته قد لحن ، حتى سمعت العرب تقول « دأبّة وشأبّة »[٤] في دابة وشابة . وما ورد في سر الصناعة يؤيد قلب الألف همزة – مما حكاه اللحياني عنهم (نأر)[٥] . في « نار » . وهمز هذه الصيغ الأخيرة قد أفضى الى تقسيم الحركة الطويلة الى حركتين قصيرتين ، وهذا يوضح لنـــا كيفية هروب بعض لهجات القبائل من الحركات الطويلة في المقاطع المقفلة .

٢ – كما ظهر تحقيق الهمزة في صورة العنعنة المعروفة ، وقد تقدم الحديث عنها ، وهي تشير الى الحرص على تحقيق الهمزة ، لاسيما في أول الكلمة أو آخرها خشية أن يجور عليها بدء النطق أو الوقف ، فيقوون الهمزة الى أن تكاد تقارب العين – وقد عزيت كما تقدم الى تميم وأسد وقيس .

٣ – وقد يكون من المستحب أن نعد مقارنة لهجية في الفعل (يرى) ومشتقاته ، لنتعرف على مذاهب المسهلين والمحققين من العرب في هذا الفعل ، قال سيبويه : « كل شيء كانت أوله

---

(١) الجمهرة : ٢٩٣/٣ .

(٢) المصباح : ٣٧٦ .

(٣) المخصص : س ١٣ : ص ٢٨٧ .

(٤) ابن يعيش : ١٣/١٠ ، سر صناعة الإعراب : ٨٣/١ ط الحلبي .

(٥) سر الصناعة : ١٠٢/١ ط الحلبي .

زائدة سوى ألف الوصل من (رأيت) فقد اجتمعت العرب على تخفيف همزه »[1] وكأن سيبويه يشير الى أن مشتقات تلك الصيغة لا تدخلها الهمزة ، وعلل ذلك أي عدم الهمز بقوله « وذلك لأنهم جعلوا همزة المتكلم في أرى – تعاقب الهمزة التي هي عين الفعل وهي همزة أرأى – وكأنهم فروا من إلتقاء همزتين »[2] . وأرى أن كلام سيبويه لا يثبت أمام الواقع اللغوي ، لأنه قد حكى عن العرب « قد أرآهم » وجـــاء في التهذيب « زيد يرأى رأياً حسناً »[3] ، وببيت سراقة البارقي :

أرى عينيْ ما لم تـَرأياه   كلانا عالمٌ بالترّهـّات[4]

وقد رواه أبو الحسن : ما لم ترياه – على التخفيف ، ورواه أبو زيد في نوادره « مـــا لم تبصراه »[5] ولا شاهد حينئذٍ فيها ، وفي اللسان « مـــا لم ترأياه »[6] وقد رواه الأخفش « ما لم ترياه »[7] وقـــد عزا اللسان همز الأفعال المستقبلة من هذه المادة (رأى) وهي : يرى ، ترى ، نرى ، أرى – الى تميم الرّباب فيقولون : هو يرأى ، وترأى ، ونرأى ، وأرأى . وإذا قالوا : متى نراك ؟ قالوا : متى نرآك ؟ مثل : نرعاك[8] ، وفي سر الصناعة : يرآك بوزن يرعاك[9] ، وعلى ذلك جاء قول شاعرهم ، وهو للأعلم بن جرادة السعدي :

ألم تر ما لاقيت والدهر أعصر   ومن يتمل العيش يرأ ويسمع[10]

ويمكن أن تثير رواية البيت على هذا الوضع شيئاً من الشك ، لأن الشاعر من الرباب ، وهم يهمزون كل مشتقات (رأى) ولهذا جاءت رواية اللسان :

---

(١) اللسان : ١٩/٣ .

(٢) اللسان : ١٩/٣ .

(٣) اللسان : ١٩/٤ .

(٤) سر الصناعة : ١/٨٦ ط الحلبي .

(٥) نوادر اللغة : لأبي زيد ١٨٥ .

(٦) اللسان : ١٩/٤ .

(٧) المرجع السابق .

(٨) اللسان : ١٩/٥ .

(٩) ١/٨٧ .

(١٠) سر الصناعة : ١/٨٧ ، شرح الشافية : ٤/٣٢٣ .

ألم ترأ ما لاقيت والدهر أعصرُ ومن يتملّ العيش يرأ ويسمع[1]

وهي أصح ، لأن (ألم ترأ) في صدر البيت حينئذ تتناسب مع (يرأ ويسمع) في عجزه . وأعتقد أن الهمز في هذا ليس مقصوراً على تَيْم الرباب كما في اللسان ، بل يشمل المنطقة المجاورة لها ومنها تيم ، وإذا علمنا أن الرباب كانت موصولة النسب بتميم ، وأن ديارها كانت على كثب منها[2] — صح ما استنبطه من أن الهمز شمل تيماً وتميماً ، ودليل آخر وهو أن الحجاز يتركون الهمز في الأمر ، فيقولون : رَذلك ، وللاثنين : رَيا ذلك ، وللجماعة رَوا ذلك ، وبنو تميم يهمزون جميع ذلك فيقولون : ارأ ذلك ، وارأيا ... »[3] ولننتقل بعد ذلك الى القرآن الكريم لنرى في صفحته آثار تلك اللهجات في تلك الكلمة :

١ — قال تعالى : « ألم تر كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل »[4] ذكر أبو حيان أنه نقل عن صاحب اللوامح : ترأ — بهمزة مفتوحة مع سكون الراء على الأصل — وعزاها لتميم[5] .

٢ — قال تعالى « فترى الذين في قلوبهم مرض »[6] ، «فترى القوم فيها صرعى»[7] ، « إني أرى في المنام »[8] ، « ويرى الذين أوتو العلم »[9] فكلها جاءت على لهجة الحجازيين ، كما قرأ الأعمش عن عاصم « فلما ترات الفئتان » بلا همز . وقرأ أبو جعفر وقالون وورش : أرأيتم . أرأيتكم . أرأيت . أفرأيت . بالتسهيل بين بين ، ولورش من طريق الأزرق وجه آخر وهو : إبدالها ألفاً خالصة مع إشباع المدّ للساكنين ، وحذفها الكسائي وهي لغة فاشية ، وحققها الباقون . (ابن خالويه ١٠٧ . إتحاف فضلاء البشر ٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٩٢) .

ولهذا فإني أقف موقف الشك مما ذكره : رابين « من أن تميماً تحذف الهمزة من الفعل يرأى فيكون يرى »[10] ، ومما يؤكد شكي ما نقله البغدادي عن أبي زيد من قول الشاعر :

---

(١) اللسان : ٥/١٩ .
(٢) معجم قبائل العرب : ٤١٥/٢ .
(٣) اللسان : ٥/١٩ .
(٤) سورة الفيل : آية ١ .
(٥) البحر : ٥١٢/٨ .
(٦) سورة المائدة : آية ٥٢ .
(٧) سورة الحاقة : آية ٧ .
(٨) سورة الصافات : ١٠٢ .
(٩) سورة سبأ : آية ٦ .
(١٠) رابين : P. 131 .

هل ترجعنّ ليالٍ قد مضينَ لنا   والعيش منقلب إذ ذاك أفنانا
لما استمر بهـا شيحان مبتجح   بالبين عنك بما يرآك شنآنا[1]

وصاحب هذا الشعر أعرابي من بني تميم[2] .

كما ظهر تحقيق الهمزة عند بعض القبائل الأخرى :

أ) فقد جاء تحقيقها في قبيلة غني ، فقد روى أبو زيد « سمعت رجلاً من غني يقول هذه قسمه ضئزى »[3] بالهمز ، وفي المحتسب في سورة البقرة آ (١٦) أن قيساً تقول « اشترؤوا الضلالة » .

ب) وفي قبيلة عكل ، وقد روى ابن جني عن قطرب أن بعض عكل يقولون « ترَقؤَة » بالهمز وأصلها ترقوة[4] .

جـ) كما روي أن أبا المفضل – وهو أعرابي من بني سلامة من أسد – قال الضّنْء : الولد ، والضّنْء : بينما رواها أبو عمرو : الضّنو ، والضّنو بلا همز[5] .

د) أنه قرىء « قالوا يا ذا القرنين إنّ يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض »[6] بالهمز ، وهي قراءة عاصم والأعمش ويعقوب ، وقد ذكر الفراء أن الهمز فيها لغة أسد[7] .

هـ) روي عن عقيل أنها تهمز (الجؤنة ، والمؤسى ، والحؤت) بدلاً من نطقها بغير همز وهو الشائع[8] . هذا كله إذا كانت الهمزة واحدة .

فإذا اجتمع الهمزتان ازداد الثقل ووجب التخفيف ، ولها حالتان :

الأولى : إما أن تكون الهمزتان في كلمتين :

---

(١) شرح شواهد الشافية : الشاهد : ١٦٠ – الشيحان = الغيور ، المبتجح = المفتخر .
(٢) شرح شواهد الشافية : ٣٣٠/٤ .
(٣) المخصص : ٢٠٩/١٢ .
(٤) الخصائص : ٢٠٧/٣ .
(٥) اللسان : ٢٢٢/١٩ .
(٦) سورة الكهف : آية ٩٤ .
(٧) البحر المحيط : ١٦٣/٦ والاتحاف : ٢٩٥ .
(٨) في اللهجات العربية : ١٠٠ .

وذلك في : اقرأ آية ، واقرىء أباك السلام – فأهل الحجاز يخففونها معاً ، وغيرهم يحقق ، وساق الرضي وجوه هذا التخفيف[١] ، ومن طرق التخفيف ما ذكره السيرافي في مخطوطته من أنهم يقلبون الأولى ألفاً ، لأنها ساكنة وقبلها فتحة ، ويجعلون الثانية بين بين[٢] ، فيقولون «اقرا آية » ، وفي « أقرىء أباك السلام » على لغة الحجاز « أقريَ اباك السلام »[٣] يقلبون الأولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ، ثم يلقون حركة الثانية على الياء وتسقط الثانية .

الثانية : أو تكون الهمزتان في كلمة واحدة :

أ) فإذا كانت غير همزة استفهام وذلك مثل (أئمة) بهمزتين ، فقد قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي « فقاتلوا أئِمّةَ الكفر »[٤] ، «وأئِمّةً يهدونَ بأمرنا»[٥] ، «ونجعلهم أئِمّةً»[٦] وغيرها من الآيات بتحقيق الهمزتين[٧] .

وهذا مذهب من يميـــل الى تحقيق الهمز من القبائل العربية ، لأن ثلاثة من القراء السابقين كوفيون ، والكوفة متأثرة بقبائل شرق الجزيرة كتميم وغيرها ، وهم يحققون الهمز .

ولهذا يكون سيبويه قد جانبه الصواب حيث قـــال « إنه ليس من كلام العرب أن تلتقي همزتان فتحققا»[٨] ويسير ابن جني على طريقه حيث يقول « فالهمزتان لا تلتقيان في كلمة واحدة إلا أن تكونا عينين نحو : سئّال وسئّار »[٩] وهما محجوجان بقراءة الكوفيين في « أئمة » ، وبما سمعه أبو زيد عن بعض العرب « اللهم اغفر لي خطائئي »[١٠] وعلى مثل هذا جاء :

فإنك لا تدري متى الموت جائىء   إليك ولا ما يحدث الله في غد[١١]

---

(١) شرح الشافية : ٦٦/٣ .

(٢) شرح السيرافي على سيبويه : ٢٨/٥ خط .

(٣) شرح السيرافي : ٢٨/٥ مخطوط .

(٤) سورة التوبة : آية ١٣ .

(٥) الأنبياء : ٧٣ .

(٦) القصص : آية ٥ .

(٧) النشر : ٣٧٨/١ .

(٨) الشافية : ٦٥/٣ .

(٩) الخصائص : ١٤٣/٣ .

(١٠) الشافية : ٥٨/٣ .

(١١) الخصائص : ١٤٣/٣ .

كما وردت في الآيات السابقة قراءات أخرى :

١ ـ أن تخفف الهمزة الثانية بجعلها بين الهمزة والياء[١] .

٢ ـ أن تزيد ألفاً بين الأولى والثانية[٢] . كراهة اجتماع الهمزتين .

٣ ـ وآخرون من القراء الى جعلها ياء خالصة ـ نص على ذلك أبو عبدالله بن شريح[٣] .

وقد رمى الزمخشري هذه القراءات الأخيرة باللحن[٤] . ولكنها ثبتت قراءة فكيف تكون لحناً ؟ مع أمانة الرواية وصحة السند ، ثم هي تصور لهجات القبائل العربية ومذاهبهم في التحقيق ، والتسهيل ، وبين بين ـ وهذه القبائل نزل القرآن بلهجاتها « والقراءات جاءت على لغة العرب قياسها[٥] وشاذها » .

ب) أو تكون الهمزة الأولى همزة استفهام ، والتخفيف إنما يلحق الثانية ، لأن التخفيف لا يكون في الابتداء .

ففي قوله تعالى « سواء عليهم أأنذرتهم »[٦] فأهل الحجاز لا يرون الجمع بينهما طلباً للتخفيف . وقرأ الحرميان وأبو عمرو وهشام بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية[٧] ، ومنهم من حقق الهمزتين وهم عاصم وحمزة والكسائي ، وقرأ أبو عمرو (آانذرتهم) مطولة . وقرأ عبدالله بن أبي إسحق « آأنذرتهم » بألف بين الهمزتين ، وهي لغة سائرة بين العرب[٨] ، وعلل لهذه القراءة السيرافي : بأنهم كرهوا التقاء الهمزتين ففصلوا . واستشهد لها سيبويه بقول ذى الرمة :

فيا ظبية الوعساء بين جلاجل ... وبين النقا آأنت أم أمّ سالم[٩]

---

(١) الشافية : ٥٨/٣ .

(٢) الشافية : ٥٨/٣ .

(٣) النشر : ٣٧٩/١ .

(٤) النشر : ٣٨٠/١ .

(٥) البحر المحيط : ٤٩٣/٨ .

(٦) سورة البقرة : آية ٦٠ .

(٧) البحر المحيط : ٤٧/١ .

(٨) اللسان : ١١/١ .

(٩) السيرافي : ٢٨/٥ بالتيمورية ، وكتاب سيبويه : ١٦٨/٢ .

وهؤلاء أهل التحقيق . وأما أهل الحجاز فيدخلون ألفاً بين الهمزتين لئلا يلتقي همزتان ، ثم يلينون الثانية[1] . وإنما جاء هذا التخفيف والتسهيل للهمزة ، لأنها كما يقول ابن يعيش فيها : نبرة في الصدر تخرج باجتهاد فثقل عليهم إخراجها[2] ، إذ تحدث من حفز قوي من الحجاب وعضل الصدر[3] — كما رآها ابن سينا . وعلى أي حال فهي أدخل الحروف في الحلق ، ولهذا ثقلت على لسان الناطق بها ، لأنها كما جاء في الشافية « لها نبرة كريهة تجري مجرى التهوع »[4] .

تعقيب :

من هذا العرض وجدنا أن القبائل التي تميل الى تحقيق الهمز هي :

١ — تميم (٢) تَيْم الرباب (٣) غني (٤) عكل (٥) أسد (٦) عقيل (٧) قيس (٨) بنو سلامة من أسد . بينما القبائل الأخرى :

٢ — كالحجاز — وغاضرة ، وهذيل ، وأهل المدينة والأنصار ، وقريش ، وكنانة وسعد بن بكر — يميلون الى البعد عن الهمزة ، بتخفيفها أو تسهيلها تارة ، أو تحويلها أو نقلها تارة أخرى .

ويظهر من هذا التقسيم أن قبائل البدو تجنح الى تحقيق الهمزة وجميعها تتمثل في القسم الأول ، وأما القسم الثاني فأكثرها قبائل حضرية ، لذلك مالت الى التخلي عن الهمزة ، إلا غاضرة — فلا نعرف تحديدها بالضبط ، وبالرجوع الى كتب الأنساب وجدنا عدة قبائل مختلفة النسب تسمى كل منها غاضرة ، فغاضرة — من ثقيف ، وغاضرة من بكر بن هوازن ، وغاضرة من كندة ، وغاضرة من خزاعة[5] ، وغاضرة من أسد .

وأرجح أن غاضرة — تلك التي أثر عنها تحويل الهمزة ، وتخفيفها — أنها تنسب الى إحدى

---

(١) شرح السيرافي : ٥/٢٩ مخطوط .

(٢) ابن يعيش : ٩/١١٦ .

(٣) أسباب حدوث الحروف — ابن سينا : ص ١١ ط السلفية .

(٤) النبرة — ارتفاع الصوت ، يقال : نبر الرجل نبرة ، إذا تكلم بكلمة فيها علو : قال الشاعر :

إني لأسمع نبرة من قولها ... فأكاد أن يغشى عليّ سرورا

(٥) التهوع : تكلف القيء : شرح الشافية : ٣/٣١ وما بعدها .

(٦) معجم كحالة : ٣/٨٧٤ .

القبائل المتحضرة : كخزاعة ، أو ثقيف ، أو هوازن ، أمـــا غاضرة – التي تنسب الى أسد فأرجح أنها كانت تحقق الهمزة .

هذا ويجب في دراستنا لباب الهمز أن نكون على حذر تام لنصوص قد تعزو ظاهرة الهمز – الى بعض القبائل ، ولكن بفحص النص فحصاً داخلياً يتبين عدم الأخذ بهذه النصوص ، فقد روى الأزهري بإسناده عن الفراء قال : سمعت أعرابياً من بني سليم ينشد :

(فإنها حِيَل الشيطان يَحْتَئِل)[١]

وأصله من الحيلة[٢] كما جاء في المصباح . فقبيلة سليم في ضوء هـــذا النص تهمز ، ولكنني لا أرى هذا ، لأن الفعل يحتال – فالشاعر السليمي اضطر الى حركة الألف ، فلما حركها انقلبت همزة – إلا أنه حركها بالكسر ، لأنه أراد الكسرة التي كانت في الواو المنقلبة الألف عنها ، وذلك لأن أصل المادة (حول) بكسر الواو ، فالشاعر السليمي همز للضرورة . كقول الآخر :

يا دار ميّ بدكاديـــك البُرق سقياً وإن هَيَّجْت شوق المشتئق[٣]

فأصل : المشتئق : المشتاق ، فقلب الألف همزة للضرورة ، فالهمز كذلك في بيت السليمي للضرورة وليس من لغته لسببين : الأول : أن سليماً كانت تسكن الحجاز[٤] ، وأغلب الحجاز لا يهمز ، والثاني: أنه جاء في اللسان أن رجلا من بني سليم يقول: يحتال – بلا همز[٥] . وكذلك يجب أن نقف موقف الشك مما ذكره السيرافي في شرحه لكتاب سيبويه حيث قال : « وبنو تميم من لغتهم تخفيف الهمز »[٦] ، ولكنني أرجح أن ناسخ شرح السيرافي هو الذي حرف في الكتابة ، بدليل ما ذكره السيرافي بعد النص السابق مقابلا له « وأهل الحجاز يخففون »[٧] فالتحريف لهذا من كاتب النسخة لا من السيرافي المؤلف ، لأن سياق النص يقابل بين تميم التي تحقق ، والحجاز التي تخفف . ولكن هل معنى هذا أن هذا التقسيم السابق ضربة لازب ؟

---

(١) اللسان : ١٣/١٩٨ - ١٩٩ .

(٢) المصباح : ١/٢٤٤ .

(٣) سر صناعة الإعراب : ١/١٠٢ .

(٤) تاريخ العرب : ٤/٣٢٤ جواد علي .

(٥) اللسان : ١٣/١٩٨ - ١٩٩ .

(٦) شرح السيرافي : ٤/٣٣٠ مخطوط .

(٧) المرجع السابق .

الحق أنه يجب ألا نقلق إذا وجدنا بعض الظواهر اللهجية في الهمز تناقض ما عرفناه ، لأن اللهجات لا تميل الى المحافظة بل هي تهدف الى التطور بعكس اللغة الفصحى ، ومن هذه الأمثلة:

أولاً : أ) قال أبو عبيدة : قال يونس « وأهل مكة يخالفون غيرهم من العرب ، فيهمزون النبي عليه السلام ، والبرية والذّريّة »[1] .

ب) وفي التهذيب كما في اللسان « وأهل مكة يخالفون غيرهم من العرب يهمزون البريئة ، والنبيء والذريئة »[2] ، كما زاد ابن سيدة كلمة أخرى وهي « الخابية »[3] فإن أهل مكة ينطقونها بالهمز أيضاً ، وذهب الى ذلك ابن الأثير في النهاية[4] .

جـ) وينقل ابن منظور عن سيبويه نصاً مؤداه أن العرب تركوا الهمز في « النبي » كما تركوه في « الذرية ، والبرية ، والخابية » — إلا أهل مكة فإنهم يهمزون هذه الأحرف ، ولا يهمزون غيرها ، ويخالفون العرب في ذلك »[5] ثم قال : « والهمز في النبي لغة رديئة »[6] . ولا بد لنا من تحليل هذه الكلمات ، قبل مناقشة النصوص ، (فالبرية) : معناها : الخلق ، وهي كما قال الفراء من برأ الله الخلق — فأصلها على ذلك الهمز[7] ، وان أخذت البرية من البري : وهو التراب فأصلها غير الهمز[8] .

(والنبي) : أصلها من النبأ[9] ، وقال الفراء : هو من (أنبأ عن الله)[10] ، وقد يؤخذ من النبوة والنباوة — وهي الارتفاع عن الأرض : أي أنه أشرف على سائر الخلق — وأصله غير

---

(١) إصلاح المنطق : ١٥٩ ابن السكيت .
(٢) لسان العرب : ٢٢/١ .
(٣) المخصص : سفر ١٧ : ص ١٥٣ ، سفر ١٤ ص ٨ .
(٤) النهاية : ١٢٠/٤ ابن الأثير .
(٥) اللسان : ١٥٧/١ .
(٦) المرجع السابق .
(٧) اللسان : ٢٢/١ ، المخصص : ١٥٣/١٧ .
(٨) اللسان : ٢٢/١ .
(٩) المخصص : سفر ١٧ : ص ١٥٣ .
(١٠) اللسان : ١٥٧/١ .

الهمز »[1] و (الخابية) : أصلها الهمز من خبأت[2] .

و (الذرية) : من ذرأ الله الخلق[3] ، أي خلقهم . يؤيد هذا مـــا جاء من قراءة زهير عن خُصَيْف في المحتسب من سورة الأعراف آية ١٧٢ « من ظهورهم ذُرِّيئَتَهم » .

وإذا كان أهل مكة ينطقون ذلك بالتحقيق ويخالفون غيرهم من العرب الذين يسهلون ذلك بل انهم يخالفون طبيعتهم ، لأن طبيعتهم اللغوية هي النفور من الهمز ، فكيف حققوا ذلك ؟ وأقترح للإجابة ما يأتي :

أ) أن ذلك الشذوذ في لهجة مكة ، وميلها الى التحقيق في تلك الألفاظ – مع أنها تنفر من الهمز في لهجاتها – ليس غريباً إذا مـــا فهمنا أن اللهجات تخضع لظروف المجتمع والبيئة فهي مرنة متقلقلة ، « وليس شأنها في ذلك شأن القوانين الطبيعية في الكون تلتزم حالة واحدة لا شذوذ فيها »[4] ، ومما يقوي تلك النظرة أن نافعاً (١٦٩ هـ) وهو حجازيّ كان يحقق[5] (النبيين[6] ، النبيون[7] ، الأنبياء[8] ، النبي[9] ، النبوّة)[10] وكان يقرأ كل ذلك بالهمز على الأصل ، مع أنه في بيئة تنفر من الهمز .

ب) أن تحقيق الهمز في تلك الأربعة ، في بيئة عرف عنها النفور من الهمز ، ربما يرجع الى أن بعض الأشخاص في البيئة المكية نطقوا بها محققة ، فحاكاهم الآخرون ، وهذا كما يحدث لشخص زار القاهرة ومكث فيها أياماً ثم عـــاد الى بلده الريفي ، وتراه يتمثل بالنطق القاهري في قلب القاف همزة – ثم يقلده في ذلك بعض رفاقه ، ولعل سبب انتشار تلك الظاهرة في مكة يرجع الى عامل المحاكاة .

(١) اللسان : ١٥٧/١ .

(٢) المخصص : سفر ١٧ : ص ١٥٣ .

(٣) المخصص : سفر ١٤ : ص ٨ .

(٤) في اللهجات العربية : ٦٧ ط ٢ .

(٥) إتحاف فضلاء البشر : ١٣٨ .

(٦) سورة البقرة : آية ٦١ .

(٧) سورة البقرة : آية ١٣٦ .

(٨) سورة آل عمران : آية ١١٢ .

(٩) سورة الأنفال : آية ٦٤ ، ٦٥ .

(١٠) سورة الحديد : آية ٢٦ .

جـ) أن تحقيق هذه الأربعة يعتبر من قبيل المبالغة ، لأن أهل مكة وهم أهل تسهيل شعروا بالنقص ، لأن اللغة الفصحى تحقق الهمز وهم يسهلون – « فالتحقيق في النبي والذرية ، والخابية ، والبرية – هو كرد فعل لإحساسهم بشعورهم بالنقص في الظاهرة العامة عندهم ، وهي تسهيل الهمزة »[1] ، ولهذا يقول رابين (وكان شعراء الحجاز غالباً ما يعاملون همزة الوصل كأنها همزة قطع ، مبالغة منهم في تحقيقها ، لأنهم شعروا بتسهيلها عنـــدهم فأراد الشعراء منهم تحقيقها حذلقة)[2] .

ومن ذلك قراءة معاذ وابن مسعود وأبي المتوكل « تزوئر » بسكون الزاي وبالهمز وبالراء مشددة (ابن خالوية ٧٨ والبحر ١٠٨/٦) وذلك في قوله تعالى : « وترى الشمس إذا طلعت تزاور » الكهف ١٧ .

وكذلك قراءة أبي عثمان النهدي وغـــيره « وازْ يَأنَتْ » (ابن خالويهْ ص ٥٦ والمحتسب ٣١٢/١ ط المجلس الأعلى . والبحر ١٤٤/٥) وذلك في قوله تعالى « حتى إذا أخـــذت الأرض زخرفها وازّيّنتْ » يونس ٢٤ . وأصل القراءة الأولى من : الزور وهو : الميل ، ومنه زاره إذا مال إليه ، والثانية : من الزينة ، وكانت في الأصل بوزن : احمارّتْ – فكرهوا الجمـــع بـــين ساكنين ، فحركت الألف فانقلبت همزة مفتوحة وعليها قول الشاعر : إذا ما الهوادي بالعبيط احمأرّت .

وقول كثير :

وللأرض أما سودها فتجلّلتْ   بياضا وأما بيضها فادهأمّت

وفي رواية : فاسوأدّت . مـــكان : فادهأمّت . (المحتسب ، والخصائص ١٢٧/٣ . وسرّ صناعة الإعراب ٨٤ . والبحر لأبي حيان) .

د) وصنيع أهل مكة في هذا ومخالفتهم للعرب ، حيث أن العرب يسهلون ذلك تدعونا الى أن منطقة مكة في هذه الألفاظ أشبه بالجزيرة اللغوية Speech Island لأن خصائصها في هذا متميزة تخالف ما يشيع عند العرب .

والآن نريد أن نناقش سيبويه في قوله : « والهمز في النبي لغة رديئة »[3] ، مع أن ابن سيدة

---

(١) Rabin Ancient, West ... P. 133 .

(٢) المرجع السابق ، وانظر Schwartz ديوان عمر بن أبي ربيعة ، الكراسة الرابعة .

(٣) اللسان : ١٥٧/١ .

نقل عن سيبويه بأن « أصل النبي » – الهمز – بل قال سيبويه [1] « وهو الصحيح الذي لا يجوز غيره » والدليل على أن النبي أصله الهمز عند سيبويه قوله « وليس أحد من العرب إلا وهو يقول تنبأ مسيلمة » [2] وإذا كان سيبويه مؤمناً بأن أصلها الهمز فلم استردأها ؟ بل كنّا ننتظر منه أن يقول بأن همزه جيد – ويظهر أن سيبويه إنما استردأه بالهمز لشذوذه عن الاستعمال ، وإن كان مطرداً في القياس ، فقلة استعمالها بالهمز هو الذي جعل سيبويه يقول برداءتها . ولكن رغم هذا الدفاع عن سيبويه فلا زالت التهمة متمسكة بأثوابه ، لأن نافعاً حقق ذلك في قراءته ، وقرأ : النبيء [3] بالهمز في القرآن ، كما قرأ هو وابن ذكوان قوله تعالى : « أولئك هم خـير البرية » [4] بالهمز [5] . وما كان لسيبويه ولا لأمثاله أن يحكم عليها بالرداءة « وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة ، والأقيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر ، والأصح في النقل والرواية ، إذا ثبت عنهم لم يردها قياس عربية ، ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها » [6] ونافع بن أبي نعيم (توفي ١٦٩ هـ) أحد القراء السبعة والأعلام ، وقال فيه مالك بن أنس قراءة نافع سنة ، وترجم له صاحب طبقات القراء وذكره بأنه « ثقة صالح» [7] ولهذا كله كانت التهمة محيطة بسيبويه حيث استردأ قراءة متواترة عن رسول الله ﷺ منقولة عنه طبقة بعد طبقة حتى وصلت « نافعاً » وهو في الضبط والتحري بالمكان الذي لا يجارى .

ثانياً : أ) ما جاء في الأمالي من أن لغة الحجاز – ذأى البقل يذأى ، وأهل نجد يقولون: ذوَى يذوِي [8]. ورواية أخرى مثلها جاءت عن ابن السكيت [9]، كما وردت رواية عن الأصمعي [10] .

---

(١) المخصص : سفر ١٧ : ص ١٥٢ ، ٨/١٤ .

(٢) المخصص : سفر ٧/١٤ .

(٣) إتحاف فضلاء البشر : ١٣٨ .

(٤) سورة البينة : آية ٧ .

(٥) إتحاف فضلاء البشر : ٤٤٢ .

(٦) القراءات واللهجات : ١٦٣ الأستاذ حمودة ط الأولى .

(٧) طبقات القراء : ٣٣٠/٢ ابن الجزري .

(٨) المزهر : ٢١٥/١ .

(٩) المزهر : ٤٦٣/١ .

(١٠) أمالي القالي : ١٦٦/٢ - ١٦٧ .

ب) جاء في المخصص عن أبي حاتم : أن أهل العالية يقولون : عظاءة ، وتميم يقولون : عظاية والجمع عندهم جميعاً العظاء[1] . وفي إبدال السكيت : أن تميماً يقولون : عباية ، وعظاية[2]، وصلاية ، وسحاية[3] ، وغيرهم بالهمز ، وذكر هذه الصيغ ابن جني[4] ولم يعزها . ولا شك أن أهل العالية كان يقصد بها أحياناً كما يقول ابن منظور « الحجاز وما والاها »[5] . فتكون الحجاز قد همزت ، وتميم قد سهلت ! ، قال ابن سيده[6] : فمن همز ، فعلى حكم التذكير بناه عليه ، ومن لم يهمز فإنه عنده تأنيث لحق آخر الاسم فتغير حكمه ، فجعلوه ياء ، لأنه لما اتصل بـه حرف التأنيث ولم يقع الإعراب على الياء – صارتا كأنها في وسط الكلمة كقولهم : مذروان . وقد نقل بعض الباحثين أن التميميين يقولون : رثأت ، وعباءة ، ونبيء ، بينما يقابلها : رثيت وعباية ونبي ، عند الحجازيين[7] . ولكن الثابت : أن التميميين كانوا يقولون : عباية – بدون همز ، كما أن أهل مكة كانوا ينطقون النبي – بالهمز ، وسبق أن نافعاً وهو حجازي كان يحقق : النبيين، والنبيون[8] ، وأما بقية العرب بما فيهم تميم – فكانوا يسهلون النبي . ولعل الذي أوقع بعض العلماء في تلك الشبهة أن المعروف في تميم الهمز ، وفي الحجاز التسهيل .

جـ) ما جاء في ديوان الأدب للفارابي « الظام » السِّلْف غَيْر مهموز في لغة عُكْل – وغيرها يهمزها[9] .

د) قرأ النخعي وابن وثاب قوله تعالى « وأوحينا الى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس ... »[10] بفتح النون وتخفيف الهمز من يونس ، وهي لغة لبعض عقيل[11] .

---

(١) المخصص : س ٨ : ص ١٠٠ .

(٢) العظاية : دويبة كسام أبرص ، والصلاية : مدق الطيب : المخصص : ٨/١٠٠ ، والمصباح : ٢/٦٣٩ .

(٣) إبدال ابن السكيت : ٥٦ .

(٤) سر الصناعة : ١/٧٩ ط الحلبي .

(٥) اللسان : ١٩/٣٢٠ .

(٦) المخصص : س ١٤/١١ .

(٧) تاريخ الأدب العربي : ١/١٢٤ د. شوقي ضيف .

(٨) الإتحاف : ١٣٨ :

(٩) ورقة : ٣١٩ مخطوط بالتيمورية لغة .

(١٠) سورة النساء : آية ١٦٣ .

(١١) البحر المحيط : ٣/٣٩٧ .

هـ) وعزى الى هذيل أنها تبدل الواو المكسورة المصدرة همزة فيقولون «إِشاح في معنى وِشاح»[1]، «إِلدة في ولدة»[2] قال الهذلي:

له إلدةٌ سُفْعُ الوجوه كأنّها يصفّقهم وعْكٌ من الموم ماهن[3]

كما يقولون: «إِعاء في وِعاء»[4] وشاهده قول الأعلم:

هواء مثل بعلك مستميت على ما في إعائك كالخيال[5]

وعلى لغة هذيل تلك قرأ ابن جبير قوله تعالى «ثم استخرجها من وعاء أخيه»[6] إعـاء بإبدال الواو المكسورة همزة[7]. ولهذا أرجح أن الدكتور شوقي صيف قد ألبس عليه حين قال «وكانت قبيلة هذيل تقول «وشاح» بدلاً من «اشاح»[8]. ولكنني أرجح العكس، ولم يقتصر الأمر على الواو المكسورة، بل وردت شواهد على إبدال الواو المضمومة همزة في شعر معقل بن خويلد، ومالك بن خالد الخناعي، وهما من هذيل «ديوان الهذليين: ٣/٤، ٦٥».

ومن هذا العرض نرى ان عكلا – وهي قبيلة بدوية من طابخة متصلة بتميم البدوية، نراها قد سهلت الهمزة على غير عادتها، كما رأينا هذا التسهيل في عقيل وهي ضاربة في البداوة، أما هذيل والتي صرح أئمة اللغة بأنها تسهل الهمز – فقد رأيناها هنا تحققه على غير مـا اعتادته، وكذلك أهل مكة – رأيناهم يحققون الهمز في عدة ألفاظ – وهذا إن دل – فإنما يدل على أن الفروق اللهجية بين الكتلتين مضطربة، وذلك مما يؤيد نظرتنا في عدم الفصل بـين الكتلتين الشرقية والغربية، لأن نظام اللهجات ليس نظامـاً رياضياً بحتاً، ولا قانوناً يلتزم السير عليه ولكن الشذوذ فيه هو القاعدة، والحق أن أحكام الهمز وطرقه واختلافه – من أشق البحوث على الدارسين، ولا بد لدراسته دراسة جدية من البحث في تاريخه وأولياته ورسمه، لأن الهمزة

---

(١) الجمهرة: ١٦١/٢.

(٢) إبدال السكيت: ٥٧.

(٣) ديوان هذيل: ٤٩/٣ دار الكتب.

(٤) عبث الوليد: ١٨٣ دمشق.

(٥) ديوان هذيل: ٨٣/٢.

(٦) سورة يوسف: آية ٧٦.

(٧) البحر المحيط: سورة يوسف: ٧٦.

(٨) تاريخ الأدب العربي: ١١٤/١ ط أولى.

لم ترسم في القرآن كما نراها الآن ، وإنما كانت نقطة في قفا الألف تارة أو بين يديه تارة أخرى[١]، ففي قوله تعالى « بل أتيناهم بذكرهم » كانت تكتب (اتيهم) وفي قوله تعالى « ولقد آتيناهم » كانت الهمزة تكتب نقطة بين يدي الألف وترفعها قليلاً الى رأس الألف مثل (ناتيهم) ، لأن (أتيناهم) الأولى بمعنى جئناهم – والثانية بمعنى أعطيناهم[٢] .

ويضرب السجستاني أمثلة لاختلاف الهمزة وأنواعها مسهلة أو محققة فيحدثنا أن « السفهاء ألا »[٣] إذا همزتها نقطت على الألف الأولى نقطة بين يديها ، وعلى الأخرى نقطة فوقها مثل : (السفهاء الا)، وإن شئت تركت همزة الأولى، وهي قول عمرو بن العلاء : إذا اختلفتا تركت الآخرة ولم ينقط عليها ، وإن أحببت فانقط عليها بخضرة ليعرف أنها تقرأ على وجهين[٤] . أما الداني[٥] فتختلف ألوان النقط عنده ، من حمرة الى صفرة ، تبعاً لاختلاف مذاهب العرب في تحقيق الهمز وتسهيلها ، ويظهر أن النقط وحده لم يظهر كعنوان على الهمزة بل ظهرت أنواع أخرى حلت محل الهمز، ويرى Noldeke[٦] أن هناك مجموعة من المصاحف كانت تستعمل قبل الهمزة المعروفة لنا رسماً يقرب من العدد (٧) ومكتوب بمداد أحمر ، وفي بعض المخطوطات إشارة أخرى وهي عبارة عن ثلاث نقط ترسم بالمداد الأحمر إما عمودية كما في (ازلنه) أي (أنزلناه) وإما مثلثة كما في كلمة (ؤمنون) أي (يؤمنون) .

ولهذا يجب لمن يتصدى لبحث الهمزة – أن يدرس تاريخ رسمها الطويل وأنظمته ، ولون النقط الذي كان يستعاض به عنها ، وأشكاله الهندسية حتى تكون الأحكام عليها أقرب الى الصحة .

ومما لا شك فيه أن الرسم القرآني كان صدى للهجات العربية المختلفة ، بل قراءاته المختلفة تعطينا ألواناً من التوسط (أي بالتحقيق مرة وبالتسهيل مرة أخرى) ويظهر ذلك في تتبع نموذج منه :

---

(١) كتاب المصاحف : ١٤٤ للسجستاني . نشر الدكتور آثر جفري .

(٢) كتاب المصاحف : ١٤٥ للسجستاني : نشر الدكتور آثر جفري .

(٣) الى السجستاني : ص ١٤٧ « السفهاء » إلا : وصحة الآية الكريمة « السفهاء ألا » البقرة : ١٣ .

(٤) السجستاني : ١٤٧ .

(٥) المقنع : ص ١٣٦ ط دمشق .

(٦) مجلة كلية الآداب : ١٣١ عدد ٨ مجلداً .

١ – إن يشأ يذهبكم[١] – إن يشا يذهبكم ، بالهمز وبدونه .

٢ – وقراءة مجاهد « يؤقد[٢] من شجرة » في « يوقد » بالهمز وبدونه .

٣ – وقراءة قنبل « بالسؤوق »[٣] وقراءة حفص « بالسّوق » بغير الهمز .

٤ – وقرىء (مؤصدة) و (موصدة) ويقول أبو بكر بن عياش الكوفي (كان لنا إمام يهمز (موصدة) فأشتهي ان أسدّ اذني إذا سمعته)[٤] وسبب ذلك انحباس الهواء في المزمار عند النطق بالهمز انحباساً تاماً ، ثم انفراج المزمار فجـأة ، وهي عملية تحتاج الى مجهود عضلي كبير . ولهذا لاحظ نولدكه – ان الكتابة القديمة للقرآن يبدو فيها عدم الاطراد[٥]؛ لأنها كانت مرآة للهجات العرب ، ولهذا أيضاً يقول ابن يعيش « وإنما كتبت الهمزة تارة واواً وياء أخرى على مذهب أهل الحجاز في التخفيف »[٦] .

---

(١) سورة النساء : آية ١٣٣ .

(٢) النور : آية ٣٥ .

(٣) سورة : ص ٣٣ وانظر الإتحاف : ٣٧٢ .

(٤) الكشاف : ٦٠٤/٤ .

(٥) Rabin Ancient P. 133 .

(٦) ابن يعيش : ١٢٦/١٠ .

الفصل الرابع

اتساع مدرج العربية ولهجاتها في إبدال الحروف

علاقة هذا الفصل بما قبله تتضح عندما نفسر الإبدال بأنه تناسب أصوات الحروف في لهجة القبيلة — فهو من أجل هذا شبيه بالإمالة والإدغام في تقريب الصوت بعضه من بعض، والإبدال إما أن يكون لإدغام أو لا.

١ — فالأول: إذا تجاور حرفان بينهما علاقة مخرجية ووصفية فقبل أن تحدث عملية الإدغام — لا بد أن تسبق بعملية إبدال، حتى تحدث عملية التماثل والتي يكون على أساسها الإدغام وذلك كقراءة بعضهم «فَلَا جُنَاحَ عليهما أنْ يصلحا بينهما صلحاً»[1] بتشديد[2] الصاد، فأصلها «اصطلحا» أبدلت الطاء صاداً ثم حدث الإدغام، وكما حدث هذا حدث مثله في قراءة بعضهم «تأخذهم وهم يخصّمون»[3] فأصلها «يختصمون» فالتاء والصاد من الحروف المتقاربة فيجوز بينهما الادغام، ولكن لا يصح الإدغام إلا بحدوث التماثل بينهما، ولهذا أبدلوا من التـــاء صاداً فصارت «يخصصمون» ثم أدغمت الصاد الأولى في الثانية فالتقى ساكنان الخاء والمثل الأول فتخلص بكسر الأول.

٢ — وإذا لم يكن الإبدال لغير الإدغام كان على ثلاثة أنواع:

أولاً: ما يبدل من غيره ندوراً وذلك في سبعة أحرف وهي: ق، خ، ذ، ظ، ض، ح، غ. وذلك مثل: وقنه في وكنة، وأخن في أغن، وتلعذم في تلعثم الخ.

ثانياً: ما يبدل من غيره ابدالاً قياسياً شائعاً مضطراً إليه في التصريف بحيث يوقع تركه في الخطأ. وذلك في تسعة أحرف جمعها ابن مالك في قوله: هدأت موطيا[4].

---

(١) سورة النساء: آية ١٢٨.

(٢) سر صناعة الإعراب: ١/١٩٠.

(٣) سورة يس: آية ٤٩.

(٤) شذا العرف: ١١٣.

ثالثاً : ما يبدل من غيره شيوعاً من غير اضطرار إليه في التصريف بأن يشيع عند قوم مقصوراً على السماع وذلك ما أشارت إليه الروايات اللغوية معزواً لقوم أو لقبائل مخصوصة دون غيرهم : كالعنعنة ، والفحفحة ، والعجعجة وغيرها .

والذي أهدف إليه في تلك الدراسة هو النوع الثالث ، لأن فيه تتفاوت القبائل العربية وتختلف ، فبعضها يؤثر في الإبدال حرفاً . بينما يؤثر قبيل آخر حرفاً آخر .

وإذا نظرنا الى كتب العربية لمحنا منها أن علماء اللغة كانوا يرون أن عملية الإبدال إرادية يأتي بها الشخص متى أراد ، وحيثما شاء ، ولنستمع الى أحدهم يقول : « من سنن العرب إبدال الحروف ، وإقامة بعضها مقام بعض[١] لكنني أرجح أن الابدال عملية لا إرادية ، ترتبط[٢] بالتاريخ والزمن الطويل – بحيث يجد المتكلمون باللغة أنفسهم أمام كلمات متعددة يدل تشابهها على أن إحداها قد تعرضت لمثل هذا التطور خلال السنين ، وليس من حق أي إنسان أن يقوم هو بإحلال صوت محل آخر .

وهناك عوامل عدة دعت الى ظاهرة الإبدال بعضها يرجع الى أسباب داخلية ذاتية في الحروف نفسها وبعضها الآخر يرجع الى أسباب خارجية . أما الأسباب الداخلية فهي :

أولاً : ظاهرة التشابه : وفيها تتأثر أصوات الكلمة وتتفاعل بعضها مع بعض هادفة الى التخفيف من بعض القيود النطقية بتحقيق الانسجام بين الأصوات وملاك هذه الظاهرة إذا اجتمع صوتان أحدهما مهموس والآخر مجهور ، أثر أحدهما في الآخر بحيث يصبحان مجهورين أو مهموسين[٣] ، وذلك إذا كانت فاء الافتعال « د أو ذ أو ز » أبدلت تاؤه دالاً مهملة ، مثل : ادتعى إذتكر ، ازتاد . فاجتمع في هذه الأمثلة صوتان متجاوران : الأول منهما مجهور والثاني مهموس فتأثر الثاني بالأول ، وانقلب الى صوت مجهور ليجتمع صوتان مجهوران ، فأصبحت الأمثلة السابقة : ادعى ، اذ دكر ، ازداد ، ونظرة واحدة الى مفصل الزمخشري نعثر على مثل هذا التشابه في أمثلة كثيرة ساقها . منها قولهم : اظطلم ، واطلم ، واظلم ورويت الثلاثة في بيت زهير :

هو الجوادُ الذي يعطيكَ نائله عفواً ويظلمُ أحياناً فيظلّم[٤]

---

(١) مزهر السيوطي : ١/٤٦٠ .

(٢) الأصوات اللغوية في قراءة أبي عمرو : ٢٩٦ مخطوط .

(٣) الأصوات اللغوية : ١١٥ ط ٢ .

(٤) مفصل الزمخشري : ٤٠٢ .

وقول يزيد بن الطثرية :

فقلت لصاحبي لا تحبسانا بنزع أصوله واجْدَزّ شيحا[1]

وما أشبه العلاقة بين الحروف في تماثلها حيناً وتباعدها حيناً آخر في حالتي التشابه والتخالف – الآتي ذكرها – بالدائرة المغناطيسية في تجاذبها آنا ، وتخالفها آنا آخر ، تبعاً لاختلاف نوعها سلباً وإيجاباً .

والغرض من هذا الإبدال ، الذي نتج عن تأثر الأصوات وتشابهها – التقريب بين الصوتين المتجاورين ، تيسيراً لعملية النطق ، واقتصاداً في الجهد العضلي ولا شك أن هذا التشابه يحدث مع توالي الزمن عبر التاريخ اللغوي ويرجع الى قوة ذاتية في الصوت يجعله أن يحول مجاوره الى مثله ، لأن الحرف القوي له تأثير في الضعيف إذ يؤثر فيه حتى يزحزحه عن مخرجه الأصلي ويحوله الى حرف أقرب ما يكون منه ، ليكون عملهم من وجه واحد ، وليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد[2]

ثانياً : قانون المخالفة في اللهجات العربية Dissimilation :

وملاك هذه الظاهرة أن تشتمل الكلمة على صوتين متماثلين كل المماثلة – فيقلب أحدهما الى صوت آخر لتتم المخالفة بين الصوتين المتماثلين – ونرى نتفاً من تلك الظاهرة في كتب العربية[3] وإليك عرضاً لهذه الظاهرة :

جاء في المصباح : أملت الكتاب على الكاتب إملالاً – ألقيته عليه ، وأمليته عليه إملاء – والأولى لغة الحجاز وبني أسد ، والثانية لغة بني تميم وقيس[4] ، وحكى مثل هذا أبو زيد في اللسان[5] .

وجاءت قراءات على كلتا اللهجتين :

١ – قوله تعالى « ولْيُمْلل الذي عليه الحق » .

---

(١) المرجع السابق : ٣٧١ .

(٢) انظر : الكتاب : ٤٢٦/٢ ، المخصص : ٢٧٣/١٣ .

(٣) مفصل الزمخشري : ٣٦٤ .

(٤) المصباح : ٨٩٦/٢ ، أدب الكاتب لابن قتيبة : ٣٧٦ .

(٥) اللسان : ١٥٤/١٤ .

٢ – قوله تعالى « فهي تُمْلَى عليه بكرةً وأصيلاً »[١] فهذا من أمليت .

٣ – قوله تعالى « أولا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل »[٢] فهذا من أمللت .

ولتفسير اللهجة التميمية وهي (أمليت) بدل (أمللت) – نرجع الى قانون المخالفة ذلك الذي يفسر مثل هذه الظاهرة ، فصيغة (أمللت) تحتاج الى مجهود عضلي أكثر ، لأنها صوتان متماثلان ، وقانون المخالفة يبدل أحد اللامين المتجاورين – الى صوت لين ، أو الى أحد الأصوات المشبهة بأصوات اللين وهي : النون . واللام والميم . والراء ، ولقد لحظ القدماء ما بين هذه الأصوات من علاقة حيث أطلقوا عليها الأحرف الذلقية ، أو المتوسطة بين الشدة والرخاوة[٣] كما لمح المحدثون علاقة بين هذه الأصوات: وبين أصوات اللين أيضاً[٤] . وفي تحويل هذه الأصوات المتماثلة الى أصوات اللين وما يشبهها – أقصى مراحل التيسير في الجهد العضلي[٥] .

فمثل هذا التخالف أو المخالفة Dissimilation ما جاء في صيغة أما – التفضيلية فلغة الحجاز ومن جاورهم فتح الهمزة وكسرها ، ولغة قيس وتميم فتحها[٦] . وساق السيوطي شواهد لها منها :

تلقحها أمّا شمال عريّةٌ وأمّا صبا جنح العشيّ هبوب[٧]

وقد تبدل الميم الأولى ياء مع كسر الهمزة وفتحها كقوله :

لا تفسدوا آبالكم أيْمّا لنا أيْمّا لكم[٨]

وقد شذذ الأشموني فتح همزتها وإبدال ميمها الأولى ياء[٩] . وذكر أبو حيان أن إبدال ميمها

(١) المصباح : ٢/٨٩٦ .
(٢) شرح فصيح ثعلب للهروي : ٨٩ تحقيق خفاجة .
(٣) تاريخ الأدب : ٢٠ حفني ناصف .
(٤) مجلة المجمع : ١٦ ، ١٣ – ١٤ .
(٥) الأصوات اللغوية : ١٤٥ ط ٢ .
(٦) الدرر اللوامع : ٢/١٨٢ .
(٧) الهمع : ٢/١٣٥ .
(٨) الدرر اللوامع : ٢/١٨٢ .
(٩) الأشموني : ٣/١٠٩ .

الأولى ياء ذلك لغة تميم[1] ، ولهذا تأخذنا الدهشة لرواية ساقها الأشموني حيث نسب الى عمر بن أبي ربيعة قوله :

رأت رجلا أيْمَا إذا الشّمس عارضت   فيضحي وأيْمَا بالعشيّ فيخصر[2]

ولما رجعت الى الديوان والمصادر الأولى لأتحقق من النص وجدته (أما)[3] لا (أيما) كما جاء في الأشموني وعمر لا يمكن أن يقول (أيْمَا) كما جاء في الأشموني لأنها لهجة تميمية ، وهو قرشي حجازي ، وأرجح أن التحريف في رواية الأشموني يرجع الى النساخ والنقلة ، أو ربما يرجع الى ما يقوله ابن هشام في شرح الشواهد « وقد كان العرب ينشد بعضهم شعر بعض ، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها ، ومن ذلك تكثرت الروايات في بعض الأبيات »[4] . وتعلل لهجة تميم بقانون المخالفة ، لأن أما – بالتشديد فيها جهد عضلي بعكس أيما – التي تحول التشديد فيها الى حرف لين ففيها اقتصاد في هذا الجهد يهدف إليه البدو مثل تميم ، ولهذا أنشد العجاج « تَقَضّيَ البازي إذا البازي كسر »[5] والعجاج تميمي ، وأصلها « تقضض » . كما حدث في تميم أيضاً أن تماثل في الصيغة حرفان – فآثروا إبدال واحد منها بأحد الأصوات المشبهة بأصوات اللين ، فقد جاء في شعر الفرزدق :

(ألسْتُم عائجين بِنَا لعنَّا)[6]

وجاء في اللسان أن بني تميم يقولون : لعنك ، وبني تيم الله بن ثعلبة يقولون « رعنك » – يريدون « لعلك »[7] وفي هذه الأمثلة تغير مخرج الهواء عند النطق بالصوت . ففي « لعل » لامان ، وهما من الفم ، والحروف إذا تماثلت مخارجها كانت أثقل ، فاتجه المجرى الى النون الأنفية للمخالفة بين الصوتين ، وقد وجد هذا التخالف في لهجة الجزيرة بالسودان حيث ينطقونها (نعلّ)[8] بقلب لامها الأولى نوناً .

---

(١) البحر : ١/١١٩ .

(٢) الأشموني : ٤/٤٩ .

(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة : ١٢١ ط بيروت ، وانظر : الخزانة : ٢/٤٢١ ، والكامل : ١٧٢ ففيهما « أما » كما في ديوانه .

(٤) الاقتراح : ٣٠ .

(٥) أمالي القالي : ٢/١٧١ .

(٦) إبدال أبي الطيب : ٢/٢٩٦ ، أمالي القالي : ٢/١٣٤ مع خلاف يسير في الرواية .

(٧) اللسان : ١٧/١٦٨ ، ٢٧٥ ، ٤٣ .

(٨) من لهجات الجزيرة بالسودان : ١٢٦ .

كما حكى أن أهل العالية يقولون : « دهديت الحجر » وأصله « دهدهت الحجر » فقلبت الهاء الثانية ياء كراهية التضعيف[١] ، كما وجدت هذه المغايرة في طيء أيضاً وذلك :

١ – ما جاء في إبدال أبي الطيب (وأنْتَ الذي دسّيْتَ عمراً فأصبحت ...)[٢] وأصلها « دسست » .

٢ – ما جاء عن الكسائي من أن طيئاً تقول : رأيت إيسانا بالياء[٣] ، وعن الفراء : العرب جميعاً يقولون : الانسان إلا طيئاً فإنهم يجعلون مكان النون ياء[٤] وأورد اللسان شاهداً لها لرجل من طيء[٥] . ولا شك أن طيئاً تشارك تميماً في البداوة .

ومثال هذه المخالفة أيضاً ما جاء في لغات مختصر ابن الحاجب من قوله : الأرز : حب معلوم فيه ست لغات : آرز ، وأُرزّ ، وأرزّ ، وأرْز ، ورزّ ، ورنْز وهي لعبد القيس[٦] ، وساق الهروي شارح فصيح ثعلب رواية مثلها[٧] ، وكذلك ابن منظور في اللسان[٨] ، فعبد القيس قد آثروا المغايرة بين الصوتين الشديدين وهما (الزاي) فقلبوها الى حرف النون ، وما فعلوا ذلك إلا ليزيدوا النطق تيسيراً ، فوجود النون في (رنز) لا يعدو أن يكون عملية مخالفة بين الحرفين المتماثلين « ولهذا عزى لبعض اليمن أنهم كانوا يقولون في « حظ » حنظ ، وفي «اجّاص» انجاص، وفي « اجّانة » انجانة[٩] . ويظهر أن هذا التخالف كان كثيراً في اللغات السامية ، « ففي السريانية كلمة (كبّاراً) أي : الجبار : كتبت (كنباراً) »[١٠] .

---

(١) المخصص : س ٢٨٧/١٣ .

(٢) ٢١٦/٢ .

(٣) إبدال أبي الطيب : ٤٦١/٢ .

(٤) اللسان : ٣٠٩/٧ وما بعدها .

(٥) اللسان : ٣٠٩/٧ .

(٦) لغات مختصر ابن الحاجب : خط بدار الكتب رقم ٤٧ لغة .

(٧) شرح فصيح ثعلب للهروي ٧٠ تعليق خفاجة .

(٨) اللسان : ١٦٨/٧ .

(٩) ما تلحن فيه العامة للكسائي : ٣٤ – ٣٥ .

(١٠) مجلة كلية الآداب المجلد العاشر : ج ١ مايو سنة ١٩٤١ .

على أن القبائل العربية لم تسر سير تميم وطيء في هذا التخالف . فقد كانت همدان تقول « سبّولة » أو « سبّلة »[١] .

فآثرت الحرفين المتماثلين ولم تخالف بينهما – شأنها في ذلك شأن العبرية ففيها : [illegible] بينما صارت الباء الأولى في فصحانا نوناً .

وهذا يشبه ما جاء في اللسان[٢] : ومضت سبة وسنبة من الدهر أي ملاوة . فهذا التطور الى حروف اللين أو ما يشبهها هو إحدى نتائج نظرية السهولة ، تلك التي تشير الى أن الانسان في نطقه يميل الى تلمس الأصوات السهلة »[٣] ، ولهـــذا نقول في عاميتنا « مديت ، حطيت ، فكيت » بدل : مددت ... وقد اعترف القدماء بكراهية التضعيف ومنهم سيبويه حيث يقول (هذا باب ما شذ فأبدل مكان اللام ياء لكراهية التضعيف وليس بمطر) ، وذلـــك قولك : تسرّيت وتظنّيت وتقصّيت من تسرّد وتظنن وتقصّص[٤] .

وإذا اتجهنا الى القرآن الكريم لمحنا فيه هذه الظاهرة في قوله تعالى : « الى طعامك وشرابك لم يتسنّ » ، وقد ذكر أبو عمرو بن العلاء[٥] أنه من ذوات التضعيف أي : « لم يتسنن » ومثلها « وقد خاب من دساها »[٦] قال الزمخشري : أصل : دسّ « دسس »[٧] فكأنه أبدل من إحدى السينات ياء ، لاستثقال التضعيف .

أما أهم الأسباب الخارجية فتعود الى :

أولاً : أخطاء الأطفال :

مما لا شك فيه أن اللغة كائن حي ، يخضع للتطور والتغير من جيل الى جيل ، مهما أحيطت بسياج قوي يحفظها من هذا التغير ، والطفل في محاكاته لغة آبائه ، لا يحكيها كما هي بل تتأثر في

---

(١) بقايا اللهجات العربية : ١٤ .

(٢) اللسان : « سبب » .

(٣) الأصوات اللغوية : ١٤٤ ط ٢ .

(٤) الكتاب لسيبويه : ٤٠١/٢ .

(٥) إبدال أبي الطيب : ٤٥٩/٢ .

(٦) سورة الشمس : آية ١٠ .

(٧) الكشاف : ٦٠٦/٤ .

أصواتها حيناً وفي دلالاتها حيناً آخر . فمن ناحية الأصوات نرى الطفل يبدل حرفاً من حرف قريب منـــه في المخرج كأن ينطق الكاف تاء فيقول : تتاب = كتاب . الستينة = السكينة ، وغالباً ما تقر القوانين الصوتية ما يأتي به الطفل في أثناء محاكاته فالكاف والتاء ، في المثـــال السابق كلاهما يتحد في صفتي الهمس والشدة ولا فرق بينهما إلا في المخرج ، فهما يتعاقبان ، وقد نرى الطفل في تلقفه لغة بيئته يقلب الشين سيناً فيقول في شعر = سعر ، وشمس = سمس . وقد رأينا مثل هذا فيما جاء عن العرب حيث ساق السيوطي قولهم : جمشوش وجمسوس[1] . كما يخطىء الطفل في نطق « نملة » فيقول « نمنة » .

وساق لنا السيوطي ما يشبه هـــذا من قول العرب : ارمعل الدم = وارمعن ، وخامل الذكر = وخامن[2] .

وفي نطق الطفل السابق بكلمة « نمنـــة » ملاحظة هامة ، وهي أن الطفل في نطقه يتلمس أيسر السبل في النطق ، وهو لهذا لا يميل الى توالي صوتين أحدهما مجراه الأنف كالنون والآخر مجراه الفم كاللام — في مثل « نملة » — ولهذا مال الى جعل كلا الصوتين المتجاورين من الأنف تيسيراً له في النطق ، كما نجد الطفل في محاكاته لنطق كلمة : موز يقولها : بوز ، ولا شك أن العلاقة واضحة بين الحرفين لأنهما لمن أصوات الفم ، فلهما أن يتعاقبا مثل : أزمـــة = وأزبة[3] وقحمة وقحبة[4] وما عليه طحربة وطحرمة »[5] . ولا شك أن الطفل في البيئـــة العربية القديمة — وهي بيئة منعزلة، لا يجد فيها الأطفال من رعاية الآباء ما يستحقونه، وذلك لانشغالهم بالحرب أو السفر ، كما أن الأمهات مشتغلات بحياة الكدح والسعي ولهذا يشب محتفظاً بلهجته تلك على ما فيها من أخطاء الطفولة لكنها تصبح فيما بعد عنصراً معترفاً به في لهجتهم وظاهرة من ظواهرها ، وتلك سنة التطور ، فما كان يعد بالأمس خطأ تنفر منه الآذان — أصبح اليوم صواباً في جيل جديد من المتكلمين[6] ولا شك أن بعضاً من ظواهر الإبدال قد ترجع الى خطأ الأطفال وانتقال اللغة من السالفين الى الخالفين ، ولهذا رأينا الأمثلة الآتية : ثوب ، ثلـــج ،

---

(١) المزهر : ٥٤٩/١ والجمسوس : القبيح اللئيم .

(٢) مزهر السيوطي : ٥٥٥/١ - ٥٥٦ .

(٣) وهي الشدة .

(٤) يقال للمسنة العجوز .

(٥) أي خرقة : المزهر : ٤٦٣/١ .

(٦) في اللهجات العربية : ١٠٧ الطبعة الثانية .

ثعبان ، ثلث . تتحول الى : توب ، تلج ، تعبان ، تلت[1] . وقد جاء مثل هذا عن العرب من قولهم « وتن بالمكان يتن وتنا ووتونا — إذا أقام به . ووثن يثن وثنا ووثونا أيضـــاً . كما قالوا : الحتلة والحثلة ، لأسفل البطن »[1] كما تحولت الذال الى الدال ومثال ذلك ما جاء عن أبي الطيب « ذبرت الكتاب أذبر ، ذبراً — إذا كتبته وحكى اليزيدي دبرته أدبره دبراً ، بالدال غـــير المعجمة »[2] ويمكن أن يفسر هذا الإبدال تفسيراً آخر ، لا على أنه من خطأ الأطفال كما مر ، وإنما يفسر على أن له نظائر في اللغات واللهجات السامية الأخرى — إذ نجد أن كل ثاء عربية تقلب أو تبدل تاء في اللغـــات الآرامية ، كما تقلب شيناً في العبرية ، وسيناً في الحبشية ، كما وجدنا أن الذال العربية تبدل دالاً أو زاياً في اللهجات الآرامية ، ولهذا تكون تلك الإبدالات من هذه الزاوية ، كالأصول المطردة ، والقوانين الصوتية ، ويكاد يجمع الباحثون على أن عوامل عدة تتدخل في تطور اللغة في أصواتها وحروفها من السالفين الى الخالفين ، ولا نريد الإشارة الى هذه العوامل جميعها بل نشير الى واحد منها وهو : التطور الطبيعي المطرد لأعضاء النطق في الانسان ... وصاحب هذا الرأي هو العلامة (روسلو) . وخلاصة هذا الرأي أن أعضاء النطق تختلف من جيل الى جيل إن لم يكن في بنيتها فعلى الأقل في استعداداتها، بل هي تختلف عما كانت عليه عند آبائنا المباشرين ، وعلى أي حال فإن أي تطور يحدث في أعضاء النطق أو في استعدادها يتبعه تطور في أصوات الكلمات ، فتنحرف حيث تتلاءم وحالة أعضاء النطق[3] ، ويمكن أن نلمح أمثلة لهذا القانون فيما ورد عن العرب في باب الإبدال من قولهم :

زجاء الطير ، وزمكاؤه[4] ، والعاذر والعاذل[5] ، والذعاق : الزعـــاق[6] ، والدشيشة والجشيشة[7] . وما جاء في كتاب الفرق للبطليوسي من قولهم : ماء مظفوف : ومضفوف[8] :

---

(١) اللغة والمجتمع : ٥٠ دكتور وافي ط ١٩٤٦ .

(١) الإبدال لأبي الطيب : ٩٦/١ .

(٢) المرجع السابق : ٣٠٤/١ .

(٣) نشأة اللغة عند الانسان والطفل : ١٥٢ وافي ط ١ .

(٤) المزهر : ٤٦٥/١ .

(٥) الجاسوس : ٣٤٦ .

(٦) كتاب العين : ٧١ .

(٧) اللسان : ١٩٠/٨ .

(٨) المزهر : ٥٦٢/١ .

ونثر : ونثل [١] ، وأثغرت الشاة : وأمغرت [٢] ، والجمز : والجأز [٣] .

ثانياً : أمراض الكلام :

وأمراض الكلام ولاسيما ما كان مختصاً منها باللسان يثير تحولاً صوتياً ، وانتقـــالاً لمخارج الحروف حتى يتكون للصيغة شكل جديد يختلف عما كانت عليه من قبل وليس السبب في تلك الصورة الجديدة إلا عيوب المنطق ، وإصابة الجهاز الصوتي بعلة فيه فيتحول اللسان من النطق بالسين الى الثاء أو التاء أو الدال أو الشين ، أو من الراء الى الغين أو اللام أو اليـــاء ، أو من حرف الى حرف آخر . ويظهر أن القدماء من اللغويين قد تنبهوا الى تلـــك الظاهرة . وهي ظاهرة أمراض الكلام ولهذا نسمع عدة أسماء تشير الى تلك الظاهرة فمنها :

اللغلغة [٤] ، اللفف [٥] ، النعنعة [٦] ، الارتضاخ [٧] ، الشفشفة [٨] ، الهة [٩] ، الرته [١٠] . التمتمة ، الفأفأة . العقلة [١١] ، الحبسة ، اللكنة ، الغنة [١٢] ، الخنة ، اللثغة [١٣] .

ولا شك أن عدم انتظام تكوين الأسنان له دخل في اللثغات ، لهذا لا يستطيع الانسان أن

---

(١) اللسان : ٧/١٤٤ .

(٢) اللسان : ٧/٨١ .

(٣) وهي الفصص : ٧/١٧٦ .

(٤) يراد باللغلغة : العجمي : مجلة المشرق السنة ٦ عدد ١٢ سنة ١٩٠٣ .

(٥) إدخال حرف في حرف : التذكرة الحمدونية ، المرجع السابق .

(٦) رتة في اللسان : وهي قلب اللام نوناً : التاج ، وانظر مجلة المشرق : المرجع السابق .

(٧) يقال : هو يرتضخ لكنة أعجمية : إذا نشأ معهم وكان عبد بني الحسحاس يرتضخ لكنة حبشية ، المرجع السابق .

(٨) وهي في لغة اليمن تجعل الكاف شيناً مطلقاً : مجلة المشرق : المرجع السابق .

(٩) وهي النطق بالحاء هاء المزهر : ١/٥٥٧ .

(١٠) جعل اللام تاء المزهر : ١/٥٦٦ .

(١١) التواء اللسان عند الكلام : تاريخ أدب العرب للرافعي : ١/١٦٠ .

(١٢) وهي أن يشرب الصوت الخيشوم ثم هي عيب إذا جاءت في غير حروفها ، المرجع السابق .

(١٣) في المحكم: الألثغ الذي لا يستطيع أن يتكلم بالراء؛ وقيل : هو الذي يجعل الراء في طرف لسانه أو يجعل الضاد ظاء وقيل هو الذي يتحول لسانه عن السين الى الثاء ، المزهر : ١/٥٦٦ .

يعدل من نطق الألثغ – إلا إذا تدخل إخصائي الأسنان فيها ، وقد يرث الطفل هذه اللثغات عن آبائه ، ويرثها منه جيله ثم يرثها منه جيل آخر ، حتى تصبح اللثغة سنة فيهم ، بل تكون صواباً في جيل المستقبل بينما هي نفسها في الجيل الأول كانت آفـــة نطقية محط ازدراء الناس واحتقارهم والدليل على ذلك تحير علماء اللغة بين اللغة واللثغة ، فالخليل على جـــلاله العلمي لا يدري : أن النعاق بمنزلة الزعاق لغة مستقلة أم لثغة [1] ، وابن سيده لا يدري أن المرمريس – وهو الداهية لغة مستقلة عن المرمريت أم لثغة [2] ، والأزهري ينكر أن الدشيشة لغة في الجشيشة ويقول بأنها لكنة ، بينما رويت عن أبي الوليد بن طخفة الغفاري على أنها لغة [3] وصاحب الصحاح لا يدري أن اللهس لغة مستقلة عن اللحس أو هشة [4] وكذلك الأصمعي وهو الثقة اللغوي لا يدري أن العاذور – وهو الشر لغة في العاثور أو لثغة [5] ، فاللثغات وأمراض الكلام تشتبه على أفذاذ اللغة – باللغات لأن وجه الشبه في كل منهما انتقال المخرج الصوتي من مكانه وانحراف الأصوات عن الصورة الأولى لها ، وترتب على أمراض الكلام وجود كلمات عربية صحيحة متحدة المعنى رويت مرة بالراء وأخرى باللام : مثل : رثدت القصعة بالثريد ، ولثدت ، وجرمه وجلمـــه بمعنى قطعه ، وسهم أمرط وأملط : ليس له ريش [6] ، كما رويت مرة بالظـــاء وأخرى بالذال كقولهم رجل شنظيرة وربما قالوا : شنذيرة [7] ، أو الغين والراء كقولهم كل راية غـــاية ، وفي الصحاح الغاية = الراية [8] . وقد يمكن أن تتسم شخصية عظيمة باللثغة فتقتدي بهـــا الطبقات الأخرى المحيطة بها وتقلدها أولاً في تلك اللثغة ، وبعد مرور زمن يصبح هذا الانحراف أو تلك اللثغة مقبولة ، وهذا يشبه (المودة) التي تسري من أعلى المجتمع الى أدناه . والناس مجبولون على تقيد العظماء ومـــا يجري على اللغة في هذا المنحى يجري على الأمور الأخرى كالأزياء والعادات .

---

(١) العين : ٧١ ، المخصص : ١٣٦/٩ .

(٢) اللسان : ١٠١/٨ .

(٣) اللسان : ١٩٠/٨ - ١٩١ .

(٤) المزهر : ٥٥٧/١ .

(٥) المزهر : ٥٥٧/١ .

(٦) المزهر : ٥٥٨/١ .

(٧) المزهر : ٥٥٧/١ .

(٨) اللثغات : للكرملي في مجلة المشرق : ص ٥٩١ .

ثالثاً : التصحيف :

كانت الكتابة في القرن الأول بدون نقط ولا شكل ، لهذا كان عمدة قراءة القرآن هو التلقي والمشافهة ، لا الأخذ عن الصحف وان كان ما في الصحف صحيحاً ، ولذلك تسمعهم يقولون : إن فلاناً ثقة ، وبعض روايته صحيفة ، بل كانت أكبر وصمة للإنسان أو الراوي أن يقال له : أنت صحفي . ومعناها أن تأخذ من الكتب بنفسك دون مشافهة ولقاء بين مؤلفيها، لأن هذا يورث التصحيف في الحروف ولهذا قيل « لا تأخذوا القرآن من مصحفي ولا العلم من صحفي [1] وكان حماد الرواية قد حفظ القرآن من المصحف وكان يصحف نيفاً وثلاثين حرفاً منها : وما كان استغفار إبراهيم لابيه إلا عن موعدة وعدها أباه ، يريد « إياه » وقيل إن حمزة الزيات – كان يتعلم القرآن من المصحف فقرأ يوماً وأبوه يسمع « ذلك الكتاب لا زيت فيه » بالزاي والتاء ، فقال أبوه : دع المصحف وتلقن من أفواه الرجال [2] ، كما نجد أمثلة منه متناثرة في أدب الكاتب لابن قتيبة واصلاح المنطق لابن السكيت ، وما يلحن فيه العامة لأبي حاتم السجستاني ، والأمالي للقالي وتصحيح التصحيف [3] للصلاح خليل بن ايبك الصفدي .

وقد ساق المزهر أمثلة عديدة لما وقع فيه التصحيف ، من ذلك ما جاء عن ابن خالويه « الناس كلهم قالوا: قد بلع فيه الشيب إذا وخطه القتير – أما ابن الأعرابي فقال « بلغ » بالغين المعجمة [4] وكان أبو عمرو الشيباني يقول : « في صدره على حسيكة ، وكان أبو عبيدة يقول « حشيكة » بالشين فأرسلت إليه : يا أبا عبيدة : إنك تصحف في هذين الحرفين فارجع عنها قال : قد سمعتها [5] . وفي الجمهرة : الغضفاض = بالعين المعجمة : العرّنين وما والاه من الوجه وقال أبو عمر الزاهد : هو العضماض بالعين غير المعجمة [6] . واختلف المعمري والنحويان في « الظّروري » فقال أحدهما : الكيس ، وقال الآخر : الكبش . فقال كل منهما لصاحبه : صحفت ، وكتب بذلك الى أبي عمر الزاهد فقال : من قال ان الظروري : الكبش : فهو تيس،

(١) كتاب التصحيف والتحريف : ٨ للعسكري .
(٢) كتاب التصحيف والتحريف للعسكري : ٩ .
(٣) منه نسخة مصورة في الخزانة الزكية بدار الكتب .
(٤) المزهر : ٣٦٣/٢ .
(٥) المزهر : ٣٦٦/٢ .
(٦) المزهر : ٣٦٧/٢ .

وإنما الظروري الكيّس [1] ، وجاء التصحيف في « زخزب وزحزب » وصححه بالخاء ، وبالحاء تصحيف [2] . فالتصحيف – قد لعب دوراً كبيراً في تشويه اللغة ، ولم تسلم منـــه القراءات القرآنية ، بل سجل السيوطي تصحيفات وقعت لأشهر المعاجم العربية الموثقة : كالعين للخليل [3] والصحاح والمخصص . وغيرهم . كما سجل العسكري في كتابه التصحيف – تصحيفات لأكثر من خمسين لغوياً مشهوراً ، والذي أريده الآن أن جميع ما تحت يدنا من الإبدال – يجب أن نأخذه بحذر ، لأن التصحيف لا بد أنه لعب دوراً هاماً فيه . فالإنسان سيظن حتماً أن بين ما سقته من الأمثلة السابقة – ما يصلح منها للإبدال ، لأن العلاقة بينهما قـــائمة ولكن بالبحث أخرجناها من الإبدال وألحقناها بالتصحيف . بل أحياناً ما تقع مهاترات بين أئمة اللغة ويتهم أحدهم صاحبه بالتصحيف في الكلمة ، فيرد عليه الآخر بدفع التهمة ، ويبين له أن مـــا توهمه تصحيفاً إنما هو لهجة عربية [4] .

***

ولننتقل الآن الى دراسة نصية تقارنية للهجات القبائل العربية – والتي وردت معزوة في باب الإبدال ويمكن تقسيمها الى ما يأتي :

أولاً : لهجات منسوبة ملقبة .

ثانياً : لهجات منسوبة غير ملقبة .

أولاً : اللهجات المنسوبة الملقّبة :

أ) الكشكشة :

بعض اللغويين يرى أن الكشكشة لتميم [5] ، أو ربيعة [6] ، أو بكر بن وائل [7] ، أو أسد [8] ،

---

(١) المزهر : ٣٦٥/٢ .

(٢) إبدال أبي الطيب : ٣٥/١ مقدمة .

(٣) المزهر : ٣٨١/٢ .

(٤) انظر : اللسان : ١٣٩/١١ – ١٤٠ .

(٥) خزانة الأدب : ٥٩٥/٤ ، إبدال أبي الطيب : ٢٣٠/٢ .

(٦) كتاب العين : ٣١ للخليل .

(٧) شرح السيرافي على سيبويه : ٤٦٨/٥ مخطوط في التيمورية .

(٨) الصاحبي : ٢٤ .

كما عزاها السيوطي في ربيعة [1] ومضر . ويمكن أن نوفق بين هذه الروايات المتنافرة بالقول بتجاور مساكن هذه القبائل التي عزيت إليها الكشكشة – فبكر بن وائل ينتهي نسبها الى ربيعة [2] وكلاهما عزى له الكشكشة ، وإذا كانت الظاهرة قد عزيت الى تميم – فإننا نرى نيران الحرب قد استعرت بين تميم وبكر ، فالصلة بينهما قائمة والأخذ والعطاء في اللهجات مما تجوزه النظرة الحديثة .

واختلف في كنه الكشكشة على ثلاثة مذاهب :

قسم يثبت الشين حالة الوقف ، وهو الأشهر ، وقسم يثبتها في الوصل أيضاً ، وقسم يجعل الشين مكان الكاف ويكسرها في الوصل ، ويسكنها في الوقف [3] .

وإليك هذه الروايات :

١ – قال السيرافي وقد أنشدنا أبو بكر بن دريد :

تضحك مني أن رأتني أحترشْ ولو حرشْتِ لكشفت عن حرِشْ

وأنشد ثعلب :

« ... ومن يحلل بواديشِ يعشْ » [4]

يريد « بواديك » . كما ساق أيضاً :

على فيما أبتغي أبغيشِ بيضاء ترضيني ولا ترضيشِ
وتطبي [5] ودّ بني أبيشِ إذا دنوت جعلت تنبيشِ
وإن نأيت جعلت تدنيشِ حتى تنقّي كنقيقِ الديش [6]

٢ – واستشهد اللسان لها حيث يجعلون الشين مكان الكاف ، وذلك في المؤنث خاصة ، يقول الشاعر :

---

(١) المزهر : ٢٢١/١ .
(٢) نهاية الأرب للقلقشندي : ١٧٨ .
(٣) تاريخ آداب العرب : ١٣٨/١ ، الخزانة : ٥٩٤/٤ – ٥٩٧ ، الصاحبي : ٢٤ .
(٤) إبدال أبي الطيب : ٢٣١/٢ .
(٥) في الخزانة : ٥٩٤/٤ « وتطلبي » مع خلاف في الألفاظ والترتيب .
(٦) السيرافي على سيبويه : ٤٦٧/٥ – ٤٧٢ ، كتاب العين للخليل : ٣١ بغداد .

فمنياشِ عيناها وجيدشِ جيدها ولكنّ عظم الساق منشِ دقيق[1]

وروى هذا البيت في الخزانة على الأصل بدون إبدال[2] .

٣ – وقرأ بعضهم « قد جعل ربش تحتشِ[3] سَرِيًّا » في قوله تعالى « قد جعل ربُّكِ تحتكِ سريًّا »[4] . وبها قرأ من قرأ : « إن الله اصطفاشِ وطهرشِ » آل عمران ٤٢ في قوله تعالى : « إن الله اصطفاكِ وطهّركِ » . لهجات العرب ٦٩ . أحمد تيمور . المكتبة الثقافية (٢٩٠) . ولتفسير هذه الظاهرة نرى أن تميماً حرصت على إبراز الحركة الأخيرة إذا كان في الوقف عليها ما يلبس ، فالوقف على كاف المؤنثة بالسكون يجعلها تلتبس بكاف المخاطب ، فللفرق بينهما قلبت كاف المؤنثة شيناً ، ثم توسعوا في ذلك فقلبت في حالة الوصل أيضاً ، وإنما قلبت الكاف شيناً لقرب الشين من الكاف في المخرج ، وأنها مهموسة مثلها فأرادوا البيان في الوقف « لأن في الشين تفشياً »[5] ويقول سيبويه « وقوم يلحقون الشين ليبينوا بها الكسرة في الوقف »[6] . ويقول البغدادي « وربما جعلوا بعد الكاف الشين والسين . يقولون : انكش وانكس – وهي الكاف المكسورة لا غير يفعلون هذا توكيداً لكسر الكاف بالشين والسين[7] . وأرجح أن البغدادي لم ينقل لنا الظاهرة كما كانوا ينطقونها– إذ ليس هناك ما يدعو الى أن تتصل الكاف بصوت آخر ، بل حل مكان الكاف حرف Ch. – ولهذا أرجح أنهم كانوا يقولون «انتش ، وانتس» لا كما قال البغدادي آنفاً «انكش، وانكس » .

ولقد علل المستشرقون تلك الظاهرة بقولهم « إن الكاف كالجيم الخالية من التعطيش، دفعتها الكسرة التي تليها الى أن تكون من وسط الحنك – أي قريبة في المخرج من مخارج الحروف

---

(١) اللسان : ٢٣٣/٨ .

(٢) الخزانة : ٤٩٥/٤ .

(٣) الأشموني : ٢٨٢/٤ .

(٤) سورة مريم : آية ٢٤ .

(٥) الكامل للمبرد : ٣٧١/١ .

(٦) كتاب سيبويه : ٢٩٥/٢ ، وشرح السيرافي : ٤٦٨/٥ تيمور مخطوط .

(٧) الخزانة : ٥٩٤/٤ .

الشجرية ، لذلك صارت .Ch [1] فهذا الصوت هو ما كان يسمعه القدماء في تلك الظاهرة .

وقد وجدت هذه الظاهرة في بلاد العرب الجنوبية ومن ذلك :

جـــال واللهَ يا دقيق الساج لـَجْمعْ عليش ألف ديك ُنقـّار

كما وجدت الكشكشة أيضاً في المهرية والسقطرية [2] .

ب) الشنشنة :

ومما يتصل بظاهرة الكشكشة هذه مـــا سماه علماء العربية بـ « شنشنة اليمن » وهي قلب الكاف مطلقاً الى شين ، وقد عزاها الأئمة الى اليمن ، فقد نقل السيوطي عن الفراء « أن قريشاً خلت لغتهم من مستبشع اللغات ، ومستقبح الألفاظ فمن ذلك ... الشنشنة في لغة اليمن » [3] وقد سمـــع بعضهم يقول في عرفة « لبيش اللهم لبيش » [4] وأصحاب الشنشنة يلتقون بأصحاب الكشكشة في بعض وجوهها، وقد سماها الأب أنستاس الكرملي بالشفشفة [5] – وربما يرجع هذا الخطأ الى التحريف في الكتابة . وظاهرة الشنشنة لا زالت موجودة في اللهجات اليمنية الحديثة حيث قلبت الكاف في الشجرية والمهرية والسقطرية وبعض مناطق [6] ظفار الى نش – .Ch – أي شيناً شجرية ، ثم تطورت حتى صارت شيناً – أي أن الكاف انتقلت من مخرجهـــا وهو أقصى اللسان الى وسطه وهو مخرج الشين .

كما رأى حفني ناصف أن « هذه الظاهرة في (لهجة شرويدة وزنكلون) ومـــا حولها من مديرية الشرقية [7] ويمكن أن أعلل لوجود هذه الظاهرة اليمنية في ديار مديرية الشرقية بما يذكره المقريزي من أن « جذاماً [8] قدموا مع عمرو بن العاص، وكانت لهم عدة اقطاعات منها «هربيط»

---

(١) محاضرات الدكتور نامي سنة ١٩٥٥ في معهد اللغات الشرقية، وانظر محاضرة للمستشرق الألماني الدكتور ا. شاده وعنوانها « علم الأصوات عند سيبويه وعندنا » .

(٢) محاضرات الدكتور نامي في معهد اللغات الشرقية .

(٣) الاقتراح : ٨٤ .

(٤) الجاسوس : ١٨٣ ، والمزهر : ٣٢٢/١ .

(٥) مجلة المشرق السنة ٦ عدد ١٢ سنة ١٩٠٣ .

(٦) دكتور خليل نامي – محاضراته سنة ١٩٥٥ .

(٧) مميزات لغات العرب : ١٣ ط ٢ .

(٨) البيان والإعراب للمقريزي : ٢٣ ، ٩٧ تحقيق عابدين .

و « تل بسطة » و « نوب » وجميع هذه القرى التي نزلتها جذام تتبع مديرية الشرقية [١] ، وهذا يشير الى أن في النازلين الأولين في مديرية الشرقية من العرب قوماً من اليمن .

جـ) الكسكسة :

أ) بعضهم يرى أنها لغة بكر بن وائل ، وهي كما رآها الثعالبي « إلحاقهم لكاف المؤنث سيناً عند الوقف كقولهم أكرمتكس وبكس [٢] كما نسبها الكامل في المبرد الى بكر بن وائل [٣] أيضاً ، وعزاها صاحب شرح الكافية [٤] الى بكر . وأورد الحريري في درة الغواص هذا الخبر عن الأصمعي : فقال قوم تباعدوا عن عنعنة تميم ... وكسكسة بكر [٥] . ثم اختلف في وضع هذه الظاهرة وتفسيرها فقوم يبدلون من الكاف سيناً وهم أقلهم ، وقوم يبنون حركة كاف المؤنث في الوقف فيزيدونها بعدها (أي يزيدون السين بعد الكاف في الوقف) كقولهم أعطيتكس في أعطيتك [٦] .

ب) ونسبها ثعلب في أماليه : الى هوازن حيث ساق نصّاً « ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم .. وكسكسة هوازن» [٧] .

جـ) وبعضهم نسبها الى ربيعة [٨] ، ويظهر ذلك من نص لابن فارس وعرفها « بأنها هي أن يصلوا بالكاف سيناً » .

د) وعزاها السيوطي الى « ربيعة ومضر » [٩] وعرفها « بأنهم يجعلون بعد الكاف أو مكانها في المذكر سيناً » .

---

(١) هربيط بمركز كفر صقر ، وتل بسطة عن قرب من الزقازيق ، ونوب من أعمال الشرقية كذلك .

(٢) فقه اللغة العربية : ١٧٢ - ١٧٣ للثعالبي : ط ١٩٣٣ م .

(٣) خزانة الأدب : للبغدادي : ٥٩٥/٤ - ٥٩٦ .

(٤) شرح الكافية : ٣٨١/٢ .

(٥) خزانة الأدب : للبغدادي : ٥٩٥/٤ .

(٦) المرجع السابق : ٥٩٦/٤ .

(٧) المرجع السابق : ٤٩٥/٤ وانظر مجالس ثعلب : ١٠٠/١ تحقيق الأستاذ هارون .

(٨) الصاحبي لابن فارس : ٢٤ .

(٩) المزهر : ٢٢١/١ .

هـ) وقد نسبها صاحب القاموس الى تميم لا لبكر [١] .

فالخلاف كما تقدم عريض ممل مشوه في عزو اللهجة ، وكما كان ممسوخاً ملفقاً كذلك في وصف تلك الظاهرة : هل هو قلب كاف المؤنثة سيناً في حالة الوقف ، أو أن هذه السين لا تحل محل كاف المؤنثة – وإنما تلحق بها في حالة الوقف ، أو أن الكاف مطلقاً سواء كانت لمؤنث أو مذكر تقلب سيناً ، وكما عانينا في عزوها من خلافات ، نعاني خلافات في وصف تلك الظاهرة كذلك. ونفسر ظاهرة الكسكسة كما فسرت ظاهرة الكشكشة آنفاً إلا أنه يلاحظ :

١ – أن الأصل في هذه الظاهرة أن تكون الكاف للمؤنث – حتى تجتذب الكسرة الكاف الى الأمام فتنقلب الى نظائرها من أصول الثنايا فتصير .Ch أي شجرية وبعـــد ذلك صارت « تس » ، وقلب الشين سيناً مطرد في اللغات السامية فضمير الغائب « شو » في الأكادية و « سو » في بعض اللغات العربية الجنوبية .

٢ – نرفض الروايات التي تشير بأن تجعل السين بعد كاف المخاطبة . وذلك كما جاء عن الثعالبي [٢] ، والمبرد [٣] ، وابن يعيش [٤] ، وثعلب [٥] ، وصاحب الكافية [٦] بل أرجح أن الكاف المؤنثة تبدل سيناً .

٣ – أن الكاف لا تقلب سيناً كما رأى القدماء وذلك ما يدل عليه قولهم « أبوس وأمس يريدون أبوك وأمك » [٧] بل قلبت الى « تش » ثم الى ما يشبه « تس » بدليل أن بعض المحدثين سمع رجلاً في نجد يقول في (عسكرى) عَسْتَري [٨] ، .

٤ – أن الغرض من هذا الإبدال – هو إبراز الحركة الأخيرة إذا كان في الوقوف عليها لبس إذ الوقف على كاف المخاطبة – يجعلها تلتبس بكاف المخاطب .

---

(١) شرح الشافية : ٣٨١/٢ المحققون .

(٢) فقه اللغة للثعالبي : ١٧٢ - ١٧٣ .

(٣) الكامل : ٣٧١/١ .

(٤) ابن يعيش : ٤٨/٩ - ٤٩ .

(٥) مجالس ثعلب : ١٤١/١ .

(٦) شرح الكافية : ٣٨١/٢ ، وشافية ابن الحاجب : ٣٨١/٢ .

(٧) الأشموني : ٢٨٢/٤ .

(٨) في اللهجات العربية : ١١٣ للدكتور ابراهيم أنيس .

د) العنعنة :

ويستدل عليها بروايات عدة نقتطف منها ما يلي : ما جاء في كنز الحفاظ من قول الراجز :

قد علمت أني مروّي هامها ومذهب الغليل من أوامها [1]

وفي التبريزي : ويروى « قد علمت عنّي » [2] ، ويقول أبو حية النميري [3] :

يقلن وما يدرين عني سمعته وهنّ بأبواب الخيام جنوح [4]

وفي البيان للجاحظ :

إما تريني قائماً في رِجلْ جسمٌ الفتوق خلقٍ هملْ
محاذراً أبغض َعنْ تحتلّي عند اعتلال دهرك المعتلّ [5]

فعن : أصلها أن – وهي العنعنة [6] . وفي تفسير الطبري : وأنشد لرجل من فقعس [7] :

تعرضتْ لي بمكان حلّ تعرض المهرة في الطّوّل

تعرضاً لم تألُ عن قتلاً لي [8]

قال بعضهم : إنما هي : أن قتلالي [9] .

كما ورد لهـا شاهد في قوله تعالى « عسى الله أن يأتي بالفتح » فيقرءون « عن يأتي » بقلب الهمزة عينا [10] . وفي قوله تعالى « ولقد نعلم أنهم يقولون » قرىء « عنّهم » وقد عزيت الى: تميم

---

(١) كنز الحفاظ : ابن السكيت : ٤٦١ .

(٢) تهذيب التبريزي : ٤٦٢ .

(٣) أمالي القالي : ١/٦٩ .

(٤) المرجع السابق : ١/٧٠ .

(٥) البيان والتبيين للجاحظ : ٣/٥٦ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

(٦) البيان والتبيين للجاحظ : ٣/٥٦ .

(٧) هو من بني أسد . مجالس ثعلب : ٢/٦٠٢ .

(٨) تفسير الطبري : ٦/١٧١ تحقيق شاكر .

(٩) المرجع السابق : ٦/١٧٢ .

(١٠) العين للخليل: ٣١ ط بغداد .

وقيس وأسد . (شواذ القراءة واختلاف المصاحف ورقة ٢٦ رضيّ الدين الكرماني . رقم ٢٤٤ قراءات بمكتبة الأزهر .

وعزى هذا الإبدال في سر الصناعة لتميم[١]، وكذلك عزى إليها في المفصل[٢]، واللسان[٣] وشرح الشافية[٤] ، والجمهرة[٥] ، وكتاب العين[٦] للخليل ، وعزاها ابن السكيت الى تميم وقيس[٧] ، كما نسبت في شرح المفصل الى تميم وأسد[٨] ولكن عثرت على نصوص أخرى فيها تتسع البقعة الجغرافية لظاهرة العنعنة أكثر من ذلك وسأعرضها لمناقشتها :

١ – جاء في نوادر أبي زيد بشرح الأخفش : وأنشدتني أعرابية من بني كلاب :

فتعلمَنّ وإن هويتك عنّني   قطاع أرمام الحبال صروم

فقلت لها ما هذا ؟ فقالت هذه عَنّنَا[٩] .

٢ – جاء في البيان للجاحظ ، وقال أعرابي :

رعــاك ضمان الله يا أم مالك   ولله أن يشقيك أغنى وأوسع[١٠]

وذكر محقق الكتاب : أن هذا الأعرابي من هذيل ، ولكن جاء هذا البيت في شرح الحماسة للتبريزي :

(ولله عَنْ يشقيك أغنى وأوسع)[١١]

---

(١) سر الصناعة : ١/٢٣٥ – ٢٣٧ .

(٢) المفصل للزمخشري : ٣١٨ .

(٣) لسان العرب : ١٦/١٧٨ ، ١١/١٦٤ ، ١٥/٣٢٣ .

(٤) شرح الشافية : ٣/٢٠٣ .

(٥) جمهرة ابن دريد : ١/٢٣٨ .

(٦) كتاب العين للخليل : ٥١ بغداد .

(٧) الإبدال لابن السكيت : ٢٤ .

(٨) شرح المفصل لا يعيش : ٨/١٤٩ – ١٥٠ .

(٩) نوادر أبي زيد : ٢٩ .

(١٠) البيان والتبيين للجاحظ : ٣/٣٣٠ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

(١١) شرح الحماسة للتبريزي : ٣/٢٧٠ تحقيق محي الدين .

فكأن العنعنة في هذيل .

فقبيلة كلاب التي وردت في نوادر أبي زيد عامة ولا ندري هل يقصد بها بطن من عامر بن صعصعة ، أو كلاب بن مرة التي هي بطن من قريش[١] ، أم كلاب بن معاوية ؟ ولكني أرجح أن التي تنطق بالعنعنة من هذه الأسماء المتشابهة هي كلاب من عامر بن صعصعة لا غير ، لأن نسبها ينتهي الى قيس ، وقيس هذه أثر عنها العنعنة صراحة ، وأما كلاب من بني مرة - فأرى أنها لا تنطق بالعنعنة ، لأنها كما تشير كتب الأنساب من قريش[٢] ، وقريش لم يؤثر عنها العنعنة بل ولا قبائل الحجاز ، وأما ما جاء في الشاهد الثاني في التبريزي ، وأن شاعراً هذلياً نطق بها - فإنني أرجح - كما رأى التبريزي في أحد قوليه - بأن التقدير « عن أن يشقيك »[٣] ، وعلى هذا لا شاهد للهذلي في العنعنة ومما يرجح أن هذيلا لا تقول « العنعنة » أن الشاهد السابق ورد في بيان الجاحظ « ولله أن يشقيك » بدون أثر للعنعنة فيه ، فـإذا فرضنا أن رواية العنعنة صحيحة عن هذا الهذلي - فأرجح أن الذي ينطق بها منهم هم أهل البادية من هذيل - لا كلهم ، ولا شك أن هذا الهذلي نطق برواية واحدة فقط ، ولهذا إذا جاءت رواية أخرى عنه ، فلا بد أن نقف منها موقف الناقد لبحثها وتمحيصها ، ومثل هذا ما جاء عن الأصمعي في بيت طفيل :

فنحن منعنا يوم حرس نساءكم   غداة دعانا عامر غير معتلي

قال الأصمعي : يريد : غير مؤتلي[٤] . فكأن هذا الشاعر آثر العنعنة ولكن وردت رواية أخرى (بالهمز يعني : غير مؤتلي)[٥] ومعنى هذا أنه لا يقول العنعنة ، وأمام هذه الخبرة لا بد من توسيع دائرة البحث حتى نتعرف على الحقيقة ، وأن نعتصم برواية واحدة لهذا الشاعر ، فطفيل هذا من غني بن أعصر[٦] - والتي يؤول نسبها الى قيس . وسبق أن ذكرنا أن العنعنة في قيس ، لهذا أرجح أن الرواية (معتلي) بالعنعنة وإنما جاءت رواية الهمزة ، لأن الشعراء كان بعضهم ينشد شعر بعض ، ومن ثمة كثرت الروايات في البيت الواحد . وبملاحظة النصوص

(١) معجم كحالة : ٣/٩٨٩ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) شرح التبريزي للحماسة : ٣/٢٧٠ .
(٤) سر الصناعة : ١/٢٤٠ .
(٥) ديوان طفيل : ٣٧ .
(٦) مختصر شرح الحماسة للتبريزي : ١/١٠٣ .

السابقة نرى أن الإبدال قيد بـ – أن – المفتوحة دون المكسورة ، ويستدل لذلك بما روي عن ابن هرمة :

أعن تَغَنَّتْ على ساقٍ مطوقــة ورقاء تدعو هَديلًا فوق أعواد[1]

وكان ابن هرمة هذا قد تربى في ديار تميم ، مما يدل على أنه تأثر بهم في لهجتهم ، ومثله ما أنشده ابن دريد في جمهرته لذي الرمة :

أعَنْ ترسّمت من خرفاءَ منزلة ماءُ الصّبابة من عينيك مسجوم[2]

أو لمجنون بني قيس :

(سوى عَنَّ عظم السّاق منش دقيق)[3]

فالإبدال من (أن) المفتوحة الهمزة فقط ، ويقول في ذلك ابن يعيش « ولا يجوز مثل ذلك في المكسورة »[4] ، وكان في (أن) لكثرة استعمالها فحولت الى العين والعلاقة الصوتية واضحة بين الحرفين إذ العين صوت مجهور ، وهو أقرب أصوات الحلق المجهورة للهمزة ، ولهــذا يقول الداني « فحيث ما وقعت العين وقعت الهمزة مكانها فتقول في : آمنوا : عامنوا » وفي « وآتى المال وعاتى المال » وفي « خاسئين : خاسعين » وفي قوله « متكئون : متكعون »[5] فهذا يدل على أن الهمزة كان يمتحن موضعها من الكلمة بالعين للصلة بينهما .

وباستعراض نوع آخر من النصوص على تلك الظاهرة نرى أن هذا الإبدال الذي قيد بكونه في أن المفتوحة ، وأن الهمزة يجب أن تكون في أول الكلام – لا يثبت أمام النصوص الآتية ، وقد وجد فيها أن العنعنة تكون في أن – وفي غيرها ، بل في وسط الكلام وآخره ، فما معنى هذه القيود التي لا تستطيع أن تثبت أمام نصوص اللغة التي لا يرقى إليها مغمز أو مطعن ؟ وإليك بعضها :

١ – جاء في اللسان : عنفوان – فعلوان من العنف ضد الرفق ، ويجوز أن يكون الأصل فيه

---

(١) شرح المفصل لابن يعيش : ١٤٩/٨ .

(٢) جمهرة ابن دريد : ١٣٨/١ ، شرح الشافية : ٢٠٣/٣ ، وشرح المفصل : ٧٩/٨ .

(٣) الجمهرة : ٢٣٨/١ ، شرح المفصل : ٧٩/٨ .

(٤) شرح المفصل : ١٤٩/٨ – ١٥٠ .

(٥) كتاب النقط : الداني : ١٤٣ ط دمشق .

أنفوان ... وسمعت بعض بني تميم يقول « اعتنفت الأمر بمعنى ائتنفته ، واعتنفنا المراعي: أي رعينا أنفها »[١] .

٢ - كما جاءت العنعنة في الوسط كما قال الأصمعي « السأف » والسعف[٢] ، ودام الحائط : دعمه والتأرض للشيء : التعرض له والدئث : الدعث[٣] (أي الحقد ، والأسنا وهو قديم الشجر - وبعضهم يقول : العسن[٤] .

٣ - كما تكون هذه العنعنة في الآخر .

ومن ذلك ما ذكره الخليل أن الخبع : الخبأ في لغة تميم[٥] ، ويتشكك ابن دريد في نسبته ما كان من هذا الضرب - الى تميم حيث يقول « خبع الرجل في المكان إذا دخل فيه ، وأحسب أن هذه العين همزة ، لأن بني تميم يحققون الهمزة فيجعلونها عيناً فيقولون : هذا خباعنا = يريدون : خباؤنا »[٦] .

وما قيل من أن : الفنأ = الفنع ، وهو الكثرة ، وتشاءي ما بينهم = تشاعى أي بعد ، والتمألونه = التمع أي تغيّر[٧] ، فهذه النصوص إن دلت - فإنما تنقض تلك القيود التي وضعها النحاة للعنعنة ، وربما أن الذي دفعهم للقول بهذا « أن استقراءهم لهذه الظاهرة كان ناقصاً وأن الأمر لا يعدو أن يكون حكماً خاصاً مبنياً على مثل خاص سمعه الراوي دون استقراء لباقي الحالات »[٨] ، ويظهر أن قلب الهمزة عينا لم يقتصر أمره على تميم بل يرى الدكتور خليل نامي أنه سمع في « بيت الفقيه من يقلب الهمزة عينا » ، وقد علم من اليمنيين الثقاة . أن ذلك يحدث في كل مدن تهامة ، فهم يقولون : « عالة « للآلة » ، والعمام « للإمام » ، والعمير « للأمير »[٩] ،

---

(١) لسان العرب : ١١/١٦٤ .

(٢) أمالي القالي : ٢/٧٩ .

(٣) مجلة كلية الآداب : المجلد ١٥ ج ١ سنة ١٩٥٣ من مقال الدكتور عبد الحليم النجار .

(٤) أمالي القالي : ٢/٧٩ .

(٥) كتاب العين للخليل : ٥١ ط بغداد .

(٦) الجمهرة : ١/٢٣٧ ، مقدمتان في علوم القرآن : مباني ٢٢٢ جفري .

(٧) مجلة كلية الآداب : مجلد ١٥ ج ١ سنة ١٩٥٣ .

(٨) في اللهجات العربية : ٩٨ ط ٢ الدكتور إبراهيم أنيس .

(٩) محاضرات الدكتور نامي سنة ١٩٥٥ . معهد اللغات الشرقية .

كما وجد أثر قلب الهمزة عيناً في لهجات الجزيرة بالسودان حيث يقولون « أسعلكم سعال »[1] في أسألكم سؤالاً .

ويرى الدكتور ليتمان : أنها ظاهرة عريقة في السامية وسمع أن أهل الحبشة يقولون: «حبع عوضاً عن حبأ : أي خبأ »[2] كما سمعت في صعيد مصر « لــع » في « لأ » بقلب الهمزة عيناً ، وهذا يشير الى أن في ألنازلين بصعيد مصر قوماً من تميم ، بدليل كثرة تسميتهم بـ تمّام ، وتميم . وهذا المثال وغيره يشير الى أن العنعنة تكون في آخر الكلمة . ومن هــذه المقارنات نرفض تقييدات النحاة لها كأن تكون في (أن) المفتوحة الهمزة ، وكأن تقيد الهمزة بالابتداء . أما لهجة الحجاز ــ فكانت لا تبدل الهمزة عيناً ، لأنهم من الحضر فلا يبالغون في تحقيق الهمزة يدل على ذلك ما رواه السجستاني من أن لغة الحجاز ــ استأديت الأمير فآداني في معنى ــ استعديته فأعداني[3] ، وفي حديث هجرة الحبشة « والله لأستأدينه عليكم »[4] أي لأستعدينه ، ولا شك أن قلب الهمزة ــ عيناً في تميم ــ هو أقصى مراحل تحقيق الهمز ، ذلك الأمر الذي تخلت عنــه لهجة الحجاز .

٨) الفحفحة :

عرفها اللغويون بأنها قلب الحاء عيناً ، وعزاها السيوطي[5] لهذيل ــ في الهمــع ، ولكن ذهب في كتاب الاقتراح في أصول النحو ، الى أنها قلب الهاء عيناً مع نسبتها الى هذيل أيضاً[6] إذ قال « والفحفحة في لغة هذيل »[7] ولكن نظراً للمصادر التي تحت أيدينا الآن وهي :

١ ــ الهمع[8]. ٢ ــ البحر المحيط[9] . ٣ ــ مختصر شواذ القرآن[10] لابن خالويه . ٤ ــ ابن

---

(١) من لهجات الجزيرة بالسودان : ١٢٢ .

(٢) مجلة الآداب : مجلد ١٠ جـ ١ ــ سنة ١٩٤٨ من مقال للدكتور ليتمان .

(٣) الأضداد : للسجستاني : ١٢٣ هفنر .

(٤) اللسان : ٢٧/١٨ .

(٥) همع الهوامع : للسيوطي : ٢٣/٢ .

(٦) الاقتراح : ٨٣ .

(٧) الاقتراح : ٨٣ .

(٨) ٢٣/٢ .

(٩) ٣٠٧/٥ ، ٢٠٤/١ .

(١٠) ٦٣ .

عقيل[١] . ٥ ـ اللسان[٢] . ٦ ـ سر صناعة الإعراب[٣] ـ مصحف ابن مسعود[٤] ـ وكلها تحدد « الفحفحة » بأنها قلب الحاء عيناً ، نرفض صيغة السيوطي التي تفرد بها في كتابه الاقتراح والتي يذكر فيها بأنها « جعل الهاء عيناً »[٥] كما أن اللسان في إحدى رواياته ، يعزوها الى هذيل وثقيف[٦] إذ يقول « عتّى بمعنى حتّى هذلية وثقفية »[٧] .

وفي عزوها لهذيل يقول ابن مالك : قرأ ابن مسعود « لَيَسْجُنَنَّه[٨] عتّى حين «فكتب إليه عمر : أن الله أنزل هذا القرآن عربياً ، وأنزله بلغة قريش فلا تقرؤهم بلغة هذيل »[٩] وجاء مثل هذا الخبر في البحر[١٠] ، كما قرأ ابن مسعود: « فتربصوا به عتى حين » واستدلوا لهذه اللهجة في هذيل بقولهم « اللعم الأعمر أعسن من اللعم الأبيض » أي اللّحم الأحمر أحسن من اللّحم الأبيض ، كما يقولون « عَلّتِ العَيَاة لكل عيّ » أي حلت الحياة لكل حيّ »[١١] .

وأشك في هذين المثلين اللذين عزيا الى هذيل ، لأن أثر الصنعة باد على كل منهما ، وهي أشبه بالفوازير والنكات التي يؤلفها الناس لتعجيز بعضهم بعضاً في النطق ، كما يشك في قصـــة عمر رضي الله عنه ، وفي قولته لا تقرؤهم بلغة هذيل ، لأنها تناقض التيسير في القراءات القرآنية ، وتخالف ما يرمي إليه الحديث الشريف «أنزل القرآن على سبعة أحرف»[١٢] ثم كيف ينهى عمر عن قراءة ابن مسعود ، وهو نفسه يروي أن رسول الله ﷺ كان يسمر عند أبي بكر في الأمر من أمر المسلمين وأنه سمر عنده ذات ليلة وعمر معهم ، فخرج رسول الله ﷺ يمشي وهم معه ،

---

(١) ٩/٢ - ١٠ .
(٢) ٣٢٨/٢ .
(٣) ٤٦/١ ط الحلبي .
(٤) انظر : تاريخ المصاحف لجفري : P. 61, 80 .
(٥) الاقتراح : ٨٣ .
(٦) اللسان : ٢٥٣/١٩ .
(٧) المرجع السابق .
(٨) سورة يوسف : آية ٣٥ .
(٩) الهمع : ٢٣/٢ .
(١٠) البحر : ٣٠٧/٥ .
(١١) مميزات لغات العرب : ١١ ط الثانية .
(١٢) في اللهجات العربية : ٩٧ .

فإذا رجل قائم يصلي في المسجد ، فقام رسول الله ﷺ يسمع قراءته ، قال عمر : فلما كدنا أن نعرف الرجل قال : من سره أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم معبد ، قال : ثم جلس الرجل يدعو فجعل رسول الله ﷺ يقول : سل تعطه[1] ، وابن أم معبد – هو ابن مسعود ، فقراءته بشهادة الرسول – قراءة كما أنزل القرآن . وإذا التفتنا الى مناقشة هذه الظاهرة التي عزيت الى هذيل ، وجدناها لا تثبت أمام النقد ، على الرغم من هذه الروايات التي تثبتها ، وذلك :

١ – لأنه لم يؤثر عن هذيل أن قلبت الحاء عينا في غير هذا المثال ، ومثال واحد لا يكفي لإثبات ظاهرة لهجية ، والقرآن على تردد كلمة (حتى) فيه لم يؤثر عن ابن مسعود أن قلب حاءها عيناً إلا في قوله « ليسجننهُ حتى حين »[2] ، وقوله تعالى « فتربصوا به حتى حين »[3] أما في غير هذا فلم يبدل .

٢ – ورد عن ابن مسعود أنه قرأ عدة آيات كريمة أبدل فيها العين حاء – أي على عكس الظاهرة المعزوة لقومه وهي إبدال الحاء عيناً، وذلك أنه قرأ قوله تعالى : « قالوا نحم » في نعم[4]، وأنه قرأ « أفلا يعلم إذا بحثر ما في القبور »[5] في بعثر ، وفي مصحف ابن مسعود نفسه وجدت « بحثر » بدل بعثر .

٣ – أن قلب الحاء عيناً ، وهي المنسوبة لهذيل ، لم توجد فقط في مصحف ابن مسعود ، بل وجدت في مصاحف أخرى منها مصحف الربيع بن خيثم[7] . مما يدل على أن هذيلا لم تختص بها .

٤ – ولنفرض أن ابن مسعود قرأ (عتى حين) فهل معنى هذا أن قومه يقلبون الحاء عيناً ؟ أظن أن قراءة القارىء قد لا تعبر عن لغة قومه في كل حال ، بدليل أن ابن محيصن وابن

---

(١) المصاحف للسجستاني : ١٣٧ ، وانظر مقدمتان في علوم القرآن ، مقدمة المباني : ٣٥ .

(٢) سورة يوسف : آية ٣٥ .

(٣) سورة المؤمنون : آية ٢٥ .

(٤) الهمع : ٧٦/٢ ، مغنى اللبيب : ٢٥/٢ .

(٥) سورة العاديات : آية ٩ .

(٦) تاريخ المصاحف لجفري : P. 111 .

(٧) المرجع السابق : P. 291 .

كثير يقرءان (إن الله لا يستحي أنْ يَضْرب مثلا)[1] بياء واحدة – وهي لغة تميم[2] ، وتحدثنا كتب الطبقات أن ابن كثير من مكة ، وابن محيصن قرشي ، ومع هذا فقراءتهما جاءت على لغة تميم ، أي خالفا لهجة قومهما – فقراءة ابن مسعود لا نجزم بأنها عكست لهجة قومه ، ومن ثم أشك في أن قلب الحاء عيناً لهجة هذيل ، وكل ما في الأمر أن قراءة ابن مسعود يمكن أن تفسر تفسيراً صوتياً ، وذلك أن العربي يستثقل الحروف المتماثلة ، لأنها تشق عليه في النطق ، فيحاول أن يخالف بينها طلباً للخفة ، ومن ذلك أن العرب قالت : « تسريت وتظنيت وتقصيت »[3] في تسررت وتظننت ، وتقصصت فاستثقل العربي التماثل وحوله الى حرف آخر وهذا ما يسمى « Dissimilation » أي المخالفة . والأمر في قراءة ابن مسعود « عتى حين » لا يعدو أنه خالف بين تكرار الحاءين .

ويمكن أن ينظر لهذا التخالف في الإبدال بقولهم « العرجلة – من الخيل القطيع وهي بلغة تميم[4] الحرجلة » ولتفسير هذا الإبدال نرى أن العين « صوت مجهور مخرجه وسط الحلق ، ثم هي من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة »[5] والراء صوت مجهور مثل العين ، وهي أيضاً من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة ، فالبدوي التميمي استثقل هذا التشابه بين الحرفين ، فآثر أن يخالف بينهما طلباً للخفة ، ولهذا حول العين في « العرجلة » الى (حاء) والحاء هو الصوت المهموس الذي يناظر العين فمخرجهما واحد ، ولا فرق بينهما إلا في أن الحاء مهموس نظيره المجهور هو العين .

ويربط بعض المحدثين بين كلمة « عَدَيْ » الموجودة في بعض اللغات السامية والعربية الجنوبية القديمة وبين كلمة (حتى)[6] فالعين تقابل الحاء ، كما في العبرية ، فربما انتقلت عدوى العين الى بعض اللهجات العربية . وفي اللهجات اليمنية حولت الحاء الى العين مثل «صفعه

---

(١) سورة البقرة : ٢٦ .

(٢) البحر : ١٢١/١ .

(٣) كتاب سيبويه : ٤٠١/٢ .

(٤) اللسان : ٤٦٥/١٣ .

(٥) تاريخ الأدب : ٢٠ حفني ناصف ط ٢ .

(٦) الدكتور خليل نامي محاضرات فقه اللغة في معهد اللغات الشرقية : ١٩٥٢ ، وتاريخ العرب قبل الإسلام: ١٢٧/٧ جواد علي .

بمعنى صفحة أو صحفه بمعنى طبق »[1] وأيًّا ما كان فالعلاقة واضحة بين الحاء والعين فكلاهما حلقى إلا أن الأولى مهموسة والثانية نظيره المجهور وحدد ابن جني علاقتهما بقوله « ولولا بحة[2] في الحاء لكانت عينا » ولهذه العلاقة روى اللحياني قولهم « عصد الرجل : إذا مات » كما حكى عن أبي طيبة أنه قال « لغتنا حصد » وعقب اللحياني على ذلك بقوله « وإنما قال هذا – أي أبو طيبة – لأن لغة الأكثر إنما هو « عصد »[3] .

و) المجمجة :

أشار إليها اللغويون بأنها قلب الياء جيماً ، ثم تضاربت الروايات ، هل الياء الخفيفة هي التي تقلب أم تشاركها الثقيلة أيضاً ، وهل تشمل الظاهرة كذلك ياء النسب أم لا ، ويحسن أن نعرض النصوص حتى نستشف منها الحقيقة أو جانباً منها .

١ – يقول الأصمعي : كل ياء مشددة للنسبة وغيرها ، فإن بعض العرب يقلبها جيماً[4] ثم يقول بعد ذلك « وزعم الفراء أنها لغة طيء »[5] .

٢ – قال أبو عمرو « وهم يقلبون الياء الخفيفة أيضاً الى الجيم ، قال الفراء : وذلك في بني دبير من بني أسد خاصة[6] .

٣ – وقال أبو عمرو « قلت لرجل من بني حنظلة : ممن أنت ؟ فقال : فقيمج ، فقلت : من أيهم؟ فقال : مرّج »[7] .

٤ – وفي نوادر أبي زيد : ساق أبياتاً قلبت فيها الياء الخفيفة جيماً – والأبيات لبعض أهل اليمن[8] .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) سر الصناعة : ٢٤٦/١ .

(٣) عصد : إبدال أبي الطيب : ٣٠٠/١ .

(٤) إبدال أبي الطيب : ٢٥٧/١ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) إبدال أبي الطيب : ٢٦٠/١ .

(٧) إبدال السكيت : ٢٨ .

(٨) النوادر : ١٦٤ .

٥ – وجاء في الشافية : يبدل ناس من بني تميم الجيم مكان الياء في الوقف ، شديدة كانت الياء أو خفيفة[١] .

٦ – وفي كتاب سيبويه : وأما ناس من بني سعد فإنهم يبدلون الجيم مكان الياء في الوقف[٢] .

٧ – وفي اللسان : أن قلب الياء جيماً عند ناس من بني سعد في الوقف خاصة ، فإذا وصلوا لم يبدلوا وقد تبدل في الوصل[٣] .

٨ – ويقول ابن منظور : العجمجة : في قضاعة كالعنعنة في تميم يحولون الياء جيماً مع العين[٤] ، وفي التصريح ما يؤيد ذلك : إذ أن الجوهري اشترط لقلب الياء جيماً في قضاعة أن تجتمع مع العين[٥] .

٩ – وفي أمالي القالي أنه عزا قلب الياء جيماً الى فقيم[٦] .

وبالنظر الى الروايات السابقة نستنتج ما يأتي :

١ – أن الظاهرة عزيت الى : طيء ، وبني دبير ، وحنظلة ، وفقيم ، وبعض أهل اليمن ، وناس من تميم ، وناس من بني سعد ، وقضاعة .

٢ – أن قلبها عند قضاعة مقيد بأن يسبقها العين .

٣ – أن هذا القلب قيد في حالة الوقف حيناً ، وحيناً آخر لم تنص الروايات على ذلك .

٤ – أن هذه الياء المقلوبة لا ضير أن تكون مشددة كياء النسب ، ولكنها مقيدة عند أهل اليمن بالياء الخفيفة ، وكذلك عند بني دبير من أسد .

وإذا ما بحثنا الظاهرة من الناحية الصوتية ، وجدنا أن العلاقة قائمة بين الجيم والياء – فكلاهما مجهور وهما من الحروف الشجرية ، ومخرجها من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك

---

(١) شرح الشافية : ٢٨٧/٢ .

(٢) الكتاب : ٢٨٨/٢ .

(٣) اللسان : ٦١/٦ مادة « شجر » .

(٤) اللسان : ١٤٤/٣ .

(٥) التصريح : ٣٦٧/٢ .

(٦) الأمالي : ٧٧/٢ – ٧٨ .

– غير أن الجيم أدخل والياء أخرج – لهذا أمكن انتقال الياء الى الجيم لهذه العلاقة ، والنطق بالجيم أقوى من النطق بالياء، لهذا أرجح أن الذين قلبوا الياء الى الجيم من البدو، فإذا استعرضنا القبائل التي نطقت بتلك الظاهرة وجدناهم :

١ – طيء – وهي متبدية تسكن أواسط نجد .

٢ – بنو دبير : شأنها كطيء . وهي من أسد .

٣ – حنظلة – وهي بدوية أيضاً – وهي أكبر قبيلة في تميم وتنسب الى حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم[١] .

٤ – فقيم : وهي بطن من دارم من تميم[٢] أيضاً .

٥ – وبعض أهل اليمن : وأرجح أن هؤلاء البعض من القبائل البدوية .

٦ – سعد : وأرجح أنها سعد من تميم ، والمصادر لم تبين من سعد تلك ! ولكني أرى أنها سعد تميم ، والسبب في ذلك :

أولا : أن صاحب الشافية عزا تلك الظاهرة الى ناس من تميم[٣] .

ثانياً : وجود شاهد شعري وهو :

(يطير عنها الوبر الصّهابجَا)

يريد الصهابيّ . والبيت عزاه أبو الطيب اللغوي الى هميان بن قحافة ، وهذا الشاعر من بني سعد بن زيد مناة من تميم[٤] ، فتكون الظاهرة في سعد التميمية .

بقي أن نناقش ، لم اشترط الجوهري وجود العين عند قضاعة حتى يصح القلب ؟ بينما غيره من الرواة لم يشترط ذلك . وأرجح أن الجوهري اشترط ذلك ، لأنه صادف جملة من كلامهم فيها العين فاشترط وجودها ونقل صاحب التصريح ما يؤيد ما أقول فهو يذكر : قال الجوهري

---

(١) معجم كحالة : ٣١٠/١ .

(٢) المرجع السابق : ٩٢٦/٣ .

(٣) شرح الشافية : ٢٨٧/٢ .

(٤) معجم كحالة : ٥١٥/٢ .

وعجعجة قضاعة يحولون الياء جيماً مع العين يقولون « هذا راعجٌ خرج َمعِجّ »، أي هذا راع خرج معي »[1] بينما وجدت هذه الظاهرة مع غير العين مثل :

١ – قال الأصمعي : أنشدني رجل من أهل البادية :

عمّي عويفٌ وأبو علج المطعمان اللّحْم بالعشج
وبالغداة كسر البرنج تقلح بالودّ وبالصّيصج[2]

يريد أبو عليّ، وبالعشيّ، والبرنيّ وبالصيصيّ (٣)

٢ – وما أنشدوه لهيان بن قحافة :

يطير عنها الوبر الصّهابجا[4]

يريد : الصّهابي : فحذف إحدى الياءين وقلب الثانية جيما .

٣ – وما أنشده ابن الأعرابي :

كأن في أذنابهن الشوّل من عبس الصيف قرون الإجّل[5]

يريد الأيل، والشعر لأبي النجم العجلي في وصف الايل كما في شرح الشافية[6] .

٤ – وما عزى لبعض اليمنيين :

لا همّ إن كنتَ قبلت حجّتجْ
فلا يزال شاجحٌ يأتيك بجْ
أقمرُ نهّاتٌ ينزّى وفْرتج[7]

(١) التصريح : ٢/٣٦٧ .

(٢) إبدال السكيت : ٢٨ .

(٣) سر صناعة الإعراب : ١/١٩٢ .

(٤) شرح الشافية : ٤/٢١٦ .

(٥) سر الصناعة : ١/١٩٣ .

(٦) ٤/٤٨٥ .

(٧) اللسان : ٣/٢٦ - ٢٧، شرح الشافية : ٢/٢٨٧، والسيرافي على سيبويه : ٥/٤٤١ مخطوط، ليس في كلام العرب لابن خالويه : ٤٧ .

فلم نجد من اشترط وجود العين ، وإذا ذهبنا على أن قضاعة يمنية في نسبها فما عزى منسوباً الى اليمن لا نجد فيه أثراً لهذه العين ، التي يشترطها الجوهري – بل نلمح شيئاً آخر في شاهد أبي النجم وهو أن الياء قد قلبت جيما مع أنها ليست طرفاً وإذا عرفنا أن هذا الشاعر كما تحدثنا كتب الطبقات من بني عجل بن لجيم التي يؤول نسبها الى بكر بن وائل[1] – عرفنا أن هـــذه الظاهرة قد شملت بقاعاً جديدة فوق ما حددته الروايات اللغوية وأيًّا ما كان فالعلاقة التاريخية والجغرافية تربط أكثر هذه القبائل التي تنطق الياء جيماً ، فاليمن موصولة النسب بقضاعة على رأي كثرة من النسابين ، وقضاعة تربـــط بطيء ، لأن كليهما من اليمن ولأن الروايات العربية التاريخية تلمح على أن بطون قضاعة لما انتشرت الى شمال الجزيرة ، أخذت بعض هذه البطون أماكنها في أجأ وسلمى ، وهو موطن طيء ، « بل يذكر الأخباريون أن طيئاً بعد أن بلغت جبلي أجأ وسلمى – شاهدت هناك شيخاً مع ابنته يمتلكان هذين الجبلين ، وهـــذا الشيخ من « صحار » ، « وصحار » اسم بطن من قضاعة »[2] وإذ قد عقدنا هـــذه الصلة ؛ فإننا نعقدها أيضاً بين بني دُبَيْر من أسد ، وبين طيء من جانب آخر ، لأنها هي الأخرى قد وجدت فيها ظاهرة العجعجة « فطيء عندما نزحت من الجنوب اختلطت بقبائل أسد »[3] ثم أجلت طيء أسدا واستقرت مكانها ولا شك أن هذا الاتصال الجغرافي يمكن أن يولد لنا اتصالاً لغوياً .

وندير البحث ناحية أخرى ، وهي : هل كانت هذه الظاهرة في حالتى الوصل والوقف ؟ أكثر الشواهد التي تحت يدي تترك هذا الأمر غفلا ، وبعضها قيدته بأن هذا الإبدال لا يكون إلا في حالة الوقف – فابن يعيش يقيد ذلك بحـــالة الوقف[4] ، وكذلك رضي الدين[5] ، وسيبويه[6] ، والسيرافي على سيبويه[7] ، وابن منظور ناقلا عن سيبويه[8] ، أما أبو الطيب اللغوي

---

(١) معجم كحالة : ٢/٧٥٧ .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام : ٤/٢٦٨ - ٢٦٩ جواد علي .

(٣) نهاية الأرب : ٣٢٦ .

(٤) شرح ابن يعيش : ٩/٧٤ ، ١٠/٥٠ - ٥١ .

(٥) شرح الشافية : ٢/٢٨٧ .

(٦) الكتاب : ٢/٢٨٨ .

(٧) شرح السيرافي : ٥/٥٦٢ .

(٨) اللسان : ٦/٦١ - ٦٢ مادة شجر .

في إبداله[١]، وابن السكيت[٢] في الإبدال ، وصاحب الأمالي[٣] ، وابن جني في سر الصناعة[٤] فلم يقيدوا هذا الإبدال بالوصل أو بالوقف .

والذي أميل إليه أن هذه الظاهرة تكون في الوقف فقط ، وما عدا ذلك فضرورة ، والسبب في ذلك أن النطق بالياء يزداد خفاء في الوقف لسكونها ، لهذا أبدلوا منها الجيم ، والجيم أظهر من الياء ، أما في حالة الوصل فلا حاجة الى هذا الإبدال، لأن الياء ظاهرة واضحة وشأنها في ذلك كأي حرف ولهذا جهل الإمام السخاوي بعض القراء في قراءتهم لقوله تعالى (اياك نعبد)[٥] إذ ينطقون الياء كالجيم . « أما ما ذهب إليه ابن عصفور في ضرائره ، بأن هذا الإبدال[٦] خاص بالشعر » فقد جانب الصواب لأنه ثبت أنه لغة ، بل لا تزال هذه اللغة في اللهجات العربية الجنوبية الحديثة[٧]، وفي لغة Tigré في بلاد الحبشة الشمالية[٨]، كما في حضرموت في أيامنا هذه ، كما كانت موجودة أيضاً في النقوش اللحيانية[٩] .

ز) **العجرفية :**

والعجرفية كالغمغمة من جهة أنها أنماط مختلفة تتعلق بهيئة النطق والتلفظ وكما ضن الرواة بمثال للغمغمة ضنوا كذلك بنموذج للعجرفية ، ولهذا لجأت الى المعاجم لتلمس تلك الظاهرة :

١ — فالعجرفة : ركوب الرأس في الأمر[١٠] . كما يقولون : رأيت عجارف المطر: إذا أقبل بشدة[١١]. وعن ابن دريد أنها «الإقدام في هوج»[١٢]، وعن الزمخشري أنها «الجفوة»[١٣].

---

(١) ٢٦٠/١ .

(٢) ٢٨ .

(٣) أمالي القالي : ٧٧/٢ — ٧٨ .

(٤) سر الصناعة : ١٩٢/١ .

(٥) نهاية القول المفيد : ٧٤ .

(٦) شواهد الشافية : ٢١٦/٤ .

(٧) محاضرات الدكتور نامي في معهد اللغات سنة ١٩٥٢ .

(٨) مجلة كلية الآداب : مجلد ١٠ ج ١ : ص ٣١ .

(٩) لغات النقوش العربية الشمالية : ١٠ دكتور مراد كامل .

(١٠) الجمهرة : ٤٢٦/٣ .

(١١) المرجع السابق : ٣٢٣/٣ .

(١٢) المرجع السابق .

(١٣) أساس البلاغة : ٢٩٤ .

٢ – ويرى ابن سيده أن العجرفية هي التقعر في الكلام[١] ، ويقول الزمخشري « ورجل مقعر يتكلم بقعر حلقه »[٢] ، والتقعر هو : التشدق .

ومن خلال هذه النصوص أرجح أن العجرفية صفة أقرب الى الشدة والغلظة والجفوة تتمثل في تفخيم الحروف وتغليظها حتى يملأ صداها الحنك والفم – فأصحابها كما أظن يؤثرون الأصوات الشديدة المجهورة ، أو المفخمة ، لأن فيها عناصر الانفجار والبروز وما يشبه الفرقعة ، وهي صفات للكلام تمج منها الأسماع وتأنف منها الطباع لوحشيتها وغلظتها ، ويمكن أن نتلمس هذه العجرفية في الأعراب البداة الذين وفدوا على الرسول ﷺ وأخذوا ينادونه من وراء الحجرات بصوت أجش أشبه بالمتفجرات المتصلة الدوي – وكأنه سلسلة يتبرأ بعض حلقاتها من بعض – حتى وصفهم القرآن بأن « أكثرهم لا يعقلون »[٣] وراح يدعوهم الى أدب الإسلام حين يخاطبون الرسول في قوله « ولا تَجْهَروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » وقوله : « واغْضُضْ من صوتك – إن أنكر الأصوات لصوت الحمير »[٤] .

وإذا كان الأعراب البداة يتسمون بالشدة والغلظة في المحسوس من أمورهم كالأصوات والأقوال ، فإنهم أشد وأغلظ في خفيات الأمور ، ودخائل النفوس ، ألا ترى الى قوله تعالى « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً »[٥] .

وكان من الطبيعي أن تحافظ قبيلة ضبة على تلك الظاهرة ، لأنها قبيلة بدوية حافظت على النطق القديم ، فهي لم تتأثر بغيرها ، ولم يتأثر غيرها بها ، يوضح هذا المعنى « أن ضبة داخلة في قبائل الجمرات – وهي قبائل اتفقت على ألا تخرج أحداً منها الى غيرها ، ولا تدخل من غيرها أحداً فيها »[٦] ولهذا بقيت لهجة ضَبّة في حفاظها على الطور الأول من لهجتها لعزلتها حتى بعد الإسلام حين ذهب الرواة يتلقفون اللغة من القبائل – فلمسوا تلك الظاهرة التي أطلقوا عليها « العجرفية » ، لذا قد جاءت رواية عن ثعلب في عدة مصادر تشير الى أن العجرفية في ضبة[٧]،

(١) الخزانة : ٥٩٦/٤ .
(٢) الأساس : ٣٧٣ .
(٣) سورة الحجرات : آية ٤ .
(٤) سورة لقمان : آية ١٩ .
(٥) سورة التوبة : آية ٩٧ .
(٦) انظر : تاريخ أدب العرب للرافعي : ١٢٧/١ .
(٧) مجالس ثعلب : ١٠٠/١ ، الخزانة : ٥٩٦/٤ ، المزهر : ٢١١/١ .

لكن ورد عن ابن فارس ما يفيد غير ذلك ، وهو أنه عزا « العجرفية لقيس »[1] وأرى أن ابن فارس إما أن يكون قد حرف في الرواية ، واما أن يكون على رغم هذا التحريف لا تعارض بين الروايتين ما دامت العجرفية من صفات القبائل البدوية ، لكن أرى أن تخصص رواية ابن فارس ببعض قبائل قيس لا كلها ، كما رأى ابن فارس وهي تلك التي جاورت ضبّة — كباهلة وغنيّ ، وهما من قيس « وكانت ضبّة وباهلة على جوار حيث سكنتا اليامة »[2] .

فلعل العجرفية — والتي هي من خصائص ضبة — قد تأثرت بها بعض القبائل القيسية المتصلة بضبة ، والتأثير والتأثر قائم بين اللهجات ، وهذا معنى قول ابن جني عن العرب « فإنهم بتجاورهم وتلاقيهم وتزاورهم يجرون مجرى الجماعة في دار واحدة »[3] .

ح) الفمفمة :

ولتفسير هذه الظاهرة نعرض ما يلي :

جاء في كامل المبرد « أن معاوية قال يوماً لجلسائه : من أفصح الناس ؟ فقام رجل من السّماط فقال : قوم تباعدوا عن فراتية العراق ، وتيامنوا عن كشكشة تميم ، وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليس فيهم غمغمة قضاعة ، ولا طمطمانية حمير ، فقال له معاوية : من أولئك ، فقال : قومي يا أمير المؤمنين ، فقال له معاوية : من أنت ؟ قال : أنا رجل من جرْم »[4] كما وردت نفس هذه الرواية في الفائق في غريب الحديث للزمخشري[5] ، والمفصل[6] ، وشرحه لابن يعيش[7] ، ودرة الغواص[8] ، وشرحها[9] ، وخزانة[10] البغدادي ، كما وردت أيضاً في البيان[11]

---

(١) الصاحبي لابن فارس : ٢٣ .

(٢) معجم كحالة : ٦٠/١ ، وتاريخ العرب قبل الإسلام : ٣٢٨/٤ جواد علي .

(٣) الخصائص : ١٥/٢ ط دار الكتب .

(٤) الكامل للمبرد : ٣٧٠/١ وما بعدها .

(٥) ٤٥٨/٢ .

(٦) ٣٣٣ .

(٧) ٤٨/٩ وما بعدها .

(٨) ١١٤ .

(٩) ٢٣٤ .

(١٠) ٥٩٥/٤ وما بعدها .

(١١) ٢١٢/٣ .

للجاحظ ، وشرح السيرافي[1] ، مع اختلاف في بعض عبارات الرواية .

ويفهم من المناقشة التي دارت بين معاوية وجلسائه أن الغمغمة عيب في المنطق تتنزه عنها اللغة الفصحى ، وبعد البحث والاستقصاء لم أجد أمثلة فيما تحت يدي من المصادر توضح هذه الظاهرة ، لهذا لجأت الى المعاجم لأسترشد بها في كنه هذه الظاهرة .

١ – ففي الجمهرة : أن « الغمغمة مثل الهمهمة – كلام لا تفهمه »[2] .

٢ – وفي أساس البلاغة : غم الشيء إذا غطاه ... ومن المجاز « سحاب أغم : لا فرجة فيه »[3] .

٣ – « أن الغمغمة : صفة للقسيّ إذا كانت هتوفاً – أي أن صوتها يطيف بالقوس فيكون له رنة »[4] .

ويفهم من المعنى المعجمي أنك تسمع الصوت ولكن تخفي فيه مقاطع الحروف وبيان أجزائها ، وتميز كلماتها لسرعة النطق « ولهذا يقال لأصوات الأبطال والثيران عند الذعر – غماغم »[5] وكأن المعنى الجامع هو الاختلاط وعدم التمييز والإفصاح في نطق الكلام حتى لا يفهم السامع المراد، ولهذا أرجح أن خفاء النطق وعدم تميزه كان عند قضاعة في حروف الكلمة ، وفي ربط الكلمات بعضها ببعض ، وهي لذلك أشبه شيء باللّفف : وهو إدخال حرف في حرف[6] ، وإذا ذهبنا لبحث المغمغة – وهي عكس الغمغمة – وجدنا لها نفس المعنى ، إذ يقول ابن دريد : مغمغ كلامه – إذا لم يبنه »[7] .

وإذا كانت ظاهرة الغمغمة كما في المصادر السابقة – قد اتصفت بها قضاعة ، فقد عثرت على رواية تفيد أن الغمغمة في قريش لا قضاعة[8] ، ولكني أرد هذه الرواية لما يأتي :

---

(١) ٤٦٨/٥ مخطوط في مكتبة تيمور .

(٢) الجمهرة : ١٦١/١ .

(٣) أساس البلاغة : ٣٢٩ .

(٤) الجمهرة : ٤٥٧/٣ .

(٥) شرح الدرة : ٢٣٥ .

(٦) العقد الفريد لابن عبد ربه : ٢٩٦/٢ .

(٧) الجمهرة : ١٦١/١ .

(٨) تاج العروس : ٦/٩ .

أ) ما عزي الى قتادة (١١٧ هـ) من أن «قريشاً كانت تجتبي – أي تختار أفضل لغات العرب حتى صار أفضلَ لغاتها لغتها – فنزل القرآن بها »[١] .

ب) وما ورد في اللسان عن أبي بكر « قريش هم أوسط العرب في العرب داراً ، وأحسنه جواراً ، وأعربه ألسنة »[٢] .

جـ) وما نقله ابن فارس عن أشياخه من « أن قريشاً أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة »[٣] .

د) وما جاء عن الفراء عند حديثه عن قريش وأنهم « صاروا أفصح العرب ، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ، ومستقبح الألفاظ »[٤] .

ولهذا كله تخلت لهجة قريش عن هذه الغمغمة ، لأنها مستقبحة مستبشعة ، فإذا أضيف الى هذا رواية أخرى للمحاورة التي وقعت آنفاً بين معاوية وجلسائه حين سألهم عن أفصح الناس فقال (أحدهم) : قوم ارتفعوا عن فراتية . للعراق . ليس فيهم غمغمة قضاعة ... قال من هم؟ قال : قومك قريش ، قال : صدقت[٥] . فلو كانت الغمغمة في قريش كما جاء عن صاحب التاج ، لكان المعنى في الرواية السابقة « ليس فيهم غمغمة قريش قال : من هم ؟ قال : قومك قريش » فيتعارض النص داخلياً إذ تكون في قريش الغمغمة ، فلغتها لذلك ليست فصيحة ، وهذا يناقض قوله في آخر النص « قومك قريش » أي أفصح الناس . ويبدو أن ظاهرة الغمغمة هذه قد شاعت في بعض قرى مديرية الشرقية كما رجح ذلك حفني ناصف[٦] . وقد اكتشفت فيما جاء عن المقريزي – ما يوضح تلك القرابة اللهجية بين قضاعة وبين بعض القرى في مديرية الشرقية ، إذ يقول « وبليّ (وهي من قضاعة) قبيلة عظيمة فيها بطون كثيرة ، وكانت بلي بالشام فنادى رجل من بلي بالشام يال قضاعة ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكتب الى عامل الشام أن يسير ثلث قضاعة الى مصر فنظروا ، فإذا بلي ثلث قضاعة ، فسيروا الى مصر »[٧]

---

(١) اللسان : ٧٧/٢ .

(٢) اللسان : ٧٧/٢ .

(٣) المزهر : ٢١٠/١ ، الصاحبي : ٢٣ .

(٤) المزهر : ٢٢١/١ ، الاقتراح : ٨٣ .

(٥) الفائق للزمخشري : ٤٥٨/٢ .

(٦) مميزات لغات العرب : ٣٥ .

(٧) البيان والاعراب : ٢٩ .

ويرجح أن بليًّا — سكنت الصحراء الشرقية ، كما أن قبائل عدة من جهينة (وهي فرع من قضاعة) قد سكنت الشرقية ومركز فاقوس ، حيث بها الى الآن قرية قديمة تسمى « دوار جهينة »[1] .

وهذا يشير الى أن الغمغمة في بعض قرى مديرية الشرقية موروثة عن قضاعة اليمنية — وذلك يؤكد قوة العلاقة اللهجية بين السالفين والخالفين عبر القرون .

ط) الوَتْم :

وهو كما ذكره اللغويون — إبدال السين المهملة — تاء فوقية فيقولون : (النات بالنات) أي الناس بالناس . وقد عزيت هذه الظاهرة لأقوام عديدين ، فعزاها الأزهري لحمير[2] ، واستشهد لها بقولهم « لبات » بمعنى « لا بأس عليك » واستشهد لها اللسان بقول شاعرهم :

تنادوا عند غدرهم لباتِ ... وقد بردتْ معاذر ذي رعين

ويبدو أن الأزهري نقل هذا الشاهد من كتاب شمر[3] . كما حكيت هذه الظاهرة عن (قضاعة) واستشهد لها بقول الشاعر :

يا قاتل الله بني السّعلات ... عمرو بن يربوع شرار النات

غير أعفاء ولا أكيات[4]

وفي نوادر أبي زيد : أن هذا من قبيح البدل ، أو من قبيح الضرورة[5] ، ووصف الرضي هذا الابدال بالندور[6] ، ولكن حكاية أبي عمرو بأن صيغة (النات) بدل الناس في قوله تعالى « قل أعوذُ بربّ النات »[7] لغة قضاعة[8] يقف في سبيل أبي زيد حيث يرى أنها ضرورة

---

(١) البيان والاعراب : ٣٢ هامش .

(٢) اللسان : ٣٨٨/٢ .

(٣) اللسان : ٣١٨/٧ وما بعدها .

(٤) نوادر أبي زيد : ١٤٧ .

(٥) المرجع السابق : ١٠٤ .

(٦) شرح الشافية : ٢٢١/٣ .

(٧) سورة الناس : آية ١ .

(٨) مختصر شواذ القرآن : ١٧٣ ابن خالويه .

وليست لغة، ولا ضرورة في القرآن، على أنه لا ضير أن تتبادل التاء مع السين فكلاهما متقارب من الآخر، فالتاء من الأصوات الشديدة ونظيرها الرخو هو السين، ثم هي موافقة لهـا في الهمس وقرب المخرج، وقد جاءت ألفاظ تؤيد هذا البدل: منها ختيت في خسيس[1] ومرمريت الداهية من الرجال في مرمريس[2]، وإذا كانت الظاهرة قد عزيت لحمير مرة، ولقضاعة أخرى فلا تهافت في هذا العزو، لأن قضاعة على الرأي الأشهر من مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير[3]، ولكن قضاعة شعب كبير، فهل كانت كل سين تبدلها تاء في جميع قبائلها أم أن ذلك في بعض بطونها فقط؟ — أرجح الرأي الثاني وسبب ذلك أن تحول السين وهو صوت رخو الى التاء وهو صوت شديد لا يكون إلا من سمة القبائل المتبدية، لأنها تميل الى الأصوات الشديدة، والصوت الشديد أيسر من نظيره الرخو وخير قبائل قضاعة تنسب لها الظاهرة هي جرم وجهينة — لأخذهما من البداوة بقسط كبير. وإذا كان معنى الوتم هو قلب السين المهملة تاء فوقية[4]، فذلك يشير الى الخطأ الذي تردى فيه شارح القاموس في المقدمة حيث ذكر أن (الوتم) هو «جعل الكاف شيناً مطلقاً»[5]، وما أراده شارح القاموس يجب أن تكون الشنشنة لا الوتم، والشنشنة هي قلب الكاف شيناً مطلقاً وهي في اليمن[6].

ي) الاستنطاء:

وهو عند اللغويين أن تبدل العين الساكنة نوناً — إذا جاورت الطاء وذلك مثل: أنطى — في أعطى وقد جاءت عدة روايات في نسبة هذه الظاهرة:

١ — ففي اللسان: الإنطاء = الإعطاء بلغة أهل اليمن[7]، وكذلك جاءت رواية مماثلة في كتاب[8] شمس العلوم.

---

(١) سر الصناعة: ١٧٣/١ ط الحلبي.

(٢) اللسان: ١٠١/٨.

(٣) معجم كحالة: ٩٥٧/٣.

(٤) اللغات واللثغات: مقال للأب أنستاس الكرملي في مجلة المشرق السنة ٦ عدد ١٢ سنة ١٩٠٣.

(٥) تاج العروس: ٨/١.

(٦) الجاسوس: ١٨٣.

(٧) اللسان: ٢٠٦/٢٠.

(٨) ١٠٤.

٢ – وعزاها التبريزي الى العرب العاربة[١] .

٣ – كما عزاها السيوطي : الى سعد بن بكر ، وهذيل ، والأزد ، وقيس ، والأنصار[٢] .

٤ – وعزاها الشدياق : كرواية السيوطي مستثنياً قيساً ، فلم يذكرها[٣] .

وبالبحث في الظواهر اللهجية لقيس ، وفي ديوان هذيل ، لم أعثر على تلك الظاهرة ، لذلك أرجح أن « قيساً » في نص السيوطي ، ليس المراد بها قيس عيلان وإنما هي قيس أخرى ، وأرجح أنها بطن من همدان القحطانية ومما يؤيدني في ذلك ما جاء في البحر المحيط من قول الشاعر الأعشى :

جيادك خير جياد الملوك تصان الجلال وتُنْطي الشعيرا[٤]

وقائل هذا البيت هو الأعشى – وهو من قيس القحطانية[٥] . وكذلك أرجح أن هذيلا ليست تلك القبيلة المعروفة من مضر – وانما هي هذيل اليمنية[٦] فتكون الظاهرة قد خلصت لليمن بدليل وجود الأنصار ، والأزد في نص السيوطي وجميعهم من اليمن .

وأما النصوص الدالة على تلك الظاهرة فهي :

أ) جاء في البحر المحيط : في قوله تعالى « إنا أعطيناك الكوثر »[٧] أن الحسن وطلحة وغيرهم قرأوا « أنطيناك وهي قراءة مروية عن الرسول ﷺ[٨] كما قرأ ابن مسعود والأعمش « وآتاهم تقواهم » ، « وأنطاهم تقواهم »[٩] كما وجدت هذه الصيغة في المصاحف القديمة الآتية :

(١) البحر المحيط : ٥١٩/٨ .

(٢) الاقتراح : ٨٣ – ٨٤ .

(٣) الجاسوس : ١٨٣ .

(٤) البحر : ٥١٩/٨ ، وانظر إبدال أبي الطيب : ٤١٨/٢ .

جيادك في القيظ في نعمة تصان الجلال وتنطي الشعيرا

وفي البحر : الحلال « السعيرا » .

(٥) معجم كحالة : ٩٧٢/٣ .

(٦) معجم كحالة : ١٢١٣/٣ .

(٧) سورة الكوثر : آية ١ .

(٨) البحر : ٥١٩/٨ ، مختصر شواذ القرآن : ١٨١ .

(٩) المرجع السابق : ١٤١ ابن خالويه .

١ – مصحف ابن مسعود .

٢ – مصحف أبي بن كعب .

٣ – طلحة بن مصرف .

٤ – مصحف الربيع بن خيثم[١] .

ب) جاء في الأثر :

١ – أن الرسول ﷺ قال : اليد العليا المنطية ، واليد السفلى المنطاة[٢] .

٢ – إن مال الله مسئول ومنطي[٣] .

٣ – وفي كتابه ﷺ لوائل : وأنطوا الثبجة[٤] .

٤ – وفي كتابه ﷺ لتميم الداري : هـــذا ما أنطى محمد رسول الله لتميم الداري وإخوته : حبرون ، والمرطوم وبيت عينون ، وبيت إبراهيم ، وما فيهن نطية بت بذمتهم[٥] « وابن فضل‌الله العمري صاحب كتاب مسالك الأبصار نقل هذا النص من الكتاب النبوي نفسه ، إذ قال وقد رأيت ذلك كله بعيني » .

جـ) وجاء في الأدب ، ما أنشده ثعلب :

من المنطيات المركب المعج بعدما ... يُرى في فروع المقلتين نضوب[٦]

ويرى بعض المحدثين أن الرواة لم يصفوا لنا هذه الظاهرة بدقة ، ويميل الى أنهم ربمـــا كانوا ينطقون بالعين نطقاً أنفياً – بأن يجعلوا مجرى النفس معه من الفم والأنف معاً ، فتسمع العين

---

(١) انظر : تاريخ المصاحف لجفري .

(٢) البحر : ٥٠٩/٨ .

(٣) اللسان : ٢٠٦/٢٠ .

(٤) مجموعة الوثائق السياسية : ١٠٧ للحيدر آبادي .

(٥) مسالك الأبصـــار : ١٧٤/١ لابن فضل‌الله العمري : دار الكتب ، وانظر : جمهرة رسائل العرب : ٧٢/١ – ٧٣ أحمد زكي صفوت ط ١ ، ومجموعة الوثائق السياسية : ٦٩ .

(٦) اللسان : ٢٠٦/٢٠ .

ممتزجة بصوت النون ، وليست في الحقيقة نوناً[١] ، ولا يرضى « رابين »[٢] أن العين تحولت الى نون مطبقة تحت تأثير الطاء لعامل صوتي، بل يذكر أنه يوجد في العبرية الفعل הִטָּה ويتعدى به الى ومعناه (مدّ يده الى) ، ويقترح (رابين) أن يكون الفعل انطىَ مخالفاً للفعل أعطى ، وليس مغايراً صوتياً له ، وإنما الفعل « انطى » هو صيغة التعدية من الفعل المجرد « نطى بمعنى مد يده الى » كما يميل بعض المستشرقين[٣] الى أن أنفية العين كانت صفة صوتية ملازمة لها منذ السامية الأولى ، وقد وجدت ظاهرة الاستنطاء في لغة الاعراب بصحاري مصر ، ويرى بعض المحدثين أنها شائعة في لهجة العراقيين[٤] أيضاً .

وهذا يشير الى أن في النازلين الأولين في العراق ، ومصر من العرب قوماً ممن كانت سمتهم تلك الظاهرة ، وجدير بالذكر أن صيغة (أعطى) قـــد استبدلت بصيغة (أطمى) في بعض قرى فلسطين[٥] ، وكأنها مقلوبة عن الصيغة الأولى .

ك) التلتلة :

لم تكن القبائل العربية متفقة في تلك الظاهرة بل كان كل قبيل من العرب أو كل مجموعة من القبائل تتخذ لها نمطاً أو اتجاهاً يختلف عن الأخرى ، ولا يستطيع الباحث اعتماداً على نص أو نصين – أن يصل الى حقيقة هذا الأمر ، لهذا وسعت دائرة البحث وحاولت جمع النصوص التي تتناول الظاهرة ، ثم دراستها ومقارنتها ، وكانت النصوص تشير – بعد عرضها وتلخيصها – الى تلك الاتجاهات الكبرى .

أولاً : يزاد حرف المضارعة مضموماً في الماضي الرباعي – تقول : يدحرج ويكرم كما يزاد حرف المضارعة مفتوحاً – إذا أردت بناء المضارع من ثلاثي أو خماسي أو سداسي في مثل : ينصر ، ويتعلم ، وينطلق ، ولا يجوز عند الحجازيين كسر حرف المضارعة .

ثانياً : عند غير الحجازيين :

١ – يكسر ما عدا الياء من أحرف المضارعة فيما يلي :

---

(١) في اللهجات العربية : ١٣٠ الطبعة الثانية .

(٢) Rabin, P. 32 .

(٣) Rabin, P. 32 .

(٤) فقه اللغة : وافى : ١٠٣ الطبعة الثالثة .

(٥) محاضرات للدكتور عساكر نقلا عن الأطلس الجغرافي اللغوي لفلسطين : عمل برجشتراسر .

أ) مضارع الثلاثي المبني للفاعل إذا كان الماضي على وزن فعل بكسر العين وقد استقصيت ما جاء على ذلك من منثور العرب ومنظومها فمن ذلك :

قراءة أبي عمرو (ولا تركنوا الى الذين ظلموا)[1] بكسر التاء على لغة تميم[2] ، والماضي منه فعل بكسر العين ، كما قرأ ابن وثاب وأبو رزين « مالك لا تيمنا »[3] على لغة تميم بكسر التاء مع الإدغام[4] وفي مصحف ابن مسعود « تِيمنه »[5] ، وكذلك في مصحف أبيّ بن كعب « تِئمنه »[6] وعلى هذا كتبت في مصحف الربيع بن خيثم[7] ، ومن ذلك ما جاء في المحتسب من قراءة يحيى « فإنهم يِيلمون كما تِيلمون »[8] والفعل ألم – بكسر العين ، وقد قرأ يحيى بن وثاب « ألم أعهد إليكم »[9] بكسر همزة « أعهد » ، كما ذكر أبو حاتم السجستاني أنه سمع حترش بن ثمال – وهو عربي فصيح – يقول في خطبته : « الحمد لله أحمـــده واستعينه وأتوكل عليه » فيكسر الألفات كلها[10] ، واستشهد صاحب التصريح بقول الشاعر :

لو قلت ما في قومِها لم تِيثَم   يفضلُهَا في نسب وميسمِ[11]

وقد عزا صاحب المفضل على المفصل – هذا الشاهد لشاعر من تميم[12] ، وساق المعري قول الشاعر :

قلت لبوابٍ لديه دارهـــا   تِيذَنْ فإني حمؤها وجارها[13]

---

(١) سورة هود : آية ١١٣ .

(٢) البحر : ٢٦٩/٥ ، وشواذ القرآن : ٦١ .

(٣) يوسف : آية ١١ .

(٤) البحر : ٢٨٥/٥ ، تفسير الكشاف : ٣٤٩/٢ ط الثانية ١٩٥٣ .

(٥) مصحف ابن مسعود لجفري : سورة آل عمران : آية ٧٥ .

(٦) المرجع السابق : مصحف أبي بن كعب .

(٧) المرجع السابق : مصحف الربيع لجفري .

(٨) المحتسب : ٢٣٧/١ خط تيمور .

(٩) سورة يس : آية ٦٠ .

(١٠) مقدمتان في علوم القرآن : جفري مباني : ٢٢٠ .

(١١) التصريح : ١١٨/٢ ، الأشموني : ٧٠/٣ .

(١٢) المفضل : ١١٨ .

(١٣) عبث الوليد : ١٦٨ .

وأصلها : أتأذن ؟ ثم كسرت التاء ، وإنما كُسر حرف المضارعة دلالة على كسر عين الماضي[١] . هذا ، وقد رأى ابن عطية أن كسر حروف المضارعة لغة قرشية ، وقد نقل عنه ذلك أبو حيان في تفسيره لقوله تعالى « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه »[٢] . والذي أراه أن ابن عطية واهم في ذلك ، إذ كسر حروف المضارعة لم يكن في لهجة قريش ، قال الداني عن ظاهرة الكسر « وهي لغة تميم »[٣] ، كما عزاها إليهم أيضاً أبو عمرو[٤] ، كما عزيت في الخزانة الى تميم وبهراء[٥] .

ب) الفعل الناقص المكسور العين واوياً كان أو يائياً – كقولهم: شقيت فأنت تشقى، وخشيت فأنا اخشى[٦] ، بكسر التاء من تشقى ، والهمزة من أخشى .

وفي قوله تعالى : « فكيف آسى على قوم كافرين » الأعراف ٩٣ . قرىء : « فكيف إيسى على قوم ... » بكسر الهمزة وهي قراءة يحيى بن وثاب وطلحة . (مختصر شواذ القرآن ٤٥ لابن خالويه) .

جـ) الفعل الأجوف كقولهم : خلنا فنحن نخال وأنا إخال : بكسر النون والهمزة وقد ساق المرزوقي قول رجل من جرم :

إخالك موعدي ببني جفيف وهالةَ ، إنني أنهاك هالا[٧]

وجَرْم هؤلاء : من طيء ، فكأنهم يكسرون همزة إخال ، ومما يؤيد تلك الملاحظة ما جاء في شرح التبريزي حيث نسب الكسرة في إخال – لطيء[٨] ، ولكن وجدت في مكان آخر من شرح المرزوقي ما يفيد أن كسر إخال – في لغة هذيل[٩] ، وقد عزا صاحب الخزانة الفتح لأسد ، حيث ذكر البيت :

---

(١) الشافية : ١/١٤١ .

(٢) البحر : ٢/٤٩٩ .

(٣) النهر الماد : ٢/٤٩٨ .

(٤) البحر : ٠/٢٦٩ .

(٥) خزانة الأدب : ٤/٤٩٥ - ٤٩٦ .

(٦) كتاب سيبويه : ٢/٢٥٦ ، شرح الشافية : ١/١٤١ .

(٧) شرح حماسة المرزوقي : ١/٢٤٨ .

(٨) حماسة التبريزي : ١/٢٤٢ .

(٩) حماسة المرزوقي : ٤/١٨٤٥ .

أرجو وآمل أن تدنو مودتها	وما إخال لدينا منك تنويل[1]

ثم قال « وفتحها لغة أسد »[2] ، وكذلك عزاهـا صاحب اللسان[3] ، والمصباح[4] ، والأزهري[5] الى بني أسد كذلك ، وكان المفروض أن تقول أسد ذلك بالكسر ، لأن كسر حرف المضارع من خصائص الجزء الشرقي من الجزيرة « كقيس وتميم وأسد وربيعة وعامة العرب[6] ، كما أن هذيلا وهي قبيلة تتصل بالحجاز كان عليها أن تقول ذلك بالفتح ، لأن الحجاز تفتح هذا بدليل ما جاء في شعر ابن أبي ربيعة :

ما لقلبي كأنه ليس مِنّي	وعظامي أخال فيهن فَتْرا

بفتح همزة أخال ، والسبب أن عمر حجازي ودليل آخر وهو قول صاحب اللسان من أن « أهل الحجاز وقوم من أعجاز هوازن وأزد السراة وبعض هذيل يقولون: تَعلم »[7] بفتح التاء . وجلاً لهذا أشك في أن قبيلة أسد تفتح أخال – كما جاء عن الرواة ، بل هي تكسر ، وإنما الذي يفتح هي قبيلة أزد كما في الرواية السابقة ، ومن الجائز أن يكون الرواة قد خلطوا بين قبيلة الأزد وقبيلة أسد لاسيما في الكتابة ، وقد وقع في هذا الخلط أحمد بن فارس حيث ذكر الاختلاف في الحركات كقولهم « نَستعين ، نِستعين » ، ثم نقل عن الفراء في ذلك بما يفيد أن النون « مفتوحة في لغة قريش وأسد ، وغيرهم يقولونها بكسر النون »[8] فالفتح نسلم به في لهجة الحجاز وقريش ، ولكن لا نستطيع أن نسلم به في لهجة أسد ، لما تقدم ، ولأن أسداً من المجموعة الشرقية التي تؤثر الكسر ، وقد عثرت على نص لابن فارس يعارض نصه السابق حيث يقول « وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا كلامهم ... ثم قال : ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ، ولا عجرفية قيس ، ولا

(١) خزانة البغدادي : ٧/٤ .
(٢) الخزانة : ١١/٤ .
(٣) اللسان : ٢٤٠/١٣ .
(٤) ٢٨٨/١ .
(٥) التصريح : ٢٥٨/١ .
(٦) اللسان : ٢٨٣/٢٠ .
(٧) شرح السيرافي : ٣١٦/٥ خط بالتيمورية .
(٨) الصاحبي : ١٩ .

كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس – مثل تِعلمون – نِعلم ... »[1] فابن فارس هنـــا يعزو الكسر صراحة الى أسد وقيس ، بينما عزا الفتح في نصه السابق الى قريش وأسد ، ولهـــذا الاضطراب والخلط رجحت أن المقصود بالفتح في أسد – أزد – في نص ابن فارس حتى يتفق مع نصه الثاني ، هذا وقد أوقع وهم ابن فارس بعض المحدثين فوقعوا فيما وقع فيه[2] .

كما وقع خلط آخر لبعض علماء العربية حين توهم أن قريشاً تكسر حرف المضارعة وذلك في رواية نقلها السيوطي عن ثعلب مفادها « ارتفعت قريش من الفصاحة عن عنعنة تمـــيم ، وتلتلة بهراء ، وكسكسة ربيعة ، وكشكشة هوازن ، وتضجع قريش وعجرفية ضَبّة »[3] ولتوثيق هذا النص الذي ساقه السيوطي عن ثعلب ، عرضت النص نفسه على ما جـــاء في أمالي ثعلب لأستوثق منه فوجدته فيه « ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم ... وتضجع قيس »[4] ، وقد نقل ابن جني في كتابيه الخصائص[5] ، وسر الصناعة[6] عن ثعلب ، رواية تتفق ومـــا نقلته عن مجالس ثعلب ، كذلك رأى صاحب الخزانة رواية في أمالي ثعلب تتفق وما نقلته[7] وجميع هذا يقف في وجه رواية السيوطي السابقة ، ويؤكد أن التضجع في قيس لا قريش .

وأما أن كسر الهمز من إخال – حيث عزاه المرزوقي الى طيء مرة ، والى هذيـــل مرة أخرى فهو يشير الى الخلط في أمر اللهجات – والى أن اللهجات عندهم لم تكن إلا أمراً ثانوياً على هامش الدراسة غير جديرة بالبحث والتحقيق – غير أنني أرى أن الكسر في طيء أولى لسببين:

أولهما : أن المرزوقي ساق شاهداً لها في لهجة جرم ، وجرم بطن من طيء، أما حين عزاها لهذيل فلم يقدم شاهداً لها ، بل اكتفى بقوله « وهي لغة هذيل »[8] وحـــين ذهبت الى شرح

---

(١) الصاحبي : ٢٣ .
(٢) تاريخ الأدب العربي : ١/١٢٧ الدكتور شوقي ضيف .
(٣) المزهر : ١/٢١١ .
(٤) مجالس ثعلب : ١/١٠٠ .
(٥) ٢/١١ .
(٦) ١/٢٣٤ .
(٧) الخزانة : ٣/٥٩٦ .
(٨) حماسة المرزوقي : ٤/١٨٤٥ .

التبريزي لأرى هذا الشاهد فيه ، وجدت أن كلمة (أخال) قد غيرت بكلمة أخرى وروى البيت فيه هكذا :

ما لقلبي كأنـَّه ُ ليس ِ منّي وعظامي كأنّ فيهن فتْرَا[١]

ورواه المرزوقي :

(وعظامي أخال فيهن فترا)[٢]

فالتبريزي غير رواية الشاهد .

وثانيهما : لأن المرزوقي لما عزاها الى طيء عقب وقال « فكثر استعمالها (أي الظاهرة) في ألسنة غيرها »[٣] فكأن الظاهرة أصلاً في طيء ، ثم انتشرت الى مـــا جاورها ، فإذا عثرت مستقبلاً على روايات وشواهد تؤيد أن هذيلاً نطقوا بالكسر رجحت أنهم من البدو .

د) مضعف الثلاثي الذي على وزن فعل بكسر العين ، وقد مثل له سيبويه بقوله : وعض فأنتن تعضضن ، وأنت تعضين »[٤] بكسر التاء ، وأصل الفعل « عضض » بكسر العين وقـــد حاولت أن أجد صدًى لهذا الفعل في القرآن فوجدته في قراءة ابن وثاب وعلقمة والأعمش وغيرهم « فتمسـَّكم النـّار »[٥] حيث قرأوا بكسر التاء على لغة تميم »[٦] ، وفي قوله تعالى «ونقر في الأرحام»[٧] بكسر النون . كما وجدت شاهداً لهذا الفعل المضارع بكسر حرف المضارعة في رواية لابن دريد جاء في اللسان وهي « كان لنا وهو فلوّ يرْبَبُهُ »[٨] بكسر حرف المضارعة ، وعزى فيها كسر حرف المضارعة الى هذيل[٩] . وبالبحث عن قائل

(١) حماسة التبريزي : ٣٣٦/٤ .
(٢) حماسة المرزوقي : ١٨٤٥/٤ .
(٣) حماسة المرزوقي : ٢٤٨/١ .
(٤) الكتاب : ٢٥٦/٢ .
(٥) سورة هود : آية ١١٣ .
(٦) البحر : ٢٦٩/٥ .
(٧) سورة الحج : آية ٥ .
(٨) اللسان : ٣٨٦/١ .
(٩) اللسان : ٤٣٣/١ ، ٣٨٦ .

هذا البيت وجدت الأصمعي قد عزاه الى دكين بن رجاء الفقيمي[١] . وبالبحث عن فقيم في كتب الأنساب وجدت أنها بطن من حنظلة ، وحنظلة من تميم[٢] . ولهـــذا لا أوافق على رأي ابن دريد السابق حيث عزا الظاهرة الى هذيل لأنها وجدت في شاهد لرجل من فقيم ابن حنظلة ، فالأولى أن تنسب الى فقيم ، ومما يقوي هذا أن هذا الكسر عزى الى تميم ، وحنظلة هذه من تميم أيضاً .

هـ) ما كان مبدوءاً بهمزة وصل مما جاوز ثلاثة أحرف[٣] ، وذلـــك قولهم : أنت تستغفر وتحرنجم ، تنبيهاً على كون الماضي مكسور الأول وهو همزة[٤] . وقد وجدت توثيقاً لتلك اللهجة في قراءة لعبيد بن عمير الليثي وزر بن حبيش ويحيى بن وثاب وغيرهم حيث قرأوا « وإياك نستعين »[٥] بكسر النون وقد عزاها أبو حيان الى قيس وتميم وأسد وربيعة[٦] . وعزاها أبو جعفر الطوسي الى هذيل[٧]، وهذا يوضح لنا مدى الخلط بين اللهجات، وأميل الى أن بعض هذيل كان يفتح كما في اللسان حيث عزا الفتح لبعض هذيل »[٨] ، ومفاد هذا أن بعضها الآخر كان يكسر — لا كلها كما جاء عن أبي جعفر الطوسي في روايته السابقة كما أرجح أن الذين يكسرون من هذيل كانوا بدوا ، وجاء في المحتسب « يَوْمَ تبيضّ وجوهٌ وتِسْودّ وجوه »[٩] بكسر حرف المضارعة كذلك .

و) مـــا كان ماضيه على وزن تفعّلت أو تفاعلت أو تفعللت ، كقولهم : تكلّم ، وتغافل ، وتدحرج ، فيقولون فيها : نِتكلم ، ونِتغافل ، ونِتدحرج ، وقد ذكر المحقق الرضي أن العرب أجازت فيه الكسر أيضاً[١٠] .

---

(١) الأضداد للأصمعي : ١٥ ـ ٢٥ هفنر ، أضداد ابن السكيت : ٢٠٤ .

(٢) نسب عدنان وقحطان : ٦ ـ ٧ للمبرد .

(٣) شرح الشافية : ١٤٣/١ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) سورة الفاتحة : آية ٥ .

(٦) البحر المحيط : ٢٣/١ ـ ٢٤ .

(٧) المرجع السابق .

(٨) اللسان : ٢٠ : ٢٨٣ .

(٩) المحتسب : ٤١١/١ خط تيمور .

(١٠) شرح الشافية : ١٤٣/١ ، وانظر سيبويه : ٢٠٦/٢ ـ ٢٠٧ .

٢- يكسر حرف المضارعة بما فيها الياء في غير لغة الحجازيين فيما يأتي :

أ) في المثال الواوي الذي ماضيه على وزن فعِل بكسر العين نحو وجل ووحل - فقالوا : ييجل - بكسر الياء .

وعلل ذلك السيرافي في شرحه على سيبويه فقال : وإنما كسروا الياء فيما كان فاء الفعل منه واواً قالوا : وجل ييجل ، لأنهم أرادوا بكسرها قلب الواو ياء استثقالاً للواو[١] وإنما كرهوا قلب الواو ياء من غير كسرة ما قبلها ، لتخف الكلمة بانقلاب الواو ياء لسكونها وكسر ما قبلها[٢] . وقد عزا الفارابي هذه اللهجة لأسد[٣] ، كما عزاها الى بني أسد كذلك ابن منظور[٤] ، ولكن المأثور عن القبائل أنها لا تكسر الياء وعلل ابن سيده هذا بقوله « الذين يقولون تعلم (بكسر التاء) لا يقولون يعلم بكسر الياء ، لاستثقالهم الكسر على الياء ... »[٥] وعلل ابن جني في المحتسب بمثل هذا[٦] . ولكن وجدنا فيما سبق أن بني أسد تكسر الياء في ييجل، فلماذا خالفت بنو أسد في هذا المثال بالذات ؟ يظهر أن بني أسد ، لم تستثقل كسر الياء في ييجل كما استثقلتها في يعلم ، لأن الياء في ييجل تقوت بالياء الأخرى[٧] .

ب) أنهم كسروا الياء في مضارع أبى يأبى ، حيث قالوا فيه يئبى - بكسر الياء ، وهو شاذ من وجهين :

أولاً : أنه فعل يفعل بفتح العين في الماضي والمضارع ، وما كان كذلك لم يكسر أوله في المضارع ، وإنما كسروا هذا لأن مضارعه مشاكل لمضارع فعل بكسر العين ، فلما كسر أول مضارع فعل (بكسر العين) في جميع اللغات إلا في لغة أهل الحجاز ، كذلك كسروا يفعل (بفتح العين) هنا[٨] .

---

(١) شرح السيرافي : ٥/٣١٧ مخطوط .

(٢) شرح الشافية : ١/١٤١ .

(٣) ديوان الأدب : ورقة ٣٠٠ مكتبة تيمور .

(٤) اللسان : ١٤/٢٤٨ ، ٧/١٦٢ .

(٥) المخصص : ١٤/٢١٧ .

(٦) المحتسب : ٤١١ مخطوط .

(٧) اللسان : ١٤/٢٤٨ ، ديوان الأدب : ورقة ٣٠٠ خط .

(٨) اللسان : ١٨/٣ ، الشافية : ١/١٤١ .

ثانياً : أنهم لم يجوزوا الكسر في الياء من ييئي إلا لأن الشذوذ قد كثر في هذه الكلمة وهذا معنى قول سيبويه « أنهم ربما شذ الحرف في كلامهم فخرج عن نظائره ، فيجسرهم ذلــك على ركوب شذوذ آخر فيــه »[1] وكأنهم استمرأوا طعم الشذوذ في تلك الكلمة ، والشذوذ كما يقولون مغر بالشذوذ ، وقد ساق ابن بري شاهداً لهذا الكسر[2]

جـ) كما عثرت على نص لأبي حيان في تفسيره لقول الله (ألم أعهد إليكم)[3] يفيد أن لغة لبعض كلب تكسر في الياء حيث يقولون « هل يعلم »[4] بكسر الياء والياء يصعب نطقها لاسيما مع الكسرة ، إذ هي نادرة الشيوع في النطق العربي لأن الكسرة من الياء ، والياء تقوم مقام كسرتين . وقد استطعت توثيق لهجة بعض قبائل كلب بقراءة قرآنية حيث قرىء « فإنهم يألمون كما تألمون » بكسر الياء[5] والتاء .

وبقراءة الأعمش والحسن « يكاد البرق يخطف أبصارهم » (البقرة : آية ٢٠) بكسر الياء والخاء والطاء المشددة : البحر ٩٠/١ . شواذ القرآن لابن خالويه ص ٣ . القراءات الشاذة للشيخ القاضي ٢٥ .

ويلاحظ أن (كلبا) هذه من قضاعة[6] ، ومعنى هذا أنها تكسر جميع حروف المضارعة حتى الياء ، إلا أننا نرى بهراء وهي من قضاعة[7] أيضاً تكسر ما كان أوله التاء فقط ، وشاهد ذلك قول البغدادي ، وأمــا تلتلة بهراء فإنهم يقولون تعلمون وتفعلون ، وتصنعون . بكسر أوائل الحروف[8] فهذا يشير على أن بهراء تكسر التاء فقط بدليل الأمثــلة السابقة في نص البغدادي ، كما أورد ابن جني أمثلة لتلتلة بهراء بالتاء فقط[9] .

---

(١) شرح السيرافي : ٣١٥/٥ خط ، الخصائص : ٣١٧/١٢ ، المحتسب : ٤١١/١ .

(٢) اللسان : ٣/١٨ .

(٣) سورة يس : آية ٦٠ .

(٤) البحر : ٣٤٣/٧ ، الدر اللقيط : ٣٤٣/٧ .

(٥) الهمع : ١٦٤/٢ .

(٦) نسب عدنان وقحطان : ٢٣ .

(٧) المرجع السابق : ٢٤ .

(٨) الخزانة : ٤٩٥/٤ .

(٩) الخصائص : ١١/٢ دار الكتب ، سر الصناعة : ٢٣٤/١ .

كما أورد ابن منظور شاهداً لها من قول الشاعر (تِكتشبان في الطريق لام ألِف) بكسر التاء – قال ابن منظور « وهي لغة بهراء يكسرون التاء »[1] ، ولا أدري الى الآن ، لم اختصت بهراء بكسر التاء وحدها دون أخواتها من حروف المضارعة .

ويرى الدكتور ابراهيم أنيس أن بهراء تكسر حرف الياء أيضاً ، ولم يستشهد بمـا يؤيد رأيه[2] إلا أنني أثبت آنفاً أن القبيلة التي كانت تكسر في الياء هي كلب لا بهراء ، على أننا إذا نظرنا الى كلمة « التلتلة » المعزوة الى بهراء توحي بأنها كسر التاء – لا اليـاء . وكسر حروف المضارعة لم تختص به لهجات القبائل العربية التي أشرت إليها آنفاً ، بل وجدت هذه الظاهرة في معظم الساميات كالعبرية والسريانية[3] ، غير أن كسر أحرف المضارعة قد انتقل في العبرية والسريانية من وزن فعل يفعل بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع الى بقية الأوزان الأخرى فصارت أحرف المضارعة كلها مكسورة إلا في اللغة العبرية في الأفعال الحلقية الفاء ، والجوفاء ، والمضعفة – فإن أحرف المضارعة بقيت مفتوحة فيها[4] .

كما وجد كسر أحرف المضارعة في لهجـات جنوب اليمن الحديثة كالمهرية والشحرية والبوتاحارية[5] ، وفي لهجات السريان في هذه الأيام[6] ، كما يكسر حرف المضارعة في عامية مصر ، وفي لهجة بلدي « أتيدة – المنصورة » ، كما لحت الظاهرة في عامية نجد حيث يقولون في أمثالهم : « بُرق النعيّ تِشتِبه »[7] وقولهم « يَدٍ تِعطي ما تِعطِي »[8] ، وقولهم « ضِريع لا يِسمن ولا يِغني من جوع »[9] فالظاهرة قد عبرت التاريخ الطويل حتى وصلت الأحفاد بالأجداد ، والخالفين بالسالفين .

---

(١) اللسان : ١٩٢/٢ .

(٢) في اللهجات العربية : ١٢٧ ط ٢ .

(٣) الكنز في قواعد اللغة العبرية : ١٧ .

(٤) محاضرات الدكتور خليل نامي .

(٥) محاضرات الدكتور خليل نامي .

(٦) تاريخ آداب اللغة العربية : ٥٠/١ زيدان .

(٧) الأمثال العامية في نجد : ٤٥ رقم ١١٩ القسم الأول ، والمثل للأشخاص الذين لا خير فيهم يشتبه بعضهم ببعض في الرداءة .

(٨) المرجع السابق : ٣٦٦/١ رقم ٩٩٤ والمثل يشبه قولنا « اليد اللي تاخد متديش .

(٩) المرجع السابق : ١٠٥/١ .

ل) الطمطمانية :

تطلق هذه الكلمة عند اللغويين ويراد بها إبدال لام التعريف ميماً كقولك مثلاً « طـــاب امْهواء » وصفا امْجو » أي طاب الهواء ، وصفا الجو ، أما المصادر العربية فقـــد اختلفت في عزو تلك الظاهرة :

١ – فقد عزاها صاحب مقدمة المباني الى دوس[١] .

٢ – كما عزاها أبو العباس ثعلب الى الأزد[٢] .

٣ – وعزاها الأشموني[٣] ، وابن هشام[٤] ، والسيوطي في الهمع[٥] ، وشرح الدرة[٦] ، وابن الحاجب[٧] الى طيء .

٤ – كما عزاها العيني[٨] في شواهده ، وابن مالك[٩] ، واللسان[١٠] ، وشارح المفصل[١١] الى اليمن .

٥ – وعزاها المغني[١٢]، والهمع[١٣]، وصاحب كتاب شمس العلوم[١٤]، وشمر[١٥] – الى حمير .

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن : ٢٢٢ .

(٢) مجالس ثعلب : ٧٣/١ .

(٣) ٩٦/١ ، ٣٧/١ .

(٤) المغنى : ٤٧/١ .

(٥) ٧٩/١ .

(٦) ٢٣٤ .

(٧) شرح الشافية : ٢١٥/٣ .

(٨) ٩٦/١ على الأشموني .

(٩) الهمع : ٧٩/١ .

(١٠) ٣٠١/١٤ ، ٦٨/١٠ .

(١١) ٢٠/٩ .

(١٢) ٤٧/١ .

(١٣) ٧٩/١ .

(١٤) ٣٩ .

(١٥) اللسان : ٣٦٣/١٢ .

وبالبحث في هذا العزو نجـــده يدور كله حول القبائل التي كانت تسكن جنوب اليمن ، فدوس – في النـــص الأول هي بطن من شنوءة من الأزد من القحطانية [1] وكذلك طيء من القحطانية ، إلا أنه يلاحظ أن علماء العربية خلطوا بين اليمن وحمير ، وربما أنهم فعلوا ذلـــك لعدم معرفتهم باللغة الحميرية فظنوا أنها هي اليمنية ، والحق أن الحميرية شيء واليمنية شيء آخر، كما أظن أن النحاة العرب كانوا يخترعون عبارات يصفون بها مـــا خالف لغتهم ، وأظن أنهم اخترعوها لهذه الظاهرة اللهجية ، والطمطمانية كما يراها الزمخشري : العجمة [2] . ومما يدل على ذلك ما جاء في الكامل للمبرد في قول عنترة :

تبرى له حُولُ النعام كأنها ... حِزق يمانية لأعجم طمطم [3]

وفي الخزانة [4] أن الطمطمانية هي : أن يكون الكلام مشبهاً لكلام العجم ، وفي شرح درة الغواص : أنهم يقولون للعجيب : طمطم [5] ، ويكون المعنى الذي أراده اللغويون على هذا أنهم شبهوا كلام حمير – لما فيه من الألفاظ العجيبة المنكرة بكلام العجم يشير الى هذا ما روي عن عمرو بن العلاء « ما لسان حمير وأقاصي اليمن لساننا ، ولا عربيتهم عربيتنا » [6] .

وقد ساقت المصادر العربية شواهد لتلك الظاهرة نذكر منها :

١ – ما ورد عن الرسول ﷺ أنه قال : ليس من امْبر امْصِيام في امْسفر [7] ، وقوله « من زنى من امْبكر فاصقعوه مائة جلدة » [8] .

٢ – ما رواه شمر من أنه سمع حميرية فصيحة سألها عن بلادها فقالت : النخل قـــلّ ولكن عيشتنا امْقمح امْفرسك ، امْعنب ، امْحماط – طوب » [9] أي طيب .

---

(١) نهاية الأرب : ٢٥٣ .

(٢) الفائق للزمخشري : ٢/٤٠٩ .

(٣) الكامل للمبرد : ١/٣٧٣ .

(٤) ٤/٥٩٦ .

(٥) شرح الدرة : ٢٣٥ .

(٦) المزهر : ١/١٧٤ ، طبقات فحول الشعراء : ١١ .

(٧) مقدمتان في علوم القرآن : ٢٢٢ ، اللسان : ٥/١١٦ ، التصريح : ١/١٤٩ .

(٨) اللسان : ١٠/٦٨ .

(٩) اللسان : ١٢/٣٦٣ .

٣ – قال الشاعر :

ذاك خليـــلي وذو يعاونني يرمي ورائي بامْسهم وامْسلمه [١]

ودراسة أداة التعريف في تاريخها الطويل يحتاج الى بحث طويل نخرج منه بالنقاط التالية :

أ) اللغات السامية تميل الى استخدام أداة الإشارة ، أو الضمير الشخصي للتعريف، والإشارة أقدم من الضمير الشخصي ، وهذا أقدم من التعريف [٢] .

ب) أداة التعريف قد تسبق المعرف كما هو الحال في العربية والكنعانية ، وقـــد تلحقه ، كالآرامية والسبئية .

جـ) تستخدم الكنعانية «ה» مع تشديد الحرف الأول إن لم يكن حرفاً حلقياً [٣] .

د) في اللغات اليمنية القديمة (نون) نهائية [٤] ، وفي لهجة طيء (أم) .

هـ) في اللحيانية والثمودية والصفوية نجـــد أداة التعريف (الهاء) ، واستخدمت اللحيانية (هن) ، (هل) بجانب (هـ) وهذه النون التي في (هن) تدغم في الحروف الأولى من الأسماء بشرط ألا تكون حروف حلق .

و) في عربيتنا أداة التعريف (أل) ، واختلف العلماء في الأداة هل هي (أل) كما قال الخليل أم (اللام) فقط وهو رأي سيبويه [٥] .

ومما سبق بيانه نلحظ الأدوات الآتية في التعريف في الساميات وهي (اللام والنون . والميم) والعلاقة واضحة بين هذه المجموعة ، فهي أكثر الأصوات شيوعاً في اللغات السامية ، كما أنهـــا من الأصوات المتوسطة الشبيهة بأصوات اللين [٦] – ولهذا لا غرابة أن يقع التبادل بينها مثل :

---

(١) شمس العلوم : ٣٩ .

(٢) محاضرات الدكتور فؤاد حسانين ، وتاريخ العرب قبل الإسلام : ٢٠٩/٧ .

(٣) محاضرات الدكتور فؤاد حسانين في كلية دار العلوم .

(٤) تاريخ العرب : ٣٣/٧ جواد علي .

(٥) ابن عقيل : ١٥٣/١ .

(٦) الأصوات اللغوية : ٦٠ ط الثانية .

(بن) بمعنى (بل) ، (والبنام) في البنان[1] (وطامه) الله على الخير وطانه[2] ، و (لعن) في لعل[3] ، والأيم والأين للذكر من الحيات[4] .

م) المعاقبة :

رأينا في لغتنا العربية ، بل وفي الساميات أيضاً كثيراً ما تتعاقب الواو مع الياء ، كما رأينا في دراستنا للحركات هذا التعاقب بين الضمة والكسرة ونسوق بعض الأمثلة لبيان هذا :

١ – المياثر والمواثر ، والمواثق والمياثق[5] .

٢ – وقد دوخوا الرجل وديخوه ، « ومالك تتحوز مني كما تتحوز الحية » وقد تحيزت الى فئة ، وقد تحوزت ، وساغ الرجل طعامه يسيغه ، وبعضهم يقول « يسوغه »[6] .

٣ – إن فلاناً سريع الأوبة والأيبة[7] ويمكن أن تكون هذه معاقبة في العين . كما قد تكون المعاقبة في اللام أيضاً من ذلك :

كنوت الرجل وكنيته[8] ، وعزوت الرجل وعزيته[9] – إذا نسبته الى أبيه .

كما قد يكون هذا التعاقب في التثنية ومن ذلك : نسيان ونسوان ، ورحوان، ورحيان[10].

ويكون بين الواو والياء في الجمع مثل : هو ذو دغيات ودغوات[11] ، كما قد تعتقب الواو

---

(١) شافية ابن الحاجب : ٢١٦/٣ .

(٢) المرجع السابق : ٢١٧ .

(٣) شافية ابن الحاجب : ٢١٩/٣ .

(٤) اللسان : ١٨٧/١٦ .

(٥) المخصص : ٩/١٤ ، اللسان : ٣٢٥/٢ - ٣٢٦ .

(٦) أدب الكاتب : ٣٦٥ ط السعادة تحقيق محي الدين ، المخصص : ٢٠/١٤ .

(٧) أدب الكاتب : ٤٥٩ .

(٨) مزهر السيوطي : ٢٧٩/٢ ، أدب الكاتب : ٣٦٤ .

(٩) أدب الكاتب : ٣٦٤ .

(١٠) المخصص : ٢٥/١٤ .

(١١) أي أخلاق رديئة .

والياء على فعول كقولهم : هو الكذاب الأثوم والأثيم[١] ، وقد تعتقب الياء والواو زائدتين من بنات الأربع كقولهم : مما رواه ابن السكيت :

جعلته على حنديرة عيني ، وحندورة عيني – أي نصب عيني[٢] . وقد نجد حكماً لأحد أئمة العربية حيث يرجح صيغة على أخرى كقول أبي عبيد : « والحنديرة أجود »[٣] .

ولكن هل يمكن أن نضع نظاماً للقبائل تسير عليه إزاء هذه الظاهرة ؟ كأن ندعي مثلاً أن هذه القبيلة تؤثر نظاماً من المعاقبة تتخالف به مع القبيلة الأخرى . أرى أنه لا يمكن أن نحسم برأي ، حتى نستدل بنصوص لهجية ، من شأنها أن تساعدنا في الحكم ، وإليك بعضها :

١ – ما روي عن الأصمعي من قوله : سألت المفضل عن قول الأعشى :

لعمري لمن أمسى من القوم شاخصا لقد نال خيصاً من عقبرة خائصا

فقلت ما معنى خيصاً خائصاً ؟ فقال : أراه من قولهم : فلان يخوص العطاء في بني فلان – أي يقلله فكأن خيصاً شيء يسير ، ثم بالغ بقوله : خائصاً – قلت له : فكان يجب أن يقول: لقد نال خوصا ، إذ هو من قولهم : هو يخوص العطاء فقال : هو على المعاقبة ، وهي لغة لأهل الحجاز »[٤] وزاد اللسان « وأهل الحجاز يسمون : الصواغ : الصياغ ، ويقولون : الصيام : للصوام ، ومثله كثير »[٥] ولقد عزا الفراء الصيغة اليائية الى الحجاز[٦] ومثل ذلك فعل ابن جني في محتسبه[٧] ، وابن خالويه في شواذه[٨] ، وابن السكيت في إصلاحه[٩] ، وابن سيده في

---

(١) المخصص : ١٤/٢٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المخصص : ١٤/١٩ .

(٥) اللسان : ٨/٣٠٠ .

(٦) معاني القرآن للفراء : ١/١٩٠ .

(٧) المحتسب : ١/١٧٥ مخطوط : تيمور .

(٨) مختصر شواذ القرآن : ١٩ .

(٩) إصلاح المنطق : ١٣٧ .

مخصصه[1] ، وابن جرير الطبري في تفسيره[2] ، وأبو الطيب اللغوي[3] في إبداله ، وأرجح أصالة الصيغة الواوية ، لكثرة استعمالها ، كما أن الاشتقاق منها .

٢ – ما جاء عن أبي علي :

ليث عليه من البرديّ هبرية كالمزبراني[4] عيّار بأوصال

ويروى : عيال وعوال – فأما عوال فمن عال عولاً ، وأما عيال – فلا أعرف ما هي ! إلا أن يكون على المعاقبة التي بين الياء والواو بغير علة – وهي حجازية »[5] كما روى عن تميم أنهم يقولون « القنوة » والحجاز تقول : القنية »[6] وكما جاء في اللسان أن « حوث » بالواو لغة تميم[7] . وأن تميماً تقول : قلنسوة ، بينما الحجاز تقول « قلنسية »[8] .

ومن هذا العرض نقترح أن الحجاز تؤثر الياء – بينما تميم تؤثر الواو . ولكن قد تقف بعض الشواهد لتحول بيننا وبين نتيجتنا السابقة – وأهمها :

١ – ما رواه أبو هريرة أن قوماً يتمادون فقال مالهم ، فقالوا : خرج الدجال . فقال : كذبة كذبها الصيّاغون ، وروى الصواغون : أي اختلقها الكذّابون[9] .

٢ – جاء عن ابن منظور في حديث علي رضي الله عنه « وأعدت صواغاً من بني قينقاع »[10] .

والمعروف أن المتكلم في النص الأول هو الرسول ، والشاهد الثاني علي – وكلاهما قرشيان ، وكان يجب أن تكون الرواية بالياء في « صواغا » و « الصواغون » حتى يستقيم ما سبق أن

---

(١) المخصص : ٣١/١٢ ، ٢٢/٣ ، ٦٣/٨ .

(٢) تفسير الطبري : ١٦٠/٦ ط دار المعارف .

(٣) الإبدال لأبي الطيب : ٤٧٨/٢ .

(٤) المزبراني : شعر مجتمع على موضع الكاهل : المخصص : ٦٢/٨ .

(٥) المخصص : ٦٢/٨ .

(٦) المزهر : ٢٧٦/٢ .

(٧) اللسان : ٤٤٥/٢ .

(٨) المزهر : ٢٧٦/٢ .

(٩) اللسان : ٣٢٥/١٠ .

(١٠) اللسان : ٣٢٥/١٠ .

قورناه ، وأرجح أن رواية الحديث الأولى بالياء ، بدليل ما جاء من رواية أخرى باليـــاء فيه ، وإنما جاءت رواية الواو ، لأن الحديث ربما روى على لهجة رجل من لغته إيثار الواو على الياء . وأما ما جاء عن ابن منظور فإنني أشك فيه ، والروايات اللغوية كثيراً ما حرفت وصحفت ، ومنها جاء البلاء .

٣ – جاء عن ابن السكيت قوله : يقال فلان ذو دغوات ودغيات ، ولم يسمع دغيات إلا في بيت رؤبة فإنهم زعموا أنه قال « نحن نقول : دغية وغيرنا يقول دغوة » . وأنشد (ذا دغيات قلب الأخلاق)[١] ورؤبة هذا من تميم ، وآثر الياء على الواو – والجواب على هذا الإشكال: أن شاهد رؤبة السابق روي في إبدال أبي الطيب[٢] بالواو ، وكذلك في اللسان[٣] فيكون هذا مما يؤيد رأينا . وثانياً أن قول ابن السكيت السابق حاكياً رواية اليـــاء لرؤبة تجعلنا نقف موقف الشك منهـــا لقوله « فإنهم زعموا » فكأن الرواية لم تفارق منطقة الزعم الى حدود التأكيد والتأييد .

وهب أن رؤبة قالها بالياء فهل يكفي شاهد واحد – لنقض عدة شواهد متتالية متواترة ؟

وبعد أن وضح ما أوردته في منطق الحجاز وتميم أريد أن أعرض جوانب أخرى في بقاع جغرافية لنرى اتجاهات بقية اللهجات العربية في تلك الظاهرة :

١ – حكى الفراء عن بعض بني كلب « عنيان الكتاب » في عنوانه وعلوانه[٤] .

٢ – شذ في تثنية الممدود خمسة أشياء منها « حمرايان » وحكى بعضهم أنها لغة « فزارة »[٥] وقياسها « حمراوان »[٦] .

وجاء في اللسان عن أبي زيد « سمعت بعض فزارة يقول : هما كسايان وخبايان وفضايان »

---

(١) المزهر : ١/٢٠٤ ، أي ذا أخلاق رديئة متلونة .

(٢) إبدال أبي الطيب : ٢/٥١٩ .

(٣) اللسان : ١٨/٢٨٨ .

(٤) إبدال السكيت : ٨ .

(٥) الأشموني : ٤/١١٤ .

(٦) الهمع : ١/٤٤ .

فيحول الواو الى الياء[١] ، وقد حكم النحاة بشذوذ لهجة فزارة السابقة[٢] ، ولكن الكوفيين قاسوا عليها[٣] ، ومنع ذلك غيرهم .

٣ – جاء في الغريب المصنف أن الكسائي – سأل بني سليم عن نما ينمو – فلم يعرفوه بالواو[٤] ، ومعنى هذا أنهم عرفوه بالياء ويلاحظ على هذه النصوص أنها آثرت الياء كلهجة الحجاز ، فهل هناك علاقة بين هذه القبائل وبين الحجاز ؟

أما كلب فقد تأثرت بالحجاز ، لأنهم عاشوا على الطريق الذي كان يسلكه الحجازيون في تجارتهم على حدود الشام[٥] ، وأما فزارة فقد كانت بطونها تسكن منطقة الحجاز ، وإن كانت قيسية ، وأما سليم – فقد كانت على صلة وثيقة بقريش[٦] .

فعلاقة هذه القبائل كما ترى – وثيقة الصلة بالحجاز – فإذا عرفت أن الحجاز يغلب عليها طابع الحضارة ، وقد شاركتها القبائل السابقة – أمكننا أن نرجح أن القبائل المتحضرة آثرت الياء .

وإذا كان هذا هو موقف القبائل المتحضرة – فإنني أعرض الآن نموذجاً جديداً لقبائل أخرى لها وضع مميز في هذه الظاهرة وهي :

١ – جاء في مجالس ثعلب :

تحنّ إلى الفردوس والشّبر دونها وأيهات عن أوطانها حوث حلّتِ

قال أبو العباس : هذه لغته ، وهو رجل من طيء .

٢ – قال عياض بن أم درّة[٧] :

---

(١) اللسان : ١٣/١ .

(٢) التصريح : ٢٩٥/٢ ، والأشموني : ٢١٢/٤ .

(٣) الهمع : ٤٤/١ .

(٤) الغريب المصنف : ٥٠٢ مخطوط رقم ١٢١ .

(٥) في اللهجات العربية : ٨٥ .

(٦) تاريخ العرب : ١٧٦/٤ جواد علي .

(٧) قال أبو سعيد : حفظي عياض بن درة : نوادر أبي زيد : ٦٤ .

حِمًى لا يُحلُّ الدهرَ إلا بإذننا   ولا نسأل الأقوام عهد المواثق[١]

(ورواه ثعلب عقد المياثق) .

٣ – حكى ابن السكيت عن بعض الطائيين أنهم يقولون « أونق » ثم قلبها بعض العرب ياء تخفيفاً فصار « أينق »[٢] ، وكما حكاها عن طيء ابن السكيت فقد حكاها عنهم يعقوب[٣] .

٤ – وجاء في المخصص عن صاحب العين : « وطيء تقول : محيته محياً ، ومحواً »[٤] .

٥ – جاء في إصلاح المنطق عن الفراء : ضاره يضيره . قال : وزعم الكسائي أنه سمع بعض أهل العالية يقول لا ينفعني ذلك ولا يضورني[٥] .

٦ – حكى ابن سيده عن العرب « يقولون ما أعيج من كلامه بشيء – أي ما أعبأ به وبنو أسد يقولون : ما أعوج[٦] » . كما روى ابن السكيت عنهم « عزيته الى أبيه وبنو أسد يقولون: عزوته الى أبيه »[٧] .

٧ – جاء عن أهل نجد قولهم : لهوت عنه ألهو – وغيرهم لهيت[٨] .

وبالنظر الى هذه النصوص نرى أن طيئاً ، وقبائل أسد، ونجد آثرت الواو في تلك الروايات باستثناء الشاهد الثاني الذي ورد مرة بالياء وأخرى بالواو ، ولكني أرجح رواية الواو لطيء ، ومما يؤيد رواية الواو – قول ثعلب عنها « وهي أجود وأشهر »[٩] ثم ان صاحب رواية الواو هو عياض بن درة – وهو من طيء وإذا كانت هذه القبائل قد آثرت الواو كتميم – فما العلاقة

---

(١) نوادر أبي زيد : ٦٤/٦٥ ، شرح الشافية : ٢١٠/١ .

(٢) شرح المفصل : ١٢٩/٨ ، إصلاح المنطق : ١٤٤ .

(٣) اللسان : ٢٤١/١٢ .

(٤) المخصص : ٧/١٣ .

(٥) إصلاح المنطق : ١٣٦ ، المخصص : ٢١/١٤ .

(٦) المخصص : ٢١/١٤ ، إصلاح المنطق : ١٣٦ ، اللسان : ١٦٠/٣ .

(٧) المخصص : ٢٣/١٤ .

(٨) المصباح : ٨٦٢/٢ .

(٩) نوادر أبي زيد : ٦٤/٦٥ .

بينها وبين تميم ؟ لا علاقة بينها إلا أنها قبائل بدوية ــ فكأن البدو قد مالوا الى الواو في تلك الصيغ .

ولكن ألا ينقض هذا التقسيم ــ ما عثرنا عليه من روايات تسند الكلمة الواحدة وقد وردت بالياء والواو لقبيلة بعينها ؟ فقد ورد في المخصص عن أبي صخر ؟

فإن يعذر القلب العَشيَّةَ في الصّبا   فؤادك لا يعذرك فيه الأقاوم[1]

وقد روى « الأقايم » يريد القوم ، وبما أن صخراً هذا من هذيل ، وهذيل تقع في منطقة الحجاز ، وكان المفروض أن تقول (الأقايم) بالياء إلا أنها وردت بالياء مرة والواو مرة أخرى ، وأرجح أن هذيلا وإن كانت تسكن مناطق الحجاز إلا أن جزءاً منها كان بدواً يعيش على قنن الجبال ومسارب المياه . كان عملهم إثارة الرعب ، ونهب القوافل ، والصعلكة التي تتمثل في مجموعة من شعرائها وعدائيها ــ وهنا نرجح أن الصيغة الواوية للبدو منهم ، والبائية للحضر ، وعلى النظرة الى المجتمع يمكن أن نحل المشكلات التي تعترضنا ، فإذا ما عزا صاحب الجمهرة صيغة : يأتوا ــ بدل : يأتي في قول خالد بن زهير :

يا قوم مالي وأبا ذؤيب   كنت إذا أتوتـه من غيب[2]

الى هذيل ، وسار على هذا ابن سيده في مخصصه[3] ، وأبو علي في أماليه[4] ثم يعرض يونس ابن حبيب نصاً مخالفاً يقول فيه « أجويت القدر » ــ وهذيل تقول أجيبتها[5] . فكأن هذيلا نطقت مرة بالواو ، ومرة بالياء . وإذا عزى الحميري ــ الكلوة ــ على أنها لغة اليمن في الكلية[6] فإننا لا نرى أن اليمن كلها كانت تنطق بالواو في مثل هذا ــ بل أرجح أن المجتمع البدوي منهم كانوا ينطقون ذلك بالواو فقط وخير من يمثلهم قبائل خثعم وزبيد .

وهذه المعاقبة بين الواو والياء كما كانت في العربية ــ حدثت في أخواتها فقد حدث ذلك في الآرامي « كما أنها وجدت في النقوش اليمنية فكلمة : قول ــ تقابل الكلمة العربية قَيْل »[7] .

---

(١) المخصص : ١٤/٢٢ .

(٢) الجمهرة : ١/١٧٠ ، ديوان الهذليين : ١/١٦٥ ط دار الكتب .

(٣) ١٤/٢٨ .

(٤) أمالي القالي : ٢/٢٠٩ .

(٥) ما تفرد به بعض أئمة اللغة : القسم الثاني مما تفرد به يونس بن حبيب : خط دار الكتب : رقم ٤١٨ .

(٦) شمس العلوم للحميري : ٩٣ .

(٧) Rabin, P. 148, F,6 .

وإذا أردنا أن نوثق هذه اللهجات من القراءات القرآنية نجد :

أ) أن عمر بن الخطاب[1] قرأ « اللهُ لا إله إلا هو الحيّ[2] القيّام » وأصله القيوام ، فلما التقت الواو والياء وسبقت الأولى بالسكون ، قلبت الواو ياء ، وأدغمت فيها الياء ، وعمر قرأ على منطق الحجاز ، لأنه قرشي ، والقيّوم : الذي لا ينام بالسريانية (المتوكلي : ٩) .

ب) وقوله تعالى « لا تذر على الأرض مِنَ الكافرين ديّارا »[3] وهو دوار : فعـــال من دار يدور فكأن الآية نزلت على لهجة الحجاز ، وأقرت كذلك[4] في المصحف ولا شك أن رسم المصحف يعتبر مرشداً الى حد كبير للهجة الحجازية .

جـ) وقوله تعالى « جعـــل الله الكعبةَ البيتَ الحرام[5] قِيَاماً » والأصل : قواماً ، فحولت واوها ياء ، والدليل على هذا ما جاء من كلام العرب مقولاً على أصله من قول حميد الأرقط:

(قِوامُ دُنْيا وقوام دِين)

وبعضهم قرأ في الآية : « قواماً للناس »[6] .

هـ) وإذا وسعنا الدائرة قليلا وخرجنا من حقل المعاقبة الى حقل آخر وجدت أن هذا النظام الذي رجحته وقد التزم في عدة ملامح من ظواهر العربية فالفعل الثلاثي الذي انقلب عين فعله ألفاً في الماضي – إذا بني للمفعول – نراه يختلف في صيغته عنـــد القبائل العربية ، فقريش ومن جاورها من بني كنانة[7] آثرت الياء في عينه كقولهم : قيـــل : بينما قبائل قيس ، وعقيل ومن جاورهم ، وعامة أسد[8] يقولون فيها : « قول » ، بالواو ، كما عزيت

---

(١) تفسير الطبري : ١٥٥/٦ ط دار المعارف ، المحتسب لابن جني : ١٧٥/١ خط بالتيمور ، مختصر شواذ القرآن : ١٩ ، معاني القرآن للفراء : ١٩٠/١ دار الكتب ، ديوان الأدب للفارابي : ورقة ٣٣٠ خـــط بدار الكتب : رقم ٣٨٣ لغة تيمور .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٥٥ .

(٣) سورة نوح : آية ٢٦ .

(٤) تفسير الطبري : ١٦٠/٦ .

(٥) سورة المائدة : آية ٩٧ .

(٦) تفسير الطبري : ٩١/١١ دار المعارف .

(٧) البحر : ٦١/١ .

(٨) المرجع السابق .

الصيغة الواوية أيضاً الى بني دبير وفقعس[1] ، وقد قرأ بها نافع وابن عامر[2] والكسائي . كما جاء في البحر أن الكسائي وهشاماً قرءا في قيل وغيض وحيل وجيء وسيق - بالواو[3] فنجد أن قريشاً وكنانة وهما من قبائل الحضر قد آثرتا الياء في مثـــل هذه الصيغ ، بينما آثرت أسد ، وقيس ، وعقيل ومن جاورهم وعامة أسد ، وكذلك قبائل دبير ، وفقعس الصيغة الواوية وجميعها يغلب عليهـــا البداوة ، إذ فقعس ودبير بطنان من أسد ، وأسد بدوية أو يغلب عليها البداوة ، ومن المفيد أن أشير الى أن هذه القبائل التي آثرت الواو في هذه الصيغة كانت جميعها تسكن مناطق بدوية في نجد .

ثانياً : لهجات منسوبة غير ملقبة :

وهي لهجات لم يخلع عليها الرواة لقباً ، ولكنهم يشيرون إليها مجردة عن التسمية ، ويمكن أن أدرس هذا القسم بالنظر الى العلاقات التي تكون بين الأصوات وهي اما أن تكون علاقة تقارب أو تجانس ، أو تباعد ، فعلاقة التباعد في المخرج أو الصفة لا تبيح الإبدال ، أما علاقة التقارب أو التجانس فكل منها تبيحه .

والمتقاربان : هما الحرفان اللذان تقاربا مخرجاً وصفة ، كاللام والراء ، أو مخرجاً لا صفة : كالدال والسين . أو صفة لا مخرجاً : كالشين والسين .

والمتجانسان : هما الحرفان اللذان اتحدا مخرجاً واختلفا صفة - كالدال والتـــاء أو الذال والظاء ، أو الثاء والذال ، أو الباء والميم[4] . وإنما أقمنا هذه الدراسة على هذا المنهج ، لأن « معرفة المخرج بمنزلة الوزن والمقدار ، ومعرفة الصفة بمنزلة المحك والمعيار »[5] .

---

(١) ابن عقيل : ٤٢٦/١ - ٤٢٧ ، البحر : ٦١/١ .

(٢) البحر : ١٥١/٧ .

(٣) البحر : ٦١/١ .

(٤) العقد الفريد في فن التجويد : ١١ - ١٢ .

(٥) نهاية القول المفيد في علم التجويد : ٣٢ .

أولاً : بين الأصوات الشفوية ، والشفوية الأسنانية

(م – ب – ف)

وقد وقع التبادل بين تلك المجموعة كثيراً ، لتميزها عن غيرها ، فمنطقتها خارج الفم ، إذ تشمل الشفتين ، ويطلق عليها ابن جني « حروف الذلاقة »[1] وربما سميت كذلك لأنها تخرج من ذلق الشفة . ونعرض الآن للروايات التي وردت في كتب العربية متناولة فيها هذا التعاقب :

أولاً : ذكر الحريري في الدرة أن بعض أهل الذمة قصد أبا عثمان المازني ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، وبذل له مائة دينار ، فامتنع أبو عثمان ، فقيل له : أترد هذه النفقة مع فاقتك فقال : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا آية من كتاب الله ولست أرى أن أمكن منها ذمياً غيرة على كتاب الله ، قال : فاتفق أن غنت جارية بحضرة الواثق بقول العرجى :

أظلوم إن مصابكم رجلاً   أهدى السّلام تحية ظلم[*]

فاختلف من بالحضرة في إعراب « رجل » فمنهم من نصبه وجعله اسم (إن) ، ومنهم من رفعه على أنه خبرها – والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازني لقنها إياه بالنصب ، فأمر الواثق بإشخاصه – قال أبو عثمان : فلما مثلت بين يديه قال : ممن الرجل ؟ قلت : من بني مازن ، قال : أي الموازن ؟ مازن تميم أم قيس ، أم مازن ربيعة ؟ قلت : من مازن ربيعة ، فكلمني بكلام قومي ، قال لي : باسمك ؟ لأنهم يقلبون الميم باء ، والباء ميماً – إذا كانت في أول الأسماء . قال : فكرهت أن أجيبه على لغة قومي ، لئلا أواجهه بالمكر ، فقلت : بكر ، ففطن لما قصدته وأعجب به ...[2] ، وفي طبقات اللغويين للزبيدي أنه قال له « اجلس واطمئن »[3] ، وفي شرح التصريف « اجلس فاطبئن »[4] .

---

(١) سر الصناعة : ٧٤/١ .

(*) وفي رواية الأغاني ترجمة العرجي [أظَلَيْمُ] اسم امرأة .

(٢) درة الغواص : ٤٣ - ٤٤ .

(٣) ٩٨ .

(٤) المنصف : ٣٢٨/٣ لابن جنى .

والذي يظهر أن الرواية السابقة جاءت مختلفة في كتب العربية ، ففي رواية الدرة[1] قال المازني : بكر – بالباء يشير الى اسمه ، وفي رواية عن اليزيدي : قـــال المازني : مكر – بالميم يشير الى اسمه[2] . وفي كتب الطبقات أن المازني هذا هو « أبو عثمان بكر بن محمد بن عثمان المازني »[3] ، كما أن الرواية التي هنا تشير الى أنه من مازن ربيعة ، وفي الزبيدي « أنه من مازن ابن شيبان بن ذهـــل »[4] فهو متصل النسب إذاً ببكر بن وائل التي يؤول نسبها الى ربيعة ، والعجيب أن رواية الدرة السابقة هي التي قيدت قلب الميم باء إذا كانت في أول الأسماء – بينما لم أجد هذا الشرط في الروايات الأخرى[5] .

وأيضاً لا أفهم لهذا القيد من سر في هذا الإبدال ، بل الذي أفهمه ، والذي يسوغ مثل هذا الإبدال بين الباء والميم أن تتجاور الميم – وهي التي يسير الهواء للنطق بهـــا متخذاً مجراه من الأنف – مع حرف كالنون – وهي مثل الميم في أن مجراها الأنف – فيحاول الانسان أن يخالف بين اتجاه هذين الحرفين فيبدل الميم الى البـــاء ، ولا فرق بينهما إلا في تغير مخرج الهواء ، فالميم من الأنف ، والباء من الفم ولا شك أن المخالفة بين الصوتين المتماثلين – فيها تيسير للمجهود العضلي في النطق ، فكلمة « صنم » ينطق بهـــا « صنب » ، فتحويل الميم الى الباء أو العكس لا يكون إلا تحت ظروف لغوية خاصة كما تقدم ، وليست المسألة مباحة ، فتقلب الميم الى الباء ، أو الباء الى الميم في لهجة واحدة ، ولهذا أرى أن الحريري أخطأ في تعليله لقول الواثق للمازني « باسمك » ؟ حيث يقول « لأنهم يقلبون الميم باء ، والباء ميماً » .

وناحية أخرى وهي أن هذه الظاهرة ، لم تقتصر على مازن من ربيعة ، بل تردد صداها في مناطق متفرقة من الجزيرة العربية منها :

١ – أنها وجدت في مزينة وساق لها المبرد في كتابه قول الشاعر :

خليليّ بالبوباة عُوجا فلا أرى ... بها منزلاً إلا جديب المقيّد[6]

---

(١) درة الغواص : ٤٣ – ٤٤ .

(٢) طبقات اللغويين : ٩٨ للزبيدي .

(٣) طبقات الزبيدي : ٩٢ .

(٤) طبقات الزبيدي : ٩٢ .

(٥) انظر : حفني ناصف في مميزات لغة العرب : ١٤ ط ٢ ، طبقات الزبيدي : ٩٨ .

(٦) الكامل : ١١٧/١ .

٢ ـ ما جاء عن أبي علي قال : وكان أبو سَرّار الغنوي يقول « با اسمك » يريد : ما اسمك[١] .

٣ ـ ما جاء عن أبي الطيب من قول الشاعر :

وأسمر خطيًّا كأن كعوبه نوى القَسْب قد أرمى ذراعاً على عشر[٢]

أي أربى بالباء ـ وقائله : حاتم الطائي ، كما أثر عنهم أنهم كانوا يعاقبون بين الميم والباء فيقولون « حبلت بدل حملت »[٣] .

٤ ـ وعزى لعمرو بن شأس قوله :

(وقوم عليهم عِقْبة السّرور مقتفى)[٤] في عقمة .

٥ ـ كما عزا الفراء : اطبأننت في اطمأننت ـ الى بني أسد ، واستشهد لها بقول الشاعر :

وبشّرني جبينُكَ من بعيدٍ بخير فاطبأنّ له جنابي[٥]

٦ ـ كما وردت عدة روايات مختلفة منها ما جاء عن ابن دريد من أنه سمع عامرياً يقول : نقول . إذا قيل لنا أبقي عندكم شيء ـ حمحام ومحمام وبحباح ـ أي لم يبق شيء[٦] ، وجاءت روايات أخرى في المزهر[٧] ، وإبدال أبي الطيب[٨] ، واللسان[٩] .

٧ ـ ما جاء من قولهم « صرب الزرع » أي صرمه بلغة بعض أهل اليمن ، ويسمون : الصرام : الصراب ، وحمير تسمى أيلول : ذا الصراب ـ لأن فيه صرام الزرع »[١٠] كما جاء في اللسان

---

(١) أمالي القالي : ٢/٥٢ .

(٢) إبدال أبي الطيب : ١/٣٨ .

(٣) Rabin, P. 201 .

(٤) إبدال السكيت : ١٤ .

(٥) إبدال السكيت : ١٣ .

(٦) المخصص : ١٣/٢٠٥ .

(٧) ٢/١٣٣ .

(٨) ١/٣٢٥ .

(٩) ١٥/٥٠ ، ١٦/١٠٧ ، ٣/٢٣٠ ، ٤٢٦ .

(١٠) شمس العلوم : ٦٠ للحميري .

والجمهرة أن « الكحم – لغة في الكحب – وهو الحص – واحدته كحمة – يمانية »[1] .

ومن هذه النصوص التي اختصرت أكثرها يستنتج أن هذه الظاهرة لم تكن في مازن ربيعة فقط – بل شملت بقاعاً كثيرة من الجزيرة العربية فهي في مزينة كما في الشاهد الأول ، ومزينة من قضاعة[2] . كما أن أبا سرّار الغنوي يؤول نسبه الى غني بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان كما في الشاهد الثاني ، كما أنها عزيت لطيء في الشاهد الثالث ، ومما يحسن ذكره أن مزينة كانت تجاور طيئاً ، وإن كانت تعد من قضاعة ، والشاهد الرابع لعمرو بن شأس ، وهو من بني أسد ، كما أنها عزيت في الشاهد الخامس لبني أسد أيضاً ، كما أنها انتشرت كذلك في اليمن – بل مما يؤكد أن انتشارها في اليمن كان واسعاً رواية أبي علي القاسم : قال العباس المبرد : قال المازني : « فلما دخلت على الواثق سأل فقال : باسمك ؟ وهي لغة بلحارث بن كعب – فقلت : بكر يا أمير المؤمنين »[3] – فكأن هذا التعاقب في بلحارث أيضاً – وهي قبيلة يمنية . بل إن هذه الرواية تخالف رواية الدرة ، لأنها تعزو هذه الظاهرة الى لغة أبي عثمان المازني ، في حين رواية أبي علي القاسم تعزوها الى بلحرث ، وكثيراً ما نجد هذا التعاقب في العربية الجنوبية – فحرف الجر « من » يقابله في العربية الجنوبية « بن »[4] ، ولعل سبب الإبدال هنا المخالفة .

ولعموم هذه الظاهرة في الجزيرة رأى الدكتور إبراهيم أنيس أنها يمكن أن تعزى الى أية لهجة من اللهجات المنعزلة حيث لا يجد الطفل وقتاً كافياً لإصلاح أخطائه – لانشغال أبيه وأمه بكسب العيش ، فتشب هذه الأخطاء معه ، حتى تصبح ظاهرة معترفاً بها من ظواهر اللغة[5] . وأرى أن ظواهر كثيرة من ظواهر الإبدال تحمل على هذا ، فمنه ما جاء عن بني عامر من قولهم: بحباح ، ومحماح – أي لم يبق شيء – وهذا التبادل نفسه ينطق به أطفالنا حتى اليوم فيقولون : بح بح ، مح مح[6] – بمعنى لم يبق شيء – كما يمكن أن يكون مثل هذا التعاقب إذا لم نجد له سبباً لتفسيره كالمماثلة والمخالفة – سببه بعض أمراض الكلام – ولهذا إذا سمعنا كلمة من إنسان مريض بالجيوب الأنفية أو الزكام – مثل كلمة « حملت » بالميم نحسبها « حبلت » بالباء ، ولا

(١) اللسان : ٤١٢/٥ ، الجمهرة : ١٨٦/٢ .
(٢) معجم كحالة : ١٠٨٣/٣ .
(٣) طبقات الزبيدي : ٩٣ .
(٤) تاريخ العرب : ١٣٠/٧ جواد علي .
(٥) في اللهجات العربية : ١٠٧ ط .
(٦) انظر : إبدال أبي الطيب : ٧٦/١ محقق .

شك أن كثيراً من أمراض الكلام كاللكنة ، والرتة ، والخنـــة – مسئولة في كثير من مظاهر التغيرات اللغوية ، وربما أن جامعي اللغة « لمـــا سمعوا قبيلة تنطق « بالميم » في بعض الكلمات حيث ينطق غيرها بها « باء » ظنوا أن تلك القبيلة تلتزم هذه الصيغة في كل الكلمات ، وكذلك العكس »[1] ، ولكن الحق أن الراوي اللغوي كان يغيب عنه كثير من الظروف اللغوية ، وكثير من علل الكلام وأمراضه – مما يجعل الباحث الحديث يتردد في أخذ هذه الروايات كتلة واحدة بدون بحثها وفحصها .

ثانياً : كذلك حدث تعاقب بين الباء والفاء ، وبينهما علاقة تبيح ذلك ، فالباء والفـــاء حرفان شفويان من مخرج واحد ، فالتبادل يكثر بينهما ، ونشير الآن الى بعض الظواهر اللهجية التي حدث فيها ذلك :

١ – جاء في كتاب الخليل : عكبت حولهم الطير : عكفت فهي طير عكوب – أي عكوف وعزا الخليل الصيغة الأولى البائية الى الخفاجيين من بني عقيل[2] . وفي اللسان : وعكفت الخيل عكوفاً ، وعكبت عكوباً بمعنى واحد[3] ، وعزاها كما جاء في كتاب العين ، ويمكن أن نلتمس من شعرهم ما يؤيد تلك الظاهرة ، فقد جاء عن الخليل :

تَظَلّ نسور من شمـــامٍ عليهم عكوباً مع العقْبان عقبان يذْبل[4]

وهذا الشعر منسوب الى مزاحم العقيلي ، فكأن الباء في (عكوباً) لغته ولغة قومه .

٢ – وذكر ابن دريد أن « الخزف – ما عمل بالطين وشوي بالنار فصار فخاراً واحدته خزفة – والخزب – لغة في الخزف : يمانية[5] .

٣ – وروى الأزهري : أنه سمع أعرابياً من بني حنظلة يسمى « المصطبة – المصطفة بالفاء[6] . وفي رواية أخرى عن الأزهري : أنه سمع أعرابياً من بني فزارة يقول لخـــادم له : ألا

---

(١) في اللهجات العربية : ١٠٨ .
(٢) العين للخليل : ١١٦ ط بغداد .
(٣) اللسان : ١١٧/٢ .
(٤) العين : ١١٦ ط بغداد .
(٥) المخصص : ١٢٥/٥ .
(٦) اللسان : ٩٥/١١ .

وارفع لي عن صعيد الأرض مصطبة أبيت عليها بالليل فرفع له من السهلة شبه دكان مربع قدر ذراع من الأرض يتقي بها من الهوام بالليل . ثم عقب الأزهري نفسه على ذلك بقوله « وسمعت آخر من بني حنظلة سماها « المصطفة » بالفاء[1] ».

وبالنظر في هذه الروايات جميعاً يتبين أن عقيلاً آثرت الباء ـ على الفاء ولا فرق بين الباء والفاء ـ إلا أن الفاء صوت رخو مهموس نظيره الشديد هو الباء ، ويرى الدكتور ابراهيم أنيس معللاً لصوت الباء في لغة عقيل ، أن تلك القبيلة بدوية ، والبدويون يميلون الى الأصوات الشديدة ، بينما يميل أهل الحضر الى الأصوات الرخوة ، ولكن يقف في سبيل هذا من أن حنظلة قد آثرت الصوت المهموس الرخو وهو الفاء على الشديد وهو الباء ـ مع أن حنظلة هذه ينتهي نسبها الى تميم البدوية ، ومساكنها ضاربة في البادية ، فمالها خالفت هذا القانون ؟ والذي أجنح إليه للخروج من هذا الإشكال : أحد أمرين : الأول : أن اللغة إحدى الظواهر الاجتماعية التي تخضع لظروف عديدة ، وليس من شأن القوانين اللغوية الصرامة ، وعلى هذا فلا ضير أن نلمح في اللهجات نتوءاً وشذوذاً تتخالف مع ما عرف من هذه القوانين . والثاني : أن هذه الفاء التي جاءت في لهجة حنظلة ـ ليست فاء مهموسة كالتي نعرفها في عربيتنا ، وإنما هي مجهورة تشبه الحرف (V) في اللغات الأوروبية ومما يؤيدني في هذا الظن نص اللسان المعزو الى الأزهري من أنه سمع حنظلياً ينطق بها « المصطفة » بتشديد الفاء[2] ، وعلى هذا فتكون « حنظلة » البدوية قد نطقت بصوت مجهور ، ليست بينه وبين الباء إلا أن ينحبس الهواء قليلاً فيصبح انفجارياً كالباء ـ ولا شك أن غالبية لهجات البدو مالت الى المجهورات ، ثم ان الكتابة العربية ـ لم تكن تعكس اللهجات العربية كما هي ، وإنما ـ نظراً لقصورها الشديد ـ قد ضيعت ، بل طمست جانباً لهجياً هاماً .

كما يلاحظ على نص ابن دريد أنه نسب « الخزب » بالباء لليمن ، وهي في فصحانا بالفاء ـ ولكن مما يقع فيه القدماء دائماً العزو لمنطقة شاسعة كاليمن ـ واليمن تختلف فيها البيئات اختلافاً متبايناً فهو عزو مشاع ، يعارض ما يهدف إليه الباحثون المحدثون من التحديد والدقة ، ولكنني مع هذا أرجح أن « الخزب » ، بالباء لبيئة بدوية يمنية ـ لأن الباء شديدة تناسب البدو ـ ويمكن أن تكون الصيغة البائية (الخزب) كانت تطلق ـ على نوع من الخزف غليظ ، وكأن الباء الشديدة تتلاءم والطين الغليظ المتماسك الذي يصنع منه الخزف .

---

(١) اللسان : ١١/٢ .

(٢) المرجع السابق .

ومما يرجح ما أقول قول ابن دريد عن « الحزب » : (وأحسبهم يخصون به مـــا غلظ منه)[1] ، ولا شك أن العربية يمكن أن يلتمس فيها أمثلة لهذا فمنه : قوله تعالى : إنـّا أرسلنا الشّياطين على الـكافرين تـَؤُزُّهم أزاً) أي تزعجهم وتقلقهم ، فهـــذا في معنى (تهزهم هزاً) والهمزة أخت الهاء ، فكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة ، لأنها أقوى من الهاء ، كما أن المعنى نفسه أعظم في النفوس من الهز ، لأنك قد تهز ما لا حراك له ، كالجذع مثـــلا ، فيبقى الهز المقرون بالإزعاج خاصًّا بذي الحياة، لأنه متعلق بالشعور، وذلك ما أفادته الهمزة وحدها[2] .
فالعرب تقارب حروف الألفاظ متى تقاربت معانيها ، وكثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث ، فمن ذلـــك قولهم : خضم وقضم ، فالخضم لأكل الرطب ... والقضم للصلب اليابس ، وفي الخبر « قـــد يدرك الخضم بالقضم » ، وعليه قول أبي الدرداء « يخضمون ونقضم والموعد الله »[3] . وكأنهم اختاروا الخاء من أجل رخاوتها للرطب ، والقاف من أجل صلابتها لليابس وهم ـ كما يقول ابن جنى ـ يعملون ذلـــك ، حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث[4] ، والحق أن هذا النظام الذي يتمثل في مساوقة الصيـغ اللفظية لمعانيها ـ يعد نمطاً لسياسة الحروف في العربية ، ويشير الى تمدن العرب في لغتهم .

---

(١) المخصص : ١٢٥/٥ .
(٢) الخصائص : ٥٣٨/١ ط دار الهلال ، تاريخ آداب العرب : ٢٢٧/١ للرافعي .
(٣) الخصائص : ٥٥٠/١ ط الهلال .
(٤) الخصائص : ٥٥٠/١ ط الهلال ، تاريخ آداب العرب : ٢٢٩/١ للرافعي .

عـــدد النـــاشـر : 83 - "47 - 400

HERITAGE OF ARABIC DIALECTS

DR. AHMAD ALAM-EL-DEEN EL-GINDI

الدار العربية للكتاب

[illegible]

[illegible]